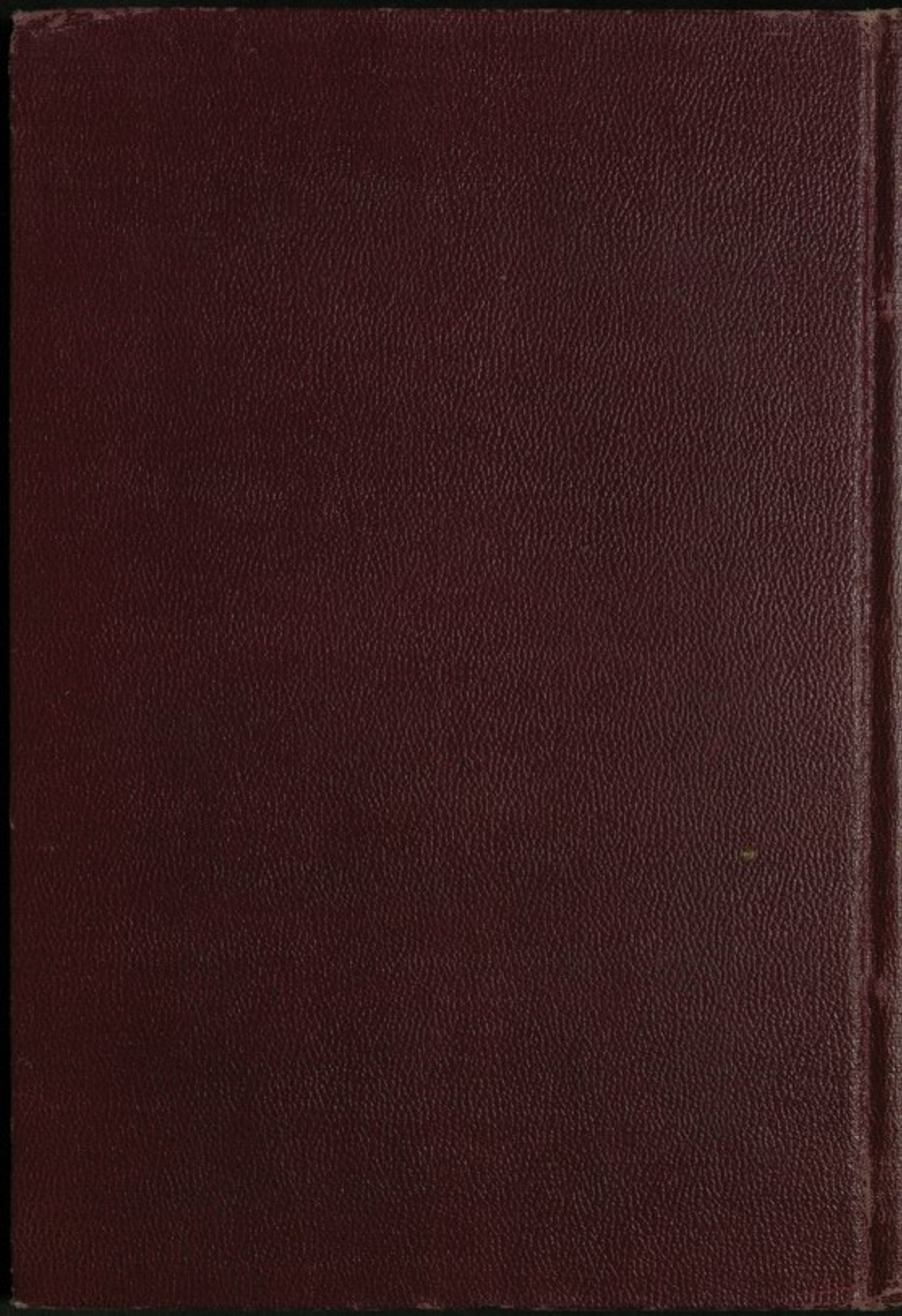




DATE DUE

~~J. L.~~
23 AUG 1986



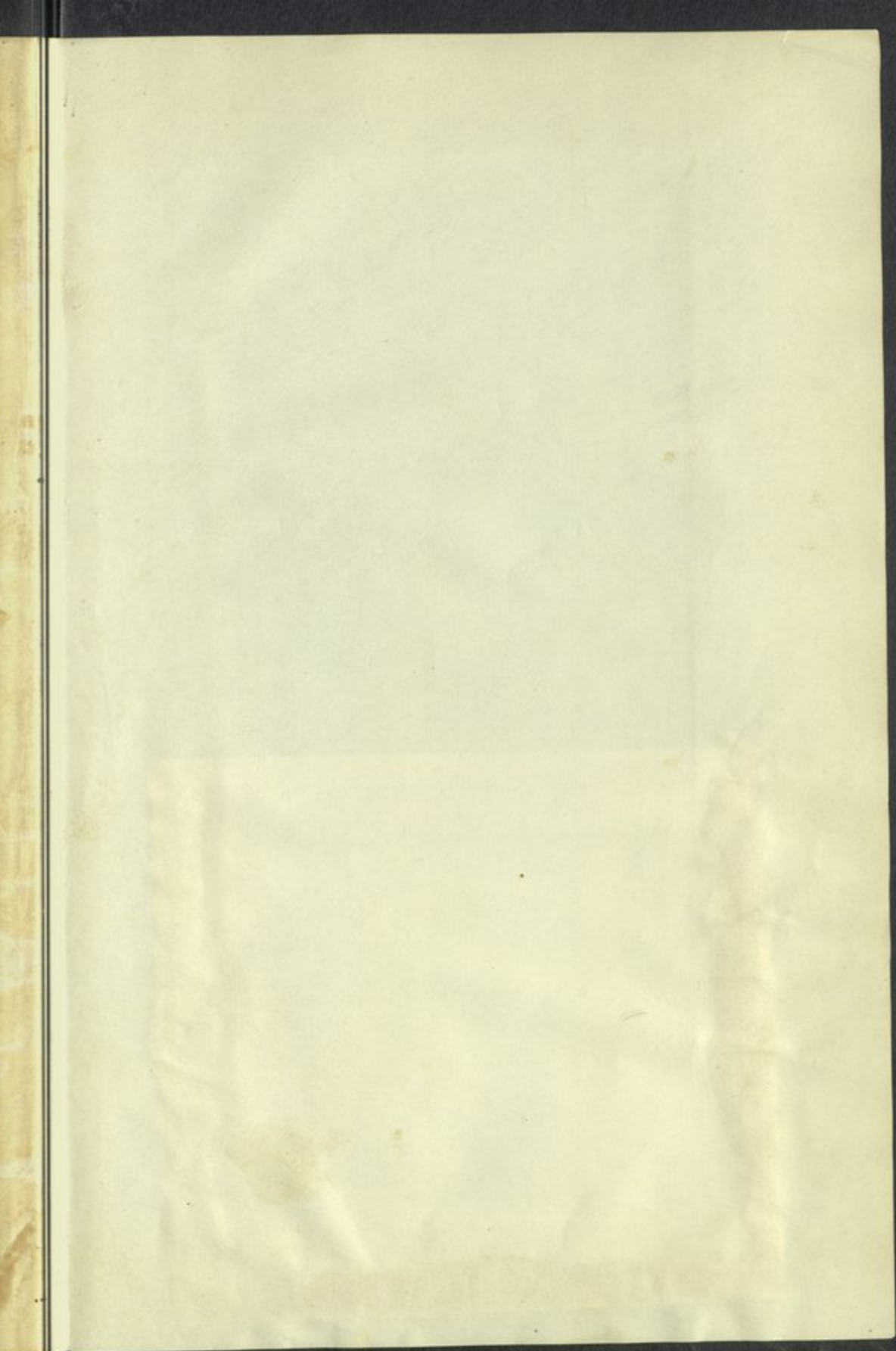
تجدد
صالح القفر
بيروت - المزرعة

301
C48A

J. Lib.

26 MAR 1984

JAFET LIB



مكتبة الجامعة الأمريكية

301
C48pA

الأداة الثقافية

جامعة الدول العربية

مع مجلات الأداة الثقافية

جامعة الدول العربية



الدَّاءُ سِتُّ الْمِثْلِي

لِنَوْعِ الْإِنْسَانِ

بقلم

ستوارت تشيز

Stuart Chase

ترجمة

محمد إبراهيم الدسوقي

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٥٣

مكتبة
مجمع

مكتبة
مجمع

مكتبة
مجمع

مكتبة
مجمع

مكتبة
مجمع

مكتبة
مجمع

فهرس

صفحة

المقدمة ٢

الجزء الأول - ارتياد ميدان العلاقات البشرية

١ - هل الإنسان جزء من الطبيعة ؟

أيمكن تطبيق العلم على العلاقات البشرية ؟ هكذا فكرت الجمعية المسكية من ثلاثمائة سنة مضت ؟ أزمت اليوم تدفع العلماء الاجتماعيين إلى المحاولة
ومع ذلك يبدو مجلس شيوخ الولايات المتحدة غير مقتنع
ست طرق لحل الشاكل
الطريقة العامة ؟ الرجل حامل السكراسة وعغن المعرفة المختبرة بوصف كلاهما
الاطرادات في الطبيعة البشرية ، تلك الامارات الإحصائية للدكتور اوبنهايمر

٢ - الطريقة العامة تعمل

العلم وذوو الشعور الطويلة
سلم ذرى
سلم جاذبيه
سلم سكان في العلم الاجتماعي
عشر خصائص للطريقة العلمية
تعريف العملية
كيف يهاجم عالم مسألة

٣ - كيف تدبر قائد طائرة

هل الشجاعة مك كاف لطيار صالح ؟ كان لابد من إيجاد طرق جديدة للكشف عن
مئات الألوف من القتيلان الثاقين إلى الانضمام إلى السلاح الجوي في الحرب العالمية الثانية
كيف فعلت هذا فرقة من رجال العلم بالطاريات والعدد والإحصاءات
كم تقا أقذت ؟ القابلة بمشروع مناهن بوصفه تطبيقا للطريقة العلمية ؛ ثلاثة فروق كبرى
مطلوب : نيوتن في العلم الاجتماعي

صفحة

٤٧

٤ - متنوعات العلم الاجتماعى

أسماء عظيمة فى تاريخ العلم الاجتماعى ، لكن أكان أصحابها من العلماء ؟ ...
حالة كارل ماركس ...
الفرق بين العلم الاجتماعى رقم ١ وقد أثبتته التجربة ، والعلم الاجتماعى رقم ٢ كنظرية
لم تحقق ...
النظم الفكرية المغلفة ، وخطرها ...
مساقط أخرى فى العلوم الاجتماعية ...
أقاص ، أحاج ، تحريم ...

٦٣

٥ - المعرفة فى المخزن

الأقسام الخمسة الكبرى فى العلم الاجتماعى : علم النفس الاجتماعى ، علم الإنسان ، علم
الاجتماع ، علم الاقتصاد ، علم السياسة ...
معارف أخرى حليقة ...
الرياضة والمنطق وأدوات أخرى ...
الطب الروحاني كعلم على الحدود ...
أعمال بارزة وصور مرتبة ...
أمثلة مؤسفة لمعرفة ميسورة لم تستعمل ...
مسائل النوع الإنسانى العظيمة التى لم تظفر بجواب ...

الجزء الثانى - شواخص وأفعال

٧٧

٦ - الفكرة الحضارية

هذه الفكرة العريضة ، وتؤديها مكتشفات علم الإنسان الاجتماعى ، تيسر اطلاعا واسعا
على المجتمعات البشرية والاختلافات والنظائر البشرية ...
« كمسكة العادة » لغايتها يبدجهوت ...
أساليب سمنر الشعبية ...
« دراسة الإنسان » لنتون ...
« الجماعات والعصب والمجتمعات والحضارة : كيف تصوغ هذه فردا ...
« تأثير تغيير المرء لحضارته : جيمى وفوجيا على ظهر البيجل ...
منظورات جديدة فى التاريخ ؛ وفى حركات الإصلاح ...

صفحة

الأهمية البالغة لشيء التكوين — حيث يتلاقى علماء الإنسان والاجتماع والنفس والأطباء
الروحانيون

٩١

٧ - عالم جورج رذرفورد آدمز

أية حلقات حضارية مكررة كونت جورج آدمز صاحب جراج بميدلبرج من أعمال
كونيكتيكت ؟ إذا قورن بمجده الأكبر أوباديا الهرم فأساسه أعرض وأكثر تركبا
تتضمن الحلقات المدنية عامة والمدنية الغربية والأنجلوسكسونية وأمريكا الشمالية ،
وأخيراً إنجلترا الجديدة
كل من هذه قد ساهمت بمبادئها وأذواقها ومنتجاتها ومعاييرها
التيabin مع الفلام الضاحك شاهو
هل يعقد عصر الآلة الأشياء لجورج أكثر مما ينبغي ؟

٩٩

٨ - نماذج مشتركة لنوع الإنسان

ما يشترك فيه إنسان الكونغو والإنسان في موسكو وبورنوي وإنسان من ديوتويت
النظائر البشرية أو « العموم » ، وصلنا إليها بمقابلة الكثير من الحضارات المختلفة
بعضها بعض
عمل مورجان مع هنود سينيكابداية
كشاف الحضارات المتعارضة في بيل
الوظائف والاحتياجات العامة الموجودة في كافة الجماعات البشرية
خمس عشر « عامساً » ، تتعلق بالأسر والزواج ؛ اثنان بتناول الجريمة والعقاب وخمس
تتناول الملكية وسبعة تتناول عضوية الجماعات ، واثنان الحكومة واثنان المركز
تأخر الجماعة التي تواجه بعضها بعضا والمشاكل الناشئة

١١٦

٩ - تمرد في الصحراء

كيف درست فرقة من المشتغلين بالعلم الاجتماعي برأسها ألكسندر ليتون جماعة يابانية
أمريكية في حالة تور في معسكر ترحيل نقلوا إليه أثناء الحرب في أريزونا
سنة ١٩٤٢
إيساي ونيساي وكيباي مع جماعات وأسرى متفرعة منها
مديرو معسكرات ذوو تفكير جامد ، وآخرون يجعلون الناس في حسابهم
مصاعب أول صيف يقضى في الصحراء ؛ تور ، شائعات ، تفاقم إلى القذوة في الحريف
هجوم ، قبض ، اعتصاب

صفحة

انقسام في الإدارة ...
استنتاجات ليتون ...
إظهار ما يمكن للمستغلين بالعلم الاجتماعي أن يؤديه إذا أتيت لهم فرصة حقيقية ...

١٣٣

١٠ - العلماء ينظرون إلى الجنس

التعامل الجنسي كظاهرة حضارية يجب الإلمام بها ...
علم أحياء الجنس : بضعة فوارق ظاهرة وتلك التي في خصائص غير جوهرية ...
لا شيء منها في الفأمة أو حجم المخ أو كيمياء الدم أو الذكاء ...
التعامل متيناً مع التمييز ...
الهندسة الاجتماعية لتحسين علاقات الأجناس ...
كم مصلحاً من المصلحين المشتغلين بالأجناس يعملون معصوي الأعين فيجعلون الأمور أسوء مما كانت ...

١٤٨

١١ - بعض قوانين التغيير الاجتماعي

ما أدامه أوجبرن وبوس وو ١٠. توماس في تعديل فكرة التقدم البشري ...
كيف يمكننا تفسير التطور من سفينة بدائية إلى الباخرة كوين ماري ...
ليس النمو العشوائي الارتقائي لأدمغة المصممين بل التغيير الحضاري ...
مع إنسان كرومانيون كأغناخنا في الراجع ...
النمو الحسبي للمخترعات يجرى على قاعدة التضاعف مثل الربيع المركب ...
لفز مسامير الحداد ...
التسكؤ الحضاري وأهميته الواسعة ...
التغيرات الاجتماعية التي أحدثها الراديو وأحدثتها الطائرة ...

١٦١

١٢ - في أظلم ميدلتون

تقارير في علم الإنسان عن الحضارة الأمريكية ...
رف المؤلف المخصص لميدلتون ...
دراسة تاريخية لآل ليند لمنسى بإنديانا : تلكؤاتها الحضارية ومنقذاتها ...
دراسات أخرى : بليشيل وديب سوث مع تحليل للطائفة مقابل الطبقة ...
يانسكي سفي بطيقاتها الاجتماعية الست ...
أول معونة تسدي إلى مديري المدينة ...

صفحة

١٧٩

١٣ - ضوء جديد على إدارة العمل

نظام المصنع ، وخاصة إنتاج الجملة ، تطور راديكالي جديد في الحضارة البشرية ...
 قرن حافل بإساءة الوضع وإساءة الفهم والكفاح واليقين ...
 تجارب هورن التاريخية تسجل طريقة علمية جديدة ...
 المركز كباعث مرشد إلى مجهود العامل ...
 وصف دراسات زمن الحرب ...
 عمل الفرق في مصانع الطائرات ...
 مليون من الأوسطوات يعلمون طرقاً جديدة ...

١٩١

١٤ - لماذا يضرب العمال

ثورة عمال الأحذية في يانكي ستي في قرار الأزمة مناقضة لكل تنبؤ ...
 تحرى الأسباب ؛ الرجوع ٣٠٠ سنة إلى الوراء إلى بدء صناعة الأحذية ...
 التطور مسجل من يوم أن كانت صناعة يدوية في الأسرة إلى إنتاج الجملة ...
 الاستنتاجات المهمة المتعددة ...
 رسم مهمة الإدارة ...

٢٠٦

١٥ - قياس الرأي العام

تحرى الرأي العام كعمل بارز ...
 فشل « ليررى ديجست » العظيم وبداية الطريقة العلمية ...
 متى تمثل « العينة » و « الكافة » ؟ غص عملية استفتاء حديث ، تحليل خطواتها ...
 الثماني ...

٢٢٢

١٦ - مستقبل الاستفتاءات

محاولة حديثة ...
 نظرية العينة ...
 مصادر علمية أخرى للقوة في الاستفتاءات ...
 بضع ضمانات تشتمل على اختيار السؤال وصوغه ؛ إجراء الحديث ؛ النتائج المفسرة ...
 الأدعياء والدجالون ...
 مراقبة الخطباء الشعبين ...
 الاستفتاءات تنصف الديمقراطية السياسية ؛ « الناس ، أجل ! » ...
 إمكانيات مثيرة عن المستقبل ...

١٧ - هل الإقتصاد علم ؟

خسة عشر تنبؤا في السنوات الأخيرة ...
فروق مزعومة ...
حرية العمل والماركسية كلتاها قائمة على آراء نفسية لم يحم عليها دليل ، تناقض الفكرة
الحضارية تماما ...
انتقادات من ويزلي مانشل ولاتون مايو وادوارد ه . تشمبرلين وغيرهم ...

١٨ - متعبة النظرية

انتقادات أخرى للنظرية الاقتصادية من كولين كلارك اللندني و ج . م كلارك الكولومبي
رياضيات ذات قوة عالية تجمع ...
النظريات الثلاث الكبرى ...
كينز كخالق لنظرية جديدة أقل منه كمعظم لنماذج سارمة وبان لجسر بين النظرية والواقع
أربع اختبارات آتية : « الشيوعية » و « الاشتراكية الديمقراطية » و « المؤسسة
الحرة » و « السوق العالمية » ...
يستنتج المؤلف أسفا أن الإقتصاد ليس علما أو على الأقل لم يصبح علما بعد ...

١٩ - بعض أدوات اقتصادية جديدة

مسائل عملية يحلها الاقتصاديون في الكساد والحرب ...
طرق جديدة وسنن جديدة ...
عمل الفرق يقوم به محامون ومهندسون وإخصائيو اجتماعيون ...
شروط كولين كلارك للتقدم الإقتصادي ...
تصادم كتاب بيرل ومين القوى مع نظرية المؤسسة النفاية الحديثة ...
حالة اختلال التوازن في اقتصاديات الحرب ...
سبعة مشاريع كبرى للأبحاث يقترحها المؤلف ليكمل معرفتنا الاقتصادية ...

٢٠ - دروس في السلم والحرب

عند ما فشل قانون المتوسطات على جسر تريبورو ...
المجتمع العظيم ؛ نمو سريع في وظائف الحكومة على أثر توقف المجتمع بمضه على بعض في ظل

صفحة

الإنتاج بالجملة	...
الحاجة إلى إصلاح الأداة الحكومية	...
دراسات في خلال الحرب ، وكيف يمكن أن تتناول السلم	...
استطلاعات لما أحدثته الفتنسيلة في المواقع الاستراتيجية وضوء جديد على السلوك القوي	...
في الشدة	...

٢٩٣

٢١ تعلم أشياء

نظرية التعلم كما صورها الجرذان والفروفي بيل	...
الدافع والإشارة والتجاوب والجزاء	...
تطبيقات أوسع	...
رأسه الأطفال في بيل	...
الوراثة والبيئة في نظرية التطور الاجتماعي الأحيائي	...
ضوء جديد على الجريمة والعقاب	...
الدكتور كينزي يكتب عن الأمريكيين	...

الجزء الثالث — دلالات واستنتاجات

٣٠٩

٢٢ — إصلاح خطوط الاتصال

فشل الاتصال تصوره العلاقات الروسية الأمريكية في سنة ١٩٤٨	...
الاتصال يحبط عند ما نشرته المساعدات الآلية سوء الفهم جملة	...
اقترح لدراسة تعاونية هائلة للاتصال	...
عالم بالإنسان يعرف المجتمع بعبارة الاتصال	...
تسع طرق لتناول الموضوع الموصوف بالاتصال	...
الحاجة إلى التكميل	...
الحاجة إلى اتصال أحسن في العلوم الاجتماعية	...

٣٢١

٢٣ — علم المعاني كأداة

تحسن الاتصال كغرض رئيسي لعلم المعاني	...
أغراض أخرى	...
سلم في المعاني	...
علم عام للمعاني	...

صفحة

محاضرات ليلينثال كحالة قديمة من حالات تحقيق الشخصية	...
شيء غريب لرباب البيوت	...
مشاريع كورزييسكى الخمسة	...

٣٣٦

٢٤ - إصلاح المصلحين

آلات الحركة الدائبة والدرس الخامس بالمصلحين الاجتماعيين	...
استحالة الإصلاحات التي تتحدى الفكرة المضاربة	...
الحنية الاجتماعية كشرط سابق . كيف انتفع روزفلت بها	...
حروب الطبقات نادرة في المجتمعات البشرية	...
بعض الإصلاحات التي أجدت	...
حيث يمكن أن يخطئ المدبرون القوميون	...

٣٥٠

٢٥ - طرق موصلة إلى العالم الواحد

أيمكن أن يعيننا العلم الاجتماعى حيث أخفق الجغرافيات والسياسيون والتنبيئون ؟	...
ملخص للمعرفة التطبيقية	...
كيف يمكن الانتفاع بالفكرة المضاربة وما يترتب عليها للعمل من أجل السلام	...
نفس طرق أخرى	...
أول مشكلة لتطبيق المعرفة الميسورة	...
مشاريع اليونيسكو ؟ إمكانات في دراسات المناطق	...
علماء الإنسان يتكلمون عن حقوق البشر	...
الدعوة إلى مزيد من المعرفة ومزيد من البحث	...

٣٦٦

٢٦ - عرض المكتشف

أول مساعدة للمحدثين - خلاصة الفصول السابقة	...
الطريقة العلمية يمكن تطبيقها على الطبيعة بأسرها بما فيها الإنسان	...
مسألان عمليتان تربكان جورج رذرفورد آدمز ، تصوران الفرق بين العلم الطبيعي	...
والعلم الاجتماعى	...
الإنشاء والعلاقة في العلم الاجتماعى	...
استيعان الميدان : الأعمال الكبرى في كلتا الناحيتين النظرية والعملية كما سبق مناقشتها .	...
دلالات واستنتاجات تندفق من هذا العرض للأدلة	...
العلم مقابل المذهب « الملقى »	...

٢٧ - نحو علم للإنسان

بعض مسائل لم تظفر بجواب
العلماء الاجتماعيون ينتقدون أنفسهم
ست مشاكل عامة بارزة وخمس سبل إلى حلها
عمل الفرقه مطلب أصلى
مكان « الفيم » والأخلاق في علم الإنسان
النور أماننا

مراجع

ومع ذلك فينا أورد بعد ذلك البيل الاجتماعي، حيث لم يكن توجه إلى
نظرة منذ سنة ١٩١٤ من الأنظمة أكثر مما وجهت إليها نسياً. والأسباب
قريبة من بعيد. فلن أمريكا لم ينفصلها عما تصبغ غيرها في حريق
عالمين، ومن ثورة وإلهام اقتصادي. وقد كان من حسن حظ الجامعات
الأمريكية ومن أمثالها ما جعل أبحاثها في العلوم الاجتماعية تطرد وتتقدم.
وسبب آخر هو أن الأمريكيين جاءوا مبكرين إلى ميدان علم الإنسان
الحضري، لأن قبائل القنود المراكات مجاورة لهم، وكان من اليسر نسبياً
دراساتها، كذلك كان جميع الولايات المتحدة ومحيطها القاري مما يتطلب إحصاءات
اجتماعية في نطاق واسع.

وقد نزع الأمريكيون والكنديون أثناء تولد هذا النشاط إلى الخروج على
تقليد قديم في التفكير في الإنسان كمنشوق فوق مثال الصخر الجيري. وأنه
موضوع لا يصلح إلا لفلاسفة الأمريكيين ينادون في البيل، كما يوضع لهذا

مقدمة

قد يبدو لقارئ هذا الكتاب من متكلمي الإنجليزية أنى غلوت في التنويه بمساهمة أمريكا في العلوم الاجتماعية في السنوات الأخيرة ، مهملا في ذلك غيرها . فإذا كان هذا هكذا فلنراجع السجل . فإنه لا يمكن أن يكون ثمت أدنى شك في أن العلوم الاجتماعية — وقد عرفناها هنا بأنها تطبيق الطريقة العلمية على دراسة العلاقات البشرية — نشأت في أوروبا بريطانيا ، وتطورت وتهدبت فيهما ، وأن أجل الأسماء في هذا الشأن أسماء أوربية .

ومع ذلك فبينما أوروبا قد رعت العلم الاجتماعى ، جعلت أمريكا توجه إلى تطوره منذ سنة ١٩١٤ من الالتفات أكثر مما وجهت أوروبا نسبياً . والأسباب قريبة لمن يريد تناولها . فإن أمريكا لم يضعها ما يضع غيرا في حربين عالميتين ، ومن ثورة وانهايار اقتصادى . وقد كان من حسن حظ الجامعات الأمريكية ومن أموالها ما جعل أبحاثها في العلوم الاجتماعية تطرد وتتقدم .

وسبب آخر هو أن الأمريكيين جاءوا مبكرين إلى ميدان علم الإنسان الحضارى ، لأن قبائل الهنود الحمر كانت مجاورة لهم ، وكان من اليسور نسبياً دراستها . كذلك كان حجم الولايات المتحدة ومحيطها القارى مما يتطلب إحصاءات اجتماعية في نطاق واسع .

وقد نزع الأمريكيون والسكنديون أثناء تولد هذا النشاط إلى الخروج على تقليد قديم في التفكير في الإنسان كمخلوق فوق منال التحرى التجريبى . وأنه موضوع لا يصلح إلا للفلاسفة . فالأمريكيون جادون في العمل ، كما يوضح هذا

الكتاب ، يتحرون السلوك البشرى بأعظم قسط من موضوعية العالم الطبيعى والأحيائى وبيعض أدواتهما .

وقد كان معلمون أوروبيون من أمثال مالتوس وماركس ومكيا فيلى وآدم سميث قانعين بصوغ فروض فخمة ، فجعلت المدرسة الأمريكية — أو على الأقل الجانب الذى أعنى به من هذه المدرسة — جعل يختبر كافة الفروض فخمة وغير فخمة . فإذا لم تكن هذه الفروض قابلة للتحقيق تشككت المدرسة الأمريكية فى نفعها ، وبمشت عن أخرى أصح منها تصوغها . ويصعب أن يقال إن علماء من العلوم قائم موجود ، من دون تنبؤ يكون الاحتمال فيه أكثر من ٥٠ فى المائة .

قد يكون الأمريكيون على شئ من الشطط . فإذا كانوا فلن تكون هذه أول مرة . بيد أنى لا أرى هذا رأى ، أو لما أخذت على عاتقى تأليف هذا الكتاب . وعلى كل فإن الاكتشافات الحديثة فى المعارف الاجتماعية ، وخاصة منذ سنة ١٩٤٠ ، تؤلف قصة مثيرة . وأعتقد أن على بقية العالم أن تعلم المزيد من تلك القصة ؟

سقيوارت تشير

ريدنج ، كون — يناير ١٩٥٠

١ - هل الإنسان جزء من الطبيعة ؟

الجزء الأول

ارتداد ميدان العلاقات البشرية

إننا نكتشف الأشياء الصحيحة

على نسق خاطئ . وهذا كقولك

إننا نتعلم كيف نسيطر على الطبيعة

قبل أن نتعلم كيف نسيطر على أنفسنا .

ريموند فوسدك

١ - هل الإنسان جزء من الطبيعة ؟

هذا الكتاب محاولة لارتياح احتمالات تطبيق الطريقة العلمية ، التي ثبت نجاحها في مسائل تتعلق بالمادة والطاقة ، على مسائل تهصل بالعلاقات البشرية . ذلك أن الطرق التي يستخدمها كثير من الزعماء والساسة اليوم ناقصة بعض الشيء . فهل تمت طرق أخرى يمكن التعويل عليها في تنمية الرخاء ، وضمان البقاء بين النوع الإنساني ؟

تبتدىء القصة من ثلاثمائة سنة مضت على الأقل . فبعد أن أطلق غاليليو طلقته من البرج المائل بقليل اجتمع بعض من أنبه علماء إنجلترا والمشتغلين بالعلوم فيها ذكراً — اجتمعوا بدار السير وليم بتي بأ كسفورد يتناقشون كل أسبوع . وكان بتي على الترتيب غلاماً في سفينة ، فنجاراً ، فمساحاً ، فمخترعاً ، فطبيباً ، فأستاذاً للتشريح ، فأستاذاً للموسيقى ، فعضواً في البرلمان ، ففيلسوفاً ، فالكا من ملاك الأراضي ، فأحصائياً ، ففولفاً ، فعالمًا من علماء الاقتصاد السياسي — وبالجملة سليلاً مكيناً للصباباتيين المتقلبين . وكان من بين الجالسين حول مائدته روبرت بويل وكريستوفر رن ويشوب وولكنز ووارد الفلكي ثم هو ك الطبيعى فيما بعد . فلما انعقد مجلسهم في لندن ، وكان يعقد فيها أحياناً ، طلب الملك أن يكون عضواً فيه ، ثم انضم نيوتن أيضاً إلى هذه الجماعة الممتازة .

كانوا يسمون أنفسهم « الكلية الخفية » لأنهم كانوا من الساخطين الناقين على حذقة أ كسفورد وكبرج العقيدة . وإذا كانوا ينعون غاليليو وبيكون ، فقد أرادوا الإقلال من التجريد ، والإكثار من الملاحظة والتجربة ، في كشف أسرار الطبيعة . فكان أحياناً أحد الأعضاء يجرى أمام الجماعة تجربة فيجلسون

إلى ساعة متأخرة يحتسون نبيذهم ما في ذلك شك ، ويتباحثون في دلالات هذه التجربة . ومع ذلك فإنه لم تكن تفصلهم سوى خمسين من السنين عن الزمن الذى أخذ نفسه فيه كيميائى من السربون باتباع تعاليم أرسطو والتعرض بذلك للموت . وسرعان ما أصبحت الكلية الخفية الجمعية الملكية بعد إذ طلب الملك عضويتها . والجمعية إلى يومنا هذا دائبة على القيام بتجارب تعارض بها تجريدات رفيعة وحقائق بديهية .

ولم يلبث السير وليم بى أن نشر بحثاً عن نظرية السكان اتبعه مؤلفه الفريد الحساب « السياسى » . وقام چون جرونت — وهو عضو آخر من أعضاء الميثاق — بتحليل دقيق لمعدلات الوفيات فى طاعون لندن ؛ ووضع هالى الفيلسوف الذى سعى المذهب باسمه ، أول جدول للحياة ، وبات أبا لعلم التسجيل ومبادئ التأمين . وقد نشرت الجمعية الملكية الجدول فى سنة ١٦٩٣ .

وهكذا بينما هؤلاء الرواد العظام للطريقة العلمية معنيون فى الغالب بالفلك ، والجاذبية ، وآلات الرصد ، والكيمياء ، والملاحة ، فإنهم لم يهتموا بالتحقيق فى نظرية السكان وإحصاءات المجتمع كذلك . فكان أن حركوا ساكن العلوم الحديثة التى تعالج مشاكل الإنسان وسلوكه كما حركوا تلك التى تبحث فى الطاقة والمكان والزمان .

ومن الممتع أن نتذكر هذا . فإنه منذ أيامهم تلك والعلوم الطبيعية تسير قدماً ، فبلغت بهوريشيا ذروة تقدمها المربعة . وقد بدأ الناس يتساءلون هل تنسجم العلوم البشرية مع القنبلة الذرية ؟ والآن وقد اهتمدى الإنسان إلى سر الطاقة النهائية فى الطبيعة أيعرف الإنسان أو يستطيع أن يجد المعرفة التى تجعله يسيطر عليها ؟ يقول المتشائمون إن الاختراع الفنى قد خرج الآن عن كل سيطرة ، ويلوحون بأيديهم يائسين .

ومؤلف هذا الكتاب ، وهو أبعد من أن يأخذ بمثل هذا التسرع في الحكم ،
قد كان يتعاون مع عدد من العلماء الاجتماعيين المبرزين على ارتياد الميدان ، محاولاً
أن يعرف ما أدته العلوم التي تبحث في شؤون الإنسان منذ دفعتها الجمعية الملكية
تلك الدفعة المتواضعة من ثلاثمائة سنة مضت . فإلى أى طريق تنبجه ؟ وماذا
يمكن أن يتوقع منها ؟ إن صميم هذه العلوم يحتوى خمس معارف هي علم الإنسان
الحضارى ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد ، وعلم السياسة .
والمسائل التي تحقّقها هي تلك المسائل المعقدة الخاصة بالحضارة ، والأجناس ،
والترية ، والجنس ، والأسرة ، والعلاقات الدولية ، والاتصال ، والحكومة ،
والدورات الاقتصادية ، ونظرية التعلم ، وحركية الجماعة ، والرأى العام ، وما إلى
ذلك — أى كافة الميدان الفسيح الذى تجول فيه العلاقات البشرية .

فما هي الفرص التي تنهيا لهذه المعارف في معالجتها للانقسام النواوى ومراجعتها
لنتائج العلم الطبيعى على العلم الإنسانى ؟ أحسبنا سنجد أنه قد حققت بداية بارزة
في هذا الاتجاه — أبعد كثيراً مما يدرك معظمنا — وأن الأمل ليس بحال من
الأحوال مقطوعاً .

إن النجاح المدهش الذى أصابه البحث في الطاقة الذرية — وهو البحث
الذى ترعاه الحكومة — في مشروع مانهاتن ، قد أبلغ العلماء الاجتماعيين سن
الرشد . فقد أقيمت على عوانتهم تبعة لا عهد لهم بها ، وبات عليهم أن يستوثقوا
مما يعرفونه وما لا يعرفونه . فإذا أمكننا أن نعين العلمانى الذكى على أن يدرك أن
العلم الاجتماعى هو آخر أمل وخير أمل للإنسان في المضى في طريق النشوء
والارتقاء من دون أن تعوقه أشعة جاما ، يكون هذا الكتاب قد وفى بالفرص .
ولن يستطيع العلماء الاجتماعيون القيام بدورهم الجديد الهام من دون تأييد المفكرين
لهم في كل مكان .

والعاطفة الذرية من وجهة أخرى ليست سوى المشكلة الكبرى تعلو طائفة من المشا كل المتراكمة التي أحدثها العلم الطبيعي للنوع الإنسانى . ومفد جعل للنسج الذى تحركه القوة يلقى بنساجى الريف خارج دائرة كسبهم ويحرمهم رزقهم ، كانت الفنون الصناعية تصدع نماذج اجتماعية نعمت بها القرون . وكثير من متاعبنا إن لم يكن معظمها فى الوقت الحاضر ، من القنبلة إلى الإضرابات ، ومعدل الطلاق ، يمكن أن يعد من مخلفات الحل الموفقى الذى حلت به المشا كل الفنية . وما إن خرجت هذه الاختراعات الناجحة من المعمل إلى العالم العامل حتى خلقت سلسلة كاملة من المشا كل الاجتماعية الحادة . فهنرى فورد — على سبيل المثال — قد أعطانا أنموذج T ، ثم لم يلبث أن قدم لنا الإنسان الآلى مجتازاً مراحل صنعه ، وإن هددنا جملة باضطرابات عصبية تلازم الإنتاج جملة .

ويمكن تعريف العلم الاجتماعى فى مستوى عال بأنه اتباع الطريقة العلمية فى دراسة العلاقات البشرية . فما الذى نعلمه عن هذه العلاقات مما يركن إليه ؟ إن « حكمة الدهور » كما هو واضح ، ليست من الأصالة بالقدر الكافى كما تشهد حالة العالم بعد الحرب فى صورة تغنى عن الكلام . وإذا تهددنا شغب من أحد الأجناس أو تهددنا كساد أو اعتصاب فى مناجم الفحم ، فأين نتجه فى نشدان المعرفة المعتمدة التى تعيننا على مواجهة الضائقة ؟ ولسنا نعى نصيحة تلقى حينما اتفق بل مكتشفات مخبرة يعتمد عليها .

إن الميسور من المعرفة ، كما سوف نرى ، أكثر كثيراً من المقدم . لكننا الحقيقة ، لكى نحل المشا كل الكبرى للعلاقات البشرية فى شىء من الثقة بأن تظل محلولة ، نحتاج على الأقل إلى ثلاثة أشياء :

١ — زيادة عظيمة فى دراسة الجماعات والمجتمعات البشرية دراسة علمية .

٢ - فهم عام ، أوسع كثيراً ، لما يؤلف الطريقة العلمية ، واستعداد لموازتها .

٣ - مؤسسة سياسية يطبق فيها ما عرف علميا عن الإنسان في المجتمع لمنفعة الناس (ويستطيع الأوتقراطيون أن يستخدموا المعرفة ضد الناس كما أظهر جو بلز) .

لقد لبثت العلوم الاجتماعية زمناً أطول مما ينبغي موزعة على أقسام محكمة لا تتبادل بينها الأفكار إلا قليلاً . فقد قطعت الإنسان - على قول أحد النقاد - إرباً ثم لم تنطبق هذه القطع وتلائم بعضها بعضاً . ومع ذلك فإن هذه الحالة تتبدل سريعاً بفضل عمل الفرق الذي نُمى في خلال الحرب . ومن الراجح أنه لن يمضي طويل زمن حتى تمتزج المعارف الموزعة في معرفة عريضة واحدة قد تسمى « علم الإنسان » ثم يكون هنالك في نفس الوقت أقسام فرعية لدراسة المسائل الخاصة .

مجلس الشيوخ يناقش علم الإنسان

قليل من الناس ، حتى من حسن تعلمه منهم ، يعرفون ما تعنى به العلوم الاجتماعية أو ما مبلغ ما جمعت هذه العلوم من معرفة يمكن تحقيقها ، أو ما عليها أن تقدمه في الوقت الحاضر . استمع على سبيل المثال إلى أعلى هيئة تشريعية في أمريكا تناقش الموضوع . كان ذلك في يوم صيف قاتظ بعد حادث هيروشيا بعام . المنظر قاعة بدار مجلس الشيوخ بواشنطن ؛ ومشروع تأسيس العلم القومي معروض على بساط البحث ، وطائفة مختلفة من المواطنين البارزين تحت تصرف أعضاء المجلس لمعاونتهم على نظره .

ويقترح المشروع أن تعين الحكومة الاتحادية العلم على نطاق واسع وخاصة

عن طريقة مكافئات للطلبة الموهوبين . ومنزل هذا المشروع كان خليقاً في عهد ما قبل الذرة أن يقتصر على الاهتمام الجامعي . فقد كان أمام الكونجرس كثير مما هو أهم من هذه الأشياء لتقدم الإعانات إليه مثل سكر البنجر . لكن القنبلة الذرية كانت قد آتت أثرها ، ولم يعد رجال العلم ، وأساندة الكليات معهم ، يعدون بصفة ثابتة من طبقة تنسم بغرابة الأطوار .

والشيوخ في القاعة مؤيدون للمشروع ، لكن أينبغي أن يُعان « العلم الاجتماعي » أيضاً ؟ إن الشيوخ يلقون صعوبة جديدة في فهم معنى العلم الاجتماعي . فلنقتبس القليل مما يمثل رأيهم :

الشيخ فولبريت : سألت أمس عالماً قديراً أن يعرف لي العلم الاجتماعي فقال : إنى قبل كل شيء لا أسميه علماً . فما يسمى عامة بالعلم الاجتماعي هو فرد أو جماعة تقول لجماعة أخرى كيف ينبغي أن تعيش ؟

الشيخ هارت : الحقيقة أن الدراسات الاجتماعية والعلم الأساسي ليسا من التشابه الكافي للجمع بينهما بتشريع واحد أو معالجتهما بنظام واحد ... ولم يتفق الرأي على ما يمكن أن يعنيه العلم الاجتماعي في الحقيقة . فقد يشمل الفلسفة وعلم الإنسان ، وكل مسائل الأجناس ، وكافة أنواع الاقتصاد ، والأدب ، وربما الدين ، وضروباً مختلفة من النظر .

الشيخ سميت : أود أن أرى العلم الاجتماعي يتلقى الإعانة . لكنني أرى مشكلته والعلم الأساسي من الاختلاف بحيث ينبغي ألا يجمع بينهما في هذا المشروع . . . إنا نجتهد في إعانة العلم الصرف ، الكشف عن الحقيقة ، ولا دخل لهذا في نظرية الحياة ... لا دخل له في علم الاجتماع .

الدكتور جون ملتون بوتر (العميد السابق لكلية هوبرت) : يظن بعض الناس أنه بوسعك أن تمد الطريقة العلمية الدقيقة بحيث تتناول أية منطقة تقريباً من الشؤون البشرية ، ولم يحدث أني آمنت بذلك . فقد تعلمت كمؤرخ . وهذه الأشياء كما تلوح لي كأن يمكن أن يمدنا بها رجال محبرون من أمثال مستر باروخ أو تمدونا بها

أنتم أيها السادة هنا في مجلس الشيوخ... إحصاءات... ينبغي أن يفسرها كونجرس الولايات المتحدة... خالق الكونجرس أن يمدنا بفرقة من الناس قبل أن يزودنا بطائفة من العلوم الاجتماعية. ومثل هذه الفرقة ينبغي ألا تشتغل بالبحث... إنه ينبغي أن تثير الاهتمام بين الشباب من الذكور والإناث بالحكمة المكسدة في مدينتنا.

و بعد أيام من المناقشة وافق مجلس الشيوخ على المشروع ولكن بعد إبعاد العلم الاجتماعي. فلن تكون تمت إعانات لدراسة الإنسان. ويحد جورج ا. لندنبرج أربعة أسباب لهذا الاستثناء بعد أن عني بتحليل الشهادة الواردة في « سينتفك مفتلي » :

١ — لقد جادل شهود كثيرون بأن الإنسان ليس جزءاً من الطبيعة حتى يدرس بنفس الأدوات التي تستخدم في الطبيعة والكيمياء. وقد قالوا إن العلم الاجتماعي يعني أكثر ما يعني بحركات الإصلاح والدعاية والنظرات والمذاهب.

٢ — لقد جادلوا بأن الطرق في المعارف الاجتماعية تختلف عن الطرق في العلوم الطبيعية بحيث يكون من الخطر الجمع بينهما في أساس واحد.

٣ — لقد خشوا أن تفسد أبحاث العلم الاجتماعي في سهولة بضغط الجماعات أو على أيدي السياسيين.

٤ — وأخيراً لقد أشاروا مراراً وتكراراً إلى أننا نعرف في الحق حلول مشاكلنا الاجتماعية كلها. فلو أننا أصغينا إلى الفلاسفة والتنشئين ومؤلفي الكتب العظيمة خلال العصور، وتخزيناً أنفسنا لوجدنا الجواب. فالذي نحن بحاجة حقا إلى فعله — وقد ورد هذا مراراً في الشهادة — هو أن نعلم الناس لكي يقرءوا ويصفوا. فلا الأبحاث ولا المعرفة الجديدة ولكن التعليم في المعرفة القديمة هو المفتاح.

لقد كان الفصل الدراسي الذي افتتحه مجلس الشيوخ في العلم الاجتماعي تحبطاً وخطأ، إذ دل في وضوح على أن الناس حتى البارزين جداً منهم لا يعدون أنهم بدأوا يشعرون بالموضوع. وقد ارتأى أن العلم الاجتماعي قد يشتمل بدوره على الفلسفة، والدين، وعلم الإنسان، وحكمة أعضاء الكونجرس، وحكمة المستر باروخ، والمسائل المتعلقة بالأجناس، والكتب العظيمة، والأدب، وحكمة

القدماء ، وتعريف الغير كيف يعيشون ، ونظرية الحياة ، وعلم الاجتماع ، والتاريخ والإحصاء ، والدعاية ، والإصلاح الأخلاقي ، وضروب مختلفة من النظر — قائمة بحجية جد مضطربة !

وكثيراً ما أكد كذلك أن العلم الاجتماعي كائناً ما كان ، يختلف كل الاختلاف عن العلوم الطبيعية مثل الطبيعة والكيمياء وكان من الواضح من الأول للآخر ما افترض من أن السيد الذي كانت له الكلمة عرف عملياً كل ما وجبت معرفته عن الموضوع ولم يحتاج إلى تصحيح من أستاذة الكليات أو من غيرهم من أصحاب النظريات . وقد كانت الفكرة العامة أن كل امرئ هو عالم نفسه الاجتماعي أو كما قال ريموند فوسدك :

يلوح أن هنالك اعتقاداً ذائعاً بأننا جميعاً علماء اجتماعيون ، وأنا جميعاً علماء اقتصاد . وفي ديمقراطيتنا هذه التي تسودها المساواة تتساوى أفكار أى رجل فى أية مسألة من المسائل فى علم الاجتماع بأفكار أى رجل آخر ، ونحن بحاجة إلى أن ندرك أن ما يصح عن الطبيعيات وعلم الأحياء يصح عن هذا الميدان كذلك . فالمطلوب درجة واحدة من المعرفة الخاصة ، ولا يمكن أن تعرف المسائل الاجتماعية وتفهم بجلاء إلا على أساس من العمل الشاق المحكم .

ست طرق لحل المشاكل

إذا كنا سنتحدث عن العلماء الاجتماعيين والعلماء بوجه عام فمن الخير أن نأخذ فكرة جلية نوعاً ما عما يعنيه اصطلاح « العلم » إذا فسر بدقة . إنه من وجهة أساسية طريقة للحصول على المعرفة وحل المسائل . فالنوع الإنسانى حاول على كره الدهور وعلى صور شتى أن يذلل المتاعب ويحل المسائل التى كانت تواجهه على الدوام . ومن الميسور أن نقبين من ذلك ست طرق على الأقل :

١ — الاتجاء إلى الحوار .

٢ - اللقانة .

٣ - الالهجاء إلى السلطة .

٤ - المنطق الصرف .

٥ - الحس المشترك .

٦ - الطريقة العلمية .

ومن المعلوم أن هذه الطرق ليست منفصلة بعضها عن بعض ، بل كثيراً ما تتواصل . وقد تنجح أية طريقة منها ، لكن الطريقة الأخيرة منها هي التي يجب أن تنجح إذا وجهت الأسئلة الصحيحة في أناة واستقامة كافيتين .

إن هندياً من هنود المكسيك يشكو الجفاف في حقله قد يضرع إلى عذراء جوادالوب ، ويدفن كذلك دمية حجرية صغيرة في ركن حقله ليكون تصرفه سليماً . والهندي في الراجح لا يميز جلياً بين الصلاة والسحر بل لا يفرق بينهما وبين سلطة الكاهن وطبيب القرية الذي يداوى بالأعشاب .

والحس المشترك والمنطق مكانهما في العمل ، وكذلك اللقانة ، التي هي عبارة مفككة لمزيج شبه واع من الملاحظات الدقيقة . وإذا شرع جواد سباق حسن يجري على طرقة المضرب كان سلوكه مثلاً لأفضل لقانة . والسحر هو الطريقة الوحيدة التي استبعدها خبراءنا الفنيون كل الاستبعاد . لكنه قد يكون في نظر البدائيين منا محاولة فجأة لمزاولة العلم كما رأى السير جيمس فريزر في «ذي جولدن بو» حين قال :

وبذا يكون الشبه بين فهم العالم للسحر وفهمه للعلم شهاً وثيقاً ، ففي كل منهما يفرض أن تتابع الحوادث مطرد كل الاطراد ، أكيد كل التأكيد ، إذ تقرره قوانين ثابتة يمكن التنبؤ بعملها وحسابها بالدقة . وعناصر الهوى والحظ والصدفة مستبعدة من مجرى الطبيعة ... وهبوب السحر المهلك ليس في نتيجة مفترضة فيه بصفة عامة يقررها قانون ، ولكن في إساءة فهم طبيعة القوانين الخاصة التي تقرره هذه النتيجة إساءة تامة .

ويرى فريزر من ناحية أخرى أن الصلاة تدل على اعتماد عديم الحيلة على قوة خارقة هوائية . وقد ينسب الطبيب الروحاني الحديث إلى الصلاة قدرة على تبديل بعض المواقف البشرية ، فيعزو إليها بذلك قيمة ومقدرة في كثير من المشاكل المعقدة . حتى العالم قد يصلى لتفجج تجربته ، لكنه يصلى كإنسان لا كعالم .

وقد أوضح إدنجتون في فقرة مشهورة من كتابه « المكان والزمان والجاذبية » حدود الحس المشترك قال : « أي سخف أن تظن أن المائدة التي يكتب عليها المرء ، مجموعة من السهام تتحرك بسرعة عجيبة في أما كن خاوية نسبياً خواء الفراغ بين كواكب النظام الشمسي ! أي سخف أن نعتقد أن هذا الهواء الخفيف يضغط على كل بوصة مربعة من جسم الإنسان بما زنته أربعة عشر رطلاً ! أي سخف أن تظن أن الضوء الذي تراه من عين هذا الجهر قد يارح نجماً من ٥٠٠٠٠ سنة مضت ... »

« إن الحس المشترك لينبثنا أن العالم مسطح ، وأن الشمس تدور حول الأرض ، وأن الأجسام الثقيلة تسقط دائماً أسرع من الأجسام الخفيفة . والرجل العملي ، وهو مثال الحس المشترك ، قد عرفه ديزرائيلي يوماً ما بأنه « الرجل الذي يكرر غلطات أجداده » .

لقد أخذ الإغريق والمصريون فكرة عن الطريقة العلمية ، لكنه حتى فيثاغورس العظيم ، ذلك الذي قرر طبيعة البرهان ، قد ضل في ظلام سحر الأرقام . وأرسطو العظيم أبو المنطق كرر غلطات كان يمكن أن تصحح ببضع ملاحظات بسيطة ، كعدد الأسنان في فم الحصان . إن قوانين المنطق الرمزي الثلاثة قد اعترضها في التفكير العلمي في تلك الأثناء منطق ضوعف تقديره .

الطريقة رقم ٦

إننا اليوم نطبق الطريقة العلمية بوجه عام على مشا كل تنصل بالمادة والطاقة ، وتطبق بالمناسبة على أنواع كثيرة أخرى من المشا كل كما سوف نرى . إنها الطريقة الوحيدة التي اكتشفت إلى الآن ، وتمخضت عن معرفة ثابتة إلى أن يوجد على الأقل ما هو أكثر مطابقة منها للحقيقة . وإني لأرى المحصول العلمى أحياناً وكأنه مخزن ذورفوف مكنتظة قد رتبت ترتيباً حسناً ، وباتت مدة لاستعمال أى طالب مؤهل . فالمهندس لا يستطيع أن يبني جسراً من دون الالتجاء إلى هذا المخزن في « معادلات معدلى الإجهاد والاستطالة » وخواص الفولاذ والأسمنت اللذين ينتوى استعمالها ، والطبيب لا يستطيع أن يحرر وصفة الدواء من دون الرجوع إلى هذا المخزن .

والطريقة العلمية لا ننبئنا عن الأشياء كيف ينبغي أن يكون سلوكها ، ولكن كيف تسلك ، وواضح أنه ليس ثم من سبب يمنع من تطبيق هذه الطريقة على سلوك الناس كما تطبق على سلوك الكهارب . إن هنالك تجارب علمية وتجارب طبيعية ، ومن الممكن أن تستخدم الطريقة العلمية مع كلا النوعين على خير وجه . وسنثبت فيما يلي من الفصول أمثلة كثيرة على تطبيقها على الإنسان والمجتمع . وليس في المستوى الذى نبحث فيه فرق بين العلم الاجتماعى والعلم الطبيعى . وفي هذا المستوى نعرف العلم الاجتماعى مرة أخرى بأنه استخدام الطريقة العلمية في حل مشا كل العلاقات البشرية . والعلم يساير الطريقة لا الموضوع .

قال الاجتماعى العظيم إميل ديركهم : إن العالم الاجتماعى عالم طبيعى لا يختلف عن العواالم الأخرى إلا في أنه أكثر تركباً . ومحال الآن أن تختلف الطبيعة في حالة عنها في حالة أخرى ، فالعلاقات الجوهرية القائمة بين الأشياء ... ليس من المحتم أن تتفاير في العواالم المختلفة .

وحقا إن العلاقات لا يمكن أن توصف بأنها مختلفة في نوعها حتى يثبت العكس على الأقل . والثغرة التي أتعبت الشيوخ وتعب الكثيرين غيرهم ترجع في الراجع إلى زمن سابق للجمعية الملكية ولكوبرنيكوس ، حينما كان الإنسان وسط العالم بالضبط ، وحينما كان مخلوقا خاصا جداً على التحقيق . فالإنسان كنصف إله لا يمكن تحريم أحواله . لكنه يمكن تحريمه كنوع عضوي ومخلوق من مخلوقات هذه الأرض التي هي كوكب صغير في نظام شمسي صغير نسبيا .

رجل يحمل كراسية

إن الصورة غير العادية التي أحلها في ذهني عن العالم الاجتماعي هي صورة رجل يحمل كراسية ويراقب سلوك الناس . قد يراقب اجتماعا في مدينة أو تجمعاً دينيا ، أو مدرسة حضانة ، أو معسكراً لأمرى الحرب . ولعل أعظم صور هذا العالم الحية في ذهني هو الرجل حامل الكراسية في مصنع هوثرن التابع للشركة الكهربية الغربية يتحرى في تجربة مراجعة مشهورة في نواحي العالم عما يحمل العامل على العمل .

إن المحقق بالطريقة العلمية يدون ما يراه ، لا ما يريد أن يراه . يدونه بصورة تمكن غيره من المراقبين من تحقيق نتائجه . وإني لأخشى أن نضطر إلى نبذ فكرة الطريقة العلمية إذا لم تخلق حالة يستطيع فيها مراقبون مقتدرون آخرون أن يراجعوا ما انتهى إليه مراقب مقتدر ويتفقوا على النتائج .

إن ما يستطيع أن يراه شخص واحد بنفسه لمعجب ، وكذلك ما يستطيع أن ينظمه حوله من شعر ، ويكتبه عنه من كتب ، ويحرك به من قلوب . لكن شيئا من هذا لا يدخل المخزن ، فقد تكون عباراته الشائقة حقيقية لكنه ليس عليه دليل . قال المرحوم موريس كوهين إن العلم لا يقنع باليقين السيكلولوجي .

وقد كان في مداولات مجلس الشيوخ رجل فهم هذا . وهو عالم طبيعي عظيم
تؤلف كلماته نوعاً من الأغنية الموضوعية لدراستنا هذه :

الدكتور ج . ر . أوبنهايمر : إنني شاعر بصعوبة تقرير معايير صارمة في هذه
المبادئ (المعارف الاجتماعية) للاقتدار والأهلية ، ومع ذلك فإنه في الوقت الذي
يدرك فيه العالم بأسره أن كثيراً من أعظم مسأله حيوية يتوقف على فهم السلوك
البشرى ، وما تقوم عليه أعمال مجتمعتنا المتنوع من اطارات ، ينبغي أن تبين
الفوائد العظيمة التي يمكن أن ترتب على جذب البارزين من الرجال والنساء إلى
دراسة هذه المسائل .

يدعو الدكتور أوبنهايمر إلى تطبيق الطريقة العلمية على الاطارات التي
تقوم عليها المجتمعات البشرية . وهذا الاصطلاح ممتع بصورة خاصة إذ يحى من
عالم طبيعي . فهناك « اطارات » إحصائية يقوم عليها ما لا يمكن التنبؤ به من
سلوك الذرات الفردية في غاز ما . وهذه الاطارات تعرف بقانون بويل — وضعها
نفس روبرت بويل أحد مؤسسى الجمعية الملكية . وليس في استطاعة أى فرد أن
يقول هل يقع لسيارته حادث تصادم ومتى يقع . لكن الدكتور لويس ديلين
القابع لشركة ميتروبوليتان للتأمين على الحياة يستطيع أن يحسب مع شيء يسير من
الخطأ كم أمريكي سيقول في العام المقبل في حوادث السيارات أو يموت بأى من
الأمراض الغالبة .

فلنحاول الآن أن نتناول الطريقة العلمية . فهي كما يتضح لب تحقيقنا الإجراء
الذى انتهى إلى ارتكاس متصل الحلقات . وقد يكون الإجراء الوحيد الذى
يمكن أن ينفذنا من هذا الارتكاس .

٢ — الطريقة العلمية تعمل

كان عالم وصديق له راكبين في وايبكنج ، فرأيا قطعياً من الغنم فوق ربوة ، فقال الصديق : « لقد قص صوفها ولما يكبد »

فأجاب العالم : « هذا ما يلوح من هذا الجانب »

إنك حين تدخل صومعة العلم لا تسلم بشيء . إنك تقسم على الجهل التام ما لم يقم الدليل . وهذا نقيض السلوك العادي على خط مستقيم . وهو السلوك الذي يمتق صاحبه الإيضاحات الخاوية . ومن ثم لا يُدهش أن يرى رجال السكونجرس في العلماء أحياناً غرابة في الأطوار ، وأن الجيش أسمى رجال مشروع مانهاتن « الشعور الطويلة » . وهنا تناقض غريب — فأكثر الناس دراية يؤكدون أنهم لا يعلمون شيئاً إطلاقاً ، اللهم إلا في أحوال محدودة تحديداً صارماً .

يقول الدكتور أو بنهايمر : « إننا نحاذر كثيراً في كل ما نؤكدده عن « الجملة أو النهائية أو الإطلاق » ... إننا نتعلم أن ننفذ من أدوات العمل وكيفيات الوصف ما لا يتسق والحقيقة التي نحاول كشفها . وفي هذه الدربة المؤلمة لنا أشد الألم نجد أنفسنا متواضعين حيال العالم » .

وقد كانت الفكرة الشائعة عن القنبلة الذرية كما قال المرحوم سيليج هشت في تفسير الذرة : « أن رجلاً من أصحاب « الشعور الطويلة » يسعى أينشتاين ، رأى عنها شيئاً من رؤى منتصف الليل ، فذهب برؤياه إلى الرئيس روزفلت وقال لها إنها تكلف بليونين من الدولارات . ولما كان الرئيس رياضياً فقد قبل المقامرة وندب جنرالاً للإشراف على إنتاجها الفعلي ، إذ كان ذوو الشعور الطويلة مشهورين بأنهم غير عمليين » . يقول هشت : « إنه يتردد بيننا تصور بأن العالم

رجل ذوا أفكار جنونية تنجح اتفاقا . والقنبلة الذرية واحدة من هذه الأفكار أصابت نجاحا . والمفروض أن الأفكار تنجم عن التهاب تلقائي دون اتصال بالماضى أو مع شيء من الاتصال طفيف ، وأن العالم هو الساحر الحديث . وهذه الفكرة الشائعة أبعد ما تكون عن الحقائق . فالعلماء ليسوا كذلك بقاءً . فهم اليوم يقفون كقرفة من البهلوانات فوق أكتاف بعضهم بعضاً على شكل هرم يفتشر إلى أعلى . والقنبلة الذرية البعيدة من أن تكون طيفاً مفاجئاً في دماغ الدكتور أينشتاين قد كانت ختام عمل مئات من العلماء شغلوا به حياتهم خمسين ومائة من السنين على الأقل . ناهيك عن ديموقريطس الذى كان أول من ارتأى سنة ٤٠٠ قبل الميلاد أن المادة قد لا تكون لها صفة الاستمرار ، وقد تكون مؤلفة من أجزاء لا ترى تسمى ذرات .

سُلم ذرى

هب أننا أعددنا بمعونة هشت نوعاً من السلم يرجع إلى بداية العمل الجدى فى الذرة . إنه ليتيح لنا صورة من العلم كأنها عملية متواصلة ، اكتشاف يؤدى إلى الذى بعده ، بدلا من سلسلة من العواصف تهب فى الدماغ دون ماصلة . فلو أن درجة من درجات السلم كانت مفقودة لما كان هناك ارتكاس متسلسل فى الأورانيوم أو البلوتينيوم فى سنة ١٩٤٥ .

لا فوازيه ، الكيمياءى الفرنسى العظيم ، يقرر فى سنة ١٧٨٠ الفرق بين العناصر والمركبات ، ويضع البدأ الذى يحفظ المادة .

دالتون ، يضع فى سنة ١٨٠٨ النظرية الذرية الأولى . كل ذرات عنصر ما كالحديد متشابهة ، تتحد مع ذرات عناصر أخرى لتكوّن ذرات . وقد استهدت الفكرة من كرة صغيرة من كرات البليارد .

منديليف ، كيميائى روسى ، رتب فى سنة ١٨٦٩ العناصر الخمسة والسبعين المعروفة فى الجدول الدورى الشهير ، وتكهن بجملة من اثنين وتسعين عنصراً تذل عليها المواضع الخالية فى الجدول . وقد أثبتت التجربة تكهناته .

ج . ج . طومسون ، يكتشف شرات يسميها كهارب .

رتيجن ، يكتشف أشعة إكس فى سنة ١٨٩٥ .

بيكيرل ، يكتشف فى سنة ١٨٩٦ أن للأورانيوم نشاطاً إشعاعياً .

مارى وبيير كورى ، يحددان الراديوم ويحرزان جائزة نوبل فى سنة ١٩٠٣ وقصتهما مثيرة .

روتر فورد ، يقترح الذرة ، فيستعاض عن أنموذج كرة البليارد بأنموذج النظام الشمسى . نواة محاطة بكهارب دواره . (وما من أحد بطبيعة الحال رأى الذرة أو يحتمل أن يراها .)

بور ، يخرج دورات الكهارب فى الذرات المختلفة .
سودى ، يُنشئ فى سنة ١٩١٠ فكرة الأيزوتوب^(١) وهى جوهريّة فى فهم بواطن الذرة . ويحدّ استقون أن لجميع العناصر تقريباً أيزوتوبات .
يورى ، يحرز جائزة نوبل على أن الماء الثقيل يحتوى إيزوتوب الهيدروجين .
فها نحن أولاء نزداد اقتراباً .

وشتدويك يعين مكان النترون فى نواة الذرة فيحل بذلك لغزاً لبث إحدى وعشرين سنة بلا حل ، ويحرز على ذلك جائزة نوبل فى سنة ١٩٣٥ .
معادلة أينشتين $E = MC^2$ (الطاقة = الكتلة $\times$ فى مربع سرعة الضوء)
نشأت أولاً فى سنة ١٩٠٥ وهى الآن فى سنّى ١٩٣٠ تساق لتوضيح ضياع الكتلة

(١) عنصران متفان فى العدد الذرى ، مختلفان فى الوزن الذرى .

حين تتحد البروتونات والنيوترونات لتؤلف الهليوم . وقد تحولت المادة إلى طاقة كما تنبأ أينشتاين .

وهان وستراسمان يطلقان في سنة ١٩٣٩ على الأورانيوم نيوترونات بطيئة وبحصلان على الباريوم فيدهشان أيما دهشة .

وليژه مايتنر تفكر فيما سلف فتنشى* فرضاً ثورياً . فلنفرض أنه أمكن أن يجعل هذا الإطلاق بحيث يستمر انطلاق النوترونات والطاقة في إارتكاس متسلسل ! فريش وفرمى وزيلارد وغيرهم يثبتون في مارس ١٩٣٩ نظرية مايتنر . ضجة هائلة في البيئة العلمية ! مائة ورقة ونيف تنشر في بضعة أشهر عن تحطيم الذرة . ويبدى شدويك في سنة ١٩٤٠ تأكده من أن في استطاعة أى شخص أن يضع قنبلة ذرية مما تيسر من علم منشور ، على شريطة أن يكون راغباً في إنفاق الوقت والمال اللازمين لذلك .

هذا السلم الطويل قد أفضى أخيراً درجة درجة إلى سر الطاقة الذرية وفتح مغلقه . ومن العلوم أن ثمة درجات أخرى أكثر مما ضمن هنا . ولا نحاول هنا توضيح الذرة ، ولكن نحاول أن نبين في إيجاز كيف أن اكتشافاً ما يؤدي إلى الذى يليه . يقول هشت : « إن السر الحقيقي هو أنه ليس ثمت سر جوهرى » ، ففي سنة ١٩٣٦ وقبل أن يؤدي هان وستراسمان ما أدياه في موضوع الأورانيوم لم يكن يسع أحداً أن يصنع قنبلة بكل ما في العالم من مال . فقد كان لا بد من وجود علم بالتحزن قبل إمكان تطبيقه .

صحيح أن مشروع مانهاتن كان معجزة من معجزات العمل الجماعى ، وأنه أوجد بضع طرق مدهشة لاستقاء المعرفة عن الانقسام النووى ، وهو ما نبجده الآن في كل جامعة ، ولأحداث انفجار على بالآت مُطلقة وطرق معقدة ، بيد أن جماعة العلماء والمهندسين التى تأتى بعد ذلك لتصنع قنبلة قد تفعل ذلك بأبسط

أو أرخص . وقد عرفت في سنة ١٩٤٠ خمس عمليات منفصلة لتكثيل المادة القابلة للانقسام . ومع ذلك فإن أحد رجال الكونجرس - وكان يجهل ما هنالك عن السلم الذرى - قدم مشروع قانون ينص على عقوبة الإعدام لكل من أفشى أسراراً علمية عن الطاقة الذرية !

عالمات

وكثير من أعضاء الكونجرس والعلمانيين المفروض أنهم يستمتعون بقسط وفير من المعرفة لا يجهلون فحسب ما ينهض به السلم الاجتماعى ، بل إنهم غالباً ما يجهلون كيف يستخدم العالم عقله في معالجة مشكلة من المشاكل جهلاً شنيعاً . فكأنما نحن مقسمون إلى عالمين من المتعلمين يكاد ألا يكون بينهما اتصال . فأصحاب « الشعور الطويلة » يمكن أن يصنعوا لبقيتنا أشياء مخيفة ، وبقيتنا لا يمكن أن يتصوروا كيف يصنع هؤلاء ذلك . كذلك العلماء الذريون لا يفقهون من جهة أخرى ما يعمله الزعماء السياسيون وكبار رجال الأعمال .

لقد كان الرئيس كوانانت من هارفارد ، وهو كيميائى بارز ، يجد في احتثاث مشروعات علمية كالرادار . فاستمع إليه يروى قصته في عدد الخريف من مجلة بيل ريفيو سنة ١٩٤٦ . لقد لبث يجرى إلى الجزرالات وأسماء البحر والحكام العسكريين ممن خلت أذهانهم مما كان يتحدث به إليهم . يقول إنهم لم يكونوا رجالاً أغبياء بل كان أغلبهم من المقتدرين في مهنتهم ، وعلى رأس هذه المهنة ، لكنهم مع ذلك لم يتعلموا في المدرسة أو في الكلية أو في الحياة معنى الطريقة العلمية . كانوا يجهلون ما استطاع العلماء أن يؤدوه وما لم يستطيعوه ، فمجزوا عن فهم الجوهرى حين كان العلماء يبحثون في العلم لأغراض عسكرية . لقد بدا أحياناً كما لو كانوا يحسبون العالم ساحر سوء .

يكاد هذا ألا يكون تقدماً مثاليا نحو عصر الذرة . إن المدنية الغربية ، إن لم يكن العالم كله ، مرهونة كل الرهن بالعلم التطبيقي . ولعله من دونه ينقرض نصف سكان العالم في أمد وجيز . إنه لأمر جد خطير أن تنقص كبار الساسة والقادة وأقطاب الصناعة فكرة جليلة عن نشاط من عمل الإنسان يسند الجنس الإنساني ويهدده على السواء . وينبغي أن يكون لدى رجل الشارع ، لالدى زعمائنا وحدهم ، فكرة عامة على الأقل عما يضطلع به العلم . لكن الفهم العام توجزه إلى الآن إعلانات عجائن الأسنان — شاب في سترة بيضاء ، ولحية فان ديك تنظر من خلال ميكروسكوب .

سلم آخر

في السنوات الأخيرة من ١٥٠٠ كان يعيش فلسفي ديناركي يدعى تيمخو براهه ، أنفق جانباً كبيراً من عمره يرقب الكواكب فصم أدوات ومراصد ، ودون مذكرات جهة ، وعمل أدق المقاسات لعصره . فقبيل وفاته انضم إليه في مرصده على مقربة من براغ مساعد جديد هو الأستاذ الألماني الشاب يوحنا كبلر ، فورث مذكرات تيمخو ، واستنبط من هذه المادة نظرية باهرة متماسكة . ولم يكن كبلر يرصد النجوم بنفسه لضعف بصره . إذ كان يقال إنه كاد ألا يستطيع النظر من خلال تلسكوب ، لكنه كان ذا عقل راجح ، فاستنتج من المذكرات مسلك النظام الشمسي ، فكان أن اهتدى منطقته الشديد ، مطبقاً على مراقبات رجل آخر ، إلى القواعد التي تسير عليها الشمس والقمر والكواكب .

فلماذا تخضع لهذه القواعد ؟ لقد قدر لإسحق نيوتن أن يقوم بالفصل الثالث من الدراما ، إذ عذبت نيوتن مشكلة هي : لماذا يجب أن تدور الكواكب على ما أثبت كبلر . فأية قوة تحركها ؟ وأخيراً وضع القوانين العظيمة المتعلقة بالمجاذبية ،

وإن كان قد فرض عليه أن يبتكر كذلك لغة خاصة للتعبير عنها هي الحساب . وقد صنف له العلماء في كل مكان ، ثم فترت حماسهم ، لما ظنوا أن الرواية تمت بذلك — زمان مطلق ، ومكان مطلق ، وحقيقة مطلقة . فلما أظهر أينشتين بعد ذلك بعدة سنين أن قوانين نيوتن ليست مطلقة ، وإنما ثبت صلاحها بأحوال محدودة فحسب ، بهت عالم العلم .

فانتبه الآن إلى ما حدث بعد ذلك ، فإنه يفسر لي الطريقة العلمية خيراً مما يفسره لي أى شيء آخر . لم يقل أينشتين إن نظريته صحيحة ، بل قال في بساطة إنها الطريقة التي تمت بها المعادلات . ولكي يثبت صحتها رسم ثلاث تجارب نوعية على غيره أن يقوم بها . وتتناول هذه التجارب مدى قرب المريخ من الشمس ، وانشاء أشعة الضوء بقرب الشمس ، وخروج خطوط بعينها في السبكتروم^(١) .

وقد أرسلت الجمعية الملكية بعثة لرصد ما يمكن من اعوجاج الضوء خلال كسوف شمسي . ونجد في التيمس اللندنية بتاريخ ٧ نوفمبر ١٩١٩ هذين العنوانين :

الموتى الأجداد . مراعاة الهدنة

ثورة علمية . لإطراح فكر نيوتن

لقد عززت نظرية تعرج المسكان برصد مباشر للطبيعة . لكن فكر نيوتن ، على عكس ما جاء في العنوان لم تنبذ . فقد لزم أن تنتقل من موضعها ، وأن تعمل بوصفها حالة خاصة في قانون عام أوسع .

وقد أجريت تجارب دقيقة أخرى حققت في الوقت المناسب جميع تنبؤات

(١) الطيف الشمسي .

أينشتين ، فأثبتت نظريته ، وتجدد إثباتها ، وكان لا بد من أن يوافق عالم العلم على أن الوقائع تؤيده مهما يكن من اضطراب مشاعر العلماء الداخلية ، كل على حدة . وكما قال أ . ت . بل : « إن الحقيقة الواقعة كانت دائماً للعالم الطبيعي الشيء النهائي الذى لا استثناء منه ، والذى يكون الموقف الممكن الوحيد حياله خضوعاً يكاد يكون دينياً . »

وقد ننتظر يوماً ظهور عبقرى جديد — كما ظهر كبلر ونيوتن وأينشتين — يحدث تعميماً يكون أكثر ملائمة لوقائع الطبيعة من نظرية النسبية . ويشكو العلماء الآن من أن النسبية ونظرية الكم لا تمشى إحداها مع الأخرى تمشياً تاماً ، وأنه قد يرحب كل الترحيب بعبقرى يمكن أن يوفق بينهما .

سلم فى العلم الاجتماعى

إن الاهتمام إلى سلم علمية طويلة أصعب فى ميدان العلاقات البشرية منه فى غيرها . لكن تمت سلماً واحداً على الأقل يرجع إلى عهد الجمعية الملكية الأول وما قبل ذلك ، وهو يتعلق بنظرية السكان ويمتد على النحو الآتى :

فى سنة ١٥٠٠ جمعت الكنيسة فى إنجلترا وألمانيا وهولنده تسجل التعميدات والزيجات والوفيات ، فأمكن بهذه السجلات حساب معدلات الميلاد والزواج والوفاة .

وفى سنة ١٦٥٤ صاغ بسكال وفرمات نظرية الاحتمال كنتاج لاهتمامهما بالتفوق فى الميسر .

وفى سنة ١٦٩٣ نشرت الجمعية الملكية جداول الحياة لهالى . وهى أساس علم الإحصاء .

وفى سنة ١٧٤٩ باشرت أكاديمية العلوم فى السويد أول إحصاء قومى .

وفي سنة ١٧٩٠ عمل أول إحصاء في الولايات المتحدة نص عليه الدستور الجديد .
وفي سنة ١٧٩٨ نشر توماس ملبوس ، وهو في الثانية والثلاثين من عمره ،
فصله الخالد ، محاولاً إثبات أن المجرى المتضاعف فيما يتعلق بالإنسان أكثر انحذاراً
من المجرى المتعلق بفدائه .

وفي سنة ١٨٠١ أجرى أول إحصاء بريطاني . وقد حقق تنبؤات السير
فريدريك إيدن الإحصائية .

وفي سنة ١٨١٢ سار لابلاس بنظرية الاحتمال خطوة طويلة أخرى
إلى الأمام .

وفي سنة ١٨٣٦ نشر كيتليه في بروكسل بعض الملاحظات عن اطارات
إحصائية كما ظهرت في أرقام تتعلق بالسكان . وفي الإمكان استخدام هذه
الملاحظات في التنبؤ . وقد هوجت طبيعياته الاجتماعية هجوماً مراً بوصف أنها
تعرض فلسفة الجبرية ، فدافع عن نفسه ببيان مشهور يقول فيه إن أعمال الإرادة
الحرّة تدل على اطراد إحصائي أكبر !

وفي سنة ١٨٨٣ نشر جالتون وهو ابن عم لداروين « تحريات عن الموهبة
البشرية » منشئاً المبدأ الذي يقوم عليه توزيع التواتر .

وفي سنة ١٨٩٠ أدخل هوليريث البطاقات في تعداد الولايات المتحدة .
وهذا شاخص في الإحصاءات الاجتماعية !

وفي سنة ١٨٩٩ نشر كارل بيرسون « أجرومية العلم » ، التي لا تزال تسيطر
على نظرية الإحصاء .

وفي سنة ١٩٣٢ نشأ ر. ر. كوزنسكي « كشاف التناسل » ليتمكن بنمو
عدد السكان نمواً يستند إلى الأمهات المنجبات . وهذا شاخص آخر أهم ما يكون
بالنسبة للتوارخ .

وفي سنة ١٩٣٣ نشر لوريمر وأوزبرن « ديناميكا السكان » .
وفي سنة ١٩٣٦ نشر دبلين ولوتكا « طول الحياة » .
وفي سنة ١٩٤١ جاء تعداد الولايات المتحدة لسنة ١٩٤٠ مطابقاً للتنبؤ ، مع هامش من الخطأ أقل من اثنين في المائة من واحد في المائة .
وليلاحظ أن هذا السلم حافل بالاطرادات ، وأنه لا يعزز نظرية السكان والإحصاءات الاجتماعية فحسب بل كذلك حساب الاحتمال . وهو الآن حيوى إلى درجة كبيرة فى تنشئء علم الأحياء والطبيعيات والعلم الطبيعى بوجه عام .

عشر خصائص

لقد قرأت وأنا أحاول فهم هذه المسائل طائفة كبيرة من تعاريف الطريقة العلمية . بيد أن معظم هذه التعاريف يبدو ناقصاً . ولعل أبعثها على الرضى ما أورده موريس ر . كوهين فى كتابه « المنطق والطريقة العلمية » و ج . ر . أو بنهايمر فى مجلة الصمىغ الفنية ، عدد فبراير ١٩٤٨ . وهكذا سميت على أسلوبى الهاوى إلى التأليف بين هذه التعاريف بتدوين خصائص كل تعريف أو وصف صادفته . وبعد أن حذفتم المكرر بقيت عشر خصائص تلوح نوعاً من الأصل للطريقة العلمية . وهذا أحكم ما أستطيع أن أظفر به ككلام أفسر به معنى العلم :

١ - أهم هذه الخصائص جميعاً حقيقة واقعة هى أن العواطف البشرية أقصيت عن العمل العلمى . فالعلم وحده بين معارف الإنسان يمكن أن يقرر المسائل بعيداً عن رغباتنا وإرادتنا . وقد نرغب فى الاهتداء إلى جواب عن سؤال ، كما فعل نيوتن ، لكنه حين يبدأ العمل الحقيقى يجب أن يستبعد التأثير العاطفى . فالطريقة العلمية شك يزجيه غرض معين . وهى لا تشك فى كل شئ . ولكن

تشك فقط فيما لا يستطيع إثباته . ذلك أن إقامة الدليل إجراء صارم كان فيثاغورس أول من اتخذ .

٢ — يبدأ العالم عادة بمسألة تتطلب الحل . ويجب إبداء هذه المسألة بعبارة تسمح بجواب في عالم المكان والزمان . ومن ليس عندهم شيء خيراً من أن يدرسوا الحقائق يدرسونها مجرد دراستها . وهم عادة ينتهون إلى مناهج مضحكة . وبعضهم يتولاه القلق في حالة التوتر لأنه يجهل الجواب عن شيء يشعر بأنه هام . وقد يكون هذا الشيء مشكلة عاجلة كأن يراد هزيمة الألمان هزيمة تنتهي بارتكاس متسلسل ، أو يكون أهون من ذلك كالعدد المحتمل لسكان بريطانيا العظمى في سنة ١٩٧٠ .

٣ — إن الأدلة الميسورة بالفعل قد ارتيدت كالعادة ورتبت ؛ ولعله قد عملت بعض العمليات الحسابية ، ووصل الباحث إلى نظرية قد يكون بها الجواب عن المسألة التي ضايقته . وهنا يفترق الفيلسوف والعالم كلاهما في الغالب ، فيميل الفيلسوف إلى الاعتقاد بأن نظريته هي الجواب لأنها تبدو له معقولة لا يعتورها شك . لكن العالم يتوقع أسوأ ما هنالك ، لأن أسر العلم بحذافيره ، كما يقول أو بنهايمر ، هو أنه يتطلب اكتشاف الغلطة ويرحب بهذا الاكتشاف .

٤ — يتبع النظرية تجارب وملاحظات يجب أن تجري وتبدى لإثبات النظرية أو إدحاضها . وكثيراً ما يكون النقيض معينا لأنه يضيق الميدان . وينبغي أن تحيط بالعالم جماعة وثيقة الاتصال دقيقته ، آخذة بآراء متشابهة وقادرة على أن تراجع عمله على عجل سعياً وراء أخطاء في التجربة أو تحقيقاً لثبات منطقي . وتسجل هذه التصويبات غالباً في صحف علمية بالجراند .

٥ — فإذا رجعت التجارب النظرية رجحاناً كبيراً أضاف العالم إلى المعرفة شيئاً جديداً ، وذهب هذا الشيء إلى المخزن ليرجع إليه على الدوام ؛ ويصبح

التنبؤ ممكناً في أحوال مماثلة إذ يكون بيدنا ما يعتمد عليه ، وما لا يقبل الجدل .
وفي الإمكان أن يتفق كافة المراقبين المختصين على أن معادلة أينشتاين صحيحة وأن
 $E=MC$ أو أن كشف الفناسل يضبط نمو عدد السكان . ويمكن العلماء في
المرحلة التي تدحض فيها نظرية أن يجادلوا كما كانت الصحيفة الاشتراكية المحلية
تجادل في سالف الزمان . لكنه إذا قام الدليل على صحة النظرية بالتجربة وجب
أن يكفوا عن الضجيج . ويمكن أحيانا أن توجد طائفة من النظريات المحققة في
قانون عام عظيم — كالديناميكا الحرارية أو كالجاذبية . ويسر العلماء دائماً أن
يستطيعوا تعميم نتائجهم أكثر مما هي .

ومما يصور نهاية المناقشة تطور الذرة . فبعد اكتشاف النواة والكهارب
المحيطة بها في أوائل القرن العشرين ، وجد أن الشرارات الكهربائية الموجبة
والسالبة في داخل الذرة لا تتعادل . وقد لبث علماء الطبيعة عشرين عاماً يتجادلون
في كيف يكون كهرب داخل النواة ، ولماذا لا يفنى الشرر بعضه بعضاً . ثم
اكتشف شذويك الفترون في سنة ١٩٣٣ فتعادت على الأثر الاعتبار
الكهربائية بطريقة مرضية وسكن الجدل .

٦ — تتطلب الطريقة العلمية أنه حين تقابل الوقائع بعضها ببعض يجب أن
تكون من نوع واحد ، فلا تضيف كرمبا إلى كهارب وتتوقع مجموعاً له معنى .

٧ — العلم ذو قوة محرّكة يصحح نفسه بنفسه . وهناك جماعة يقظة ، ساهرة
دائماً . وقد كفت عن البحث عن المطلقات ، فهي تميل اليوم إلى التوفر على
العمليات ، فقد تزيد تجارب أخرى أو تنقص من رجحان قانون ما ، فإذا أجبت
التجارب وجب أن يعاد تقرير القانون ، ثم يحتاج الأمر إلى تجارب أخرى
لثبوت هذا التقرير كي يأخذ مكانه في الخزن ، وهكذا دواليك إلى ما لا نهاية .
وفي كل خطوة إلى الأمام يزداد الرجحان ويزداد الملاءمة للطبيعة إحكاماً . ولا يتوقع

عالم أن تكون هنالك ملائمة مطلقة ، فهو يدع هذا إلى المشتغلين بما وراء الطبيعة .
فإنه لما مات كورت ليفن السيكلوجي في سنة ١٩٤٧ أثنت عليه « لانست »
لتمييزه بين أرسطو وغاليليو في جملة ما أدى من أعمال بديعة أخرى . فقد كان
أرسطو معنياً بخواص الحجارة . أما غاليليو فكان على النقيض من ذلك معنياً
بعلاقات الحجارة بما حولها .

٨ — ليس في العلم ارتياعات بدهية .

٩ — يستخدم الاتساق المنطقي بتوسع ، بيد أن المرجع في النهاية هو إلى
التجربة أو الملاحظة في المستوى غير القولي ، فقد يجد الفيلسوف الجواب في الجدل
لكنه لن يجد فيه التجربة الجواب الشافي ، وإنما يمكن أن تجده نقطة في
تجربة أخرى أدق .

١٠ — إن تزييف تجربة ، وتلفيق نتيجة ، ورواية شيء غير الحق كله كما
يعرفه المرء وحده في سره ، يجلب الخزي ، ويسحب ذيل النسيان . فلن يمكن أن
تكون ثمت عمليات سرية ، وأدوية لا يعلم عليها ، وتفاهات خاصة ، وإنما يجب
أن تطرح العمليات الحسابية على المائدة ، وأن تواجه ليراه العالم بأسره . ففي هذا
العلم أوثق معارف الإنسان صالة « بالأخلاق » . وهنا أخطر عيب في مشروع
مانهاتن ، والسبب لنشر تقرير سميث بعد هيروشيا مباشرة . وقد اضطر بعض
العلماء أن يخرقوا قانونهم الأخلاقي فأسخط هذا منهم الكثيرين سخطاً مربراً .
ويفسد العلم أن يقع قياده دائماً في أيدي الوطنيين والنظرين . فالعلم شعوبى
كريح الشمال .

تعريف العملية

يقول پ. و. بر دچمان الحائز لجائزة نوبل في « منطق الطبيعيات الحديثة »
إن أينشتين لم يحدث ثورة في طبيعيات نيوتن فحسب ، بل أحدث مثل هذه الثورة
في طرائق تفكير العلماء ، فهدم الزمان والمكان والكتلة والمُطلقات ، وحل بذلك
العلماء على أن ينشدوا آراءهم فيما أدوه بأيديهم لا فيما قالوه بأفواههم . فلا يُعزل
« الزمان » ككيان بأية عملية يمكن أن تؤدي بمقاييس الأمطار أو الساعات
أو غير ذلك من الأدوات . « فالمكان » يدخل فيه دائماً . وقياس الزمان بالساعات
ينطوى على قياسه في مكان ما . وإذا كان من غير المستطاع أن تجري عملية لعزل
الزمان ، فإن الزمان المطلق بالمعنى النيوتني يصبح عديم المعنى . وفي وسع العلماء
أن يتلاعبوا به . لكنك إذا كنت مرابطاً في خط الطبيعيات الأمامي وجب أن
تفكر باصطلاحات المكان والزمان التي تطابق تلك الحقيقة الماثلة فيما يلي رؤوسنا .

ويسلط الدكتور بر دچمان هذا الضوء الكشاف القوي على العلماء
الاجتماعيين . فهم كالعلماء الطبيعيين سيفرض عليهم القيام بعمليات ، والإشارة
إلى السلوك البشري المحرك ، وأن ينبذوا الاتجار في التجريدات من دون مراجع ،
إذا كان لا بد أن يستحدثوا آراء ذات معنى . إنه يدعو العلماء الاجتماعيين إلى
استخدام طريقة العملية لتعريف مصطلحات كالحرية ، والجبرية ، والحقوق ،
والمسكية ، والدولة ، والعدالة . فهنا — على قوله — الطريق الممكن الوحيد
المؤدي إلى معرفة مثمرة في العلوم البشرية والطبيعية على السواء .

وينبغي أن نؤكد هنا مرة أخرى أنه بينما تعتمد الطبيعة والكيمياء أكبر
اعتماد على عمل المعمل والقياس المضبوط فإن علم الأحياء وطبقات الأرض والطب
تعتمد أكثر من ذلك على الملاحظة والمقابلة والاتساق المنطقي . ولم تكن قوانين

داروين العظيمة عن النشوء والارتقاء من منتجات العمل ، لكنها كانت منطقاً
طَبَّقَ على ملاحظات دقيقة . ويمكن أن تجعل بعض المناطق في العلم الاجتماعي من
حيث الكم أدق من مناطق واسعة في علم الأحياء وفي الطب .

مليونان من العلماء القادرين

يتبوا بردجمان وأو بنهايمر بما أحرزا من نجاح في الجبل ، فكيف يسعنا أن
نفهمهما نحن الذين نتخذ مكاننا في تلال السفوح وفي السهل . إننا لا نستطيع أن
نفهمهما كل الفهم ما لم نقسم اليمين ، وندخل في عشرينهما المتراسة . على أن هنالك
على الأقل ثلاثة أسباب يمكننا من أجلها أن نتقارب أكثر من ذي قبل ، وأن
ننبذ كل النبذ فكرة أن العالم فريسة نوبات تصيبه عند منتصف الليل .

ولنبداً القول بأننا جميعاً من أينشتين فنأزلا أعضاء في الجنس الإنساني يتشابه
جهازنا الفيزيولوجي . وهنالك ما يحملنا على أن نفترض أن لنا تقريباً عين الصلات
القوية وعددها في أدمغتنا . فإذا ضرب بعض العلماء في هذه الصلات على نفمة
مختلفة بعض الاختلاف ، ففهم أن البعض الآخر يمكن أن يتعلم أن يفعل ذلك .
هذا إلى أن بعض قادة العلماء حين يبارحون جبلهم المختار ، ويحكمون في أمور
أخرى كالحياة والأخلاق وما بعد ذلك ، يبدوون كغيرهم غباء سواء بسواء .

ثانياً : إن كلامنا ينطوي على طلب لا ينقطع هو « نشدان اليقين » ، ذلك
الذي تحدث عنه جون ديون . فنحن جميعاً على الأقل من أولئك العلماء المشتغلين
بالأجنة أو أولاد الضفادع في حاجتنا إلى إيضاحات لأشياء تربكنا وتحيرنا .
ومن المعلوم أن الأفاصيص تزودنا بنظريات إيضاحية كثيرة : « لقد أمطرت السماء
لأن القمر كان بديراً » . ومع ذلك فإن بعض الأفراد يتصيدون بعض الأشتات
الضالة من الخبرة ، ويصيغون منها نظرياتهم : « إن السيارة تتعثر لأن الجراح

الأخير لا بد أن يكون باعنا بنزينا ردينا ممزوجا بالماء « والعالم يبدى نظرياته بأدق من هذا كثيرا ، ثم يحققها بتجارب مراجعة أو زيادة الملاحظة . وبقينا لا يلبثون في العادة أن يهجروا هذه التجارب في المرحلة التي لا تكون النظرية فيها ناضجة . وأخيرا إن الكثيرين لا ينفكون يقومون بتجارب لا يضبطونها كثيرا ، غير شاعرين بأنهم في هذه الملاحظة يعملون للعلم . إنك تزرع نصف الحصى على عمق بوصة ، وتزرع الباقي على عمق بوصتين ثم تنظر أى النصفين ينتج المحصول الأجود . إنك تجرب هذا المخصب مع ذلك . إنك تدير زر النور الكهر بائى فلا يسطع نور فتستخلص بصفة عامة أنه محروق ، لكنك فى الغالب قبل أن تلقى بالقيش ، تضعه فى موصل آخر ، فيثبت القيش الصالح وجود التيار . هذا العمل البسيط تجربة مضبوطة وصارمة نوعا ما .

إن جرائم الطريقة العلمية ، موجودة فى جميع طبقات الناس وفى كافة أحوال الناس ، وخاصة من يشتغلون منهم بأيديهم . ولا حاجة إلى أن يكون هناك عالم علماء منعزل عن عالم العلمانيين إذا أردنا حقا أن نعمل معا وأن نمد خطوطا أحسن للاتصال . وقد يكشف عن الطرق المثلى أن يقوم العلماء الاجتماعيون بشيء من الأبحاث . وكل يوم يمر يزيد فى ضرورة التقاء العالمين .

لقد حاولت أن أسرد بعض الخصائص الكبرى للطريقة العلمية . والآن ننتقل إلى مثال مهم لتطبيقها فى ميدان العلاقات البشرية .

٣ - كيف تدبر قائد طائرة

كان معظم قادة طائرات السلاح الجوى فى الحرب العالمية الأولى يختارون على أساس الشجاعة . فبعد الكثير من الحوادث المرعبة جعل القواد يقساءلون : هل كل الشجمان قد وهبهم الله القدرة على البقاء فى الجو ؟ فلما شارفت الحرب النهاية أجريت عملية نجاة من عمليات الغرلة . وعندما اقتربت الحرب العالمية الثانية لم يكن تم تقدم يذكر من ذلك الحين . وكانت بعض الاختبارات قد أجريت من الناحية التسليمية فلم تزد شيئا كثيرا .

وفى سنة ١٩٤١ طلب الرئيس روزفلت ٦٠.٠٠٠ طائرة فحصل على ٣٠٠.٠٠٠ قبل أن تطلق أول طلقة ، وذلك على الرغم من تشكك الدوائر العليا ، فمنذا الذى كان سيقودها ؟ لقد اشتبط فى طلب قادة الطائرات وملاحيا وقاذفى قنابلها وعمال مطاراتها حين هددت الحرب بأن تكون فى جبهتين . ولم يكن ثمت العدد الكافى من خريجي الكليات فى كافة البلاد لمواجهة ذلك ، حتى لو صلح كل واحد من هؤلاء الخريجين للعمل . فساكان من الضرورى أن نجري فى الحال عملية غرلة لفحص آلاف الشبان لامثاتهم فحسب . وكان من الضرورى والطائرات تخرج من مصانع ديترويت وسيتل أن يتخرج قادة الطائرات فى ميدان التدريب .

ورهن العلماء بوضع تصميمات الطائرات ، ورهن العلماء الاجتماعيون بتصميم قادة الطائرات . ونظم فى سنة ١٩٤١ للنهائج السيكلولوجى للطيران فى سلاح الجيش الجوى لغرض ثنائى هو الكشف عن الخصائص البشرية التى تجعل من الشاب طيارا صالحا ، ثم إجراء سلسلة من الاختبارات النفسية لتبين مثل هؤلاء الشبان

إذا ما تقدموا . وقد قامت هنا ضرورة لاختبار الصلاحية فانت كل ما حاول من قبل .

وقد كلف جون فلانجان السيكولوجي في مكتب الاختبار بمجلس التعليم الأمريكي - كلف بهذا البرنامج وعُهد إليه فيه . وقد لقي في بادئ الأمر تعاوناً كبيراً من قواد السلاح الجوي الأمريكي ، وشرع في الحال في تجنيد المساعدين من الجامعات ومن إدارات المستخدمين في النقابات الكبيرة . فلم يحل يوم الإمبراطورية حتى كان تحت إمرته أكثر من ألف شخص .

وسرعان ما اكتشف أن اختبارات الذكاء المختلفة فيما ينوف عن الثلاثين السنة الماضية لم تكن مما يعين كثيراً على انتقاء قادة الطائرات ، فقد كانوا يقيسون الصلاحية المدرسية أكثر مما يقيسون القدرة على الخروج من هبوط مفاجئ . ووجد أن القاعدة القياسية ، قاعدة المؤهلات العشرة التي يلزم توفرها لعمل من الأعمال ، قاعدة محدودة أكثر مما ينبغي . فإنه كان لا بد من توفر قرابة عشرين مؤهلاً لانتقاء رجل يستطيع أن يقود طائرة في قتال . ووجد أن قائداً غير صالح يمكن أن يكون ملاحاً صالحاً ، وأن رجلاً يحذق استعمال نوع بعينه في المواقف قد يخفق في استعمال نوع آخر .

والقدرة على الحاجة والتدليل ، والإلمام بقاموس واسع فياض من المفردات ، والمهارة في معالجة العمليات الحسابية ، بديع كله للنجاح في العمل الجامعي ، لكنه لا يحدى من الوجهة العملية على قادة الطائرات أو قاذفي القنابل ، غير أن مثل هذه المقدرات تساعد الملاحين . والراجع أن أهم تقدم تم أثناء البرنامج كله كان تطور الاختبارات التي قيست بها القدرة على الطيران لا القدرة في فصول المدرسة . ويمكن أن نسمي هذه الاختبارات اختبارات نفسية جسمانية إذ هي تتناول النظام العضوي كله جسماً وعقلاً .

الكشف الأول

نحن هنا مع آلاف الشبان الذين يحرقون إلى منازل السلاح الجوي الألماني في الجو ، ومع فرقة من العلماء تحاول أن تقرر أى هؤلاء صالح لأن يقوم بهذا . يقوم هؤلاء الخبراء قبل كل شيء باختبار يستخدم فيه القرطاس والقلم ، ويقوم على أساس من الخبرة الماضية في هذا المضمار ، ويتخذون في نفس الرقت إجراء لاختبار الاختبار بحيث يصلح نفسه بنفسه ، فيكون أن يتحسن الكشف الابتدائي على الدوام .

وكان جميع من تناولوا هذا القلم وهذا القرطاس للاختبار يربون على مليون من الشبان نجح منهم ٦٥٠.٠٠٠ فكيف كان مدى هذا النجاح ؟ لقد صممت تجربة مضبوطة للحصول على جواب ، فسمح لألف شاب بأن يثقلوا الدروس التمهيدية في تعلم القيادة ، سواء أكانوا من الفاجحين في الاختبار أم لم يكونوا . فالذين نجحوا من قبل أبلوا أحسن من بلاء الذين أخفقوا في الاختبار . وكان الكشف التمهيدى عن مليون شخص قد أسفر عن استبعاد عدد من مربعات المتقدمين .

لكن الطريقة لم يظهر أثرها في عدد كاف من هذه المربعات ، إذ تسلل الكثيرون . فلكى يصمم حاجز قوى حقا عهد إلى جماعة من السيكلوجيين والفنيين في أن يتوفروا على صوغ النظريات وإجراء الأبحاث وصنع الآلات . وأخيراً توصلوا إلى « بطارية » من الاختبارات مؤلفة من جزئين مختلفين .

البطارية

فالشاب الذى يواجه هذه البطارية يجلس مع عشرات من رفاقه ليجيب بالقلم والقرطاس عن اختبار أبعد غوراً بكثير . فإذا انتهى من هذا ذهب إلى غرفة

زاخرة بآلات غريبة . فيجلس الطلاب صفوفًا يواجه كل منهم لوحة من الأدوات يحرك فيها عددًا معقدة . وفي آخر الصف فتى مدرب يشرف على التجربة ، ويحرك أيضاً عددًا ، فيحرك بها تصميمات مسجلة أربية مختلفة لاكتشاف الطلاب .

وتقيس البطارية أشياء كثيرة كسرعة الإدراك ، والفهم الآلى ، والقدرة على قراءة الجداول ، والتدليل الرياضى ، ونحو ذلك . وبعد بضع عمليات إحصائية معقدة يدونها كل واحد فى سجله يفرق بين طلاب قيادة الطائرات وبين الملاحين ، ثم بين كليهما وبين مطلقى القنابل . ثم توضع كل جماعة من هذه الجماعات فى درجة من تسع درجات أو طبقات قائمة على ما تنبأوا لها من مقدرة فى الجو .

مراجعة التنبؤات

فما مبلغ تحقق هذه التنبؤات ؟ لقد رتب مزيد من التجارب المضبوطة للوصول إلى ذلك . خذ قادة الطائرات مثلاً ، فإنه لما درب رجال من كافة الطبقات التسع تدريب الميدان الابتدائى لم يخفق فى بلوغ الدرجة سوى ٤٪ من الطبقة العليا مقابل ٧٧٪ أخفقوا فى الطبقة السفلى . ومثل هذه النتائج المنظمة قد ونحت بالنسبة للملاحين وقاذى القنابل . وقد بدا هذا يدل على أن التنبؤات كانت صائبة جداً .

ولم يكن يسمح فى الحال لطالب بأن يتدرب فى الميدان على هذه المراكز ما لم يبلغ إحدى الطبقات الثلاث العليا . ومن هم دون الطبقة السابعة ممن يتولون مراکز الضباط الجويين بأسرها كانوا يدرسون على أعمال ضباط المطار والمدفعيين والميكانيكا وعمال اللاسلكى ، يستثنى منهم بطبيعة الحال تلك النخبة التى كانت ترشح على الدوام فى جماعات صغيرة لتجرب عليهم تجارب مضبوطة .

وقد كانت بطارية الاختبار تحسن بصورة متواصلة كلما ازداد تعريف

الصلاحيات وضوحاً ، فكانت أرقام البطارية تقابل باستمرار بما يسجله التدريب الجوي الفعلي ، فما أثبت صلاحيته استبقى وما أخفق استبعد . وقد كانت نتائج جماعة تحت الإشراف مؤلفة من ١٠٠٠ مرشح لقيادة الطائرات كالآتي :

استبعدوا من تدريب الميدان

٧٥ ٪

لا كشف إطلاقاً

٦١ ٪

كشف جيش ما قبل الحرب

٣٦ ٪

بطارية نموذج ١٩٤٤ (ثلاث طبقات عليا)

فانظر ما تعكسه هذه الأرقام من وفرة هائل في الرجال والجهاز والمال ! ففكر في الحوادث المربعة التي تفودى منها ، وفي هزائم القتال التي قابلت انتصارات . فقد وجد أن قادة الطائرات الذين أحلتهم البطارية محلاً عالياً قد سجلوا في النزال خير النتائج .

لقد وجد أن قادة الطائرات الناجحين حاضرو البديهة ، حسنو التنسيق ، يميزون تمييزاً دقيقاً بين الأهداف المنظورة وبين ما يتصور من عل من حركات ميكانيكية ؛ حسنو الترتيب ، يقظون في الطيران . ووجد أن خير قادة الطائرات كانوا في سن تتراوح بين الثامنة عشرة والعشرين ؛ ومتزوجين . وكان أفضلمهم — وهو ماله دلالاته — في السادسة والعشرين أو فوق ذلك ، أعازب ، لم يلقوا إلا التعليم الابتدائي . ووجد أن قادة الطائرات ممن أدرجوا في الطبقة السفلى تعرضوا لضعف الحوادث التي تعرض لها من هم في الدرجة العليا . وقد كان التعليم عاملاً من العوامل ، لكنه عامل من عوامل كثيرة .

كيف يقوم علماء النفس باختبار الصلاحية

لقد نلخص لي نيل . ميلر من بييل الإجراءات التي يتخذها علماء النفس

لإنشاء بطارية اختبار كهذه لانتقاء قادة الطائرات . وتنطوى هذه الإجراءات على أربع مراحل مختلفة :

الأولى ، تحليل العمل . ويبدى علماء النفس في أداء ذلك انتباهاً خاصاً للمقتضيات الدقيقة ، وأسباب الحوادث والإخفاق ، والصفات البشرية التي تضمن النجاح الاستثنائي . وتدرج طرقهم في دراسة العمل الطريف كله من تمحيص التسجيلات ، ومحادثة الطلاب والمدرسين والمشرفين ، إلى التعمل أنفسهم واستيعاب العمل .

الثانية ، إنشاء الاختبارات . فالخطوة التالية هي انتقاء أو إنشاء الاختبارات التي ينتظر أن تقاس بها الصلاحيات اللازمة لتحقيق تلك المقتضيات . وهنا يأخذ علماء النفس يستمدون من المخزن عدداً كبيراً من الاختبارات التي أجريت من قبل واستخدمت ، حتى يكون نوع الأشياء التي يقيسونها معروفاً . لكنه قد يكون من الضروري أيضاً تصميم أشياء جديدة . وتبدو بعض الاختبارات من قبيل ما يجري في المدارس ، وقد يختلف البعض الآخر اختلافاً كبيراً ، إذ يرمى — على سبيل المثال — إلى تحرى السرعة التي يمكن الطالب بها أن يلاحظ دقائق خريطة من الخرائط ، أو مبلغ الدقة التي يمكنه بها أن يدير آلة ضبط جديدة معقدة .

الثالثة ، إجراء التجربة . فبعد أن ينتقى أو يبتكر عدد من الاختبارات المبشرة يتلو ذلك إجراؤها — كخطوة ثالثة — على عينة ممثلة للطلاب الذين سيدربون . ولا تستخدم النتائج التي يسفر عنها ذلك في انتقاء من سيذهبون للتدريب ، بل تدخر إلى أن تتاح الفرصة للطلاب لأن يبلوا في الميدان بلاءً حسناً أو يمنوا بالفشل .

الرابعة ، صدق التجربة . فبعد أن يتيسر قسط ما من النجاح أو الفشل تأتى الخطوة النهائية وهي مقابلة نتائج الاختبارات بنتائج التدريب كي يتبين هل الطلاب الذين أحرزوا في الاختبارات درجات أعلى هم أولئك الذين أصبح ينتظر بعد تدريبهم

أن يبرزوا غيرهم في الميدان . فتستبقى الاختبارات التي تثبت مقدرتهم ويستبعد ما خلا ذلك . وقد طبقت في برنامج الأسلحة الجوية عدة مئات من الاختبارات ولم يستخدم في البطارية النهائية سوى أحسن عشرين أو نحو ذلك .

فإذا كان اختبار ما مؤلفاً من عدة أجزاء اختبار كل جزء على حدة ، واستبقى خير الأجزاء ، على حين يهمل أسوأها . ويوجد إلى جانب تقرير مبلغ ما يقنأ به كل اختبار من النجاح أو الفشل طريقة لإظهار مبلغ ارتباط كل اختبار بما عداه من الاختبارات . وخير هذه الاختبارات هو ما يقيس شيئاً لم تقسه الاختبارات الأخرى من قبل ، وما يتصل إلى ذلك بالنجاح أو الفشل . وتسمى الطرق الإحصائية لقياس هذه العوامل ، والجمع بينها ، لتقرير أية طائفة من الاختبارات يعتمد عليها أكثر من غيرها — تسمى « معامل الترابط » و « معادلة التزايد والتناقص » .

ويدخل في هذا تصميمات فنية كثيرة أخرى ، غير أن الفكرة الأساسية بسيطة فحواها : ادرس العمل ؛ أجر اختبارات تجريبية ؛ طبقها واستبق منها ما يمكن أن يقدر نجاح الطالب أو فشله .

سيكولوجيا الجماعة

لم يرهن علماء فلانجان الاجتماعيون أنفسهم بالعمل وساحة التدريب . فقد قصد بعضهم رأساً إلى مناطق القتال ليواصلوا دراساتهم لإمكانيات التنبؤ ، وليتحروا كذلك درجة الضغط عند الطيران المقاتلين .

وقد قامت فرقة بدراسة خاصة في الميدان الأوربي في شتاء ١٩٤٣ - ١٩٤٤ للألوية الجوية الثامن والتاسع والثاني عشر والخامس عشر . وكانت الخسائر جسيمة فوق قلعة هتلر الأوربية : خمسة في المائة من كل تجريدة قاذفة للقنابل .

فبعد خمس وعشرين تجريدة لم يبق من ألف رجل سوى ٢٧٧ . ولم يكن للطيار من كل أربع فرص سوى فرصة واحدة ، لكن حالته المعنوية كانت طيبة . فلماذا ؟ لقد وجد علماء النفس أن القيادة الحسنة كانت أحد الأسباب ، لكن سبباً آخر كان أم : إحساس المرء بأنه عضو في جماعة ، الطيران والقتل فيها هما الأسلوبان الوحيدان المقبولان للسلوك .

كان الطيارون يطرون معا ، ويلعبون معا ، ويقاثلون معا في أربع من وحدات الأسراب ؛ فلم يكونوا على اتصال يذكر بالخارجين عنهم . كان الفرد منهم يجد نفسه وجماعته شخصا واحداً وكان الجماعة نوع من امتداد الذات . كان يباهى كثيراً بوحدته ، وكان على استعداد لسلخ جلد أى امرئ تحدته نفسه بانتقادها . وكان يحب كذلك أن يذكر على الدوام بأن وحدته أدت عملاً هاماً هو أجل مما أداه غيرها من التشكيلات . وقد كان من كبريات مهام قواد الجماعات أن يؤكد هؤلاء لرجالهم أن هذا هكذا .

وقد كانت هناك طريقة أخرى لرفع الحالة المعنوية هى تشجيع الطيارين على الإفاضة في الحديث عن تجربة مرعبة فوق برلين ، إذ كان علماء النفس ينصحون للقيادة باستخلاص كل تفصيل بدلا من تركه يغلي في صدور الطيارين .

كانت العلاقة بالجماعة جوهرية في منطقة القتال . وحقا لقد تبين نوع من هيراركية الجماعات . فأولا كان الطيار بقدر رجال قاذفته ، إذ كانوا على خير صلة وأوثقها ، ثم السرب الذى كانت طائرته تقاتل فيه ، ثم الجماعة المؤلفة من أربعة أسراب تحت إمرة كولونيل ، فالجنح الذى يقوده بريجادير ، فالواء الجوى أو السلاح الجوى التاسع أو الخامس عشر أو ما يمكن أن يكون . فكل هذه التشكيلات كانت تتيح مشاعر قوية مما يكون بين الرفاق . أما الشعور بين الطيارين نحو جيش الولايات المتحدة فكان أخف ، وأخف منه الشعور نحو

جيوش الحلفاء . بقى الولاء لشعوب الولايات المتحدة ، وقد كان هذا يزيد أو ينقص تبعاً للأحوال .

فإذا ألقي الطيار نفسه من جماعته التى يختلط بها — جنداً ومرباً وجناحاً — سجلت له فى القتال صفحة أجل بكثير مما يكون لو أن ولأء كان نظرياً تعبر عنه الشُّعْر ، من قبيل « الجهاد فى سبيل الحرية » أو خوض « حرب من أجل الديمقراطية » فالناس تعنى للمقاتلين أكثر مما تعنى الفِكر .

وقد استبين ثلاثة ضروب من المخاوف هى : الإضرار بالنفس ، والإضرار بالرفاق ، والخوف من التقصير فى الواجب . فإذا اعتقد المرء أن النتائج التى أحرزها سرية ضئيلة ، سواء أكانت بالفعل هكذا أم لم تكن ، ازداد الخوف . ويجب أن يشجع الفرد على الاعتقاد بأن موته إذا جاء لن يكون هدراً . وقد ساعد على رفع المعنوية أن كان هناك هدف معين : تأدية كثير من المهام ، ثم العودة إلى الوطن . وساعدت على رفعها كذلك الثقة بالجهاز : إن ب — ١٧ هى خير سفينة جوية بنيت على الإطلاق !

ووجد علماء النفس أن الحالة المعنوية كانت تتأثر بما كان يروى عن المتخلفين فى العودة إلى الوطن ، وعن المضربين فى المصانع الحربية . وأثر فيها انعدام الثقة بالضباط القواد ، وما كان يروى عن إعادة طيارين ذوى خبرة فى القتال من دون أن ينتفع بهم فى تدريب الجنود فى ساحات الولايات المتحدة . ودلت بعض الاستجابات على أن ٨٥ فى المائة من الطيارين كانوا وجالين مضطربين فى أول مهمة لهم ، وأن ٤٠ فى المائة ظل الخوف يساورهم فى جميع الرحلات . وليس سوى واحد فى المائة من زعم أنه لم يداخله خوف قط . فهكذا نرى لماذا لم تكن الشجاعة مقياساً كافياً فى انتقاء قادة الطائرات فى الحرب العالمية الأولى .

فكم وفر هذا المشروع من خسائر؟ إن تخمينك كتحمين لا ينفع . والسلاح
الجوى فى الجيش لا يُحْمَن . وإنى لأشبهه فى أن الأرقام لابد أن تصل إلى عشرات
الألوف . ومن العسير أن نذكر ما هو أعجل وأنفع من هذا العمل العلمى المتصل
بالحرب . وسيكون هنالك عدة مجلدات من التقرير القادم عن البرنامج السيكلوجى
للطيران . وسوف تسجل هذه المجلدات مخزنا من المعرفة التى يعمل عليها ، والتى
سيثبت نفعها العميم فى السنوات المقبلة .

دروس لزمان السلم

لقد عمل علماء النفس فى أسلحة الطيران مع آلاف الشبان فى جماعات
إحصائية كبيرة ، فاكشفوا أشياء كثيرة عن عملية التعليم . فمن أشد المصاعب
الجدية فى تدريب قادة الطائرات ورجال الطيران عامة تعليم الأفراد ما لا يصلح ،
وبذا يذهب وقتهم سدى ؛ ولا تقل شيئا عن تضييع أموال دافعى الضرائب .
ويعتقد فلانجان أن متعبة التعليم المدرسى النظامى هى أن الفرد يدرّب للفصول
الدراسية التالية أكثر مما يدرّب للحياة . فالمنهاج على ذلك ينفطوى على درس هام
يساعد على الإرشاد التعليمى . وينبغى أن يكون هنالك تحليل دقيق للأعمال يتناول
أوجها بيئة مختلفة من نشاط البالغين المهنى والتنفيذى والبلدى . بعد ذلك ينبغى
العمل على تحقيق طائفة من المقتضيات التمهيدية الدقيقة ، كما ترد فى المنهاج .
وهو ما لابد من توفره فى الفتى (أو الفتاة) للالتحاق بأية سيرة من هذه السير ،
ثم يجب أن تعد بطارية من بطاريات اختبار الصلاحية ليرى هل لديه أو لديها
ما تتطلبه البطارية ، على أن يخضع كل هذا لتجربة مضبوطة ، وتناسب رياضى .
والعلماء الذين لا يستطيعون اليوم أن يجوزوا اختبارات الشاطئ لا يصلحون
للسير الموسيقية . فقد يكونون صما عن النغم ، أو يكون بهم شىء آخر يعاقهم ، فهم

بحاجة إلى ما يتطلبه الفجاء الموسيقي . ويرثى فلانجان أن يستخدم برنامج الأسلحة الجوية كقاعدة لتطبيق نشيط لهذه الفكرة على كافة المهن الكبرى يوفر جبلا من الإصراف الاقتصادي والإخفاق البشري .

كذلك كان للبحرية برنامجها السيكلوجي بإدارة المرحوم جون ج . چنكنز لانتقاء رجال الطيران . فهي أيضا قد وفرت كثيراً من المعارك الجوية وكثيراً من الأرواح ، وإن كان هامش الخطأ في التقدير ، كما اعترف لي الدكتور چنكنز في صراحة تامة ، قد كان أطول منه في الجيش . وكان في جملة الدروس المتعلقة بزمن السلم تطور ما يسمى « بطريقة التعيين » للاهتمام إلى القادة الطبيعيين . وقد طبقت هذه الطريقة في انتقاء قواد الأسراب . بيد أنها يمكن أن تطبق بالمثل في اختيار مديري المصانع وقد نشئ اختبار الصلاحية فيما يتعلق بالعمال المستأجرين تنشيطاً حسناً . لكن المظهر واللقاة ، وهما المدرسة الإعدادية الحقة ، ما زالوا المعيار الرئيسي فيما يتعلق بالهيئة التنفيذية التي تقاضى ٣٠٠٠ جنيه وأكثرت في السنة .

وقد سمح أخيراً لچنكنز وأربعة آخرين من علماء النفس بالتوجه إلى مناطق القتال على ظهر حاملات لمراجعة اختبارات البطارية التي أجريت في معسكرات التدريب . وقد أداروا كذلك أحداث استغرقت من ساءتين إلى ثلاث ساعات مع قرابة ٢٥٠٠ مرشد بحري ردا على سؤال فحواه : « إذا كنت ستتنضم غدا إلى جماعة جوية جديدة فأى رجلين توتر أن تطير معهما في جناح ؟ وأى رجلين هما أبعد من قلبك ؟ »

من هذا التعيين من الجنود أنفسهم نجمت نتائج مدهشة . فإن بعض القواد لم يذكروا إطلاقاً لأنه لم يكن لهم أنصار . وبعض من هم في درجة دنيا من الضباط فازوا بإشادة كبيرة . وقد اغتبط بعض كبار الضباط لهذه الدراسة على الرغم مما انطوت عليه من قلب الأوضاع والتقاليد التي وطدها الزمن . وعلى كل فإن

القيادة العليا كانت في أمس الحاجة إلى قادة مقاتلين . وقد ثبت أن هذه الطريقة هي خير ما شهدوا لا اكتشاف هؤلاء القادة . فالقائد رجل له بالفعل أنصار ، تكونوا له خلال المنظمات غير الرسمية التي توجد في كل جماعة بشرية من أي حجم . (والمصنع من الأمكنة التي تزخر بهذه المنظمات كما سوف نرى .) وهكذا اكتشفت الطريقة المعينة قادة طبيعيين بدرجة عظيمة من الدقة .

لكن هل هي علم ؟

لنسال هنا أولئك الشيوخ الذين كانوا يتناقشون في مشروع قانون تأسيس العلم القومي في ذلك اليوم القاطن من عام ١٩٤٦ سؤالا : كيف يختلف برنامج سيكولوجية الطيران في أسلحة الجيش (أو البحرية) الجوية في طريقة البحث ، عن مشروع واسع النطاق في العلوم الطبيعية ؟ أين « الفرد أو الجماعة التي تقول لجماعة أخرى كيف ينبغي أن تعيش » — وهو ما أبداه الشيخ فولبريت كفسكرة عن العلم الاجتماعي ؟ أين « النظرات المختلفة » كما عدّها السناور هارت ؟ أين « استمالة تطبيق العلم على دراسة الإنسان ؟ » وهو ما ضايق الدكتور بوتز .

صحيح أن هذا البرنامج يكلف دولارات أقل ، وأنه كان على نطاق أضيق ، وأنه لم يترتب عليه من المناظر ما ترتب على مشروع مانهاتن . بيد أنه من جهة أخرى مشروع أعظم وأبعد غرضاً بكثير من تجارب غاليليو في البرج المائل أو من « حيلة » زئبق توريشلي .

فإذا رجعنا إلى الخصائص العشر للطريقة العلمية — تلك التي أوردناها في الفصل السابق — فابن أهل فلاسحان ورفاقه أيا منها ؟ لقد أبوا أن يقاتروا بالعواطف الشخصية ، وراجعوا نظرياتهم بسلسلة متواصلة من التجارب المضبوطة ، فإذا لم تثبت نظرية لاختبار تجربة أهمت فلم يكن لها شأن بالارتياحات البديهية ، ولم

يلجأوا إلى مرجع أو يرجعوا إلى الحقائق الخالدة ، بينما قد استخدموا منطق الانساق من أول الأمر إلى آخره . وقد باتت كل الوقائع مسجلة الآن بتفصيل عظيم ليراهها العالم ، ويعيد التجارب إذا شاء .

فإذا اعتُرض بأن العلم « الحقيقى » يستخدم رياضيات أكثر وعدداً من أجهزة المعامل أكبر ، فإن مراجعة التقارير الثمانية عشر الضخمة سترد على هذا الاعتراض . فهي تصف الأدوات بالمشترات ، وبعض هذه الأدوات معقد شديد التعقيد . وكثير من صفحات هذه التقارير مغمور بعمليات رياضية استخدمت فيها نظرية الاحتمال استخداماً قوياً .

ثلاثة فروق

ومع ذلك فقد كانت هناك ثلاثة فروق هامة بالمقارنة بمشروع مانهاتن :

الأول : أنه كان فى المخزن من المعرفة التى يعول عليها لتزويد المشتغلين بالعلم الاجتماعى أقل مما فى البرنامج . فليس لعم النفس خط متصل يرجع إلى غاليليو . وقد بدأ هؤلاء المشتغلون بالعلم يبعث طائفة من الوقائع من الحرب العالمية الأولى ثبت ألا نفع فى معظمها ، وإن كان قد بُعثت للبطارية أداة اختبار صالحة واحدة . وقد واصلوا عملهم بتحري اختبارات الجيش فى سنى العشرينات والثلاثينات . وهى اختبارات خلا عدد منها من الفائدة . ثم جمعوا بعدئذ ما كان معروفاً عن اختبارات الذكاء ، لى يتنوها فحسب إلى أنها لا تناسب ما يطلبون .

ولم تكن سلسلة الوقائع المتعلقة باختبار الصلاحية قبل سنة ١٩٤١ مما يساعد إلاً بطرق مكيفة تكيفاً دقيقاً . وقد كان بعض القوانين والنتائج فى علم النفس الاجتماعى وعلم الإنسان الاجتماعى ميسوراً ذا فائدة . لىكنك مع ذلك إذا اطلمت على السجل لم يصعب عليك أن تلاحظ المصدر العلمى المحدود ، وأنه كان على

الجماعة أن تتبكر نظرية جديدة ، وتصطنع أدوات وطرقاً جديدة كلما تقدمت في عملها . ولكن لاحظ : إن من يأتى بعدها يمكن أن يقف على أكتافها .

الثانى : أننا نلاحظ أن التنبؤ الناجح لم يكن بنفس الدرجة التى كان بها فى تحرى الذرة . فلو أن ألف طالب جازوا اختبار البطارية فى الطبقة العليا لما تبع ذلك أن يبيت مائة فى المائة منهم طيارين ماهرين . بل إن نسبة مئوية قليلة من أولئك الذين هم فى الطبقة السفلى قد باتوا طيارين مهرة . وهذه الأهلية لا دخل لها بالطريقة العلمية بل تدل فحسب على هامش أكبر من الأخطاء .

وثالث هذه الفروق ، أننا نفتقد أسماء بعض الأثبت البارزين من حائزى جائزة نوبل . ولا يزال للعلوم الطبيعية أكبر من هذا الاعتبار .

انتظار نيوتن آخر

ولنعد لحظة إلى مسألة التنبؤ : هل يثبط هم المشتغلين بالعلم هامش أوسع من الأخطاء فى الميدان الاجتماعى ؟ كلا . فن قرن مضى كان الطب يخرج من مرحلة الكيمياء وطلب الذهب من طريق التحويل . وكان الأطباء يعتمدون على الحاجة والجدل أكثر مما يعتمدون على الملاحظة الدقيقة . ولم يتقدم علماء الطب إلا بعد أن اخترعت أدوات نافعة لقياس الأعراض كترمومترات العيادة والستيتوسكوب والميكروسكوب ، وإلا بعد أن جعلوا ينقبهون لمرضاهم أكثر ويحادلون أقل . وحتى اليوم لا يستطيع الطب أن يتنبأ بالدقة التى تتنبأ بها الطبيعيات والفلك . ولنا جميعاً معارف يحلوهم أن يباهوا بقولهم : « لقد قررلى الأطباء من خمس سنوات مضت أن أعيش ستة أشهر . فانظر إلى الآن ! » . والطب أيضاً يعالج الإنسان وتحولاته ، ومع ذلك فإنه يدخل فى العلوم الطبيعية على وجه عام .

٤ — متنوعات العلم الاجتماعي

إنه ولو لم يخلق بعد في العلم الاجتماعي نيوتن آخر ، يوجد هناك عدد من الأشخاص بارز مع ذلك ، وإلهم بمض ظنوا أنهم ونيوتن واحد مثل ريكاردو وهربرت سبنسر . ومن الأسماء العظيمة أفلاطون ومكيافيلي ولوك وكونت وتوم بين ومالتوس وچون ستيوارت ميل وچيرمي بينثام وآدم سميث وكثيرون غيرهم . هؤلاء كانوا من الشهرة كأي عالم طبيعي . يعرفهم الجمهور العام أكثر مما يعرفه . ومع ذلك فإنهم لم يكونوا من المشتغلين بالعلم كما يعرف الفصل الثاني هؤلاء ، وعلى الأقل لم يكونوا كذلك معظم وقتهم . وأدى من هذا أنهم كانوا سياسيين أو فلاسفة اجتماعيين — وفرق في هذا بين الاثنين . والنظم والنظرات الفلسفية لا تتطلب بعثة توفدها الجمعية الملكية لتثبتها . ولا شك أن النظرات أحياناً ما تكون حافلة بالحكمة ، بل إنها لتصمد لضربات التاريخ . بيد أن تناول الأشياء بالعقل أقل تواضعاً ، فحيث يقبل العالم الحقائق الواقعة ينجح الفيلسوف غالباً في تجاهلها . ولنفحص كارل ماركس كمثال لهذا التمييز .

هل كان ماركس عالماً ؟

بعد الملايين مؤسس الاشتراكية « العلمية » كنيوتن في ميدان الاقتصاد . فالمفروض أنه اكتشف القوانين التي تحكم الجماعات البشرية كما ينظم قانون الجاذبية حركات الكواكب . ويتحدث أنصار ماركس عن « الجبرية » الاقتصادية ويضيقون ذرعاً بأولئك الذين يشكون في أمور لا مفر من وقوعها بحال .

ولم يكن ماركس ومساعدته فريدريك إنجلز من حب الاستطلاع فيما يتصل بالجموع البشرية بالدرجة التي كانا بها في حنقهما على الرأسماليين . وقد كانت هذه

بداية أسيفة ؛ كانت تناقض أول مبادئ الطريقة العلمية بإخامها السواطف الشخصية . وكانا يريدان الاشتراكية بنفس الشدة التي نشدها بها سان سيمون أو فورييه أو روبرت أوفن ، لكنهما كانا أقل أوهاما ، إذ أقنعت ماركس وإنجلز أربعون سنة مما يسمى بالخيالية ، بعقم العمل على إعداد إرشادات عقلية لتكوين مجتمع حسن ، ومحاولة الإقناع بها بعد ذلك . فقد كانا يتطلعان إلى دواء أجمع .

لقد تأملا البناء الاجتماعي فلم يلبثا أن اكتشفا طائفة من الحقائق الواقعة ، كثرة العمال الساخطين في مدينة ليون سنة ١٨٣١ ، وتهيج الميثاقين في إنجلترا ، وكان كلاهما يبدو مرتبطا بموضوع واحد هو حرب الطبقات . فنشأ فرضا حول هذه الحرب كان شرعيا تماما من الناحية العلمية ، ولجأ إلى كتب التاريخ يستوحيانها ما وعت عن حروب الطبقات في الماضي .

قال إنجلز : « ثم روى أن كل التاريخ الماضي باستثناء مراحله البدائية كان تاريخ حروب الطبقات » . وساد انفعال عظيم لما أن نجم هذا « القانون » عن أبحاثهما في المتحف البريطاني . ولم يقنع ماركس بإيجاد جماعة محركة هي الطبقات الفقيرة التي سجلت الاشتراكية من ذات نفسها ، بل مضى يعمل للنتيجة بتعميمات كاسحة تناولات التاريخ كله . وكان من العسير إن لم يكن من الحال إثبات صحتها .

ويجب أن نذكر أيضا أن مجلدات التاريخ المصنوفة فوق رفوف المتحف البريطاني ، والتي استخلص منها استنتاجاته من مائة سنة مضت كان ينقصها شيء ما . فقد تطور البحث التاريخي منذ سنة ١٨٥٠ .

وجاء علماء الإنسان بملاحظاتهم المئسمة بالأنانية يبدون كيف كان سلوك الناس بالفعل في مجتمع ما . ذلك أنهم لم يهتموا إلى شيء يذكر يؤيدون به « قانون » حرب الطبقات . وإليكم ما يقوله لينتون على سبيل المثال في « دراسة الإنسان » :

إن حرب الطبقات ظاهرة خاصة تطورت في بضعة مجتمعات فحسب ، ثم تخفضت عنها مجموعة من العوامل أهمها تبدل تقافى سريع . بل إن معظم مجتمعات العالم لم يكن منظماً إلى طبقات . وفي تلك المجتمعات التي كانت قبيل النهضة المفاجئة للصناعة الميكانيكية ، بلغت الطبقات حالة من الوفاق المرضى .

وهذا تضارب صريح بين الرأيين . وكل عالم مختص إذا اختار بين ماركس وعلماء الإنسان لا بد أن يختار هؤلاء ، ذلك أن لينتون في كتابه لا تحركه آراء أو ظلال شخصية ، بل يحمل معرفة معتمدة في هذا الميدان . وقد انفق علماء الإنسان على أن المجتمع البشرى الصميم يرتاح ، فيما عدا فترات التبدل السريع جداً ، إلى كل فرد تقريباً فيه ، يستمتع بمركز محدد . هذا إلى أن الفرد العادى يفخر بمركزه ولا يحلم بالتمرد عليه .

العالم الاجتماعى رقم ١ ورقم ٢

إذا لم يكن كارل ماركس عالماً اجتماعياً ، فماذا كان ؟ لقد كان على التحقيق نظرياً اقتصادياً ومن أعظم النظريين الاقتصاديين على وجه عام . والاقتصاديون علماء اجتماعيون تعريفاً — وهو ما نقف عنده . فكيف يكون لنا عالم لا يشتغل بالعلم ؟ يمكن أن يكون لنا ذلك إذا توسعنا في معنى العلم ، وقليل ما هى الأنفاظ التي تعرف الشيء تعريفاً دقيقاً . والمعنى يتنقل مع السياق . فالعالم رقم ١ يمكن أن يكون شخصاً يباشر الطريقة العلمية كما بسطناها في الفصل الثانى . والعالم رقم ٢ يصح أن يكون شخصاً يحب أن يفكر جدياً في المشاكل البشرية . والأول يحاول أن يضيف إلى الخزن معرفة قابلة للتثبيت . والثانى يقنع بالنظر في العلاقات البشرية وصوغ الفروض من حين إلى حين ، لكنه يدع الدليل لغيره . فالدكتور فلانجان على هذا الأساس عالم اجتماعى رقم ١ وماركس عالم اجتماعى رقم ٢ .

ويلاحظ و . ف . أوجبرن أن قسماً كبيراً من العلم الاجتماعى لم يبلغ أيضاً

مرحلة الفرض ، ذلك أنه لم تصغ فيه نظرية واضحة جلية . وهذا الجانب يمكن أن نسميه علماً اجتماعياً رقم ٣ . وفي لوس انجليس تطلق كلمة « العالم » على العالم المسيحي ؛ والعلم اصطلاح فضفاض ، لكن الطريقة العلمية أكثر تحديداً . إن كثيراً من المواد التي يطلق عليها « العلم الاجتماعي » في الجامعات والكتب المدرسية ، لم توجد بالطريقة العلمية ، ولم يتحرر عارضوها من الطرق القديمة في حل المشكلات ، وهي اللقائات ، وكون الشيء مصدقاً ، والمنطق الصرف ؛ ولم توفد فيها الجمعية الملكية بعثات . وقد تكون هذه المادة باعثة على الاهتمام منبهة ، متصلة بالتربية بالمعنى المدرسي ، لكنها ليست قاطعة .

فهل عني أفلاطون في جمهوريته هذا أو عني ذلك ؟ أتوقع مكياً فيللي هتلر ؟ هل ابتكر شبنجلر فلسفة جديدة أو كانت نفس البضاعة القديمة ؟ أ يكتب توينبي في التاريخ أم في اللاهوت ؟ هل النظام الرأسمالي ناضج ؟ إن الإنصات إلى هذا الأزيز الدائم يند عن مراوح أى قسم من أقسام العلم الاجتماعي ، يجعل المرء يدرك بفتنة أن أعضاء مجلس الشيوخ حين اختلط عليهم الأمر ، كانوا معذورين . فإنهم لم يحلوا المعارف الاجتماعية ليفرقوا بين الطريقة العلمية وبمجرد النظر . ولو فعلوا فلعلهم كانوا يرغبون في تمويل مشروعات كانتقاء قادة الطائرات لا كتباً مثل « سقوط الغرب » و « رأس المال » .

الإجرام كحالة للاختبار

ولنتناول حالة أخرى بجانب حالة ماركس . هب إجرام الأحداث من مشاكل قومك الخطيرة ، وأنتك عضو في لجنة تتحرى الأسباب . إنك أولاً تحاول ، على سبيل المثال ، طرقاتاً نظرية . ومعنى ذلك أن تتعدد اجتماعات اللجنة ، وأن تدمن النظر ويقوم الجدل . معنى ذلك أن يبحث عما تورده الكتب الطيبة عن الفتية الأردباء

ويقول بعضها خذ واعط معهم ، ويقول بعض آخر عاقبهم . وبعض من ألف هذه الكتب يقول أعطهم ملاعب وانتشلهم من المباءات . ولا شك أنك وأنت تعود أدراجك إلى جمهورية أفلاطون في فوضى هذه الإرشادات ستجد كثيرا من الفكر الملهمة . بيد أن لجننتك قد تناول الموضوع بطريقة أخرى فتستشير خبراء ممن يستخدمون الطريقة العلمية حقا . وإليك على سبيل المثال ما قامت به فرقة فعلا من اثنتي عشرة سنة مضت^(١) .

لقد جمع بين الجرمين والجرمات ، وغير الجرمين وغير الجرمات ، من الفتيمة والفتيات في الأسرة الواحدة ، في أزواج . فتألف منهم جميعا ١٤٣ زوجا جاءوا بهم من ثلاث مدن وامتحانوا جميعا امتحان تعقب ، بدنيا وعقليا ، باختبارات « خارج قسمة الذكاء » وبأحاديث نفسية ، ثم درست سجلاتهم دراسة تفصيلية فلم يبق دليل على أن الوراثة سبب رئيسي للأجرام أو أن سببه الأمية أو النشأة في المباءات ، أو معظم المزايم الأخرى ، فإن تسعة عشرة حالة من تلك الحالات أتت من البيوت الموصلة . وقد وجد في كل حالة من هذه الحالات التسعة عشرة سوء تصرف عاطفي . وتجد غالبا جذور هذا في الطريقة التي يكيف بها الوالدان شعورهما نحو الطفل . فإذا أحباء وأشعراء بأنه آمن ضوئت فرص الإجرام بالنسبة له مهما يكن من فقر الأسرة . وإذا لم يزود الوالدان الطفل بذلك الأمن العاطفي الجوهرى لكل طفل صغير ، فقد يسرق الخلواتية وهو في الثامنة من عمره .

قال يونارد دوب سيكولوجي بيل ، معلقا على هذه الدراسة إنها جعلت أربعة أخماس ما كتب من قبل عن الإجرام غير صالح ، إذ أضافت إلى مخزن المعرفة شيئا قاطعا . وهي تزود لجننتك بنقطة مفيدة للشروع في العمل ، ولكل محاولة جديدة لعمل شيء يتعلق بإجرام الأحداث .

(١) هيلي وبرونر وغيرهما « ضوء جديد على الإجرام وعلاجه » مطبعة بيل ١٩٣٦ .

فروض لم تحقق

يلوح لى أن من الأهمية بمكان عظيم أن تدرك الفرق بين هذين الجناحين للعلم الاجتماعى . ففى طرف بعيد من أحد الجانبين ما خطر ببال رجال عظام من أمثال أرسطو وهو بس وماركس وغيرهم لم يبلغوا عظمتهم . ولا يعلم أحد هل ما قالوه صحيح أو لا . وفى طرف بعيد من الجانب الآخر أولئك الدؤوبون من مدونى الملاحظات فى العيادة ، وقرية الكونفو ، والمعمل ، مثبتين ما يرون وما يسمعون . فهم يكسدسون كتلة جامدة من الحقائق . وبين هؤلاء وهؤلاء منطقة قد يكون فيها من ذوى التصور من يستخدمون الطريقة العلمية جانباً من الوقت ، ومن يطلقون العنان لخيالهم بقية الوقت . ولعل وليم جيمس أحد هؤلاء .

وليس ثمت داع لأن يكون المرء صارماً فى تدقيقه ، ذلك أن جانباً كبيراً من العلم الاجتماعى ليس علمياً بالمعنى الدقيق . وكل ما هنالك أننا نستبين أن الجناح المتأمل أو العلم الاجتماعى رقم ٢ لم يتجاوز مرحلة الفرض ، وأن الدليل الكافى لم يقم ، وأن الحاجة والجدل قائمان .

ولا يمكن أن ينفى النقد شرعاً إلا حين يُزعم صواب نظرات ممتعة . بيد أن القارئ اللبيب يملك اختبار صدقها . فهل سكن الجدال بين ذوى رأى لأنهم سلموا بالفرض أم ما يزال الجدال محتدماً لا ينتهى إلى نتيجة ؟ إن المناقشة تتردد فيما يتعلق بالمادية المنطقية لكنها تخفت فيما يتعلق بإجرام الأحداث .

ويرثى الدكتور أو بنهايم اختباراً آخر ، فهو يقول إن العلم يعطينا قبل كل شئ الوسيلة لاكتشاف الخطأ ، فهو على الدوام يصحح نفسه بنفسه .

وفى الواقع إن وجهاً من الوجوه التى لا بد أن تثير شبهتنا فى المذاهب التى أقامها بعض أتباع فرويد على عمله الأول الباهر ، هو الميل إلى نظام مغلق ... نظام يقبض طريقة فى الإغفال الآلى تقريباً لكل دليل يمكن أن يناهض المذهب .

والأمر كله في العلم يناقض ذلك على خط مستقيم . . . وقد يرى البعض أن اتباع
ماركس الحديثين قد نشأوا في ميدان آخر نظاماً يمكن أن يقارن بهذا النظام .
وفرويد ، وقد انقلب سيكولوجيا بوصفه من رجال الطب ، يقف على
الحدود بين العلم الطبيعي والعلم الاجتماعي . وهذه منطقة واسعة . بيد أن الدكتور
أوبنهايم قد زوّدنا باصطلاح قيم هو « النظام للعلق » . والعلم الاجتماعي ، وقد
عرّف تعريفاً واسعاً كما يجب أن يظل يُعرّف ، له نصيب ممن يوصدون على
أنفسهم الأبواب إذ يحمون « المذهب الحقيقي » من كل تحقيق إيجابي جديد .
فإذا ألفينا طلاباً مشغولين على هذا النحو ، عاطفيين في الراجح بعض الشيء
كذلك ، فلنبتأ كد أننا حيال شيء ليس من الطريقة العلمية .

مستر برنهام ومستر مبنسر

بعد جيمس برنهام في نظر الناس من المشتغلين بعلم السياسة إلى درجة كبيرة
بما ألف من كتب حية . فقد كتب في سنة ١٩٤١ « ثورة المديرين » ، ذلك
الكتاب الذي بسط موضوعاً مثيراً هو أن المديرين — أكثر من الملأ
والعمال — سيبيل أن يصبحوا الطبقة المتسلطة في المجتمع الحديث . وقد قدم من
الوقائع ما يكفي لضمان فرض . لكنه أثناء أن كان ينشئ هذا الفرض تنبأ لسوء
الحظ تنبؤات سطحية فقال وهو يعرض طبقة المديرين في ألمانيا إنه لا مفر من
انحصار المحور في الحرب العالمية الثانية ، فكان مخطئاً . وقال إن ثلاثاً من الدول
العظمى ستسيطر على العالم بعد الحرب — وهي ألمانيا واليابان والولايات المتحدة ،
ويسجل هنا ٣٣ ٪ صواباً . وقال إن روسيا ستشطر شطرين بين ألمانيا واليابان ،
فأخطأ مرة أخرى . وقال إن آخر انتخاب في الولايات المتحدة سيكون في سنة
١٩٤٠ في الغالب ، « وعلى الأكثر الانتخاب التالي للأخير » . وكأنما يبدو أنه
يخشى ألا يكون دقيقاً في هذه المسألة أيضاً .

ويقدم المرحوم موريس ر. كوهين ، مثلاً آخر من العلم الاجتماعى رقم ٢ فيقول : « ولأنه للأمم المختلفة تاريخ مختلف فإن من الخطر مقارنة سنن أمة بسنن أخرى . وقد لجأ رجال من أمثال كونت وهربرت سبنسر ، وهم يدورون حول هذه المصيبة ، إلى نظرية تعسفية هى أنه لا بد لكافة الشعوب من أن تقطع نفس المراحل فى تاريخها ، وأعلنوا سداد مقارنة بعض الشعوب ببعض فى نفس المرحلة التى تقطعها . وليس فى علم الإنسان أو فى التاريخ ما يؤيد ذلك . فإن أهل بيرو ، على سبيل المثال ، لا يمكن أن يكونوا اجتازوا ما يترتب على هذا الفرض من مراحل الرحيل والرعى والزراعة . ذلك أنهم لم تكن لهم ماشية تكفى شعباً من الرعيان . ويلوح أن الباحثين اخترعوا عادات قبلية توافق نظرياتهم ، وهم يكادون ألا يتجاسروا اليوم على فعل هذا ، فهناك « كشاف الحضارات المتعارضة » يقف لهم بالمرصاد .

والذى يبدو أن الأمر سينتهى إليه هو هذا : لكل منا الحق فى أن يرتئى ما يراه حول العلاقات البشرية ، وأن يكتب عن ذلك كتباً إذا شاء . لكنه لا ينبغي أن ننشر مثل هذه الكتب من دون أن نوضح أننا إنما نعرض فرضاً لم يحقق . وإذا رجعت إلى الماضى فقد أجد كتاباً أو كتابين لى كان ينبغي أن يحوى هذا التحذير .

أبراج عاجية

قد يكون من النافع ، ونحن فى حالة عصبية ، أن نذكر بعض مصاعب أخرى فى الجناح النظرى من العلم الاجتماعى .
يودع كولن كلارك فى مقدمة دراسته الكلاسيكية « أحوال التقدم الاقتصادى » زملاءه الجامعيين فى لندن ، فيقول إنه يحبهم جميعاً شخصياً . لكنه يفزعهم منهم

إبشارهم المتواصل للطريقة النظرية على الطريقة العلمية في تناول للمشاكل الاقتصادية .
يقول إنه ليس ثم واحد في المسألة يفهم حق الفهم مم تؤلف الطريقة العلمية .
وأقل فهمًا من الجميع أولئك الذين هم أكثر تحرقًا من غيرهم إلى إعلان طبيعة
الاقتصاد العلمية . وهو يعرف الطريقة العلمية على النحو الآتي :

١ — التنظيم الدقيق لكل الوقائع الملاحظة .

٢ — صوغ الفروض منها .

٣ — التنبؤ بنتائج جديدة على أساس هذه الفروض .

٤ — اختبار النتائج بالنسبة لوقائع ملاحظة أخرى .

يقول إنه من التهم أن نرى تيار الكتب التي تحاول حل مشاكل اقتصادية
مركبة تركيباً استثنائياً — حلها بالمنطق والجدل ، وهي تكاد ألا تشير في الغالب
إلى الوقائع . وأسوأ من هذا إعادة إقامة كتاب على حجج نظرية ثم النقاط بضع
وقائع لتصوير نتائج سبق الوصول إليها . وهذا بالضبط وضع للعربة النظرية أمام
الحصان الواقعي .

ويرى كلارك أنه قد يكون ثمة محل لاثنتين أو ثلاثة من عظماء النظريين
الاقتصاديين في جيل واحد ، لكنه لا محل فيه لأكثر . أما الباقون فلا يستطيعون
سوى أن يضعوا حجراً على حجر في طريق الدربة العلمية الصعبة ، رافضين بقوة
كافة النظريات التي لا يمكن تحقيقها . (وسنعود إلى اعتراضات الأستاذ كلارك
فيما بعد .)

إن جداول الجامعات للأسف ليست مرتبة بحيث تسهل لطلبة علم الاجتماع
ملاحظة مباشرة ، فإنه يندر أن يحملوا كراساتهم إلى الكونجرس أثناء جلسة
حامية الوطيس ، أو إلى إضراب أحواض في نيويورك ، أو ثورة في باراغواي .

يقول بيردزلى رَمَل إن مثل هذا البرنامج خلىق أن يكون كثير التكاليف ، لكنه أصعب من ذلك ما يمكن أن يترتب عليه من متاعب جسيمة . لقد كانت العلوم الاجتماعية إلى عهد قريب تميل إلى أن تكون فكرية ، محلفة ، متحذقة ، غريبة . وكان خير الطلاب من استطاعوا أن يعالجوا المنطق الجرد بحذق ، ويستعملوا الرموز اللفظية استعمالاً صحيحاً .

وكان الأساتذة ينزعون إلى الجلوس فوق المقاعد يؤلفون الكتب عن كتب غيرهم ، والطلبة يجاسون فوق مقاعد أقرى قليلاً من مقاعد الأساتذة يكتبون الرسائل عن نظريات أناس توفوا وقضوا في المائتى السنة الأخيرة . ويعتقد مستر رَمَل ، أنه كلما تقدم علم الإنسان انعدم وجود الطلبة النجباء حقاً بين التلاميذ الموهوبين بمقاعدهم ، ووجدوا بين الفتية والفتيات الذين يحبون الناس ، ويحبون التحدث إليهم ، وإجراء الحديث معهم ، ويهتمون بالعلاقات البشرية ، فهم يريدون دراسة المجتمع الحى أكثر مما يريدون دراسة الكتب العظيمة .

ويضيف إلتون مايو شهادته إلى شهادة المستر رَمَل والأستاذ كلارك ، فيثبت حزيفاً بعد ربع قرن قضاء فى أعمال الجامعات كيف يدرّب طلبة العلم الاجتماعى على الجدل والاستشهاد بالحجة لا على معالجة المواقف المادية التى تنطوى على علاقات البشر ، فيشبهون بعض الشيء ذلك الرجل الذى تلقى بالمراسلة دروساً فى الطيران ، فعرف عن الطيران كل شيء ، لكنه عجز عن أن يطير . وكثيراً ما يصل رجال الجامعات إلى تعميمات واسعة من دون أن يؤدوا عمل الفأس الضرورى فى الحقل وفى العيادة .

وقد أظهر الدكتور مايو فى تجاربه بمصنع هوثرن (انظر الفصل الثالث عشر) أن النتائج العملية يمكن أن تستخلص بطرق إكلينيكية كما تستخلص بطرق

معملية ، فهو ينصح للجامعات بأن تدرس المهارات الاجتماعية التي يمكن أن تستخدم في معالجة مشاكل معينة . وكثير من طلبة الدكتور مايو يستخدمون الآن ما تلقنهم من طرق بمدرسة تجارة هارفارد لحل مشاكل العمل والإدارة في المصانع والمكاتب في جميع نواحي البلاد .

إزالة الأتقاض

يلاحظ جورج لندنبرج أن علم الاجتماع هو العلم الوحيد الذي كان خليقاً أن يظل زعيم من قرن مضى مطمئناً إليه واجداً فيه راحته . وقد لا يكون في هذا القول إنصاف لرجال الاقتصاد . فمن هو خليق أن يكون أكثر اطمئناناً اليوم من ريكاردو في مدرسة الاقتصاد اللندنية ؟ تصور على سبيل المثال نيوتن واقفاً إلى جانب سيكلوترون^(١) في معمل كافندش ، وعليه أن يلم بالجموعة العظيمة المؤلفة من النظرية الذرية والنسبية وآلات الكمية قبل أن يعرف ماذا يفعل السيكلوترون . إنه كان خليقاً أن يلم بها ، ولكن ليس في يوم .

ويشير هاركورت مورجان إلى أن النظريات الاقتصادية والسياسية عن المجتمعات البشرية قد صاغها الإغريق وغيرهم من القدماء قبل أن يتحرى العلماء العالم الطبيعي بطريقة منظمة . وما تزال دراسة المجتمعات البشرية في فصول دراسية جامعية حافلة بهذه التخمينات المحترمة ، ملقاة على عواهنها أو قائمة على علم كيفما تكون الحال . ويقول مستر مورجان إنه بات الآن من مهام العلماء الاجتماعيين أن يزيلوا أنقاض النظرات الميتة — من أرسطو إلى ماركس — ويبسّطوا من جديد ، مازجين ما اكتشفوا من أوامر ونواه ونصوص ومحظورات للطبيعة بقوى الإنسان الحديث ومقدّراته .

(١) جهاز كهربائي مغناطيسي لإنتاج جسيمات مشحونة ذات طاقة عالية .

الأحاجي كعلم

لنستشهد بفقرة لعالم اجتماعي مشهور كتبها من أقل من مائة عام ، ولا نذكر فيها اسمه لأن هذا يكون مغاير كريم :

فطبقاً للنقطة السالفة إذا نظر كل الأطراف المتفاعلة في الزواج ، وفي الأقليات والأكثريات ، وفي الجماعات والأفراد على اختلافها ، وهي المتفاعلة بحكم المهنة وغيرها ، والدين ، والسياسة ، والاقتصاد ، والجنس وغيرها وغيرها — إذا نظر هؤلاء وهؤلاء إلى المميزات المفروضة البادى تشاكلها أو عدم تشاكلها ، من طبيعية ، وأحيائية ، وعقلية ، وثقافية اجتماعية ، على أنها قيم يمكن إهمالها أو على أنها ليست قيماً إطلاقاً — إذا نظروا إليها أيضاً على أنها لا تتطوى على تشابه أو عدم تشابه فإن مثل هذه النظائر أو اللا نظائر تكون عديمة الضرر في خلق التضامن أو التخاذل .

من المرجح أنه ليس على قيد الحياة عشرة يستطيعون أن يترجموا هذا ، إذا كان حقاً مما يترجم ، فقد فقد المؤلف الاتصال بإخوانه مخلوقات الله في سحابة من التعابير الفنية . وكثيراً ما يكون غير المؤلف منها موسوماً بسمه هائلة من المعاني تحضر في ذهن بيتاً مشهوراً لشبلى إذ يقول : « ما من شيء هو أكثر من المراء المعزز بالتعبيرات الفنية تسلطاً على العقل البشرى » ويبدو أن بعض الأساتذة يشعرون بأنه إذا أمكنهم فحسب أن يحصلوا على قاموس من الاصطلاحات كثيف كثافة كافية فإنهم يكونون حققوا الطريقة العلمية في صورة ما . بيد أن ما أدوه في الواقع هو تخريب لخط الاتصال .

إن تدليل أستاذ : أينشتين غير مفهوم ، وأنا غير مفهوم ، إذن أنا أينشتين . هذا التدليل نوع من التحقيق الباطل للشخصية ليس مجهولاً كل الجهل . ويجب في نفس الوقت ألا ننسى أن مشروعات كاختبار قادة للطائرات يتطلب طائفة من الاصطلاحات الفنية كما يتطلبها العلم الطبيعي . والشكوى هي من استعمال اصطلاح ضخم في حين يكون اصطلاح بسيط أجلى معنى .

مصاعب عمل الفرقة

عندى تقرير مباشر من طالب متخرج من جامعة من كبريات جامعاتنا عما لقي من متاعب فى محاولة الإحاطة بكل خصائص مسألة ما فى علم الاقتصاد . وهذا الشاب واثق بأن كافة العلوم يجب أن تتعاون على مجمل فعال إذا كنا سنعالج المسائل التى تواجهنا الآن بأى أمل فى النجاح . لكنه قد أفرغه أن كليته لم تفعل فى هذا الصدد شيئا يذكر . فقد كانوا فى الغالب يتجهون اتجاهها عكسيا ، موسعين شقة الانقسام فى العمل أكثر مما هم . يقول الطالب إنهم منظمون إلى نظريين اقتصاديين ، ومؤرخين اقتصاديين ، ونظريين فى شئون المال ، واقتصاديين فى شئون العمل الخ . كل يعد ميدانه امتياز له من قديم ، فمن الاعتداء أن يجتازه عالم اجتماعى أو ميكولوجى تعقبا لمسألة من المسائل . « نحن كجنود رقود فى خنادق من دون وسيلة من وسائل المواصلات ... ومع ذلك فإن العلوم الاجتماعية معنية بمظاهر مختلفة لنفس الخلق — الإنسان — والرأى القائل بأننا يمكن أن نجرد المظهر الاقتصادى أو السيكولوجى فى سلوكه من دون أن نأبه للمظاهر الأخرى هراء . » هذا بيان صريح لمشكلة شائكة أريد أن أعود إليها فيما بعد لا أملا فى حلها بقدر ما آمل أن أوضح بعض الوجوه التى يمكن أن تساعد الخبراء على حلها .

تحريم

وأخر مصعبه عامة نذكرها هنا هى فوق سيطرة العلماء الاجتماعيين فى كل من الجناحين تماما . فإن بعضا بعينه من أوجه السلوك البشرى لا يمكن أن يتحرى فى توسع فى هذه الأيام أيضا . فالعرف يعترض ، أو تعترض الكنيسة ، أو يعترض الرجعيون من أعضاء الكونجرس ، أو الفرقة التجارية . ولنذكر على سبيل المثال الدراسات المتعلقة بالجنسين وعلاقات الملكية وديون الحكومة ومصروفاتها

والأجانب والأجناس ، فإنها يجب أن تجرى في احتياط شديد . وقد كان المؤلف أن يعد فحص قاعدة الذهب فحصاً إيجابياً نوعاً من الزندقة ، والتأمل في الدستور كما فعل تشارلز ا . بيرد ذات مرة ما يزال يتطلب شجاعة . بل إن كتاب الدكتور كنزى عن الذكور في أمريكا ما كان في الراجح لينشر من عشر سنوات مضت .

فالطريقة العلمية لا يمكنها أن تهتمل التحريكات والقيود . وهذه تصيب العلم الاجتماعى بالعرج أحيانا . وقد تكون العلوم الطبيعية أكثر تسامحاً لأنها أكثر تأكيداً بأن صدمة الوقائع لا تلبث أن تقضى على الفروض السخيفة . وسيأتى في الحال من يقول : « ممتع جداً ! دعونا نشهد التجارب . »

أما في العلم الاجتماعى فتستمر النظريات السخيفة أحيانا زمناً طويلاً لا يطمئن فيها . وليست الحالة من السوء كما كانت في العهد الفيكتورى ، حين حاول المتعصبون إسكات توماس هكسلى لأنه وصف النشوء والارتقاء ، ولا هى بالحالة الحسنة التى كان فيها الإغريق من ٢٥٠٠ سنة مضت ، إذ كانت ثقافتهم غير العادية تسمح لهم بالشك في كل شيء ، والتحقق من أى شيء . ومع ذلك لم يكونوا محققين بارزين .

إنه ليس فى الإمكان أن تقف الدراسة العلمية على الرغم من هذه النواهي والعوائق والصعوبات . والزم بأن الإنسان أعصى عن التنبؤ من أن يدرس دراسة إيجابية ، هو الآن ، كما أبان دونالد دينج بقوة ، مسألة منتهية . فليس سوى الجاهل من يزعمه . فلقد خلق جسم حتى من المعرفة الأصيلة ، نمته الحرب فى عدة نواح . فهو الآن يستطيع أن يجيب عن بعض مسائل المجتمع خيراً مما يجيب عنها اللقانة أو الحس المشترك . وآلاف من المقتدرين رجالاً ونساءً يكرسون حياتهم ومواهبهم بالفعل لتنمية هذه المعرفة .

وليس من الضرورى أن نتعلم كل شيء عن الإنسان وسلوكه ، فليس نمت

مشتغل بالعلوم الطبيعية يعلم مع ذلك ما الحياة أو ما الكهرباء بالضبط . لكنه يعلم ما يكفي لأن يدير بعض عمليات الحياة والكهرباء ، ما يكفي للقضاء على الحمى الصفراء وإضاءة ألف مدينة . ويبرز رالف لينتون رؤيا ماثلة اليوم لعين المشتغل بالعلم الاجتماعي هي أعظم مما سلف أيضا « فالرائد لا يستطيع سوى أن يواصل السير يقويه الاعتقاد بأنه في مكان ما من هذه الأرض الواسعة نخفي المعرفة التي ستسليح الإنسان لإحراز أعظم انتصار ، ألا وهو غزو نفسه . »

٥ - معرفة المخزن

من الطبيعي ، وثمت عبارة محترمة من أمد طويل هي «العلم الاجتماعي» أن يظن أن هنالك بعيداً في جهة ما من جهات العالم كيانا يطابق هذه العبارة . بيد أنه ليس ثمت كيان كهذا ، وعلينا أن نحاذر إقامته في أدمغتنا . فما الذي يوجد إذن في عالم المكان والزمان ؟

إن جهاز التيليثزيون يمكن أن يرينا عدداً من الأساتذة يحاضرون عددا من الطلبة البرمين في عدد ما من الفصول الحاشدة ؛ وتجارب تعرض في معامل سيكولوجية ودراسات إكلينيكية في المصانع والمكاتب ؛ وفرقا من المحققين يدونون ملاحظات في المباتات والضواحي ؛ وباحثين اجتماعيين يسجلون ما يجدونه في دوراتهم وفي العيادات ؛ وبطارية من آلات هوليريث تنك وهي تفرز بطاقات للضمان الاجتماعي أو الاستفتاءات ؛ وأشخاصا لفحت الشمس وجوههم في قبعات المناطق الحارة يوجهون أسئلة في غينيا الجديدة إلى سكان يتولا م شيء من الارتباك . . . وتركز أخيراً آلة التصوير على رف بعد رف من الكتب . وكثير منها مشهور ، وكثير منها يحقوى نثراً فيه من الجودة بقدر ما في نصحه من رداءة — مثال ذلك إرشادات أفلاطون في تربية الأطفال .

وفي أمريكا على سبيل المثال ١٤٥ مليوناً من الناس موزعون على ثلاثة ملايين من الأميال المربعة ، سهولا ووديانا وتلالا ، يكتونون ويعودون فيكونون عددا لا يحصى من الجماعات والمنظمات يحوطها من المنتسبين إليها ولواء وعواطف . وقد أظهرت دراسة حديثة في نيويورك وبورت وماساشوستس أكثر من ٨٠٠ منظمة بين ١٧٠٠٠ نسمة . وتبين آلة التصوير الطرق الغريبة الكثيرة التي يكسب

بها الأمر يكمون رزقهم ، أو يسعون بها إلى تخفيف سأمهم من كسب أرزاقهم في الأحوال التي يعيشون فيها في عصر الآلة .

هنا إذن ميدان المشتغل بالعلم الاجتماعى : يراقب سلوك هؤلاء الناس ، ويفتش عن القوانين التى تهيم على سلوكهم . وكان كورت ليثن يعتقد أن معمل المشتغلين بالعلم الاجتماعى هو المجتمع الحى ، وأن الملاحظات يجب أن تحمل تاريخاً لأن المجتمع يتغير على الدوام ، وأنه لا بد من تغيير بسيط مضبوط ليكون منه أداة للقياس والمقارنة .

المعارف الكبرى

يجمع رأى المختص — كما أوردنا آنفاً — على الاعتراف بخمسة معارف كصميم لقلب العلم الاجتماعى وهى :

(١) علم الإنسان الحضارى ، (٢) علم النفس الاجتماعى ، (٣) علم الاجتماع ، (٤) علم الاقتصاد . (٥) علم السياسة . وهذا الترتيب إنما يتبع أعمار هذه العلوم معكوسة ، لأن علم الإنسان ، وعلم النفس ، أحدث هذه المعارف عهداً ، بينما علم السياسة أقدمها . وإذا كان أرسطو هو مؤلف « السياسة » فيمكن المناداة به أبا لعلم السياسة .

وعلم الاقتصاد الذى كان يسمى يوماً « الاقتصاد السياسى » قد أصبح بما ألف آدم سميث في أواخر القرن الثامن عشر علماً رسمياً . ونبت علم الاجتماع في القرن التاسع عشر يرعاه أمثال دركهايم وهبهوس وجيدنجز ووارد . وبعده بقليل استمد علم النفس الاجتماعى العون من وليم جيمس ، ووُلد علم الإنسان الحضارى مع كتاب مورجان عن نظم الأسرة عند هنود سينيكا ، وبدأ يتعرع بعد تحوّل القرن . وجاء نشر « الأساليب الشعبى » لسترن في سنة ١٩٠٦ شاخصاً

بين الشواخص . وكان علم الإنسان « الجنائي » علماً أقدم كثيراً ، لكنه كان يتعاقب بقياس الجاحم أكثر مما يتعلق بالمجتمعات البشرية .

وقد عرض لي أثناء دراستي معارف أخرى إلى المعارف الخمس الكبرى ، معارف مختلفة رشحتها فأحرز التاريخ نفس الأصوات التي أحرزها علم السياسة تقريباً ، ولكن مع التحفظ كالمعتاد . ولأن التاريخ يتناول حوادث مفروغاً منهم فإنه لا يمكن أن يأمل أبداً قياس ظاهرات حية أو استخدام الطريقة العلمية كاملة ، ومن ثم يجب أن يبقى نوعاً من المعرفة الملحقه . ويحز علم القانون عدداً من الأصوات وكذلك طرق التعليم ، والعمل الاجتماعي ، والديموقرافيا ، والجغرافيا البشرية ، والإدارة العامة .

وتمت بضعة أصوات مبعثرة للفلسفة والدين المقارن والأخلاق من دون أن يسندھا اقتناع كبير . وهذه الدراسات تدخل الآن بوجه عام في باب الشئون البشرية لا العلم الاجتماعي . وفي باب الشئون البشرية يجلس المرء على مقعد ساند يقرأ الكتب العظيمة لكنه لا يدخله بحث علمي . والشئون البشرية دراسات نبيلة فهي تسمو بالذهن ، وتنتج غالباً يقيناً سيكولوجياً عظيماً ، لكنها لا تودع الحزن شيئاً كثيراً . والمشاكل التي تحلها هذه الدراسات لا تبقى محلولة .

ومع ذلك فإن أحد من يرأسونني على استعداد للجهاد في سبيل إدخال الأخلاق في العلم الاجتماعي — على الأقل الأخلاق كما يُعرفها هو ، فيقول :

إن مسائل الأخلاق الكبرى يمكن صوغها في عبارات علمية : إذا حدث كيت ترتب عليه كيت ؛ إذا زدت البوليس قلت الجرائم كذا في المائة . فكثير من هذه التنبؤات يمكن عملها ومراجعتها . . بدلا من الجدل فيها . وقد تختفي « الأخلاق » كمعرفة فلسفية بتقرير بيانات كافية مما يتنبأ بالسلوك البشري في أحوال متنوعة . بيد أن الأخلاق الفعلية قد يمكن عندئذ تحقيقها . و « الأخلاق » الآن مجرد منطقة

لا نعلم فيها ما يكفي . وهذا هو السبب الذي من أجله يبلغ علم الإنسان الحضارى أهميته . فقد زاد عدد البيانات الخاصة بالطبيعة البشرية مما يمكن التثبت منه زيادة كبرى ... إننى أعطى دروساً فى الفلسفة والأخلاق ، وكل ما أدرسه هو فى علم الإنسان الحضارى . ولست أرى غير هذا وسيلة لتدريس الأخلاق لها معنى عندى . وبعبارة أخرى ينبغى أن يدرس علم الأخلاق بوصفه علماً اجتماعياً تطبيقياً .

وتعلو المعارف الخمس الكبرى : وهى علم الإنسان ، وعلم النفس ، وعلم الاجتماع ، وعلم الاقتصاد ، والعلم السياسى — تعلو هذه المعارف على المعارف الأخرى مع صلاحية هى أن ما بينها من خطوط قد بدأ يزول . فالمعارف الاجتماعية كالسكك الحديدية وشركات الصلب تنزع إلى الامتزاج . ومجلس الأبحاث فى علم الاجتماع هو فى ذاته نوع من بنوك المقاصة .

وتساعد هذه المعارف أدوات أربع : الرياضيات ، والإحصاء ، والمنطق ، وعلم المعانى . وكل من هذه الأدوات معرفة مكينة فى ذاتها ، كلها نافع إن لم يكن مرشداً فى حينها يراد حل المسائل ، ولولدت الطريقة العلمية مبيتة من دون الرياضيات والإحصاء . وما كان ليسعها أن تستحدث فروضاً ونظريات من دون منطق . ونحن نزداد إدراكاً للقول بأن الناس غالباً لا يعرفون ما يتحدثون به من دون فهم للغة ومساقطها فيما هم بصدد — وهذه هى منطقة علم المعانى الفنى .

وبين العلم الاجتماعى والعلم الطبيعى منطقة عريضة تقطع منها الميدانين معارف ودراسات مختلفة . فهل بصمة الأصبع من العلم الاجتماعى أم تتبصع التشريح ؟ وماذا عن مستر شرلوك هولمز وجميع أسلافه من أهل مهنته ؟ وكيف دراسات الدكتور يرك الكاشفة لعادات الشمبانزى ؟ إنه من الممكن أن يجعل من الطب الروحانى ، كجسر بين الميدانين ، قضية قوية جداً ، فإنه لم يعاون العلم الاجتماعى معاونة جليسة فحسب بل إنه يفيد كذلك منه . يقول الدكتور وليم

من . ميننجر صاحب عيادة توبيكا الشهيرة : « إن الطب الروحاني علم طبي ، لكنه كذلك علم اجتماعي ، فالطبيب الروحاني أكثر من الطبيب في أى علم طبي آخر يجب أن يعنى بمركز مرضاه الاجتماعى . ويذكر الدكتور ميننجر تحامل الجنس والبطالة الإجبارية بوصفهما أمرين ضارين بصفة خاصة بالصحة العقلية . فهذه الأدوية الاجتماعية ينبغي أن تكون في جملة ما نعى به جد العناية . »

بعض الأعمال البارزة

لقد أعاننى الأحاديث والمحادثات ، وزيارتى للجامعات ، وقراءتى للكثير من الرسائل ، على جمع قائمة بأكثر من مائة عمل بارز أدى للعلوم الاجتماعية في الولايات المتحدة وحدها . وبعض هذه الأعمال اكتشافات باهرة أسفرت عنها بحوث الأفراد ، وبعضها يتناول مجموعات كاملة من الدراسات .

إن ما يجوز أن نسميه الفكرة الحضارية في علم الإنسان وعلم الاجتماع أمر مقبول بوجه عام كما أنه بالغ الأهمية . وهذا العنوان يتناول طائفة من المبادئ مستمدة من دراسات الميدان ، وتدور كلها حول الفكرة الأساسية القائلة بأنه ليس ثم من استطاع أن يفهم فرداً ما بعيداً عن الحضارة التى تحتويه ، أو — ولنعتبر عن ذلك بأسلوب مألوف أكثر — أن الإنسان حيوان اجتماعى . فهذا رأى عريض وعام على نطاق نظرية داروين في النشوء والارتقاء ، ولعله أعظم من ذلك شأنًا . وقد وضع علماء الإنسان بدراساتهم الحضارات القائمة في العالم بأسره ومراجعتها على سجلات الحضارات الماضية بعض القوانين التى تحكم المجتمعات البشرية جميعاً في كل مكان .

وإليك أعمالاً أخرى بلغت معدلات عالية وهى :

برنامج السلاح الجوي للجيش كما وصف في الفصل الثالث .
دراسات العلاقات بين الأجناس لبوس وبيندكت وميردال وينج وكلينبرج وغيرهم . فليس إلى الآن دليل على عدم تساوى الأجناس ثبت أمام اختبار العلم .
والمشكلة الحقيقية اليوم هي كيف ننقل هذه الاستنتاجات العلمية إلى الصف الأول حيث قد تكون محاولة من الجمهور للبطل بفرد .
عمل أوجبرن العظيم عن قوانين التبدل الاجتماعى .
كشاف ييل للحضارات المتعارضة ، وهو نوع من حجر رشيد فى علم الإنسان .
ما قام به لينتون بين الأمريكيين واليابانيين أثناء الحرب ، إذا اكتشف بعض المبادئ الجوهرية فى الإدارة وحكم الناس .
نظرية العينة وتطبيقها على أرقام الإحصاء وعدد السكان والتأمين ، والطرق المشهورة التى اتبعها فرقة الضمان الاجتماعى .
استفتاءات الرأى العام — وهى قائمة كذلك على نظرية العينة ، وتنتشر هذه الاستفتاءات انتشاراً عظيماً وتضيف مادة نشيطة هامة إلى علم العلاقات البشرية .
طريقة التون مايو العلمية فى تناول العلاقات بين العمال والمديرين ، جامعاً بين علم الإنسان وعلم النفس وعلم الاجتماع وعلم الاقتصاد . وهو ما ينتشر الآن فى جميع نواحي البلاد .
ارتيادات ميدلتون وطرقها وخاصة دراسات مدينة يانكي .
طرق اختبار الشواطىء وخارج قسمة الذكاء ، وغيرها من الاختبارات . ومع ذلك فلا غنى عن خارج قسمة ذكاء حر متصل بالحضارة للمقابلة بين شعوب مختلفة الحضارة .
نظرية التعليم وخاصة ما أداه دولارد ومياز فى ييل .
ضوء جديد وطرق جديدة لتحرى الجريمة والعقاب .
دراسات العلماء الاجتماعيين للمناطق فى خلال الحرب ، ودراسة حالة اليابانيين المعنوية بمراقبتهم عن كذب ، وارتياحات لمساعدة الخدمات المسلحة فى معالجتها للحضارات الوطنية الأصلية ، وخاصة الاستعداد للنزول فى أوكيناوه .
تحليل القوة البشرية لتجنيد الجنود وعمال الحرب ، وهو عمل إحصائى بارز .

تنمية محصول الجلمة القوي ، وغير ذلك من طرق الإحصاء الأخرى التي قام بها
أثناء الحرب مجلس الانتاج الحربى ومكتب التسعير الجبرى ومكتب الاقتصاد الزراعى ،
ومكتب إحصاء العمل ، والخزانة ، وغير ذلك من المصالح .
كتاب ويزل متشمل عن الدورات الاقتصادية .

طريقة بحث كينز فى الاقتصاد ، وخاصة فى معالجة مشاكل الكساد ومالية الحرب .
تحليل الدكتور كينزى للحياة الجنسية بين الذكور فى أمريكا ، وقد توصل إلى
مائة ألف حالة مشفوعة بقصصها .

أساليب جديدة فى الإدارة العامة — خطط لمديرى البلديات وإدارة وادى تنسى
ومراقبات المرور وإحصاءاته الخ .

أساليب جديدة فى البحث الاجتماعى . وقد زاد تأثره الآن بالفكرة الحضارية
وعلم النفس الاجتماعى .

تنشئة علم المعانى على أيدي أوجدن ورتشاردز وكورزيسكى وهاياكاوا وجونسن
وكثيرين غيرهم .

وهكذا الخ . وسنفصل فيما بعد عدداً مما أسلفنا بيانه . وقد قدمنا هنا هذه
القائمة المجردة لنعطى القارئ فكرة عن سعة الميدان . وقد كنت أعرف بعض
المشروعات معرفة جيدة ، وسمعت بعضها يذكر مثل عمل الدكتور كينزى .
وكثير منها قد كان لى مفاجأة تامة . فلم أكن أظن أن كل هذه المعرفة تيسر
جمعها بالفعل . وأجد أن معظم المشغولين بالعلم الاجتماعى لا فكرة عن وفرة
ما يشتمله ميدانهم .

الطبقات الكبرى

هل يمكن أن نرتب القائمة ترتيباً أكثر تنظيماً ؟ والترتيب حسب العلوم عديم
الفائدة تقريباً ، إذ كان يتناول الكثير من الأعمال علماً أو أكثر . وارتياحات
ميدلتون ومشروع أوكيناوه ، على سبيل المثال ، كان كلاهما من عمل الفرق .
ولعل الترتيب الآتى يكفى كبداية :

١ — نظرية العلم الاجتماعى . التعميمات والقوانين التى حققت والتى تسرى فى أى مجتمع فى الأحوال المتماثلة . مثال ذلك : العموميات فى الفكرة الحضارية ، نظرية العينة ، كشف التناسل فيما يتعلق بسدد السكان . ومسبار النظرية الصحيحة ومحكمها هو قدرتها على التنبؤ كما ألعنا من قبل ونحن ندرس الطريقة العلمية .

٢ — العلم الاجتماعى التطبيقى ويسمى أحياناً الهندسة الاجتماعية . وهنا تؤخذ النظرية عن الرف ، وتطبق على المواقف البشرية الفعلية . أمثلة ذلك : إجراء استفتاء بين رأى العام ؛ القيام بارتياح فى ميدلتون ؛ تزويد مليون من المقدمين [الاسطوانات] فى صناعة الحرب بمنهاج التدريب داخل المصنع . ويلاحظ مع ذلك أنه أحياناً ما تختلط النظرية والتطبيق اختلاطاً لا أمل فيه . وقد اضطر فلاسفة إلى وقف العمل ، وتنشئة النظرية من حين إلى حين ليستطيع المضى فى عمله وهو انتقاء قادة للطائرات . واضطر القائمون على مشروع مانهاتن أن يفعلوا هذا كما جاء فى تقرير سميث . وقد أبان لانست هوجين أن مسائل ضغط الهواء ، والتهوية ، والمفرقات ، أصبحت مما يتطلب سرعة الحل مذكاة التعدين فى الحفر العميقة فى القرن السادس عشر . ولو أعوزت الكيمياء النظرية البحتة هذا الحث العملى لبقيت على قوله فى المستوى الذى خلفه الإغريق .

٣ — الأساليب الاجتماعية . وقد نمت بالتجربة والخطأ والخس المشترك أكثر مما نمت بالطريقة العلمية . فالكثير منها ينطبق على حضارتنا فحسب ، وكثير منها نافع جداً ، لكنه يصبح مع الزمن فى أمس الحاجة إلى المزيد من البحوث وإلى أساس نظرى . أمثلة ذلك : طرق الإدارة البلدية ؛ مشاريع العملة التى تشرف عليها الإدارة ؛ مشاريع اقتصادية للتعمير . ومن المهم أن نذكر أن علم الاقتصاد هو أوسع المعارف انتشاراً بين القراء .

ومع ذلك فإنه مع العلم السياسى أضعف العلوم بنيانا من الناحية النظرية . وليست تنقصنا النظريات كان الله فى عوننا ، لكن هذه النظريات كما لاحظ كولين كلارك لم تحقق . وقد تحاول التذبؤ اقتصاديا إذا أوتيت الشجاعة الكافية ، لكنك سوف تأسف على ذلك فى الراجع .

معرفة مضيّعة

لقد سألت عدداً من المشتغلين بالعلم الاجتماعى هذا السؤال : أتذكر أية أمثلة مؤسفة كانت فيها المعرفة المعتمدة ميسورة لكنها لم تستعمل ؟ وقد جر هذا السؤال قائمة زاخرة من الشكاوى أكثرها تردداً ما جاء من ذوى الخوذ فى الجيش والبحرية ، أولئك الذين أبوا أن يدعوا للعلماء فرصة كافية للمعاونة على إدارة الحرب . وبين هذه الشكاوى :

أن الحكومة العسكرية لم تطبق فى الحقيقة العلم الاجتماعى .
أن حقائق الأجناس لم تستخدم استخداما كافيا فى معاملة الزوج فى الأدوات المسلحة .
لم يستعمل العلم الاجتماعى بقدر كاف ، وكذلك فى الحرب النفسية حيث كان يمكن ألا يُقوّم .

لم يدرك رؤساء فى الجيش أن مجندى ١٩٤٢ نمط من الصغار يختلف عما كان فى سنة ١٩١٧ . « لقد حاولنا أن نحيط الرؤساء بما حدث لأمرىكا فى خمس وعشرين سنة ، لكنهم لم يريدوا الإصغاء . »

لم يهمل كل الجنرالات العلم الاجتماعى بحال من الأحوال . فقد خطيت خطوات كبيرة فى تطبيقه أثناء الحرب . انظر ما أدى لاختبار قادة الطائرات . فما أسرع ما أدرك كل أميرال أو كل جنرال على جانب من الذكاء أن ههنا سلاحا

ماضياً جديداً . وقد كان التأثير النهائي على ضباط أركان الحرب من القوة بحيث أن الإدارات تمول الآن ، بعد مضي زمن طويل على يوم النصر ، مشاريع كبيرة للبحث في علاقات البشر ما تزال مرتبة ترتيباً دقيقاً . ومن بين الفوائد الأخرى أن هذا يمكن أن يؤدي إلى تحسن خطوط الاتصال بين الضباط والجنود . وقد لفتنى اقتصاديون في الغالب إلى أمثلة أخرى للمعرفة المضیعة نوردوها فيما يلي :

الأخطاء التي اكتشفها كينز في معاهدة فرساي في كتابه الباهر :
النتائج الاقتصادية للسلم .

قضية ألف من رجال الاقتصاد في الولايات المتحدة عارضوا تعريفة سموت — هولى في سنة ١٩٣٠ إذ قالوا إن هذه التعريفة ستزيد الأزمة سوءاً وقد حصل .

الموقف العام تقريباً الذي وقفته دوائر البنوك والأعمال في سنة ١٩٣٠ . ومعناه أنه سيقع في الولايات المتحدة تضخم مخوف بالكوارث ما لم توازن ميزانية الاتحاد . وقد كان بعض الاقتصاديين أكثر علماً فلم يحدث تضخم حتى الحرب .

قضية ٢٠٣٨ من علماء النفس عارضوا منهاجاً للسلم والتعمير في يوم النصر سنة ١٩٤٥ مؤلفاً من عشر فقط ، فلم يُعره السياسيون والديبلوماسيون التفاتاً .

معاملة الصناعة الألمانية الثقيلة بعد يوم النصر . وقد علم الاقتصاديون ما اكتشفه الوزير مارشال وهو أن نهضة ألمانيا صناعياً هي مفتاح نهضة أوروبا .

خطة بيشن المنهية سنة ١٩٤٧ لتوزيع كنوز الولايات المتحدة من ذهب لتمويل العالم . وقد كان هذا يناقض أبسط المعارف الاقتصادية .

إن في وسعنا التفتيب في بطون التاريخ لنجد أمثلة مؤلمة لا حصر لها ، كان يمكن لو طبقت فيها معارفنا الحاضرة في الفترات الاسترائيجية أن توفر عبثاً ساحقاً من الآلاف لم تكن نمت حاجة إليها . فقد اضطهد أناس أناساً لا لأن المضطهدين أشرار ، ولكن لأنهم لم يدركوا ما كانوا يعملون . تأمل معتقدات الأزتك المربعة في تأثير القرايين البشرية على الحاصلات . ثم تأمل في مستوى آخر تلك الأفعال القاسية التي أريد بها « صلب عود » العمال بتشغيلهم أربع عشرة ساعة في اليوم و « تكوين الخلق » عند الأطفال بتعطيم إرادتهم وأساة معاملتهم ، « وقانون الأجور الحديدي » الخفيف الذي كان يشير به رجال الاقتصاد قبل قرن من الزمان ، والذي كان يعنى ألا يستطيع العمال أبداً تحسين حالهم .

وقد أمكن هربرت سبنسر في تاريخ متأخر كعام ١٨٧٠ أن يؤكد أن موت الكسول جوعاً واستغلال القوى للضعيف هو « ما يقضى به خير سمح ينطوى على بعد النظر . . . ذلك أنه في الأحوال الطبيعية ينفي المجتمع المرضى والبلهاء والبطيئين والمترددین والفادرين من أعضائه . . . » وليس في استطاعة أحد أن يعارض هذا المذهب الشرس إلا بقلبه . ذلك أنه لا علم الإنسان ولا علم النفس الاجتماعى قد أحرزا من التقدم ما يكفي لإثبات باطله .

إن سبنسر يقدم مثالا طيباً لما ينطوى على قلة الإكتراث وعدم المسئولية من طبيعة النظر الذي لم يحقق عند دراسة الإنسان . وهذا هو العلم الاجتماعى رقم ٢ في أسوء حالاته . فهو يقول بنظرية قائمة على تشبيه خاطئ ببقاء الأصلح في الأجنة ، ثم يستعمله من دون التحقيق الواجب كما يفعل كاليجولا^(١) مستنير للحكم على ملايين من الفقراء بالآلام وهزائم لا حد لها ولا حاجة إليها .

وقد عرف ألدس هكسلى التاريخ مرة بأنه سلسلة طويلة من البؤس والشقاء

(١) إمبراطور رومانى .

المجاني الذي لا لزوم له يكابده سواد الناس على أيدي زعمائهم . وقد أظهر العلم الاجتماعي — ويتضمن التاريخ — أظهر الآن أن هذه الأفعال لم تكن في محلها . غير أن الجهل كان سائداً حين شرع في معظمتها . فكم من أعمالنا في سنة ١٩٤٨ ، وهي تبعث في الأرواح وتؤذي الناس ، سيوجد في يوم من الأيام قائماً على مزاعم باطلة كتلك التي أوردناها ؟

المسائل العظيمة التي لم تفز بجواب

إن المسائل التي لم تحل تتضمنها دائماً مفكرة أى علم في دور التطور . وقد كشف ارتيادنا عن الكثير منها ، وكان رجال العلم الذين مدوا إلى يد المعونة صرحاء غالباً في أشياء كانت متروكة لم تعمل . ولم يكن ما يهني المرء نفسه عليه بالشئ الكثير ... بل كان العكس تقريباً ... « فلقد لبثنا طويلاً نعالج الأمور ، ونزاول العمل الشاق فلم ننتج ما يذكر ؟ وهذا مع ذلك أساس للبناء خير من الحالة التي يقال فيها : نحن ملهون بكل جواب . »

إن بمخزن العلم الاجتماعي رفوفاً كثيرة خالية . ومن المعلوم أن أعظم مشكلة تنذر بالويل العاجل هي كيف يكون اشتغال هذا المخزن على الطاقة الذرية ؟ بيد أن هنالك مشاكلاً كثيرة أخرى تتدافع خلف هذه المشكلة . وإليك بعض الأمثلة :

ما هي العلاقات المتداخلة بين الشخصية الفردية والحضارة ؟ إلى أي مدى يمكن أن ينمو مجتمع قبل أن يفقد أعضاؤه الاتصال أحدهم بالآخر فيضيعوا بذلك الوظائف الاجتماعية الجوهرية — وبمعنى ما يفقدوا إنسانيتهم نفسها ؟ ما هو تأثير حضارة عظيمة الطاقة على البشر ، وخاصة في صناعات الانتاج بالجملة ؟ هل الأمراض العقلية في إزدیاد من جراء ذلك ؟

كيف يمكن العمال في المدينة الغرية أن يستردوا اهتمامهم بعملهم ؟ أي نوع من البنيان الاجتماعي يمكن أن يوفر الحرية والأمن الاقتصادي كليهما ؟ هل وجدت السويد صيغة ؟

كيف يمكن أن ننشئ علم نفس يعول عليه أكثر؟ (وهذه شكوى تحلو للخبراء.)
كيف يمكن أن يحمي الزعماء من مؤثرات سلطانهم — تلك المؤثرات المثبطة؟
أية أساليب للاتصال تساعد على إيجاد اتفاق أكثر؟
أى نوع من التعليم تتطلبه حضارة ذات طاقة عالية؟ كم سنة من سنن الطفولة
تضيقها الطرق الحالية لكل تلميذ؟

كيف يمكن أن نطبق المعرفة الميسورة بالفعل في نطاق أوسع؟

هذا هو نموذج التحقيق الذى ينتظر بحوثاً أخرى . وقد سألت الدكتور
لويس ورث من جامعة شيكاغو بين من سألت أن يزودنى بقائمة مما يرى أنه
« المسائل العظيمة التى لم تفز بجواب » ففعل . وختم ببيان دقيق إلى حد أنى
أحب أن أدخله هنا . قال :

إن المسائل العظيمة التى لم تفز بجواب فى العلوم الاجتماعية هى المسائل العظيمة
التي لم تفز بجواب فيما يتعلق بالجنس الإنسانى . فكيف نستطيع أن نحصل على السلام
والحرية والنظام والرفاهية والتقدم فى أحوال مختلفة من الوجود؟ كيف يمكن أن
تقيم أحوالاً من الهدوء البشرى ، قامت فى بعض نواحي العالم أو بلغتها جماعات بعينها ،
فنطبقها على جماعات أخرى فى نواح أخرى من العالم؟ كيف يمكننا أن نصل إلى
الإجماع فى ديموقراطية جامعة؟ كيف يمكننا أن نحصل على مزايا نظام فى سريع
التطور من دون قضاء على القيم الأخرى التى نعرها؟

إنى أعرف هذه الأسئلة العامة العالمية ، لكنه إلى أن يجيب العلماء الاجتماعيون
أجوبة شافية عن الطرق والوسائل لبلاغ مثل هذه الأغراض سيقومون بلعبة قد
تكون ممتعة لهم إمتاعاً كافياً ، لكنه لا حق لهم فى أن يتوقعوا أن يقرها المجتمع .

تدل الأعمال التى رصدت من قبل فى هذا الفصل على أن الكثيرين ممن
يعملون فى الميدان قد حملوا تنبيه الدكتور ورث على محمل الجد . فالآن ننتقل إلى
فحص أكثر تفصيلاً لبعض هذه المسائل . وآمل أن يقع ما أدبت إلى الآن من
عمل فى نفس القارئ موقعه فى نفسى .

الجزء الثاني

الشواخص والأفعال

ليس من مخرج من أقطاف الحياة إلا المعرفة...
وقد وجد الناس في حيازتهم كذلك قوة آلية على
نطاق يتجاوز كل تجربة سابقة ، لا مجرد قوة آلية :
فقد جاء العلم الفيزيولوجي ثم علم النفس في أعقاب
الطبيعة والكيمياء ، وطلعت على الخيالي احتمالات
غير عادية للسيطرة على جسده وعلى حياته الاجتماعية .

٥٠ ج . ويلز في كتابه

«ناس الآلة»

٦ - الفكرة الحضارية

إن الفكرة الحضارية عند علماء الإنسان وعلماء الاجتماع بسبيل أن تُعد حجر الأساس للعلوم الاجتماعية . فعليها تقوم كقلة من المعرفة يعول عليها في الخصائص التي يشترك فيها كل الناس . يقول لينتون : « إن عمل العلماء الاجتماعيين يجب أن يبدأ بتحرى الحضارات وأساليب الحياة التي تميز المجتمعات كلاً على حدة . »

لقد ظلت المعرفة تتجمع أكثر من قرن من الزمان في دراسات مضنية لمئات من الأقوام بدائية ومعتصرة . فهنا في هذا الفصل وفي بضعة الفصول التالية سنفحص الرأي الحضارى من زوايا مختلفة فنعرض أولاً بعض الاستنتاجات القوية ، ثم نثبت الحلقات الحضارية التي تقرر جانباً كبيراً من سلوك ساكن نموذجي من سكان انجلترا الجديدة ، وسلوك جورج رذرفورد آدمز الذي يدير محطة بنزين في ميدلبرج . ثم ننتقل إلى تسجيل عدد من الدوائيم أو العنوم الموجودة في كافة مجتمعات العالم . سنرقب عالمًا دقيقاً يسجل دراسة جوهرية لتوتر جماعي في معسكر اللاجئين اليابانيين الأمريكيين أثناء الحرب . ونصفي إلى ما عند العلماء عن الأجناس البشرية في سنة ١٩٤٨ مع ارتياحات للإقلال من الحروب بين الأجناس . وأخيراً نفحص بعض قوانين التبدل الحضارى كما نشأها وليم ف. أوجبرن .

إن الفكرة الحضارية تفسح للمرء في منظوره فيكون أثر ذلك في نفسه شيئاً يقرب من تلك الصورة الشمسية المدهشة التي أخذت على ارتفاع ٨٠ ميلاً من طائرة ٢ - ٧ فأبدت منطقة نهر كولورادو بأسرها ، وخليج كاليفورنيا ، وحنية الأرض العظيمة التي تثنى المحيط الهادى بعيداً إلى الغرب . والفكرة الحضارية تهدم كثيراً من الفكر والمذاهب التي نعرها والتي تتناولنا وتتناول مجتمعتنا . فهي

تنقلنا رأساً من المدنية الغربية وقيمها — أو من أية مدنية ننتمى إليها — وترينا ما هو مشترك في إنسان الكونغو، وإنسان موسكو، وإنسان بورنيو، وإنسان ديترويت.

وترينا الفكرة الحضارية من جهة أخرى كيف يتشكل كل مخلوق بشري بحضارته وبطرق دون مستوى الوعي بكثير. فأفكاره، ولفته، وعضلاته التي يستخدم بها أدواته، وأذواقه — كل أولئك يتنشأ نماذج خاصة، فلكي يستعملها لا بد من أن يستعملها كما تعلم أن يستعملها في طفولته وصباه.

ومن دون الحضارة التي تصون مغامرات الماضي وتشكل كل جيل آت... لن يكون الإنسان العاقل أكثر من إنسان قرد ممن يسكنون الأرض، يختلف اختلافاً طفيفاً في بنيته، ويتفوق تفوقاً طفيفاً في ذكائه، لكنه أخ للشمبانزي والغوريلا^(١).

وقبل لينتون بزمن طويل ابتكر والتر بيدجهوت تعبير « كمكة العادة » ثم تلت على الأثر « الأساليب الشعبية » لسمنر — وهو كتاب يعدّ فتحاً جديداً. وأظن أن هذا الكتاب قد كان له تأثير على كل مشتغل بالعلم الاجتماعي يزاول عمله في الآونة الراهنة. وقد قرأته عقيب تخرجي من الكلية ففضى على كل ما كفت تعلمته هناك. وكان أول ما أثر في هذا الكتاب على توكيده للفروق القائمة بين عادات البشر في جميع نواحي العالم. وكان مما هزني في ارتياح أن أعلم أن هذه القبيلة ترى أنه لا يوائم التواضع أن تلبس شيئاً فوق الوسط، بينما من عادة تلك أن تقتل الهرم المريض في احتفال واجب.

وسرعان ما يزول هذا التأثير الأولى. فالعقل الناضج لا يرى الدرس العظيم

(١) من كتاب « دراسة الإنسان » للينتون. وهذا الكتاب جرد باهر لكبرى مكتشفات علم الإنسان. وسوف نشير إليه كثيراً في الصفحات التالية.

فيما بين البشر من فروق ، ولكن يراه في النظائر . فالحاجات المشتركة تلازم سلوك البشر في أى مكان ، فهي « العموم » التي تحكم الإنسان العاقل من الأجمات السحيقة إلى المدن التي تعج بحركة المرور . ولا بد لحل مشاكلنا القائمة من أن تقوم التعميمات والنظريات على أساس المبادئ التي تحكم المجتمعات جميعاً — العوامل المشتركة في الوجود البشرى .

ومع أن المشتغل بالعلم لا يستطيع أن يدرس نوعه بنفس التجرد الذي يطبقه على مستعمرة من النمل ، فإنه يستطيع أن يدرس قرى في بورنيو بأجدي مما يدرس قرى في تكساس وديثونشير . إنه يجب أن يتعلم ألا يباغته شيء — حتى حين تذود الزوجات في الحريم عن سنة تعدد الزوجات . وبعض الجماعات على قول لينتون لا يطيقون المصابين بالصرع فحسب ، بل يبجلونهم بعدّهم أولياء القوى العليا . وكَم من نزيل في مستشفى للأمراض العقلية لا يعده مجتمع آخر حراً فحسب بل ولياً محترماً من أولياء الله .

وينشئ المحقق سفسطة من لازمات علماء الإنسان هي : « حسناً ، إن البعض يفعل هذا والبعض لا يفعله . » فبدلاً من أن يطبق قِيَمَه الأدبية على عادة معينة ، يتوفر على محاولة فهم معناها الحلى في سياقها الحضارى . وقد يكون موقف كهذا مثبطاً لهمة المبشرين لكنه يساعد مساعدة عظيمة على تحصيل المعرفة .

وحين يكون المحققون والمتحرّون قد جمعوا المعلومات من كل ما يحيط بالبحار السبعة ، وعملت دراسات مقارنة ، تبدأ « العموم » في الظهور . و « العموم » هي الحاجات والوظائف التي تشترك فيها كافة القبائل متمدينة أو كانت أم بدائية . فإذا روجعت العوامل المشتركة مراجعة كافية على أيدي مراقبين مختصين ، فإنها تتيح مجموعة حيوية من الحقائق عن نوع الإنسان ، مجموعة يتعرض الساسة لهلاك إنهم أهملوها . فكيف يمكن على سبيل المثال أن يُفكر مجرد تفكير في دولة

عالمية ما لم تقم على « العموم » ؟ ومديرو دفة الحكم في دولة كهذه يجب أن يكونوا قادرين على ترديد هذه « العموم » في مفاهيم من الآخر للأول : « هذا ما يميل كل الناس في كل مكان إلى فعله منذ عهود لا تعيبها الذاكرة ، وفي كذا وكذا من الأحوال . »

الجماعة وحضارتها

وشئ من الأشياء التي يميل الناس إلى فعلها بل يجب أن يفعلوها ، هو أن يؤلفوا من أنفسهم عصباً وقبائل ، وأن ينشئوا ويرقوا العادات والأساليب الشعبية ونظم الاعتقاد لجمع كلمة الجماعة وخلق كيان لها .

والمجتمع يشير إلى جماعة من الناس تعلموا أن يعملوا معاً .
والحضارة تشير إلى أسلوب الحياة التي تهيأها الجماعة .

والحضارة هي الأسمت الذي يربط أعضاء الجماعة في نظام عضوى حى .
والجماعة التي تنقصها حضارة مشتركة ليست مجتمعاً بل غوغاء وكومة وكتلة طحन لا اتجاه لها أكثر من اتجاه جمهور مذعور في مسرح .

إن حياة الجماعة لازمة من لازمات الإنسان كتنسيقه المختلط وإبهامه الخالف . وحضارة شعب هي جُماع نماذج سلوكه جميعاً قد طبع عليها من المهد ، فهي تحفظ الجماعة من التطاير قطعاً عديدة ، وتعينها على التلاؤم مع الطبيعة والبقاء في محيطها .

قال وليم جيمس : « إن المتعضى الاجتماعى هو ما هو ، لأن كل عضو فيه يتوجه إلى واجبه وهو واثق بأن بقية الأعضاء سيؤدون واجبهم في نفس الوقت . فالحكومة ، والجيش ، والنظام التجارى ، والسفينة ، والكلية ، والفرقة الرياضية

كل أولئك يعيشون على هذا الشرط الذي من دونه لا يتعذر أداء شيء فحسب بل لا يحاول شيء .

ويصعب أن تكون ثم مبالغة في أهمية هذه الملاحظة ، لكنه ما أقل من يفهمونها . فلو لم يكن معظم الناس شرفاء ، ولو لم ينجزوا ما وعدوا ، ويعنوا بالأطفال ، ويعينوا الغير في ساعة الضيق ، لتفكك المجتمع . ومعظم الناس أخيار كما تثبت إحصاءات « الزمامات » . فهم يدفعون ديونهم ، وهم يمكن أن يؤمنوا . والفكرة الحضارية توضح لنا لماذا يجب أن يكون هذا هكذا . وإذا كان من غير الممكن الوثوق بأن يؤدي أي جزء كبير — وليكن أكثر من خمسة أو عشرة في المائة — ما ينتظر منه ، فلن يكون ثمت حضارة يعول عليها أو قيام لجماعة أو معيشة أو مجتمع نام ، بل يكون هنالك مجرد نوع من « مسكرات أسرى الحرب » وخليط من الأسرى المختلفي اللغات . والمجتمع الذي يؤدي ما عليه هو من حيث التعريف نظام عضوي ، دربه من ذات نفسه . ونحن حين نتكلم عن « الديكتاتورين » و « الديمقراطية » و « الدولة » و « الحرية » ننسى غالباً هذا الشرط الأساسي .

وفي « الإنسان العاقل » أصبح المجتمع — أكثر من الفرد — الوحدة الابتدائية في الكفاح من أجل الحياة . ومن دون أن نسل بأية فكرة ميتافيزيقية كمقل الجماعة ، فإن الفكرة الحضارية تنقل توكيدنا عن الفرد وتركزه فوق الجماعة . وقد ظل الفلاسفة ، وعلماء اللاهوت ، ورجال التربية ، ورجال الأعمال في الغرب قرونًا يتركزون على الفرد ، فأكدوا أنه وحده المسؤول عن خطاياهم وآلامهم وتوفيقيهم وفشلهم .

ويرى علماء الإنسان والاجتماع أن الفرد ليس هذا النوع من النظام العضوي إطلاقاً ، وأنه لا يمكن فهمه في حيز كهذا . فهو نتاج حضارة ؛ وهو جزء حي من

جماعته ، ولا يمكن فهمه أو قدره إلا بالنسبة إليها . والحكم عليه خارج هذا الحيز هو كمحاولة فهم سمكة من دون إشارة إلى الماء .

ويلاحظ لينتون أن فهم الدور المزدوج الذي يقوم به الفرد بوصفه فرداً ووحدة في المجتمع ، يزودنا بحل لكثير من مسائل السلوك البشري . « وما لم يعرف السيكولوجي ما هي قواعد السلوك التي يفرضها مجتمع بعينه ويستطيع استبعادها كدلائل على الشخصية ، فلن يكون في مكفته النفوذ إلى ما وراء واجهة المطابقة الاجتماعية ووحدة الشكل الحضارية للوصول إلى الفرد الأصيل . »

إن المشتغلين بالعلم الاجتماعي ما يزالون بعيدين عن الاهتمام إلى كل العلاقات القائمة بين الفرد وحضارته ، بيد أنهم أخرجوا دراسة الإنسان عن زقاق مسدود ، فأظهروا أين توجد المسائل الحقيقية ، وبدأوا يسألون الأسئلة الصائبة ، فأبدوا أن الإنسان حيوان اجتماعي إلى درجة لم تقدر إلى الآن . وظاهر أنه كان دائماً حيواناً اجتماعياً منذ هبط من الشجر . وأحياناً ما تشتمل جماعته على بضع أسر في أحوال هي أكثر ما تكون بدائية ، وأحياناً تملأ هذه الجماعة قارة بأسرها ؛ لكنها موجودة دائماً .

على هذه القاعدة العريضة يبدأ علم الإنسان . وفي مكنته الوليد أن يكافح لنفسه بمجرد أن يستطيع التلوي تقريباً . ووليد الإنسان إن لم تسنده الجماعة ، إما أن يموت من الجوع في الحال وإما أن يشبه أبله يهرف إذا ما تيسر له الطعام بمعجزة ما . والإنسان المتمدين يستطيع أن يفعل أكثر مما يفعل المتوحش لأن لديه الفرصة لأن يتعلم أكثر ؛ لحضارته أغنى ، وهي تتجمع وتتراكم كالريح المركب . وقد تكون مقدرة المتوحش المطبوع كمقدرة الإنسان المتمدين سواء بسواء .

ثقل الحضارات

يقص داروين في رحلة « البيجل » حكاية الغلامين جيمى وفيجيا اللذين أعيدا إلى قبيلتهما المتوحشة العارية التى تعيش فى تيرادل فيجيو. ومع أنهما عُرِضا للحضارة البريطانية خلال ثلاث سنوات فحسب ، فقد تعلمتا الكلام بالإنجليزية والإسبانية ، وحسن مظهر لباسهما وأدبهما على المائدة ، وكانا مريعى الخاطر ، محبوبين من البحارة :

« كان ممتعا أن تشهد مسلك المتوحشين حين نزلنا صوب جيمى بتون ، فقد أدركوا على الأثر ما بينه وبيننا من فرق ، ودار الحديث فيأصا بين الواحد والآخر عن هذا الموضوع . وقد وجه الرجل الهرم إلى جيمى الخطاب متدفقا طويلا فبدأ لنا كأنه يدعو إلى البقاء معهم . لكن جيمى لم يفهم من لغتهم سوى النذر اليسير ، وكان فوق ذلك خجلان كل الخجل من مواطنيه . »
وقد بقى الصبيان فى بلدكم الأصلى . غير أن هذا حز فى النفس وقطع نياط القلب . والله يعلم ماذا كان مصيرهما فى هذه البيئة البدائية القفرة .

ويقدم شينفيلد فى كتابه « أنت والوراثة » فنج كوك كيونج المولود باسم يوسف رينهارت فى لونيغ أيلند بولاية نيويورك . فقد أخذ إلى الصين وهو حدث ، وربى غلاما صينيا . ثم عاد إلى أمريكا فتى نجده أمام السبورة يتعلم الإنجليزية فى جهد بأحد فصول « الأمركة » . ذلك أنه كان قد أصبح صينيا قعاً فى آدابه ، وكلامه ، وعاداته ، ومنظره ، بحيث لم يكن يميزه من أعضاء الجنس الصينى سوى ملامحه . وليس هذا بالشئ الغريب الشاذ ، فإنه سيحدث دائما كلما نقل وليد إلى حضارة أخرى .

منظور جديد في التاريخ

تتيح لنا الفسكرة الحضارية منظوراً جديداً في التاريخ كما تتيح في أنفسنا .
فالحضارة مجرى من التغيير التدريجي من دون بداية أو نهاية . يقول لينتون :
« إن قيام وسقوط مدنيات بعينها قياماً وسقوطاً مصحوبين بالأحداث يجب
الآ يعميانا عن الحقيقة الواقعة في أن معظم الحضارات لم يسقط قط . فالحضارة
الأمريكية على سبيل المثال يمكن أن ينظر إليها على أنها استمرار يمتد في الماضي
ولا ينقطع ، محتازاً تاريخاً مُدَوَّناً ، وزماناً أثرياً ، مخترقاً ظلاماً غير مسجل إلى فجر
الجنس بالذات .

ويولد الأفراد ويموتون وأنموذج الحضارة يتنقل تحت ضغط المناخ ، وجديد
الاختراع ، والحاجة الداخلية . وتتحرك الجماعة شرقاً أو جنوباً ، فوق بواغز بيرنج ،
وعلى الهضبة المكسيكية ، منحدرة إلى باتاجونيا . لكنه في هذا يُحمى الأطفال على
الدوام ، ويُحبون ويُعلمون . وتتحد كلمة الجماعة دائماً على أعدائها الطبيعيين ،
ولا ينصرم الحبل مليوناً من السنين . لا يزور الجماعة موت ، ولا يطويها زمن .
والفرد لا يستطيع غالباً أن يوائم بين نفسه وبين الحقائق الخارجية ، أما الجماعة
فلا بد في النهاية من أن تفعل ذلك .

ونحن في نوكدنا للفرد في أمريكا لا نفطن — وهذا عادي — إلا قليلاً إلى
المجتمع الذي نعيش فيه . فإذا نشبت حرب ، وحلت الكارثة ، أدر كنا . وإذا شب
حريق في غابة أو فقد طفل في حرج ، أو فاض نهر أو هيو ، أو هب إعصار
في فلوريدا ، أو سقطت طائرة في جبال روكي ، خفت الجماعة إلى العمل لا تفكر
في نفقة أو مركز ، وهب الناس للنجدة . والمدينة الصغيرة التي أعيش فيها
في كونيتيكت قد استعادت تقريباً ، في خلال الحرب ، ما كانت سائداً
في عصر ما قبل الآلة من حسن الجوار .

إن الحضارة لتفتح لنا ، مما اكتشفته الطريقة العلمية إلى الآن ، أوثق ما يطابق الحقيقة عن نوع الإنسان . ولا يهمننا ما كشفت عنه طرق أخرى من حقائق هنا . والتاريخ كما ألف الناس تدوينه ، من هيرودوت إلى يومنا هذا ، يندر أن يشع على هذه الحقيقة ، بل يشع في الأغلب على الأفراد . على الملوك ، والقواد ، والباباوات ، ورؤساء الدول ، ورؤساء الوزارات ، والأنبياء ، وعظماء الرجال الذين برزوا في الجماعة ليمذبوها في الغالب . يقول أوجبرن في كتابة « علم الاجتماع » : « بينا الرأي السائد هو أن الزعيم يخلق العصر ، يؤكد رأي واقى عكس ذلك على خط مستقيم . »

ويميل التاريخ الرسمي بمن فيه من أمثال قيصر ونابليون إلى أن يكون سجلاً للشواذ ، والعبارة ، والألعاب الرياضية ، والأهواء ، والإختلالات ، وهو ما يتعلق بالغدد في نوع الإنسان . والتاريخ يقف الهرم الاجتماعى على قمته ، فترده الفكرة الحضارية على قاعدته . إن الملوك والحاربين دراميون ، حقيقيون بما فيه الكفاية ، بيد أن القصة الحقيقية تتناول المجتمع الذى حى أطفاله ونظم تمويله في كل المصور .

جدول مواعيد للمصلحين

تسلط الفكرة الحضارية أيضاً عدسة قوية على مقاييس للإصلاح الاقتصادى والاجتماعى . فإذا بعد كل شيء يمكن حتى أشد المهيجين والدعاة نشاطاً أن يقولوا لمجتمع غارق في جهود هائلة هي جهود النماذج الحضارية مدى الدهور ؟ إنهم يستطيعون أن يؤدوا شيئاً ، ولكن ليس على قدر ما يظنون أنهم يستطيعون . وقد بين كلوكهون وكيلي أن الكثيرين من المدبرين الاجتماعيين يهملون حقائق الحضارة فيظنون أن في وسعهم أن يحسوا المخطوط في اللوح في صورة ما ، ويبدأوا

من جديد . وهذا محال . « فكل مخلوق بشرى ولد في عالم عرّفته نماذج حضارية من قبل . »

والفكرة القائلة بأنه من الممكن أن تتحرر جماعة بفترة من عادات الماضي لا تعقل ، كما لا تعقل الفكرة القائلة بأن الإنسان الذي يستطيع أن يرفرف بذراعيه في سرعة كافية يمكنه أن يطير . ولو وسع الجماعة أن تتبدل بالسرعة التي يأملها بعض المصلحين لكانت تحطمت في اندفاعها قطعاً في وقت ما من العصر الحجري القديم . إن أكبر مهمة للجماعة هي البقاء بالتناسل والغذاء . ولا سبيل إلى حماية الصغار وضمان القوت إلّا في فترة من الإجراءات الطويلة الأجل .

لقد كان من بين ما وقع في نفسى أشد الوقع حين زرت روسيا بعد عشرة الأيام التي هزت العالم بمشرسنيين ، أنه لم يتغير فيها سوى القليل . فآين الثورة العظيمة التي تحدثوا عنها ؟ فالشوارع والحوانيت والبيوت ، والفلاحون في الحقول ، والعمال في المصانع — كل أولئك لم يتحول مظهرهم عما كان عليه في عهد القيصر . وقد وصف دليل بيديكر لسنة ١٩٠٧ السكك الحديدية والموظفين المحليين ، فطابق هذا الوصف ما كان بعد ذلك في سنة ١٩٢٧ مطابقة دقيقة .

لقد تنقلت السلطة في القمة ، لكن قاعدة الهرم الاجتماعي بدت لم تتحرك تقريباً . ولربما شعر العامة بما لم يكن يشعر به من سبقوم . ولكن منذ الذي يستطيع أن يجزم بذلك ؟ لقد شككت في أن تكون الثورة غيرت خمسة في المائة من سلوكهم اليومي . ومع ذلك فإذا غير ذلك يمكن أن ينتظر على ضوء الفكرة الحضارية ؟ إن الأنباء التي نتلقاها في العناوين ، والروايات التي نقرأها للمؤرخين ، يندر أن تلمس هذا الاستمرار والتواصل من العصر الحجري .

وقد كان أخذ ألمانيا بدستور فايمر في سنة ١٩١٩ محاولة للبدء بلوح نظيف ، ولجمل الألمان في مثل ديمقراطية سكان إنجلترا الجديدة متحدثين ألف سنة من

الحضارة الألمانية . وطبيعى أن تحبط هذه المحاولة فى وقت وجيز جداً . وقد جاء هتلر بعد ذلك فألقى فرصته فى النفرة التى تلت . فليكن هذا إذن درساً لأولئك الأمريكين الذين يحذقون الكلام ، ويريدون أن يجعلوا الديمقراطية — فى حين نماذجها — نمناً للمعونة التى تقدم للشعوب الجائعة فى الشرق والغرب ؛ فليس بمستطاع أن يثمر إصلاح مالم تؤثر به شجرة الحضارة الحية بنجاح . إن كل فهم للفكرة الحضارية يحدث تناقضاً ذهنياً غريباً . فمؤسسة ما فى حضارة المرء — كنظام البنوك مثلاً — تصبح وهى تبدو فى وقت واحد أضعف وأقوى مما هى . فلا يعود المرء يقف منها موقف الخائف بوصفها حقيقة خالدة ، إذ يعلم أنها من عمل الإنسان ، مقدر عليها التغيير أو الزوال ، إذا ما تبدلت الظروف الخارجية . وإلا فأين حق المولود البكرى ؟ وأين المبارزة فى أمريكا الحديثة ؟ لكن المؤسسة تشعر من النظرة الوجيزة باحترام زائد ، فإذا ركلت بأشد مما ينبغى فمن المحتمل جداً أن تكسر رجل راكلها .

وهذا كله مما يظهر مخاوف أولئك الشيوخ الذين اعتقدوا أن العلم الاجتماعى يعنى إصلاحات ومذاهب ونظرات عنيفة فى ضوء مختلف كل الاختلاف . وقد وجدنا عند التحليل أن علماء الإنسان دولوا على أضخم كايح يمكن أن يتصور لسكبج جماع الإصلاحات العنيفة . وهو كايح أفعل وأشد تأثيراً من كل جيوش البوليس السرى .

سنو التكوين

إن القول الشعبى المأثور بأن الكنيسة إذا احتضنت غلاماً إلى السادسة من عمره ، تجعل منه طيلة حياته مساهماً طيباً فى العشاء الربانى — هذا القول يلقى تأييداً قوياً من العلماء الاجتماعيين . فالقول بأن أى طفل صحيح البدن يمكن أن يقبل

أية حضارة — إلا أن يميزضده من جراء لون جلده — يؤكد أهمية سنى التكوين ، تلك الأهمية البالغة . وقد اتحدت اليوم أربع من مدارس الفكر لتؤكد هذه النتيجة — اتحدت علوم الإنسان والاجتماع والنفس والعلم الروحاني . وهذا عرض متين .

يقول علماء الإنسان إنه منذ أيام كرو — مانيون على الأقل وللأطفال من أية أمة وأى جنس نفس الجهاز المطبوع ، من الفاحية العملية . لكن كل خبرة منذ يولد الطفل تساعد على تشكيله بالحضارة التى يوجد فيها . حتى فى سن الثالثة أو الرابعة يكون قد استوعب مئات العادات ، ومبادئ اللغة ، وانطبعت فى نفسه آلاف المؤثرات التى لن يذكرها فى المستقبل وهو واع . لكنها تترك فيه طابعها كعضو من الإسكيمو أو المجتمع اليابانى أو الإنجليزى . ويؤكد علماء الاجتماع مظاهر التعليم ، والمظهر العام للخلق الذى يُنشأ ، والسنن التى تعبر عنه .

ويثبت علماء النفس أهمية التعليم الباكر فى اشتغالهم بشئون التربية والتعليم . فهم يدرسون استجابات الصغار وتطورهم إذ يجهزون بكل أنواع الجهاز المعلى من آلات التصوير ، ومواطن الصوت فى الفيلم ، والإحصاءات ، ومساطر الأرذواز . ويحاول غيرهم تحليل تفاصيل أخرى وأخرى للعملية الحيوية التى يصبح بها كل جديد حاملاً للحضارة . وهم وعلماء الإنسان معهم يشرعون فى إدراك الكيفية التى تنتج بها حضارة بعينها نمطاً معيناً من الشخصية .

ويؤكد الأطباء الروحانيون تأثير المواقف على الأطفال ، ويظهرون كيف أن التجارب الباكرة قد تصوغ خلق فرد صياغة لارجوع فيها . ولعلمهم الذى يرتبط بعمل علماء الإنسان وعلماء النفس برابط وثيق مظهر طبي أيضاً . فإنه ليكن أن تظهر العادات العاطفية مرتبطة فى تكوينها بعادات جنائية . وقد فعل

الأطباء الروحانيون إلى الآن أكثر مما فعل غيرهم في تفسير بواعث سلوك الفرد وأسبابه .

إن كل هؤلاء الإخصائيين يزايد حديثهم عن الأهمية الحيوية للأمن والعاطفة . وعوز الطقولة إلى الأمن ينتج نتائج شنيعة ترى أمثلة منها في أى مستشفى للأمراض العقلية ، أو أى غوغاء لا سيطرة عليهم . والإخصائيون بحاجة إلى أن تتفق كلتهم عملياً على هذا الموضوع .

إن عبارة « الحضارة والشخصية » هى عنوان حديث لميدان التحقيق العام . وواضح أنها تنطوى على احتمالات عظيمة فى ترابط مختلف الأبحاث التى أجريت الآن ، وتطبيق المعرفة التى اكتسبت . ونتيجة من النتائج هى أن يعاد تقدير ما يؤديه المعلمون والمربيات وخاصة الأمهات اللواتى يعددن « كمكة العادة » على حد قولهم قبل أن تحبز . ويمكن أن يجرى تغيير حضارى على أيدى هؤلاء الصاغة للجيل القادم كما يجرى الشئ من قع .

نقمة تفاؤل

وأخيراً تحببنا الفكرة الحضارية الرجاء بأن فى الإمكان حل مشاكلنا . وإذا كان الناس أردياء ، لدمهم ، أو لمبتهم ، أو لأخلاقهم التى فطروا عليها ، فليس يسعنا أن نفعل لهم شيئاً يذكر ، لكنه إذا كان الناس فى أساسهم لا غبار عليهم ، وكانت المسألة راجعة مبدئياً إلى التوفيق بين نماذج حضارية أو الأخذ بنماذج حضارية ، فلربما أمكن أن يفعل شئ لذلك .

إنه قد يمكن نظرياً أن يتكون مجتمع تماماً فى مدة خمس عشرة سنة ، وهى المدة اللازمة لطبع سلالة ناهضة من الصغار بحضارة جديدة . بيد أن نظرية كهذه يفرض معها أن يكون الوالدان والمربيات والمعلمون قد تلقوا تعليماً جديداً ، وبنوا

٧ - عالم جورج رذرفورد آدمز

وسبيل أخرى لتقرير الفكرة الحضارية هي أن تأخذ جارا من بني قومك وتحاول أن تهتدي إلى مصادر الحضارات التي صاغته . وقد فعل وارنر ولنت ذلك في سلسلتهما البديعة عن مدينة يانكي - فعلاه مفصلا بالإحصاءات والبحوث . لكن لعله يكون أبعث على رضانا أن يوجد ارتياد أكبر من هذا اثراً .

هنا على سبيل المثال جورج رذرفورد آدمز شخصية وهمية تدير جراجاً ومحطة بنزين ومشرّباً للّبن في ميدلبرج بكونيكتيكت . وفي مدرج وارنر ولنت الذي يشتمل على ست طبقات يصح أن يكون جورج عضواً في الدرجة الدنيا من الطبقة الوسطى التي إذا جمع بينها وبين الدرجة العليا من هذه الطبقة اشتملت على أعظم مواطني القوم نشاطاً وأجدرهم بالاعتماد . وجورج في الحادية والثلاثين من عمره . طوله خمس أقدام وتسع بوصات ، وزنه مائة وثمانية وخمسون رطلا . وقد كان مدفعياً في خلال الحرب في اللواء الجوي السادس عشر . وهو من رجال الجيش ، ومن أهالي ايلك ، وعضو عامل في شركة متطوعي ميدلبرج للمطافيء . وهو يذهب إلى كنيسة الطائفة اثنى عشرة مرة في العام . سمّيه الصغير في الرابعة ، وله ولید في الشهر الثامن عشر . وكانت امراته تدرس للفصل السابع في مدرسة هل قبل أن يتزوج منها .

ويحب جورج الإصغاء إلى مباريات الكرة في الراديو أثناء عمله في متجره ؛ وهو مغرم بصيد سمك اللوت في الربيع ؛ جمهوري فيما يتصل بسياسة المدينة ، لكنه صوت مرتين لفرانكلين روزفلت . وهو رجل محترم في ميدلبرج .

فأى مخلوق هو جورج رذرفورد هذا ؟ نحن نعلم أنه نتاج جماعة ، ونتاج الحضارة التي تعيش فيها هذه الجماعة . فأية جماعة هذه وأية حضارة تلك ؟ إننا نصادف هنا هيراقية من التواصل والولاء . وليس جورج نتاج حضارة واحدة كما هي حال إسكيمو جرينلانده أو كما كانت حالهم ، ولكنه نتاج حلقة كاملة من الحضارات الواحدة طى الأخرى . وجماعته في الآونة الراهنة يبلغ من حجمها أنها تشمل قارة — وإن كنا نستطيع أيضاً أن نتبين عدداً من القروء ينتمى إليها جورج . وهو يجد نفسه من ميدلبرج وكونيكتيكت فيدين لها بالولاء ، ومن إنجلترا الجديدة ، لكن ولاء لها أقل . وولاءه الأكبر هو مع ذلك للولايات المتحدة بثلاثة ملايين أميالها المربعة ، وبجيرانه البالغين فيها مائة وخمسة وأربعين مليوناً . وقد باتت الولايات المتحدة عشيرته وقومه بأوثق معانى الكلمة . وهى هكذا بطبيعة الحضارة المشتركة والسيادة القومية على السواء . وقد أزال الطريق العام الواضح للعالم ما كان من نماذج محلية قديمة أكثر مما أزالها السكة الحديدية . وبهذا الطريق يصبح معنى « الوطن » للأمريكيين كل مكان تستطيع أن تجد فيه « أيس كريم صودا » جيد النوع ، وخدمة حسنة في محطة بنزين ، وحوانيت للنجميل ، وماء مثلوجاً ، وكُتَّاباً في الألعاب الرياضية لكتاباتهم معنى ، وبنج كروسي .

كذلك أصبحت الأمة لجورج وحدة اقتصادية في هذه الأيام التي تجلب فيها الخضر الطازجة من كليفورنيا ، والخشب من أوريجون ، والزيت من لويزيانا . وفي أيام أوباديا آدمز شماس الكنيسة الأسلوبية ، وحداد ميدلبرج ، والجد البعيد لجورج كان المدينة المحل الأول ، ومن ثم كانت كونيكتيكت تطالب بالولاء الشديد . أما ولاية نيويورك فكانت عملياً بلداً أجنبياً يفصلها عن غيرها حاجز جمرى . وكانت أمريكا التي تصل إلى بقاع أوهيو الموحشة فكرة

مبهمة جداً في ذهن أوباديا . فإنه لم يتجاوز قط خمسين ميلاً من مسقط رأسه طيلة عمره ، ولم تخرج منطقته الاقتصادية عن هذه الدائرة ؛ حتى الحديد الذي كان يستورده لحدوات الخيل كان يردّه من تلال كونيكتيكت . وكان يعرف وجه كل واحد في المدينة واسمه ، ويعرف الكثيرين من أهالي المنطقة .

وقد سمع جورج الكثير عن الفردية الخشنة . فقد يحسب أنه سيد نفسه ، وفوق الجمهور ، وغير مسئول إلا أمام نفسه وربه . غير أن الحقائق الواقعة لا تؤيد مزاعمه . ففي ميدلبرج أشياء كثيرة جداً ربما ود أن يفعلها . لكنه لا يستطيع لأن العرف يمنعه . مثال ذلك أنه لا يجوز له أن يصفر في الكنيسة ، أو يطلق لحيته ، أو يضرب امرأة ، أو يأكل بأصابعه ، أو يخلع ملابسه علانية في يوم قائظ ، أو يلبس حذاءً بلياً مع زى عشاء ، أو ثياباً زاهية في جنازة ، أو يظهر في قاعة إيلك وفي سترته رقعة . إن حرياته نسبية إلى درجة شديدة ؛ يستطيع أن ينتقى ربطة رقبته من المشجب لكنه يجب ألا يلبسها إلا في الوقت المناسب لها . وثمت أطعمة بعينها يقدرها الكثيرون عالياً كالقراميط ، والقواقع ، وأنواع بعينها من أبي جلامبو لا يراها هو صالحة للأكل . ومع أن جوعه أمر طبيعي وعام بين الناس جميعاً ، لكن الكيفية التي يشبع بها أمر حضارى .

لقد خفت المخاوف بعض الشيء منذ أيام أوباديا ، لكن جورج ما يزال يتجنب السير تحت سلم ، ويؤثر ألا يوقع عقداً في يوم جمعة يوافق الثالث عشر من الشهر ، ولا يحب أن تعبر الطريق أمامه قطط سوداء . وهو واثق كل الثقة أيضاً بأن إيليرى سانفورد يستطيع أن يجد ماء في كل وقت بقوة غصن من صنصافه .

فمن أين أتت هذه القوانين والاعتقادات ؟ لقد بدأت عند جورج منذ اللحظة التي دق فيها الطبيب المولّد على إسته ، وندت عنه أول صيحة ؛ أنت من

والوالدين ، والمعلمين ، ورفاق المدرسة ، والأقرباء ، وسائقي اللوريات ، وجاويشية التدريب ، ورعاة الكنيسة ، ورجال البوليس ، والباعة ، ومن ارتياد مخازن الأدوية . جاءت من كل واحد تقريباً عبر طريق جورج في سنى التأثير . ولنفكر على سبيل المثال في كل من علم جورج الكلام ، وفي الجملة ما سمع في الراديو من أصوات .

ومن أين تلقوا القوانين ؟ من الجيل الذى سنها فلم يكن ثم شيء يسبح في الهواء . فالقوانين تصدر دائماً عن الناس . وبعض العادات الأبسط كالشرب من قده ، أو الجلوس على مقعد بدل اقتعاد الأرض ، قد يتلقى كما هو عشرين جيلاً . ويسعدنا أن نتبين أولاً عن آخر ، خمس حلقات حضارية كبرى على الأقل استمد منها جورج سلوكه :

١ — ولنبدأ بأعرضها . فجورج نتاج مدنية . فقد ظلت الجماعة التى ينحدر منها أكثر من ٦٠٠٠ سنة تفرق تفرقاً واسع النطاق بين العمل والإقامة فى المدن ، على أساس ما ابتكر من خزن الحبوب . وهذا يميز مسلكه من مسلك أناس عاشوا على الطبيعة ، لم ينشئوا مدناً قط ، أو تزاووا كتابة ، أو معماراً ، أو رياضيات . وهو يصل جورج فى نفس الوقت بأهم فى الهند والصين وبلاد القرم ومناطق أخرى كانت المدنية ، كما عُرِفَتْ ، ظاهرة فيها من أمد طويل . ومعنى هذا بالنسبة له شخصياً أشياء منها السكنى فى بيت ، والتوجه إلى المدرسة ، وتناول الحبوب ، ودفع الضرائب ، واستعمال النقود .

٢ — بعد ذلك تأتى المدنية الغربية متباعدة مع مدنيات أخرى . ومن هذه المدنية يتلقى جورج الديانة المسيحية وكثيراً من معايير الصواب والخطأ : الأعداد العربية والقومية ، والدولة ذات السيادة ، والعلم والفن الحديثين ، وإدارة الآلات ، والموسيقى بسلمها الحديث ، والسوق الحرة — وقد أفسدتها الآن للأسف الاحتكارات

ورقابة الحكومات فساداً كبيراً — وحقوق الملكية ، والمفاضة المالية ، والتجنيد
المسكى . وهذا قليل من كثير .

٣ — وحلقة تالية أصغر مما سبق هى الحضارة الأنجلوسكسونية . وتشمل
القسم الذى يتكلم الإنجليزية فى المدينة الغربية . وهنا يتعلم جورج لغته ، وهى أهم
عنصر مفرد فى تراثه الحضارى كله . وما كان أعضاء الجماعة ليتصل بعضهم ببعض
من دون اللغة ، بل كانوا خلقاء أن تفعل جماعتهم انحلالاً سريعاً ، وكان للمرء
خليقاً ألا يظل مخلوقاً بشرياً . وهنا أيضاً يتعلم جورج أن يعطى صوته ، وأن يمتد
بالهايباس كوربس^(١) Habeas Corpus ووثيقة حقوق الإنسان ، ويؤمن
بالديمقراطية السياسية ، وفكرة التقدم ، والحب الروائى بوصفه الأساس الحق
الوحيد للزواج . ويحصل جورج على شىء من الحنبلة ، وعلى إحساس قوى بالتفوق
على الأجنبى ، والقدرة على إخفاء عواطفه ، ويتعلم أن يستهجن من يرفع صوته
عند الكلام ، ومن يبكى ، ومن يلوح بيديه . ذلك أن بكاء رجل فى حضرة
آخرين مُذِلٌّ إلى أقصى حد . وهو فى هذا يقف أقرب إلى أهالى إيروكوا منه
إلى الأم اللاتينية . لكنه أقرب إلى اللاتينين فى فهمته العلنية .

٤ — ثم تأتى حضارة أمريكا الشمالية التى يشاطر الكنديين من متعلّى
الإنجليزية إياها ، ولكن لا يشاطرها المكسيكيين . وهنا يلتقط كلمات كثيرة ،
وأسماء أماكن ، وبضع عادات — كاستعمال زوارق الكانو ومشويات القمح —
مأخوذة عن الهنود الحمر . ذلك أن أكثر من نصف الولايات الثمانى والأربعين
تحمل أسماء هندية وفى جملتها ولايته كونيكتيكت . وقد تأثر تأثراً كبيراً بأنموذج
الحدود . ذلك أنه حتى انجلترا الجديدة قد كانت تعدّ من الحدود من بضعة أجيال
مضت . ويساعد هذا الأنموذج على تقوية فردية جورج ونوع بعينه من عدم

(١) أمر بإحضار سجين يصدر إلى السجن ليخرجه من السجن وبين سبب سجنه .

المسئولية من الناحية الاجتماعية ، وخاصة حيال الأملاك ، والموارد العامة . وقد كان يحول في خاطر الحدودى أن يتخطى الحدود ، وأن يخرج ، وأن يتحرك نحو الغرب . وكان المحيط الهادى قد بُلغ من أمد طويل ، لكن عدم المسئولية ظل من قبيل التسلكو الحضارى . وهو بين في الإسراف الخرافى فى التربة السطحية ، والخشب ، والمراعى ، والغاز الطبيعى . إسراف لا يعنى شيئاً إطلاقاً لجورج ، لكن فى أوروبا أقواماً ما كانت تطيقه . وهو بين فى عدم النضج السياسى ، وفى معظم الأمريكيين حين يواجهون باتصالات سياسية دبلوماسية ، إذ ليس فى حضارتهم ما يساعدهم على التغلب على حالات كهذه .

وإليك نماذج أخرى استمدها جورج من أمريكا الشمالية : المركب العظيم المتعلق بالسيارة وهو ما يعيش عليه ؛ وهوايود ، وعادات الراديو ، والمهازل ، وإنتاج الجلة ، والحمامات ، وإيمان سام بالتعليم ، ومتنديات المصالح ، والييزبول ، وقصة النجاح ، والقدرة على أن يضحك المرء من نفسه ، والجاز بند ، والميل إلى تدليل الأطفال . وللاحظ أننا نخلط هنا أشياء مادية بعادات ومواقف ، لكنها ترد فى التيار الحضارى مختلطة على هذا المنوال .

٥ — وأخرى الحلقات هى إنجلتره الجديدة . فمع أن معظم عادات جورج قد استمدها من هناك ، تجد أن ما أسدته إنجلتره الجديدة إلى أسلوب حياته من معاونات فذة قليل . وأقل منه بكثير ما كان عند جده أو باديا . فجورج أكثر من كثير من الأمريكيين تسامحاً مع الزوج الآتين من منطقة من المناطق المكافئة ضد الرق . وقد زودته إنجلتره الجديدة ببعض الألوان أو المأكولات الحبيبة إليها كحساء السمك مع اللبن ، وأكسبته غنة أنفية فى الكلام ، وميلاً إلى إطباق فيه ، وإلى الأدخار وعد بنسائه ، وإلى الاستراية بحيرانه ، كما زودته بفضيلة معنوية هى النهوض مبكراً والسكد فى العمل .

البحار المحرم

لقد أبقنا في صورة تقريبية جداً ما تدل عليه كل حلقة من نقط . وإننا لنتحتاج إلى مكتبة إذا نحن أتينا على كل العادات التي تلقنها جورج ، وبات يأخذ بالكثير منها من دون تفكير . ولنفكر لحظة في العادات التي لا نفكر فيها ، والتي نأخذ بها في يوم واحد من ساعة أن نستيقظ من النوم إلى أن نطفيء النور بالليل ، فلا بد أن يكون منها ألوف .

من الواضح أن معظم صناعات جورج وعاداته ونظم اعتقاده قد تلقاها من المدنية الغربية والحضارة الأنجلوسكسونية ومن أمريكا الشمالية . وقد كانت الأولى قاعة منذ سقراط ، ولنقل منذ ألفين وخمسمائة سنة ، والثانية منذ شوسيه أو منذ ستمائة سنة ، والثالثة منذ كان كابتن جون سميث ، ولنقل منذ ثلاثمائة سنة . لكن ما أضافه الهنود المحر إلى الحضارة الأخيرة يرجع إلى أبعد من ذلك كثيراً . فالحبوب الهندية تسبق في الراجح هوميروس .

فجورج رذرفورد آدمز هو جُماع هذه المؤثرات المتباعدة ، يحمل كالبهار المحرم هذا العبء الحضاري العظيم أينما ذهب . وليس يستطيع أحد أن يتصل به ، أو يكلمه ، أو ينبئه بشيء إلا فيما يتعلق بهذا العبء . نحن قابل صينيين أو بورميين أو هولنديين أثناء خدمته فيما وراء البحار كان يحكم عليهم بهذه المقاييس التي باتت في طبيعة جهازه العصبي ، كما أن النقل في طبعة العرب . وإذا قام برحلة في البحر الكاريبي حكم على الهايتيين والكوبيين والمكسيكيين مثل هذا الحكم . وما لم يشعر برد فعله فإنه لا ينتظر أن يكون منصفاً في حكمه . وسوف يغير الكثير مما يفعلونه ما يفعله هو ، لأن حلقاتهم الحضارية تختلف عن حلقاته ، وسوف يلومهم عليه . وقد يتحول لومه أحياناً إلى غضب .

٨ - نماذج مشتركة في نوع الإنسان

يقول لينتون : « إن أولئك الذين لا يعرفون حضارة غير حضارتهم لا يمكن أن يعرفوا حضارتهم . » ففي هذا الفصل سنجمع بين ثلاثة وثلاثين خصيصة للعلاقات البشرية اكتشف علماء الإنسان بدراساتهم المقارنة أنها مشتركة في كافة المجتمعات أو في معظمها . ذلك أن الباحث بعد أن يحترق السطح ينفذ إلى لب النظائر البشرية .

فن المعلوم أن النظائر تبدأ بمميزات وحدود — كيف جهزت المخلوقات البشرية للأكل والهضم والإنتاج . وبين جوليان هكسلي في كتابه : « الإنسان يقف وحده » بعض خصائص أحيائية أقل وضوحا :

« إن نوع الإنسان ، مُعتبرا كنوع ، فريد في طائفة بعينها من الصفات الأحيائية الصرفة ، وهذه لم يلتفت إليها الالتفات الذي تستحقه سواء من الناحية الحيوانية أو الاجتماعية .

« فأولا ، الإنسان بمعنى واسع ، أكثر نوع عرف بين الأنواع المتوحشة قابلية للتغير . . فالإنسان أوسع مدى بكثير من أى حيوان آخر مع إمكان استثناء بعض طفيلياته . . وقد استبقى النمط البشرى سيادته من دون انقسام . . والإنسان فريد بين أنواع عليا من الحيوان في طريقة نشوئه وارتقائه . وبيننا نشوء الحيوان وارتقاؤه في العموم متباعد . . فإنه في الإنسان قد عادت الفروع فاجتمعت بعد تباعد أولى ... حتى بات مجرى الانحدار البشرى كالشبكة .

« وكل هذه الخواص الأحيائية متواصلة . وهى تتوقف على ميول الإنسان المجرية التى تنشأ نفسها من خواصه الجوهرية في اللغة ، والحياة الاجتماعية ، واستقلاله النسبي عن محيطه . »

وقد كان على المشتغلين بالعلم أن يفحصوا حالات مختلفة للإنسان قبل أن يستطيع هكسلى إبداء هذه العموم اللافتة . وتوقف الأشياء العامة أو الدائمة التي نوشك أن نبسطها — تتوقف كذلك على مئات من دراسات الميدان . وحتى الآن لا تعدو أن تكون عموماً مؤقتة قد تدحضها دراسات تالية . وهى على الأقل مما يعول عليه أكثر كثيراً من عموم عن الطبيعة البشرية قائمة على مجتمع واحد ، أو — وهو أسوأ مع ذلك — على تأثير أخلاقى أو فلسفى .

فكيف توصف هذه الأشياء العامة بأنها علم معتمد ؟ إن حالتها خاصة . وقد وصف رجال الميدان هذه الحضارة أو تلك . والتحليل المقارن كفىل بأن يظهر النماذج المتشابهة . والاستنتاج المنطقي هو أنها نماذج ثابتة عملت وتعمل فى كافة المجتمعات فى الماضى والحاضر . فكيف يمكن إثبات ذلك ؟ لا يمكن . فاكشاف عشيرة واحدة تغاير النموذج ينقضه . وما نحن فى صددده هو فى الظاهر فرض ، عامل الرجحان فيه كبير . وقد تقلبه تجربات مستقبلية ، لكن المرجح ألا يكون ذلك . ويتفق ألا يكون ثمت للدرس كثير من الشعوب الطبيعية ممن لم يفسدها ما استوعبته من الحضارات كالبارود والكحول . وقد محص المشتغلون بالعلم الاجتماعى فى تلك الأثناء مدونات تاريخية عن مجتمعات الماضى تمحيصاً طيباً .

أولى دراسات الميدان

فلنرجع قليلاً إلى الوراء ، ولننظر كيف كانت البداية فى سنة ١٨٤٠ . شاقث لويس هـ . مورجان ، وهو محام شاب من روشستر بولاية نيويورك — شاقته لفة هنود سينيكا وعاداتهم فأدت به دراسته إياها فى الحال إلى أسرة عصابة الأمم الست التابعة للأبروكوا ، ونظامهم الاجتماعى . ودافع عن المفود فى قضية ضد شركة كانت تحاول خديعتهم عن أرضهم ، فكانت النتيجة أن تبنته قبيلة سينيكا

في سنة ١٨٤٧ تحت اسم « تا - يا - دا - او - ووب - روب » ذلك الاسم الجذاب .

وقد أتاحت قضية في ميتشيجن لمورجان هذا فرصة لدراسة نظام القرابة عند الأوجيبوا . ومن هناك امتدت تحرياته إلى نظم القرابة في حضارات مختلفة حول العالم ، ونشر عدة كتب في الموضوع . وبات أبا علم الإنسان الحضارى ، ذا تأثير على خلفائه الكثيرين ، وفيهم بوز — يتبوا منزلة رفيعة — وويسلر وريفرز وبنديليز وكروبر . قال ويسلر : « تلقى مورجان عن المصادر الأصلية مجموعة من الحقائق عن الشعوب البدائية ... فلاحظ ملاحظات إيجابية مستعينا على الأخص بحقائق عن نظم القرابة والزواج ، ويمكن أن يقال إنه مكتشف الأولى وأنه أول من استخدمها بطريقة علمية ... وإذا كان لم يفتح عمل الميدان في علم الإنسان ، فقد كان من أوائل من قاموا بدراسة وافية للحياة الاجتماعية في القبيلة . »

إن لدينا هنا سلسلا اجتماعيا يرجع إلى قرن من الزمان . ومن المهم أن نثبت أن الرجل الذي بدأ غيره من الباحثين يقفون على كتفيه ، أمريكي . وفي الحق أن علم الإنسان الحضارى فى الغالب علم أمريكى من البداية . وقد تجمعت فى سنة ١٩٣٦ مادة كافية لتسكين لينتون من إعداد جرده النهائى .

كشاف الحضارات المتعارضة

في تلك الأثناء كان جورج ب. مردك الذي سوف نلتقي به فيما بعد في أوكتاوه، يصنف «كشاف الحضارات المتعارضة» في ييل. فقد جمع هو ورجاله تسجيلات لأكثر من ١٥٠ حضارة ذاهبة وقائمة، ورصدها تحت عناوين مثل «القانون» و«المنزل» و«الطرق المالية» و«والجنائز» و«التعليم» وهم جرا. فإذا أهلك كثيرا أن تلم بالاحتفالات الجنائزية في جميع نواحي العالم مثلا،

فإن رحلة إلى نيوهافن خليفة أن تزودك بالقصة كلها ، فلست بحاجة إلى أن تغوص في جميع الكتب والوثائق طلباً لما تريد أن تعرف عن عادات الدفن ؛ فسيكون السجل حاضراً هناك في الكشف .

والصورة التي نلقاها في هذا الصدد من مخزن للمعرفة العلمية تصبح في الحق ملموسة جداً . وفي وسعك أن تذهب ، وتراها بعينيك ، وتركها برجلك — لكن في رفق من فضلك . فستكون حيال سبعين قطراً ، صفوفه تحوى مليون قيد يزداد عليها على الدوام . وقد استخدمت البحرية الكشف خلال الحرب تمهيداً لغزو جزر مارشال وماريانا وجزر كارولين . فتفادت من أخطاء جسيمة حينما نزل البحارة على الشاطئ .

احتياجات عامة

إن أول مهمة نهض بها كل مجتمع بشري توازى أول مهمة نهضت بها كافة أنواع الحيوان الأخرى — ألا وهي التلاؤم مع المحيط ، والعمل على البقاء . فالمهمة على ذلك عامة ، لكن الأداء يختلف اختلافاً لا يعرف الانتهاء . فالجغرافيا ، والمناخ ، والمواد الميسرة ، ومعدل الاختراع ، ومحض الصدفة — كل أولئك يساعد على تقرير : هل يأكل الناس السمك النيئ ، أو لحم جوز الهند ، أو فطيرة التفاح في الطباق الفائر ؟ هل يعيشون في خيام ، أو في أكواخ الثلج ، أو في ناطحات سحاب من الفولاذ ؟ فناطحات السحاب أو الخيام ، ولحم جوز الهند أو السمك ، دلالات حضارة معينة . ويظهر التشابه ثانياً في الأساليب ، إذ يكون لعشيرتين تشغلان بالزراعة في طرفي الأرض خصائص مشتركة لا تشاطرها إياها قرية صيادي السمك التي قد تكون ملاصقة لإحدهما .

وإليك ترتيب للاحتياجات والوظائف التي تبدو عامة ، إذ توجد في كل مجتمع درس إلى الآن ، تؤديها آلاف العادات المختلفة :

١ — اللغة وهي أهمها جميعاً .

٢ — حالة الفرد أو مركزه من الجماعة .

٣ — الأسرة والنظام الاجتماعي .

٤ — طرق معالجة المواد ، والقوت ، والملبأ ، والملبس ... الخ .

٥ — الحكومة .

٦ — الدين .

٧ — نظم لتفسير الظواهر الطبيعية — السحر والأساطير ، وأخيراً العلم .

٨ — القواعد المتعلقة بالملكية ، من يملك وماذا يملك ؟ التبادل ،

التجارة ، النقود .

٩ — صور الفن ، القصص ، الشعر ، الأغاني ، الهندسة المعمارية ،

الحفر ، الرسم .

١٠ — الحرب ، وهي عنصر قديم جداً ، واسع الانتشار ، وإن اختلف بعض

الباحثين على صفتها العامة .

ومع أن كل طفل من بنى الإنسان سيحتاج إلى وسيلة لمعالجة هذه الاحتياجات والوظائف ، فإن كل طفل يعرف الجواب ، إذ يتلقى عن حضارته كل التفاصيل . وكثير منها يتعلمه كل فرد ، وغيرها يتعلمه أطفال مختارون . بعض بعينه من المعلمين يتعلمون النجارة ، وآخرون يتعلمون ليكونوا أطباء أو دكاترة . ويتعلم البنات دائماً على خلاف ما يتعلم الصبيان .

ونلاحظ أن القائمة السابقة ، وتشتمل على الحاجات والوظائف الأولية

العشرين ، لا تتضمن بالضرورة قراءة أو كتابة أو حساباً ، أو دراسات في « الفنون الحرة » . وتدل القائمة على العناصر التي يتطلبها التعليم الحقيقي لكل طفل ، وما يجب أن يتزود به للحياة ، تبايناً مع التعليم الرسمي الذي يلقي في مدارس المدنية الغربية . واهله لو قربنا بين المنهاجين شيئاً ما ألا يضيع على الأطفال كثير من سنينهم في المدرسة .

والآن سننظر إلى بعض العموم جامعين إياها تحت عناوين مثل « الأسرة » و « الجريمة والعقاب » مرقين إياها حسب ترتيبها . وقد صنف معظمها من كتاب لينتون « دراسة الإنسان » وروجع مع إحصائيين آخرين .

فما نفعها يا ترى ؟ إليك مثلاً : هب أنك متضايق من حالة الأسرة في أمريكا ، يكر بك معدل الطلاق ، أو أخلاق الشباب الأسيفة ، أو تعذر جعل الحياة محتملة للمستئين . فقبل أن تنضم إلى حرب صليبية شعواء لعمل شيء في هذا الصدد ، فإنه يكون من حسن الرأي أن تبحث عن بعض الاستنتاجات التي وصل إليها المشتغلون بالعلم الاجتماعي فيما يتصل بسنة الأسرة — تلك السنة الأصلية . فقد لا تشن حربك الصليبية أبداً ، أو قد تتخذ شكلاً آخر . وإليك بعض العموم الهامة عن الأسرة مرسومة بالتقريب .

الأسرة

١ — إن الإنسان العاقل ، كما يتضح ، قد عاش دواماً في أسر دائمة ، وإن تغير الشكل كثيراً من قبيلة لقبيلة . والشكل لا يخالف تركبه التقدم الفنى . فأشد النظم المعروفة تعقداً هي تلك النظم التي كانت قائمة في أستراليا في حضارات العصر الحجري القديم ، بينما نظام الأسرة الأمريكي في أرض الإنتاج بالجملة « بسيط بساطته بين القرود العظمى . »

٢ - إن الفكرة المحببة إلى الرسامين عن الهرم بلحيته الرسالة ، وعكازه المعقد ، وقطيع نسائه المذعورات ، فكرة خاطئة كل الخطأ . فقد كانت من أساطير العهد الفيكتوري ، نفقت لتلقى الأسرة الإنجليزية في ذلك الأوان وخاصة الأب ذى اللحية الدندريه الذى كان يظن رمزاً للفضيلة البشرية . وقد بلغوا هذه الصورة منه بجهود لا تصدق فوق سلم طويل من التقدم ، بدأ عند رجل الكهف . فهذا الهرم لا تجهل المدونات التاريخية فحسب ، بل إن الاحتمال في صورته تلك بعيد . وقد كان خليقاً لطول مدى الحياة البشرية أن يكون معه في الحقل جم غفير من الشبان يفافسونه في العمل . ولو بلغت القسوة بزعم أن يطرد من عدهاء من الذكور ليستأثر بالإناث فمن كان ينتظر أن يقوم بالعمل ؛ إن الجماعة لتفقدن عندئذ معظم قوتها الحصانية .

٣ - إن الوظيفة الرئيسية للأسرة هي حماية الصغار . وهي تظل أفضل أداة للعناية بالأطفال والقيام على تربيتهم . وكافة المجتمعات تدع هذه الواجبات للأسر . والاختلاط بين الأم وطفلها في كل مكان حميم إلى أبعد حد كما هو حال اللبونات الأخرى . ومعنى هذا أن مزارع الرضع ، وحضانة الجملة ، وإن كانت صحية تقدمية ، ليست بديلاً من حب الأم وعنايتها . وقد أخذ المشترون يدركون هذا بوضع نظم حديثة للضمان الاجتماعى تمنح بموجبها إعانات للأسر تختص بها الأمهات رأساً قبل أن يختص بها الباحثون الاجتماعيون . ونحن نقصد هنا الأم في المتوسط . ومن المعلوم أن بعض النساء لا يصلحن لهذه المهمة .

٤ - تشتمل الأسرة في كل مكان على البالغين القادرين جسمانياً من كلا الجنسين ، وإن كان من الممكن ألا يكون منهما والدون صميمون . ووجود ذكر أو اثنين في الأسرة ضرورى لتربية الأطفال . ومن دونه أو دونهما يعتاق الأطفال الذكور في تلقى أدوار جنسهم المتوقع منهم أن يقوموا بها .

٥ — تباشر الأسرة دائماً توزيع العمل ، فتتولى الأم واجباتها ، ويتولى الأب واجباته ، والأطفال واجباتهم ، والجد واجباته .

٦ — إن وظائف الأسرة وحدة اقتصادية لا يُؤجر فيها فرد بانتظام على تأدية واجباته .

٧ — عناية الأسرة بالمسن وبالطفل على السواء .

٨ — إن تفوق الذكر في القوة البدنية يجعله في كل مكان الحاكم الرسمي للأسرة والمجتمع . وتبدو الأمازونات الحزات للأسف أسطورة أخرى ، « فمن المشكوك فيه أن يكون ثم مجتمع تحكمه النساء بالفعل . »

٩ — إن الاكتفاء بزوجة واحدة هو الشكل الوحيد الذي تسمح به المجتمعات كلها للزواج . وقد يقوم مع ذلك إلى جانبه شكل آخر للزواج . فتعدد الزوجات منتشر ، وتعدد الأزواج ليس بالأمر غير العام .

١٠ — إن الفكرة الشيكتورية عن الزواج القائم على الحب الروائي ، وقد بلغت به هوليود ذروة شائخة ، توجد في مجتمعات قليلة جداً . والزواج ينطوي على اختلاط حميم لأسر بأسرها لعلها كانت قبله غرباء — حميم إلى درجة أن أمراً في معظم المجتمعات قد أحست بضرورة الحد منه . والفرص التي تبشر ببيت ناجح يربي فيه الأطفال ، تلوح على الأقل حسنة أيضاً في زواج مدبر . وغير خاف أن الحب الروائي يقع في كل مكان ، لكن الزواج الذي يترتب عليه يقابل عادة بهتفظ شديد . فكثيراً ما تذهب بالرواء اتحادات سابقة للزواج . وقد وصفت سرغريت ميد في كتابها « البلوغ في صاموا » مجتمعاً كهذا وصفاً يديعاً جداً .

١١ — من المحتمل أن الزواج لم يتطور قط عن السبي . وزواج الجماعة أسطورة

أخرى من أساطير العهد الفيكيتورى . ومع ذلك فإن إعاره الزوجة أمر شائع شيوعا وسطا .

١٢ — تعترف كل المجتمعات بالطلاق ، لكنه ما من مجتمع يستحسنه .
والزواج المثالى قائم بصفة نهائية فى كل مكان .

١٣ — إن بعض أنماط مضاجعة المحارم محرمة فى كل مجتمع معروف . وأشدها تحريما زواج الأم من الابن — مأساة أوديب . وزواج الأب من الابنة مباح فى مجتمع واحد على الأقل ، بينا زواج الأخ من الأخت ليس أندرا مما ينبئ ، وخاصة فى الأسر المالكة ، كما كان الشأن عند الفراعنة .

١٤ — إن الأسر الكبيرة هى القدوة . ويلوح أن هنالك أسبابا وجيهة لهذا ، اجتماعية وأحيائية على السواء . وهذه الأسر تؤلف محيطا لتربية الأطفال أفضل من أسرة صغيرة مشوبة بالعاطفة . فالأطفال يعلم بعضهم بعضا ويتعلمون أن ينسجم بعضهم مع بعض فى الأسرة الكبيرة . وقد لا يعنى هذا مع ذلك أن يكون لكل أم أطفال كثيرون ، فالأسرة غالبا جماعة صغيرة تضم أمهات عديدات ، ويجرى الأطفال بين ظهرانيها جميعا معا .

١٥ — إن الزواج بين حضارة وأخرى صعب دائما . (فعدد كبير من الجنود القدماء وعرائسهم اللواتى أنوا بهن من وراء البحار يكتشفون هذا الآن .)

الجريمة والعقاب

١٦ — ينص كل مجتمع معروف على عقوبات معينة أفساها وأشدها أثرا التشهير . وبعض المجتمعات ليس لديه إطلاقا غير هذا الشكل من أشكال العقاب . فإذا خرق أحدهم قانونا اجتماعيا وهزئ أمام الجمهور ، فهو يدرى ما فى هذا من صدمة تامة ، فإنه يفضل عليه السجن بل الموت ! ويقال إن السيد الصينى ليذهب إلى

أى مدى ليتجنب هذه الفضيحة ، وكذلك يفعل جورج رذرفورد آدمز .
 ١٧ — إن السرقة داخل العشيرة جريمة في كل مكان لا تغتفر ، بيد أن السرقة من جماعة خارجة ، من أولئك الأجانب ، كثيراً ما تعد من الصالح العام . والعصبة التي تواجه بعضها بعضاً تعنى بأمور أعضائها جميعاً . فلا يسمح فيها بأن يكابد أحدها عوزاً . وللتسولون لا يأتون إلا مع المدينيات . هذا إلى أن السرقة في الجماعة الصغيرة خطر على السارق من أعظم الأخطار ، ذلك أنه من السهل فيها تعقب اللصوص . فإذا ارتكبت الجريمة غفرت أول مرة في العادة ، وبُصر السارق بالعواقب . لكنه إذا ضبط عضو العصبة يسرق لثاني مرة عوقب عقاباً صارماً ، وقد يكون عقابه أحياناً الموت .

بعض الاقتصاديات العامة

١٨ — لم يوجد قط مجتمع يمتلك تملكاً شيوعياً تاماً . والملكية الفردية فيما يخص الشخص أمر عام . فالشيوعية البدائية تلوح بذلك من قبيل الأساطير .
 ١٩ — في نفس الوقت ينذر أن تكون هنالك ملكية فردية لموارد الجماعة الطبيعية في المجتمعات البدائية . فليس للفرد حقوق خاصة به دون غيره في مصيد البحر والبر التي يتوقف عليها معاش الجماعة . ومثل هذه الملكية تستبقى كاملة ، ويجب أن تنتقل سليمة .

ومن أعظم ما بذور الخلاف وآثار العنف بين المستعمرين الأولين في أمريكا وبين الهنود ، قد كان أن الهنود اتبعوا هذا التعريف للملكية في المرافق الطبيعية ، وهو تعريف أعظم انسجاماً مع الطبيعة ، بينما أخذ المستعمرون بتعريف الأنجلوسكسونيين الخاص . ولما « باع » الهنود الأرض في مقابل بضع مئدى وقليل من العقود كانوا يظنون أنهم إنما ينقلون حقوق الصيد إلى غيرهم فحسب .

فلما أخذ صفر الوجوه يباشرون حقوق الملكية الكاملة كان من الطبيعي أن يقول الهنود الحيرة والغضب . وشعر الأورو بيون من ناحيتهم بأن الهنود قوم كاذبون غشاشون لعدم وفائهم بالاتفاقات التي وقعوها . وفي هذا مثال لحالات سوء الفهم التي تنشأ من تعارض الحضارات ، والتي تفضي إلى العداوة والحرب .

٢٠ — إن التبرع فضيلة سامية في كثير من المجتمعات ، بينما الرغبة في الربح كثيراً ما تنتفي . والاقتصاد والادخار بدلا من أن يكونا فضيلتين يعدان العكس غالبا . وكثيراً ما تستخدم الثروة في التبديد الصريح أكثر مما تستخدم في زيادة رأس المال . ويتبارى هنود كواكيوتل التابعون لثاكنكوثر في ولائهم ، يباهون فيها بمراكزهم ، فيحاول رجل أن ينجل منافسيه بالنزول عن أشياء ذات قيمة أو حرقها . وقد تناول فيلبس موضوع التبديد الصريح في كتاب « نظرية طبقة الفارغين » .

٢١ — يميل بعض الأفراد إلى الاقتناء « وهكذا كان على كافة المجتمعات أن ينشئوا طرقاً يضمنون بها نصيباً من الضروريات لكل الأعضاء » على حين يجتهد الأشره من الأعضاء في احتكار الضروريات . وتضع كافة المجتمعات قيوداً لاقتناء الملك . وإحدى الطرق الحديثة لتحديد الاقتناء في المجتمع الأمريكي هي ضريبة الدخل التصاعدية التي تبلغ ٨٦ في المائة عند ما يصل الدخل إلى ٥٠.٠٠٠ جنيه في السنة .

٢٢ — لم تبقى قط حضارة بشرية في مستوى الجمود أمداً طويلاً ، وهو ما يقيم عليه معظم رجال الاقتصاد القديم نظرياتهم . فالرجل الاقتصادي الذي يعمل دائماً بمبدأ « أقل تكليف وأكبر دخل وأعظم قدرة » لا يمكن أن يوجد إلا في السكتب . والناس يحسنون ضرورياتهم دائماً وينظرون في إرضاء رغباتهم غير الاقتصادية في اللحظة التي يرتفعون فيها فوق مستوى المعيشة الضرورية .

« والتحصين غير المحدود من أعظم ما يلفت النظر في العموم ». فأناس العصر الحجري القديم أيضاً كانوا يحفرون الرسوم على فؤوسهم ، والآفاين المبرر الاقتصادي لبناء هرم مصرى ، أو عمود مايا ، أو كاتدرائية شارتر ، أو نصب واشنطن التذكارى ؟ فكر فى التحسين المتواصل من بوق الراعى إلى الجوقة السيمفونية ! والنظرية الاقتصادية التى تغفل هذا الدافع العام لا يمكن أبداً أن تلائم الحقائق .

عموم فى أعضاء الجماعة

٢٣ — كل شخص طبيعى يحتاج إلى تجاوب جماعته . والرهبان والمعترلة شواذ فى كل مكان .

٢٤ — يحتاج المرء إلى الشعور بأهميته ، ولا بد أن يرى أن له فى ناحية ما من المجتمع مكاناً نافعاً ولو كان متواضعاً ، وأنه يملأ هذا المكان . وهذا بادى بناء كل مجتمع معروف ، وهو على أعظم جانب من الأهمية .

٢٥ — إن مكانة الفرد باعث كبير من بواعث عمله أقوى من المال فى معظم المجتمعات . وقد جمعنا فى مجتمعنا بين الإثنين من عهد قريب ، أى أننا عرّفنا المكانة بما نعتبره عن المال . ويبدو أن الكساد والفراغ ، وضريبة الدخل التصاعدية ، قد أضعفت المرغبات المالى قليلاً .

٢٦ — يشعر الفرد دائماً بالحاجة إلى زعيم . فهو يريد شخصاً يمكن أن يستأمنه ليتولى جماعته .

٢٧ — يظهر الفرد فى كل مجتمع حاجة عميقة إلى أصدقاء من جنسه .

٢٨ — يحتاج الفرد إلى طريقة للتخلص من متاعبه . وخضوعه باستمرار لأحكام حضارته يبقى هذه المتاعب قائمة كلها من حين إلى حين . فلسكى يحافظ على توازنه إن لم نقل صوابه ، يجب أن ينفس عن نفسه . وليست لنا طريقة معترف

بها لفعل ذلك . غير أن بعض المجتمعات الأخرى تعد نوعاً من المرافع الرسمية ، أو عيداً من الأعياد ، أو ليلة كلية فالبورجا^(١) تعطل فيها النواهي بصفة رسمية ، وتطلق الحرية فلا تقف عند حد . ويبدو أن أقرب أسلوب لنا في هذا هو عيد الميلاد ، وليلة رأس السنة ، والأيام التي تعطل فيها البنوك . وقد قال لي عالم مشهور من المشتغلين بالعلوم الطبيعية إنه يكره أن يتخلى عن لعبة القنس لأن ضرب الكرة بقوة بنفس تنفيساً عجيباً عن روح العدوان فيه .

٢٩ — كانت الشهرة في العصر الفيكتوري أن يشكو المرء من أن غير المتمدنين من أمثال زنوج أفريقيا وهنود المكسيك ، لم يكونوا يفكرون تفكيراً منطقياً ، ومن ثم كان يصعب معاملتهم . وقد وضع وضوحاً تاماً في السنين الأخيرة فحسب أن المتمدنين أيضاً لا يفكرون تفكيراً منطقياً . فإن تسجيلات علماء الإنسان تدل على أن الإنسان ليس مخلوقاً منطقياً . وقد لاحظ شواننا إننا نستخدم عقولنا في خدمة تحاملاتنا — وقد يكون هذا شديداً بعض الشيء .

ويرينا التسجيل أيضاً أن و. ا. توماس العالم الاجتماعي لم يخطئ كثيراً حين كتب عن رغبات النوع الإنساني الأربع من جيل مضى ، إذ قال إن كل فرد بحاجة من جماعته إلى أربعة أشياء : التجارب والأمن والتقدير والخبرة الجديدة .

عموم الحكم

٣٠ — يفرق لينتون تفريقاً بيناً بين « الجماعة » و « الحكومة » و « الدولة » ، فالجماعة أو المجتمع في تعريفه هو أية مجموعة من الناس ذات بنيان

(١) ليلة عيد تقديس القديسة فالبورجا الألمانية ، وتوافق ليلة عيد أول مايو أو عيد الربيع . وكان قبل المسيحية عيداً وثنياً ، ومن ثم يعتقد أن الساحرات كن يلهن فيه مع الشيطان فوق جبلهن .

اجتماعي . والجماعة كما رأينا هي ناقلة الحضارة إلى الصغار . وهي تختلف في الحجم من عصابة مؤلفة من بضع مئات يواجه بعضهم بعضاً إلى كافة ما تحتويه قارة جورج آدمز من ناس . وقادة الجماعة أو المجتمع هم الحكومة كما عرّفوا ، رسميين كانوا أو غير رسميين . ولم يوجد مجتمع من دون حكومة — وهو ما يحمل الفوضيين الفلاسفيين في واد وحدم كما يبدو . غير أن الدولة شيء آخر . فهي العبارة التي تطلق على المجتمع والحكومة معاً إذا انتظمتها دولة ذات سيادة مستعدة لأن تعلن الحرب متى دعت الحاجة . وهذا ينحول الدولة طائفة من السلطات المتعينة — متعينة لسلام الفرد وراحته .

ولولا الحرب أو خطر الحرب ما كان ليكون لنا مؤسسة تطابق الدولة إطلاقاً ، ولا ظاهرة كأثينا وقرطاجة ورومة في الزمان الغابر ، وكألمانيا وبريطانيا وروسيا والولايات المتحدة في الوقت الحاضر . ومتى كانت الحرب ظاهرة عامة كانت الدولة تلك الظاهرة أيضاً . بيد أننا قد أسلفنا البيان أن الحرب لم تكن مقررة في صورة حاسمة كضرورة عامة .

٣١ — إن المصبة المتأسكة التي يواجه بعضها بعضاً — كما هي الحال بين هندو السهول — هي أقل استمساكاً بالحكومة الرسمية ، فليس للزعيم الكبير أو الشيوخ فيها ما يؤدونه . فكل عضو فيها يعرف مكانه ، وواجباته ، وحقوقه ، ويحسن تدريب نفسه إلى حد ألا يحتاج كثيراً إلى من يحكمه . ويبدى لينتون أن أنجح الأمم ما شعر المواطنون فيها نحو بلادهم بنفس شعور الشعوب الطبيعية نحو قبائلها على نحو ما . فتق أحسن المواطنون هذا الإحساس فأى شكل من أشكال الحكومة تقريباً ، ملكية كانت أو دينية أو ديمقراطية ، سيصلح . أما إذا أعوزهم هذا الشعور فلن ينفع معهم أبدع دستور . وإذا نحن نظرنا إلى العالم في سنة ١٩٤٨ بدا لنا أن الشعب السويدي يحس هذا الشعور . وكذلك الإنجليز . أما الفرنسيون

فأقل من هؤلاء نصيباً منه . ولا بد من غليان البوتقة أكثر ما تغلى قليلاً قبل أن يبلغ هذا الإحساس أمريكاً حيث الصيحة التي تند عن ألف من الجماعات الضاغطة ما تزال : نفسى أولاً .

المركز والدور

استعد الآن لعامٍ مفاجئ !

٣٢ — « إن الموهبة الفردية هي أكثر تشتتاً وأقل قابلية للتنبؤ من أن يسمح لها بأى دور هام فى تنظيم المجتمع » . فالنظم الاجتماعية التى تتحمل ، تقوم على الشخص المتوسط الذى يمكن أن يدرب على شغل أى مركز بصورة كافية إذا لم تكن باهرة . وإذا لم يكن دائماً بد من أن يقوم بالأدوار أمثال نابليون ولينكولن ، فلن تشغل هذه الأدوار إطلاقاً . على أن المشتغلين بالعلم الاجتماعى يسمون بأن الموهوبين كثيراً ما يقفزون إلى المقدمة فى فترات التغيير الحضارى السريع كالتغيير الراهن . وهذا العام يقرب عملياً كل ما كان معظمنا يعتقد دائماً عن الزعامة . ومع ذلك فإن من الصعب الرد على منطقته . فالحقائق الواقعة — كما هو معلوم — أجلى من أن تنكر . ولكل المجتمعات — فى كل الأوقات تقريباً — زعماء متوسطو الذكاء ، وما عليك إلا أن تدبر بصرك فى المدينة .

٣٣ — والمركز إما أن يُخصص أو يحرز . فإنك تولد لمركز اجتماعى أو تجاهد فى سبيل الحصول عليه . والمراكز فى المجتمعات الإقطاعية معظمها مخصص ، فابن النبيل يصبح نبيلاً بمولده ، وابن العبد يبقى عبداً . وفى أمريكا يقام الوزن للمركز المكتسب — الذى هو تعبير فنى عن قصة النجاح . وهذه الحقيقة الواقعة هي التى تدفع جورج رذرفورد آدمز وتحته على الدوام . وأى غلام ، ويفضل من

يولد في خص مبنى من جذوع الأشجار ، يمكن — كاقول الماثور — أن يكون رئيسا للولايات المتحدة . ومع ذلك فإن الولايات المتحدة تضع قيوداً لهذا أيضاً . ففي حضارتنا الراهنة — مهما ينص القانون — لا يمكن في الراجح يهوديا أو كاثوليكيا أو زنجيا أو امرأة أن تنتخب رئيسا .

ويعلق الأمريكيون أهمية كبيرة على أولئك الذين يرتفعون في المرتقى الوعر ، بيد أن الأمريكيين أكثر عصبية وتضايقاً من أعضاء بعض الحضارات الذين يشعر الأمريكيون بأنهم متفوقون عليهم . والمركز المخصص يجعل الفرد ناعم البال ، ويقلل من التنافس والتبارى والعطاسة . والناس في أمثال هذه المجتمعات يحسون أمناً من النزوات لا تعرفه رول ستريت أو مين ستريت ^(١) غالباً . وتفسكك العشيرة الصغيرة أو العصبية في مجتمعات الإنتاج بالجملة أكثر خطورة . فالعصبية هي أثبت الظواهر الاجتماعية جميعاً وأوحدها شكلاً في كثير من الاعتبارات .

وتصدع العصبية ، بدربتها الذاتية وشبعها العاطفي ، يواجه المجتمع الحديث بما يعتقد لينتون أنه أخطر مشاكله . فآين نجد البديل ؟ إن معظم الناس في مدننا الكبيرة ليس لهم جيران البتة بالمعنى القديم . وواضح أننا لا نستطيع العودة إلى قبيلة الرحل أو إلى القرية المستغنية — وإن كان يمكن أن نرد على أعقابنا . ومثل هذا وضوحاً أننا لا يمكن أن نتابع السير على هذا المنوال إلى ما لا نهاية . إن الإقبال العظيم على اللامركزية مفهوم كل الفهم ، فعلى المشتغلين بالعلم الاجتماعي مهمة كبرى هي تخطيط بناء مجتمع لامركزي في عصر الذرة . والذي يبدو كذلك أننا أحوج إليه من الإنتاج المتزايد أو من مركبات للسكك الحديدية أضخم وأجود

(١) مراكز المال والمادة في الولايات المتحدة .

من المركبات الحالية ، هو مجموعة من الفكر غير المتعارضة يمكن أن يشترك فيها ويؤمن بها معظم الأعضاء في مجتمعنا .

إن هنالك عبارة تتخلل جميع البحوث التي من هذا القبيل ! الكرامة الإنسانية . وأحسبني أعرف معنى هذه العبارة ، لكنني لم أجد قط من عرفها تعريفا وافيا . لقد جاءتني صورة لهنود مايا كما شهدتهم يصلحون هرم تشيشان إيتزا العظيم . ولعل المشتغلين بالعلم الاجتماعي قد زدودونا بحل . ولعل الكرامة الإنسانية لا تظهر إلا حين يكون المرء واثقا من مركزه ودوره ؛ حين ينتفي الكدح والزاحم والتدبير للحصول على دور آخر ؛ حين يعرف المرء أنه تابع ، وتكون الحياة أمامه واضحة .

٩ - تمرد في الصحراء

هذه قصة جماعة من المشتغلين بالعلم الاجتماعي برئاسة الدكتور الكسندر هـ . ليتون . تركوا معاملهم وعياداتهم وعمل الميدان ليدرسوا جماعة تغلى من الخيبة ، وتضطرم بالرغبة في العدوان . ونذكر أن النقاد أشاروا على المشتغلين بالعلم الاجتماعي بأن يزيدوا من نشاطهم هذا ، فيأخذوا كراساتهم إلى مواضع الاضطراب ، ويراقبوا من مصدرها الأصلي جماعات ترهقهم الحوادث . وسنتابع مثالا بارزاً لهذه الطريقة ونرى بعض المعرفة الجوهرية تضاف إلى الخزن . لقد اتفق أن كان الدكتور ليتون فرقة بذاته بوصفه طبيباً روحانيا وعالماً في علم الإنسان .

كان مكان الاضطراب عشيرة من الأمريكيين اليابانيين اقتلعوا من أوطانهم على شاطئ المحيط الهادى أثناء الحرب ، فأخرجوا من ديارهم جميعاً وأنزلوا صحارى أريزونا . وقد ظلوا أثمراً في اضطراب ختم بإضراب عام ، كان خليقاً أن ينتهى إلى مذبحه تقابل فيها الدول بعضها بعضاً بالمثل . وكان المعسكر في حراسة الجيش تديره الإدارة الخاصة بالهنود الحمر . فندب ليتون ليراقب أحوال هذه العشيرة ، ويشير على الضباط بما يراه ، وينقب عن آراء ملزمة . وإليك ما يقول :

« إن كل ما هنالك يحدث للبشر . فما هي القوانين التي تنظم سلوك الفرد ؟ وما هي القوى الاجتماعية الدائمة التي تعمل هنا ... وأية خصائص عامة للطبيعة البشرية تؤثر تأثيرها ، فإذا عرفت منعت هذه الأمراض الاجتماعية المباغتة ؟ وانهميار نظم الإنسان التي تتناوله ورفاقه ليس بالحادث القاصر على معسكر اللاجئين . فهو يلحق من الكرة الأرضية ما هو مأهول بالجنس البشرى ، وينطوى على

مسائل تغفل في مصير النوع الإنساني في عالم يفكش^(١) .

الأمريكيون اليابانيون

إن اليابانيين الذين قدموا إلى أمريكا ليقموا على الشاطئ الغربي لم تكن لهم الحلقات الحضارية التي كانت لأسلاف جورج رذرفورد آدمز . وثق أن من ورائهم قرونا من المدنية . لكنها لم تكن مدنية غربية أو مسيحية ، ولا حضارة أنجلوسكسونية ، ولا لغة إنجليزية قبل كل شيء . ومع ذلك فقد كانوا في سنة ١٩٤٠ في طريقهم إلى التلاؤم مع محيطهم ، والتحضر بحضارته كما يقول علماء الإنسان . وقد ألف أطفالهم كلا العالمين .

صيادو نونة من جزيرة ترنغال ، ومعلمو مصارعة يابانية ، وزراع بقدونس ، وبستانيثو وُرد ، ورئيس جمعية مسيحية للشبان ، وماري ابنة تكساس (زينة صالون من صالونات ساليانس) وتجار جملة ، وقسيس بابوي ، وبُحَّاة ، ورؤساء للخدم ، ومحامون ، وأفاقون — قرابة ١١٧٠٠٠ أمريكي ياباني من سان بيچو إلى ستيل ، اتخذوا طائفة متنوعة واسعة من المهن والأعمال .

في الساعة السابعة والدقيقة ٥٥ قبل ظهر يوم ٧ ديسمبر ١٩٤١ هوجمت بيرل هاربر فأضحت حياة كل واحد من هؤلاء الناس في لحظة مما لا يطاق . قالت لوس انجليس تيمس : « لن يكون الأفعوان أخف مما هو ، بالمكان الذي تفقس فيه بيضته » . وفي ١٥ فبراير سلمت سينغافورة فبات حياة القوم عصبية . وبعد عشرة أيام بلغ السيل الزبي لما رمت غواصة يابانية سائتا بربارة بالقنابل . فسبق اليابانيون المقيمون على الساحل إلى الداخل إلى معسكرات خاصة وأبقتهم

(١) « حكم الناس » لاسكندر هـ . ليتون ، مطبعة جامعة برنستون ١٩٤٥ . ومعظم الوقائع الواردة في هذا الفصل مستمدة من هذا الكتاب . (المؤلف)

الحكومة تحت المراقبة ، تفاديا من أن يصيبهم عصف الغوغاء . وفي ١٨ مارس خلق الرئيس روزفلت سلطة للترحيل إلى محال إقامة أخرى في أثناء الحرب ، لتتولى الترحيل بالجملة .

وتقوم بوسطن في أريزونا في صحراء محرقة على مقربة من مدينة تعدين قديمة ، تتجاوز فيها الحرارة في الصيف ١٢٠ درجة في الظل . وكان هذا هو المكان الذي اختير لأحد معسكرات الترحيل وكان يقيم فيه ، حين تقدم ربيع ١٩٤٢ وارتفعت حرارة الشمس ، ٩٠٠٠ ياباني رجالا ونساء وأطفالا تضمهم عشيرة واحدة . ولم تقصد الحكومة تأديبهم على ما حدث في بيرل هاربر أو كانت تفكر في تدليهم ، بل كان القصد أن يجعلوا بحيث يكتفون بأنفسهم ، ويحنون القليل من زرع بعض المحاصيل للسوق الخارجية ، ويعيشون عيشة غاية في البساطة في ثكنات للجيش على الأرض الصحراوية الحامية .

وكان مرتباً أن تخلى الأرض ، ويستتبت القوات ، وتنظم مختلف المشروعات ، ومنها مخزن العشيرة ، ومستشفى ، وأعمال للصحة العامة ، ومنتديات ، وكنائس ، ومدارس ، وفرقة للمطافئ وأخرى للبوليس ، ودار للكتب ، ومعاهد لتعليم البالغين ، وصحيفة للمعسكر . كذلك كان هناك مشروع طيب للحكم الذاتي ، لكنه لم ينفذ إلا بعد الاعتصاب . وقد ظل كذلك كثير من المشاريع الأخرى حبراً على ورق لعدة أشهر ؛ ونخص بالذكر بعض الأجهزة الهامة للمستشفى . ولم يكن مرد ذلك إلى إهمال الحكومة بقدر ما كان إلى الحاجة الماسة إلى التموين في كافة ميادين القتال . ولم تكن بوسطن بطبيعة الحال في رأس القائمة .

كان في المعسكر ثلاث طبقات من اليابانيين معرفة تعريفا حسنا : الإيساي وهم من ولدوا في اليابان ولم يكن في الإمكان أن يصبحوا مواطنين أمريكيين ؛ والنيساي وهم المولدون في الولايات المتحدة — المواطنون بطبيعة الحال . ومعظمهم

أولاد طبقة الإيساي ؛ والسكيباي وكانوا من الإيساي الذين ذهبوا إلى اليابان من أمريكا ثم عادوا إليها بعد ذلك . وقد عومل كثير من الإيساي معاملة الجزومين على الشاطئ الغربي فتمنوا أن تكسب اليابان الحرب وإن كانوا لم يفعلوا شيئاً في هذا السبيل . ومعظم النيساي على الرغم من المعاملة التي لقوها بقوا مع ذلك مواليين لأمريكا . لكن خطباء الشعب في أقصى الغرب لم يراعوا هذه الطبقات أدنى مراعاة ، بل طفقوا يوجهون إليهم الأنظار بالتحريض على كل من انحدر من أصل ياباني معلنين أن الياباني ياباني ، ولا يمكن أن يؤمن جانبه .

في تلك الأثناء كانت إدارة المعسكر قد انقسمت إلى قسمين من المواطنين أسماها ليتون « الشعبيين » و « المتصلبين » . وكان الأولون طيبي القلب ، كرماء النفس . لكن بعضهم حاول أن يتصرف وفقاً للزعم القائل : « بأننا جميعاً بشر » وهو ما لم يكن من حسن الرأي . حقا إننا جميعاً بشر ، لكن حضارتنا تختلف . فإذا تجاهلنا هذه الحقيقة القاطعة فلا معدى عن أن نتوقع نتائج خطيرة .

وكان المتصلبون في الطرف الآخر من النقيض ، فكانوا ينظرون إلى من ولوا أسرم كيابانيين أولاً ثم كأناس ، هذا إذا لم يسلكوهم مع القردة . وقد زعموا أن بواعثهم تختلف كل الاختلاف من بواعث « البيض » . وكان المتصلبون يرون في « المركز » معسكر اعتقال محض . وإذا كانوا يفكرون في جاداتهم أكثر مما يفكرون في أناس فعليين ، فإنهم لم يعيروا البواعث أي التفات ، بل اعتمدوا على العقاب والإرهاب . « إرم بضعة يابانيين بالرصاص يخضع الباقون » كانت الفكرة العامة ، « فهي المعاملة الوحيدة التي يفهمها هؤلاء الصفر أولاد الزنا » . كان هذا موقف الموظفين الذين كانوا أقل من غيرهم حظاً من التعليم ومعرفة ببواعث « المركز » . وقد جاء أحد كبارهم من الجنوب السحيق ، وكان رجلاً في الخمسين « شريفاً ، مستقيماً ، صلب الرأي » ونطلق عليه مسترز . لم يجد مشقة

في أن يطبق على اليابانيين كامل جهازه العقلي الذي يطبقه على الزوج . وهم طبقة من المخلوقات أدنى مرتبة من أن يوضع اليابانيون في مستوهم .

وتتابعت أشهر الحر ، وتحالفت سياسة الانقسام في الإدارة ، وعجز خطير في التموينات الموعودة ، والمستقبل المجهول — تحالف كل أولئك على حرمان هذه العشرة من ضرورات مختلفة — بدنية واجتماعية ونفسية . وكانت هذه الحاجات تتصل بشعور جوهرى بعدم الأمن . وكانت أكبر مهمة للإدارة أن تكتشف هذه الاحتياجات وتسدها ، لا رضوخاً لصيحة عامة ، ولكن لتحفظ الجماعة من الانحلال .

وهنا محل لاختبار حاد لرجل الإدارة ، فعليه أن يعلم أن الخوف الشديد إذا ساور الجماعة ، خليك أن يفضى إلى غضب شديد قد يؤدي بدوره إلى الاعتداء والعنف . ولأناس المسكر ما يخشونه كثيراً ، فليست حالتهم مما يشرف ، ولا هم يشعرون بأنهم تابعون ، ولا فكرة لديهم عما سوف يقع لهم . وقد فقدوا معظم ما ملسكوا ، ولم يعد لهم ما يأملون .

وكانت هناك جماعات فرعية كثيرة كما كان الإيساي والنيساي والسكيباي . فأولا الأمر التي طلب إليها أن تقام غيرها نفس المسكن — وكان طلباً سعيداً كما ثبت . ثم بقايا شركات أعمال ، وشركات مزارعين ، وجمعيات ومتمتديات رياضية ، ونوادي ميسر ، وأناس من نفس المدينة في كاليفورنيا الخ . وقد كانت الأمرة خير ما ظل متماسكا في هذه الشدة .

وألفت الإدارة مجلساً لافتتاح عهد من الحكم الذاتي المحلي ، لكن المجلس لم يؤد شيئاً يذكر . ولما فقد الناس الأمل مع الأيام بات هذا المجلس هدفاً لشكاواهم . ولم يكن في المسكر بأسره تكامل حقيقى ولا زعامة شعبية . فلما قارب الصيف الانتهاء أخذت الجيرة تتكون جماعات من تلقاء نفسها ، وتؤلف

كل كتلة مكونة من أربع عشرة ثكنة وحدة سياسية واجتماعية . وكانت مصلحة بوسطن أغضأ أمراً من أن تكون باعثاً . لكن الكثيرين من الأعضاء جعلوا يجدون في جنى القطن لما عُرِف أن الدخل سيستخدم في تحسين بلوكاتهم .

وينقسم الأعضاء كما هي الحال في كل الجماعات البشرية إلى مواطنين مستقيمين مسئولين ، وآخرين غير متعاونين يملأهم الحقد والمرارة . كذلك كان الموظفون ينقسمون ، ولكن في حدود أضيق قليلاً . وقد أثرت سياسة حكومة واشنطن في درجة التعاون والمسئولية فكانت التغييرات والانقلابات المفاجئة في السياسة تربك الناس وتضر بحالتهم المعنوية .

وقد وضح في أكتوبر ١٩٤٢ أن الجهاد في سبيل تأسيس جماعة عاملة قد حبط ، فبدأ تفكك المعتقل ، وأندرت أشياء مرعبة بالوقوع . وكان هواء المساء عليلاً ، والناس يقفون في الشوارع من حول النيران التي أشعلوها طلباً للدفع ، يرددون شكواهم في الماضي والحاضر ، ويتحدثون في مرارة عن ضالة القوات وحرارة الصيف الفاتت الخفيفة ، وعن أثار المستشفي التي لم تُحضر قط ، وعن البموض وحقارة الأجر الذي يبلغ خمسين سنتاً في اليوم .

وجعلت الإشارات تتطاير بالليل من حول النيران : إشاعات دميعة ، سخيفة ، لا تصدق . وتزايد سماع النذر والنبوءات ، وأخرجت ألواح ويا^(١) . واجتمع من حول النيران جمهور متأثر بالمتعصبين والخطباء الشعبيين ومثيري الشغب . ولم يعد رجال المعصابات يحتملون فحسب ، بل باتوا موضع الإعجاب بوصفهم رجالاً عاملين ... يقولون العمل !

واستشار رجال الإدارة ايتون ، وحاول هو تصوير ما كان حادثاً ، فقال إن

(١) ألواح تستخدم في أغراض التنويم المغناطيسي مكتوب عليها حروف وعلامات .

الناس يحاولون أن يتلاءموا مع مجتمع لا إطار له ولا ثبات فيه . إنهم يحاولون بصورة ما أن يعيشوا بلا أمن ولا أمل .

وفي أواسط نوفمبر نفذ ما كان من كرههم للآلوف للعدوان والعنف . وظهرت في فوضى الاضطراب كتل صغيرة من نظام اجتماعي جديد ، ونواة بناء جديد . وانتفى الانسجام بصورة تكاد لا تحتمل . فتى تنقلب النيران الصغيرة إلى حريق واحد كبير ؟

وفي ليلة ١٤ نوفمبر اعتُدى في ثكنات الأعازب على شاب في الثلاثين من فريق السكيباي ، سمسار أرز ، ونصاب ردى السمعة ، من المزارعين اليابانيين — اعتدى عليه وهو نائم ، وضرب ضرباً كاد يفضي إلى موته . فسيق خمسون من المشتبه فيهم ، واحتجز منهم اثنان ، لتواصل لجنة التحقيق معهما . وكان كلاهما من السكيباي ، أحدهما طالب سابق بجامعة جنوب كاليفورنيا ، والآخر معلم مصارعة يابانية ، محبوب من قومه .

وقد خفت أسر تاهما للعمل على إطلاق سراحهما ، فعقد اجتماع في البلوك الذى يقيم فيه الرجلان ، وألف وفد لمقابلة مدير المشروع ، فقال المدير إن الأمر الآن بيد لجنة التحقيق ، وأنه لا يستطيع التدخل فيه .

ثم حدث أمر غريب . فإن حفنة من الناس الذين هددوا بالإضراب إن لم يفرج عن الرجلين ، أصبحوا بقتة الفتيل الذى أحدث الانفجار فيما أصاب المعسكر كله من خيبة ، وما ارتفع بساحته من شكوى . إذ خرج الجميع من تلقاء أنفسهم — لا من أجل السجينين بقدر ما هو من أثر السخط وضبعة الأمل ، وهو ما تراكم على مر الأيام . وكما قال أحد المضربين : « لم أكن أعلم الأسباب ، ولا أتصور أن أحداً كان يعلمها — فقد كانت هناك أسباب متضاربة ، فكل منا حل المشعل دفاعاً عن مسأله الخاصة . »

وقد دبر الإضراب في بوسطن بضعة من المتحمسين معتمدين على تأييد الجماعة ، وكان التوتر في كل مكان بسبيل أن ينفجر . ففي يوم الخميس التاسع عشر من نوفمبر أعلنت الإضراب العام هيئة تمثل سكان الوحدة رقم ١ — فلا يؤدي أحد عملاً إلا للضرورة القصوى .

وخف رجال الإدارة . فهل يستدعون الجيش ، ويقمعون الإضراب بالقوة ؟ والراجح أن يؤدي هذا إلى إراقة الدماء . فقد كان الكثيرون من المضرين يعلنون استعدادهم للموت في سبيل قضيتهم ، بينما كانت وحدة الجيش المرابطة خارج المعسكر ، ومعظمها من المجندين المستجدين ، متهيجة تهيجاً شاذاً ، تواقه إلى التدخل . أو تحاول الإدارة من جهة أخرى أن تطفئ الأزمة ، وأن تستخدم النشاط العاطفي الذي أطلقته ، في بناء جماعة خيرة من الجماعة الحاضرة في المستقبل ؟ فن المؤكد أنه إذا جاء الجيش يطلق النار تبدد كل أمل في جعل هذه الحظيرة شيئاً خيراً من معسكر اعتقال محض ، وضاع كل رجاء إلى الأبد ، وأتيحت لمذيعي برلين وطوكيو فرصة عظيمة للمقابلة بين هذا وبين الحريات الأربع . ولم يكن يسهل على بعض رجال الإدارة أن ينسوا أن غالبية الأهالي في «المركز» مواطنون أمريكيون ولدوا في أمريكا ، ولم يبق قط دليل على عدم ولائهم .

لقد انشق الموظفون حين دعا داعي الإضراب . فالمتصلبون كان الأمر بسيطاً في نظرهم ، وكان مسترز . وصيغته على استعداد : إن اليابانيين (وكلهم واحد في نظره) ناثرون ، فن واجب الأمريكيين الطيبين أن يفتحوا عليهم دورهم ، ويطرحوهم بالأطم أرضاً ، ويلزمهم حذم . فإذا استدعى هذا إطلاق النار فليطلق النار . فالاضطراب بحذافيره نتيجة تدليلهم السابق ، وحاجتهم إلى الدربة والنظام . وكان مسترز . أنصار ، وإن لم يكونوا جميعاً صرحاء . وبعض الموظفين كانوا ينظرون إلى الحالة في ألوان هوليود الصرفة ، منطوية على المؤامرات ، والبوليس

السرى ، ودسائس المحور ، وإخفاء الأقوات لتقديمها للجيش الغازية . يقول ليتون : « والذهن الميلودرامى شديد الخطر فى ظرف كهذا ، والأمر فى مبدئه كان نتاج الخوف ، لكن الكارثة الفعلية تنجم عن تخيلات الذهن » . ولذا لم يكن من واجب الإدارة أن تعالج بحسب توتر بين قوم تحاول حكمهم ، بل أيضاً انهياراً عاطفياً فى صفوفها هى بالذات .

هذا من جهة ؛ أما من الجهة الأخرى فكان الموظفون « الشعبيون » وبعضهم عاطفى ؛ وبعضهم واقعى . وقد أنعموا النظر فى البدائل . فتشتيت الجموع المتجمهرة حول السجن الذى يحتجز المتهمين ان يقف الإضراب . ولا سبيل إلى أن يرغم الجيش الأهالى على العمل إذا هو تولى الأمر . وقد تخرس الشكاوى وتكبت مشاعر الخيبة فتختفى تحت السطح ، لكنه لن يكون من وراء ذلك سوى تفاقمها ... بهذا كان يدلل « الشعبيون » .

ومع ذلك فإن أحداً من الموظفين — وليكن من أرحمهم قلباً — لم تخالجه لحظة فكرة الإفراج عن السجنين كما طلب جمهور المشاغبين . « والكرامة أمر له أهميته فى كل المجتمعات ... فليس احتكاراً للشرقيين » . وقد كان البديل من دعوة الجيش نوعاً من المعارضة يعنى ضمناً أن للجعاعة قضية . وكان القوم فى ذلك الحين يمثلهم ما يسمى مجلس الطوارىء ، ومعظمه من مسنى الإيساى .

وكان مدير المشروع يحضر مؤتمراً هاماً خارج الولاية . فلم يكن الوصول إليه ممكناً فى هذا الظرف الدقيق . ولا نحسد المدير المساعد الذى وقف بعد اجتماع عاصف لتريقى الموظفين اللذين يمثلان هذين المذهبين من مذاهب الفكر — وقف ينظر من النافذة إلى صحراء نوفمبر الغبراء يحاول أن يقرر ما يفعل . فلو قال « نعم » وترك الجيش يتولى الأمر ، لكان له من الورطة مخرج تام . لكن « المركز » كمشيرة يصبح عندئذ فى خبر كان . ولو قال « لا » فلربما أسرف الغواص .

في الشعب ، وذهبوا ينهبون ويحرقون كما تنبأ مستر ز . عابساً واثقاً . على أنه بعد أن فسكر ملياً ارتد من النافذة وقال « لا » . وقد يطلب إلى الجيش أن يسير عسكاً خارج المنطقة ، لا أن يتولى أمر المعسكر .

وبلاحظ ليتون أن كل رجل من رجال الإدارة يجب أن يكون مستعداً حين يحين الوقت ، لأن يقف في وجه العالم ، وإذا لزم الأمر أن يتقبل نتائج الخسارة ، فليس هذا ميدان الخور . وحقاً إنه ليحل الوقت الذي يقف فيه رجل الإدارة وحده ، لكنه كم يكون خيراً من ذلك أن يحين الوقت والمعرفة تسنده ! وقد تأنى رجل الإدارة ثم اعتزم ، ولم يدم ذلك سوى بضع ساعات ، لكنه ثبت أن قراره هو الأصوب . ذلك أنه لما شعر أهل بوسطن بأن الإدارة مستعدة للمفاوضة ، مخلصه في هذا الاستعداد ، ولما اعترف بمجلس الطوارئ الذي يمثلهم ، فقد المتحمسون منهم أنصارهم ، وتهاوت المطالب المتطرفة ، وانتهى الأمر إلى تراض ، فأفرج إفراجاً تاماً عن أحد المتهمين بالضرب بعد أن انتهت لجنة التحقيق من تحقيقها . وأطلق سراح الثاني بكلمة شرف انتظاراً لنظر القضية أمام محكمة أريزونا المدنية النظامية ، ثم حفظت القضية بعد ذلك لعدم توفر الأدلة .

وانتهى الإضراب في يوم الثلاثاء الرابع والعشرين من نوفمبر باجتماع حاشد أمام السجن . وكان الليل بارداً ، والنيران جميعها مشتعلة . فأنشئ الخطباء على عمل مجلس الطوارئ ونوهوا بالقانون والنظام اللذين رفع لواؤهما خلال الإضراب ، ومجدوا المستقبل الزاهر الذي ينتظر بوسطن كجماعة تحكم نفسها بنفسها . وألقى المدير ، وقد عاد أخيراً ، خطبة حارة قال فيها إن الذنب في الإضراب لا يقع على أحد . « ونحن شعب كلنا . ليست الإدارة فوقكم ، ولا أتم الشعب تحتها . بل كلنا نعمل معاً » . وختم الاجتماع بالهتاف ثلاثاً ، وتفرق الجمهور في هدوء ، وزال التوتر في صورة عجيبة . بل إنه كان في بعض الأحياء شعور بالابتهاج ، بالحلب لكل

إنسان وفي الجلة رجال الإدارة . وأطفئت النيران ، وأزيلت القمامة ، وتركت الأرض نظيفة ، مكنوسة ، موطأة ، عارية لأول مرة في أسبوع . لقد لفتت الضائقة وتفرجها الأنظار إلى تلك الاحتياجات الجوهرية التي أعوزت الجماعة ، والتي لم يكن الإضراب من جرائها سوى صيحة لازمة تجلب النظر . وأجريت الإصلاحات ، ونُشئ "الحكم الذاتي" من واقع مجلس الطوارئ* ، وولدت جماعة أسلم من الأولى ذات زعامة وطنية . ومع أن بعض الاضطرابات الأخرى كان ينشأ بعد ذلك بين الحين والحين ، فإنه لم تقع إضرابات أخرى في بوسطن أو تحبط فيها أعمال . بل ازداد شعور السكان بالأمن فعاودهم الأمل . ومعلوم أن الكثيرين منهم اليوم قد عادوا إلى منازلهم الأولى على الساحل .

عبر الضائقة

ليست قصة الإضراب التي رواها لیتون ، مع عظم وقعها ، سوى تمهيد لشيء أهم — لنلك الملاحظات والاستنتاجات التي أثبتتها في كراسته بوصفه من العلماء الاجتماعيين . وبعض هذه الملاحظات والاستنتاجات سيقع من نفسك على أنه من الحس المشترك البسيط . بيد أن بعضها الآخر يرتاد في وضوح مناطق جديدة للعلاقات البشرية : « إني متأكد من أن يدى وهى تتحسس تحت السطح على غير هدى ، فى تلك التجربة المتعلقة بمعسكر المرحلين ، قد مست هنا وهناك جسماً حقيقياً من الدوائم والقوانين فى حياة البشر . »

ويبدأ تحليله باثنين من هذه الثوابت سبق لنا أن صادفناها فيقول :
المبدأ الأول — فى كل شعوب الأرض المختلفة خصائص أساسية عامة داخلية فى طبيعة البشر .

المبدأ الثانى — توجد فروق عميقة فى العقيدة والشعور والعادة والعرف بين مختلف الجماعات والقبائل والأمم التى تؤلف نوع الإنسان .

هذان المبدعان المتصلان يلخصان الفكرة الحضارية ، يأخذ بهما عمليا — على قول ليتون — جميع العلماء الحديثين الذين درسوا طبيعة الإنسان ومجتمعه دراسة جدية . وقد أخذ بالمبدأ الأول أكثر رجال الإدارة الشعبيين بالمعسكر سذاجة ، لكنهم لم يلتفتوا إلى المبدأ الثانى التفاناً كافياً . وفطن المتصلون من رجال الإدارة إلى الثانى فأنكروا الأول . وبذا أخطأ الهدف كلا الفريقين ، ولو أن المسترز . والفريق الذى كان يطالب بإطلاق النار على المعتصبين قد كانا أبعد الجميع عن الهدف .

« إن الناس فى كل مكان يواجهون جميعاً نفس مهام الحياة ويشاطرون فى نفس للقلقات والمربكات ، والخسائر والمآسى ، وينشدون فى حضاراتهم نفس الأهداف ، ليجعلوا الحياة ذات معنى ومغزى ، ويجدوا بعض الأمن ، ويمحزوا بعض النظام الاجتماعى ، وينظموا سلوكهم حيال القيم التى تجعل الحياة شيئاً أكثر من كيان عضوى . »

هذا القول المقتبس من لورنس ك . فرانك يبدى فى بلاغة المرجع الوحيد الذى يمكن أن تدرس فى حيزه توترات بوسطن فى فهم . وقد أظهر الإضراب مرة أخرى المبدأ القائل بأن العدوان ليس نتيجة روح المعارضة المطبوع فى الإنسان بقدر ما هو كيفية من الكيفيات التى ينزع بها كل منا إلى الارتكاس فى الشدة .

قائمة مبادئ

يقدم الدكتور ليتون مبادئ وتوصيات مختلفة لرجال الإدارة . وإليك بعضها منها :
لا تنظر إلى الناس كأجناس أو أمم أو طبقات ثابتة لا تتغير . اقتررب منهم ، وتأملهم ، وخاصة الأطفال منهم .

فكر في النظائر بين البشر قبل أن تفكر في الفروق .

إن توطد الجماعة تساعد عليه حالات تحمل معنى الأمن الاقتصادي ، ويساعد عليه عمل يرى أنه نافع وهام ، وبذا يتيح مركزاً ؛ وتنفيس بالألعاب الرياضية والترفيه ؛ وفرصة للقراءة والتعلم .

معظم الأفراد في معظم الأوقات يؤثرون السلام والهدوء . فرجل الإدارة يستطيع أن يعتمد دائماً على قانون التراخي هذا ، يستطيع أن يعتمد على روح الفكاهة ، يستطيع أن يعتمد على ما تستغرقه مشاعر العدوان في وقت طويل نسبياً حتى تصل إلى درجة العنف . وقد استغرقت في بوسطن ستة أشهر تقريباً .

إن الناس عقب نشوب حركة عدوانية يشعرون براحة ، ويحسون ارتياحاً ، وأنهم يحبون بعضهم بعضاً . وهذه أسوأ لحظة ممكنة لإزالة العقاب . إذا عاقب رجل الإدارة وجب عليه أن يكافئ أيضاً ، وإلا أساء إلى شعور متأصل بالعدالة ، عام بين البشر جميعاً .

لا ترفض شكواي على أنها تافهة ، فقد تكون نذراً عاصفة .

إن محك الإدارة هو القدرة على قضاء حاجات الناس إذا نشأت ، فإذا لم تقض بدأ التوتر .

اجتهد أن تكبح العدوان لأن تقمعه ، فإنك إن قمعته جعلته أسوأ مما كان . صل إلى الجذور .

لا تهدد أبداً أو تجزِ قوانين لا تستطيع إنفاذها . لا تنف أبدأ وقفة قوية على موقف ضعيف . بيد أن رجال الإدارة لا يفتأون يفعلون ذلك . لا تستخدم أبداً قوة قليلة حيث يتطلب الموقف قوة كبيرة . واحترس بالإيجاز مما هو أقل مما ينبغي ، ومما هو بعد الأوان .

إبق دائماً خط الاتصال مفتوحاً من الإدارة إلى الجماعة ومن الجماعة إلى الإدارة .
تذكر أن هيئة موظفيك بشر أيضاً ، وأنهم يرتكسون على نحو ما يرتكس
المرء وسون .

كل جماعة بشرية تنشئ تنظيماً اجتماعياً ونظاماً للمعتقدات . ولا يسهل الجماعات
أن تقوم بصورة فعالة بأعمال لا تأخذ فيها بعقيدة . ويقتبس ليتون لايون مايو
ما يذكر عن المتاعب التي تنشأ في المصانع الحديثة حين لا يدرك العمال مركز
عملهم ؛ فـ ما يؤدونه لا معنى له غالباً في نظرهم ، وكل زيادة في أجورهم ، بالغة
ما بلغت ، لا تعوضهم من عدم الإدراك .

كل الإجراءات التي تتخذ لتفريج ضائقة في جماعة من الجماعات يجب
تطبيقها وفقاً لنظم المعتقدات السائدة في الجماعة ، أو لا يتم شيء .

إن نظم الاعتقاد قد تتأثر بالاتصال بنظم أخرى ، وبفرص جديدة لإقرار
الأمن ؛ وقد تتأثر بالفعل — أحياناً على الأقل — بقوى الضائقة النازلة .

إن كافة الناس في كل مكان يخلقون نظماً اجتماعية . لكن هذا الخلق
يستغرق وقتاً . ومن ثم يكون المهاجرون الحديثون جداً في مركز غير ملائم من هذه
الناحية . ولا يسهل الجماعات البشرية أن تنفذ أعمالاً لا تملك لها نظماً اجتماعية ،
كما أنك لا تستطيع أن تدفع مسباراً من دون قدوم تدقه به .

من النذر المعينة على الانهيار في النظام الاجتماعي تزايد الشائعات والخرافات .

إن إجازة قانون بذاته لا يخلق أبداً نظاماً اجتماعياً .

وأخيراً إذا وجد رجل الإدارة أنه عاجز عن التجرد عن الغرض والتحرر من
التحيز أو التحامل ، فأولى له أن يزاوِل عملاً آخر .

إجهاد الناس

إذا وجد رجل الإدارة وهو يسترق السمع ، أن الجماعة التي يدبر شئونها متوترة من ضغط توترا بيئنا يتفاهم إلى عنف في النهاية فأى علاج يتخذ ؟ إن مستر ليقون يقدم إلينا اقتراحات عِدَّة كما ترينا القائمة . وإنى لأوردها موجزة من دراستى لنقريه :

تجرد بقدر الاستطاعة من كل تأثر أو غرض يرين على ذهنك ! إنس ماهنالك عن « الصفر أولاد الزنا » و « مثيرى الاضطراب » و « الجود الوضع » واجتهد أن تفهم الموقف فى يقظة من حواسك جميعا . وتذكر دائماً حين تتخير العلاج أن اللوح الحضارى لا يمكن أبداً أن يمسح ويمحى كل أثر منه . إن عليك أن تعد العلاج بما يطابق نظم الاعتماد عند من تتخذ إجراءاتك معهم . وهذا ما يفوت معظم المصلحين والمثاليين .

ينبغى أن يعد علاج التوتر على مراحل تستغرق بعض الوقت . أبلغ كل تغيير من يتناولهم قبل أن يمسهم ، وذلك كي يستعدوا له . عامل ما أمكن زعماء الجماعة العضويين (والزعيم المضوى هو من له أنصار) لازعماء الورق ، ولا تعامل قبل كل شىء صنائهم . فإنه ليجب أن يشعر الناس بباعث تغييراتك ، إذا أريد أن تكون فعالة .

اذكر أن المخلوقات البشرية لا تحركها المناشدات العقلية وهى فى الشدة . يجب أن تقبل هذا فلا تلوم الناس بأنهم غير معقولين . فليس الإنسان مبدئياً بالحيوان المنطقى كما لاحظنا من قبل . والاتصال والتعليم خير أدواتك ، فيجب ألا تكل من تدبير خطوط الانصال المزدوجة ، طرق إزالة الشكاوى ، وصناديق الاقتراحات ، وأساليب إجراء الأحاديث ، لينفس بها الناس عن أنفسهم .

المعرفة مقابل اللقانة

إن رجل الإدارة الحديث لا يمكنه أن يأمل الذهاب باللقانة وحدها بعيداً . فإنه يجب أن تكون المعرفة العلمية في متناوله يغترف منها ما شاء . وكتاب لیتون خدمة قيمة لأولئك الذين يحكمون . فإن على رجل الإدارة أن يختبر الفروض على الدوام ، لكنه يجب أن يتجنب التجربة بلا حساب . ذلك أن الجماعة تنطوى على ديناميت أكثر مما ينبغي . وانفجار يحدث يمكن أن يدفن الرئيس تحت الأنقاض ، وهو كما يبدى التحليل الآخر ، رئيس بالام الجماعة فحسب .

حينما جاء لیتون ورفاقه إلى بوسطن كانت الإدارة تتخذ قرارات تنطوى على التسرع بعد مؤتمرات غير رسمية للموظفين . وكانت خطوط الاتصال غير صالحة في الاتجاهين . فبعد أن جمع المعلومات الكافية من مصادرها الأصلية جعل يكلم المديرين فيها ، فأبدوا له دهشتهم . « بذلك بتنا نشعر بما يمكن أن يبدو مبدأ أساسيا في تطبيق العلم الاجتماعى على برنامج إدارى نشيط ، ألا وهو أن لهيئة البحث الاتصال المباشر بواضعى السياسة ، والاشتراك في الاجتماعات الخاصة بوضعها . »

لحين كان الإضراب يغلى في نوفمبر كان لیتون وجماعته في الساعات العصيبة حاضرين على الدوام . حقا إنهم لم يصدروا القرار النهائى ، بل أصدره الرجل الذى كان واقفاً بالنافذة ؛ لكنهم بسطوا أهم ما يشخص الحالة مما أعانه على أن يحمل التفاهم لا العاطفة أساس قراره . وقد كان مستر ز . يمثل العاطفة . ففي هذين الرجلين نرى عالمين : العالم الذى عرفناه ، والعالم الذى قد يأتى . وقد كان القرار موفقاً ، وأتاح الحل الصحيح لمشكلة صعبة جداً . وهذا الحل المهمين عليه لن يصلح لكل مشكلة تنشأ عن توتر جماعة . بيد أن تجربة بوسطن تكشف عن

طريقة وعن طائفة من المبادئ لا يسع أى رجل من رجال الإدارة فى أى مكان فوق هذه الأرض أن يغفلها سواء أكان يدير قارة أو يدير حانوت بدال .

إن ألكسندر ليتون يرى ما يمكن أن يفعله المشتغلون بالعلم الاجتماعى حين تتاح لهم فرصة حقيقية . إنه يريد كذلك اتحاداً سعيدياً بين الملاحظة والنظرية والتطبيق العملى . فليتوفر لنا عمل كهذا ، نعرف شيئاً عن السيطرة على قنابل الطبيعة البشرية فلا نحتاج إلى أن نخشى القنابل التى يصنعها علماء الطبيعة خشية كبيرة .

١٠ - العلماء ينظرون إلى الجنس

في سنة ١٩٤٧ أحضر مفتي يافا ابنه إلى أول محطة إسعاف لموجن ديثيد ،
الصليب الأحمر في فلسطين ، ابتغاء أن يُنقل إليها دم . فبعد أن نُقل الدم طلب
قائمة الحساب فقيل له : « إننا نخدم شعب الأرض المقدسة جميعاً من دون نظر إلى
جنس أودين . فنحن لا نبيع الدم اليهودي . »

والأمريكيون اليابانيون في بوسطن سلكوا ، على الرغم من لوهم ، نفس
المسلك الذي تسلكه أية جماعة بشرية في محنة . ونكد ، ونحن نتابع قصة ليتون
ننسى الفروق الجنسية . ومع ذلك فقد كانت هذه الفروق بالنسبة لمسترز . فوق
كل شيء . بيد أن المشتغل بالعلم حال دون وقوع انفجار ، بمعالجته الحالة كمشكلة
ناجمة عن توتر جماعة يقع لكل المخلوقات البشرية من دون تمييز بين جنس
وجنس أو شريعة وشريعة .

والتحزب للجنس ظاهرة حضارية لا يولد الإنسان بها . ولكن يُلقنها .
وربما كان نصف العالم لم يتعلمها إطلاقاً ، إذ هي قد أملت بالحضارة الغربية في عهد
قريبة نسبياً . وهي شكل حديث من الارتياح العميق في الجماعة الخارجية ؛ في
الأجنبي ؛ في الشخص المختلف . وقد خف التحزب للدين في الغرب بقدر ما زاد
التحزب للجنس . وقد يتصرف البالغ تصرفاً نزيهاً ، ويتبعه الصغار بشكل آلي
لكنه في نيوزيلند التي ينتمى إليها جورج رذرفورد آدمز ، وتحت خط ميسون
وديكسون كذلك ، يقوم نموذج التحزب أقوى أنا وأضعف آونة . يشهد الأطفال
التوبيخ ، ويشعرون بالنفور ، ويسمعون التحقير ، فسرعان ما يطويهم النموذج ،
فيكونون على استعداد لطى أطفالهم هم فيه .

بيولوجيا الجنس

لقد أيد العلم — تأييداً جزئياً على الأقل — قصة آدم وحواء في سفر التكوين . فالنقطة الرئيسية في هذه القصة مسلم الآن بصحتها على وجه عام ، وتلك هي أنه ليس يوجد سوى أسرة واحدة . فكافة البليونين الذين يعيشون الآن هم سلالة جماعة صغيرة نسبياً من السلف المشترك . والتواريخ في سفر التكوين خاطئة ، وفي سفر التكوين بعض التلميقات الشعرية ، بيد أن الفكرة صحيحة . فلأن كلا منا أمكنه أن يتعقب شجرة نسبه لعدد كاف من الأجيال لوجدنا جميعاً نفس الجد الأكبر .

والراجح على قول لينتون أن أبعد جد لنا قد كان ساكناً صغيراً من سكان الشجر ، وسلماً للناس وللقرد جميعاً . ثم جاءت الأجيال وتوالى ، فتزايدت أحجام الناس وكبرت أدمغتها نسبياً . وبات البعض في العصر الميوسيني أضخم من أن يقيم بالشجر فهبط إلى الأرض وهو ما يزال على أربع . ثم ألف سكان الأرض هؤلاء تدريجاً أكل اللحم ، وجعلوا يقفون منتصبين . وكانت أدمغتهم ما تزال تكبر . فلما كان النصف الأخير من العصر البليوسيني ، بلغ فرع من هذه السلالة مستوى البشر ، وسكن في صورة السيد البدائي جداً على التحقيق . وأنجب هذا السيد عدداً من الأنواع تنشأ واحد منها نهائياً إلى الإنسان الحديث . والراجح أن اللغة بدأت عندئذ . وقد أباد هذا النوع منافسيه ، واجتاح الأرض ، وجعل في مدى مناسب يتنوع إلى الأجناس المختلفة التي نعرفها اليوم : الأسمر والأصفر والأبيض . فإذا أمكننا أن نجمع أشباه قصة الجماعة الصغيرة ، كيف بدأت في الراجح في وسط آسيا ، وانتشرت تدريجاً حول الكرة الأرضية بأسرها ، لحصرنا كل ما وقع من هجرات في تاريخ البشر : كيف انتقل أسلافنا البديعون هؤلاء إلى

اليابان وإلى الفيليبين ، وعبر مياه المحيط الهادى المتراصة إلى جزيرة بعد أخرى ؛ كيف اتخذوا طريقهم من مصب النيل إلى رأس الرجا الصالح ؟ وماذا كان معدلهم ؟ مائة ميل فى السنة أم عشرة أميال فى قرن ؟

بل إنه أدعى إلى العجب كيف وصلوا بعد عبور بوغاز بيرنج إلى تيريرادل فيججو على بعد عشرة آلاف ميل فوق أرض من أشد أراضى الكوكب إحماشاً ؟ كيف بلغوا أستراليا ؟ ثم لماذا أوصدت القارة عشرين ألف سنة تاركة ناسها يتجمدون حضاريا فى العصر الحجري القديم ؟ هل كان هناك طريق أسهل ، لعله فوق جزر ابتلعها المحيط الهادى فيما بعد !

لقد اقتضى الأمر عملا عظيما من أعمال الفرق العلمية التى تشغل بجمع الحقائق عن الجنس ، فدرس المؤرخون هجرات مدونة ، ودرس علماء الاجتماع نظم الجماعات ، والعلماء الإحيائيون التشريح وعلم التكوين . ودرس بعض علماء الإنسان الحضارة ، وقاس آخرون الجمجم ، ودرس علماء النفس الذكاء . وروجع ما اشتركوا فى الاهتمام إليه ، وروجعت المراجعة ، وكان الاستنتاج الذى يتوج كل البحوث أن شعوب الأرض أسرة واحدة من أصل مشترك^(١) .

خذ مثلاً قدم الإنسان . إن جميع الأقدام البشرية مخلوقة عمليا على غرار واحد ، فإذا أحصيت العظام والعضلات والمفاصل الصغيرة بدا لك أن من المحال أن يكون هذا التركيب نشأ مرتين فى نوعين مستقلين . ولسكل الناس تركيب واحد فى الأسنان والفك ، وهم قادرون على أعمال جسمانية متشابهة من حرث ، وجرى ، وضرب ، ورفع . كذلك هم قادرون على أعمال عقلية متشابهة من تحصيل

(١) « أجناس النوع الإنسانى » لبينديكت وولفس . رسالة الشئون العامة رقم ٨٥ لسنة ١٩٤٣ . وهى استعراض وجيز للوقائع المتعلقة بالأجناس . وستنابها فى وضع الصفحات التالية . وهى ترجع إلى كتاب بوز « عقل الإنسان البدائى » .

لغة وحساب ، وتذكر ، وخصم ، واستخدام منطق ، ومحاجة ، واقتناع . وهم جميعاً يجتمعون في عُصَب ، وجماعات ، وينشئون حضارات تشتمل على كثير من النماذج المتوازية والأمور العامة كما رأينا .

ويجد العلماء أن الفروق الجنسية الوحيدة البادية ، والتي هي على كل حال فروق فردية ، هي في بضع خصائص جسمانية غير جوهرية مثل شعر الرأس ، وشكل الأنف ، ولون العين ، ولون الجلد . فالبيض أغزر الناس شعرا . ولعل ذلك لأن معظمهم يعيشون في خطوط طول أبرد مناخا . وجلد الزنوج أغمق لون لأن ذلك يحميهم بالتأكيد من أشعة شمس المناطق الحارة . ولسكافة الأجناس خصائص ، بعضها بدائي وبعضها أقل بدائية . وشفاه الإنسان الأبيض الرقيقة أقرب على سبيل المثال إلى شفتى القرد ، بينما شفاه الزنوج الغليظة أبعد من شفاه القروء .

وتقرر لون الجلد مادتان كيميائيتان ، الكاروتين ويعطى لونا أصفر ، والميلانين ويعطى لونا أسمر . وهذان اللونان ، متحدان مع اللون القرنفلى الناشئ من أوعية الدم البادية ، تزود الجلد بكل الظلال المعروفة ، ولكل مخلوق بشري بعض من كل هذه الظلال إلا أن يكون أبهى . ومعنى ذلك أنه ينقصه الكاروتين والميلانين كل النقص . وهؤلاء البهق موجودون في كل الأجناس . يقول رث بينيديكت : « ليس هذا الفرق عظيم الأهمية أو عديمها ، لكنه فرق نسبيا ، فإن لون جلدك يرجع إلى مبلغ ما في الجلد من هذه الكيمائيات . »

والطول ليس من مشخصات الجنس التي يعول عليها . ومتوسط طول زنوج شيلوك الذين يعيشون قريبا من منابع النيل ست أقدام وبوصتان ، بينما على مقربة منهم الأقزام السمر ، ومتوسط طولهم أربع أقدام وثمانى بوصات .

كذلك شكل الرأس لا يساعد على شيء ، ففي غرب أفريقيا نجد رؤوسا مستطيلة ، لكنه توجد على امتداد الكونغو رؤوس مستديرة . وفي آسيا الصغرى

حيث يصل الاختلاط البشرى إلى درجة جنونية توجد رؤوس مستطيلة وأخرى مستديرة بين الأذنين من الأقارب .

وفروق الدم غير موجودة بين الأجناس كما أظهر الصليب الأحمر الفلسطيني . فليس في وسع كيميائى أن يقول لك في عينة دم إلى أى جنس ينتمى معطيا . وما يسهه أن يقوله هو أن الدم من أنموذج O أو A أو B أو AB . وهذه النماذج من الدم موجودة في كل الأجناس . وقد يكون ابنك والاسترالى ساكن الأذغال من نمودج AB ، بينما يختلف نمودجك عن نمودج أبيك .

ولا يدلنا الاختلاف في أحجام الدماغ البشرى اليوم على شىء كثير فيما يتعلق بالجنس ، ولا على أى شىء فيما يتعلق بالذكاء . فأكبر دماغ في العالم هو دماغ شخص أبله ، ولبعض العباقرة أدمغة صغيرة نسبيا . وكما هي الحال في عينة الدم لا يستطيع أى مشغل بالعلم أن يثبتك بفحص الدماغ وحده إلى أى جنس ينتمى صاحبه . ويختلف حجم الدماغ المتوسط في السنتيمترات المكعبة اختلافا طفيفا تبعا للأجناس . لكنه لم يقد دليل على أن لهذا تأثيراً على الذكاء ، إلا أن يصبح التفاوت أكبر كثيراً . واختلاف أحجام الدماغ قد كان ذا شأن إلى إنسان نياندرتال . وقد نشأنا في أمريكا لقياس الذكاء اختبار « خارج قسمة الذكاء » . فأحرز أعلى الدرجات أطفال من الزوج والهنود والمكسيكيين واليابانيين ، كما أحرزها أطفال من البيض .

إن كل الأجناس تستطيع أن تتزوج في كل مكان . وقد فعلت هذا بهمة ملحوظة . والأوربي الأصيل مزيج عجيب من السلافي والغولي والأفريقي والكلتي والسكسوني والنيوتوني والسامى وأنواع أخرى . وليس هنالك ، على قدر ما نعلم ، قوانين طبيعية ثابتة تجعل الاختلاط بين الأجناس أمراً ضاراً . وفي أذهاننا عن الشعب الإسكنديناوى صورة تظهره وقد غلب عليها الطول ، والشقرة ، وزرقة

العينين ، واستطالة الرأس والوجه . لكفك إذا تناولت كراستك في استوكهم مثلاً وجدت أن حوالى ١٥ في المائة فقط من السكنديناويين هم الذين ينطبق عليهم هذا الوصف .

وقد نشأت كل الأجناس مدنيات رفيعة حيناً بعد حين مع استثناء ساكنى الأدغال الأستراليين . فكانت هنالك إمبراطوريات للزنج ، ودول في أفريقيا ، في الوقت الذى كانت فيه أقسام كبيرة من أوربا غارقة في الحمجية . وكان شعب الصين يقرأ لاوتره^(١) حين كان البريطانيون الأصليون يطلون أجسامهم ، ويعوون في المستنقعات . وكان هنود مايا الحر كفلسكيين ومثالين أمهر من غزائهم الإسبان .

إن طبيعة اختلاف الأجناس تبدو ، كما يمكن أن نتوقع ، نتيجة للحضارة لا لعلم الأحياء . والهنود الأمريكيون في دساكر المكسيك الجديدة قد كانوا هانئين ، محبين للسلام ، بعيدين عن النزوات ، بينما نفس النوع من هنود السهول الذين عرفوا الحصان كانوا محاربين ديونيزيين^(٢) محبين للخصام . إن الأجناس الثلاثة الابتدائية — وهى القوقازى والمغولى والزنجى — لا تبدى اليوم اختلافاً يذكر في الطول أو الوزن أو التشريح أو الدم أو الذكاء أو الخلق . فلهم جميعاً نفس درجة الحرارة العادية وهى ٩٨.٦ فارنهایت ، ونفس المعيشة في الأحوال المماثلة ، ونفس البسالة العضلية . كلهم عرضة لأمراض بعينها يعالجون منها بطرق مماثلة ، مستعدون في كل مكان للمصاهرة . ومن المعلوم أن الأفراد في كل جنس يختلفون اختلافاً كبيراً ، وأن الجماعات الفرعية تختلف في خصائص بعينها مثل المردة والأقزام بين الزنج .

(١) صاحب ديانة صينية عاش في القرن السادس قبل الميلاد .

(٢) نسبة إلى الطاغية ديونيزيوس حاكم سيراكوزة الذى عاش في القرن الخامس قبل الميلاد .

ومعظم الأمريكيين البيض، حتى لو قل حظهم من التحامل جداً، يرون الزواج منحطين عنهم ذهنياً، وينظرون إليهم نظرم إلى أطفال. ولا يجد أوتو كلينبرج في كتابه « خصائص الزنجرى الأمريكى » دليلاً على اختلاف فكرى وراثى جوهرى بين البيض والزنج . لكنه لا يوجد أيضاً دليل كامل على التشابه القام بين الجماعات . ولعله لو كانت هنالك طرق أخرى للتحقيق، يمكن أن تستبان هذه الفروق (وإن كان هذا غير محتمل .) ومن الجائز، ومثل هذه الطرق غير موجودة، أن نستنتج أن من الراجح كل الرجحان أن ليس بين الزواج والبيض اختلاف ذهنى من عمل الطبيعة .

وهذا قول على موزون ينطبق فى الراجح على كافة الأجناس مع إمكان استثناء ساكن الأدغال الأسترالى . وخصيصة محاكاة الأطفال، إذا قامت حقاً، تكون أسراً حضارياً لا وراثياً . وإذا كانت حضارتك تتوقع لك أن تكون « كالأطفال » وتعاملك مثلهم، فقد عين لك دورك .

الأجناس غير الأحيائية

إن كثيراً من الأجناس الأخرى تشخص قولاً، ويقوم حولها الجدل، ويصل فيها النزاع إلى نهاية . ومع ذلك يظهر التحليل أن معظمها جماعات قومية أو دينية، ليس ما يميزها من الناحية الأحيائية إلا القليل أو لا شىء، « فالآريون » فى الحق أناس يتكلمون لغات مشتقة من مجموعة اللغات الآرية، و « اليهود » حقاً أناس يدينون بالعبرية، ويباشرون طقوساً بعينها من قبيل طقوس ليلة الخروج من مصر . وما يسمى « بالنمط اليهودى » ذى الأنف الأحدب والشعر الأسود، نوع خاص بالبحر الأبيض المتوسط من الجنس القوقازى يشمل كثيرين من العرب، والأرمن، والأتراك، والمشاركة، واليونانيين، وإيطالى الجنوب، كما يشمل اليهود .

وقد وقع هتلر وأحيائيوه المدربون في مصاعب غريبة بأرائهم الآرية ، فلم يكن المجرىون ، كما هو جلى ، أعضاء في الجنس السيد ، لكنهم لما انضموا إلى المحور كان لا بد أن يخصص لهم مكان على أية صورة في الخيمة الكبرى ، وكان الحل أن يسموا « غير آرين » . وقد نشأت مع العرب واليابانيين تعقيدات أخرى تفصل بعلم المعانى . وتورط علماء برلين في الوقت المناسب في هذه الأسطورة المتصلة بالأجناس إلى حد أن أصبح مما لا بد منه أن يؤكدوا أن اليهود ، وهم ليسوا مجرد غير آرين ، لا ينتمون إلى أى جنس إطلاقا ، وإنما يكونون جماعة مولدة تسمى من ذلك الحين « مضادة للجنس » .

يقول لينتون : « إن خلق خصائص للأجناس قائمة على درجات تقدمهم النسبى والارتقاء يدل على ميزان غير مضبوط بين مختلف الأجناس والسلالات ، حتى ليضطرننا هذا إلى أن نستنتج أن جميع هذه الأجناس والسلالات تقف من جدها المشترك على أبعاد متساوية . » ولعل السبب الحقيقى لسيطرة الأوربيين على ما يسمى بالأجناس المتأخرة ينعكس في بيت الشعر^(١) التالى :

ومهما يكن فقد أحرزنا ،

مدفع مكسيم ، ولم يحرزوا .

الجنس كنظام اعتقاد

إن ما يلقى من القول على عواهنه في موضوع الاختلاف بين الأجناس يتضح معظمه في اللحظة التى ينقلب فيها المرء إلى ما جمع العلماء من أدلة في الجليل الفاتت أو الجيلين الفاتتين . فلا العلم ولا سفر التكوين قد كان له مع ذلك تأثير كبير . والخلق المسيحى الذى يقرر أخوة الإنسان ، وقصة آدم وحواء كذلك ،

(١) بيت شعر فى الأصل الإنجليزى لا الترجمة . (المترجم)

قد ثبت اتفاقهما في الجوهر وآخر ما اهتمت إليه كيمياء الدم — لكن الكلمة لم تؤت أثرها . فما السبب ؟

لقد دل استطلاع قامت به « فورتشن » في سنة ١٩٣٩ على كثرة تبلغ ٧٦ في المائة من الأمريكيين تعتقد أن الانحطاط الذهني عند الزوج مطبوع فيهم . وهكذا بينا تجمد الفروق الأحيائية الحقيقية طفيفة ، تجمد الفروق المعتقد بها عظيمة . يقول روبرت ردفيلد : « إن الجنس — ونقل ذلك — من ابتكارات تخيلة البشر » . فليس ما يدل عليه في اختبارات الدم ، ولكنه يشغل في الحضارة مكاناً كبيراً . ولقد ذهبنا في ارتيادنا للعلم الاجتماعي إلى حيث نعرف معنى هذا . ومعناه قوة غير ملموسة ، لا تأثير للجدل عليها ؛ أو هو يؤثر فيها تأثيراً ينقلب عليه .

فحين ينضم مزارع مستأجر من البيض جنوبي خط ميسون وديكسون إلى قوة مجردة على زوج لإلزامهم « حدم » ليس من الضروري أن يكون هذا الأبيض وحشاً أو عدواً للمجتمع . إنه يساير العادات المسلم بها عند القبيلة ، ويفعل ما ربي على فعله . فمن الحق والمناسب في رأيه أن يستسلم الزوج للبيض . وهذا ما يشرع يتعلمه قبل أن يستطيع المشي تقريباً . وقد تعلمه جورج رذرفورد آدمز كذلك ، لكنه أقل من غيره استمساكاً به ، فهو لا ينضم إلى تجريدات .

وقد نشئ في الجنوب السحيق — لأسباب أكثر تعقيداً من أن نتناولها هنا ، لكنها مرتبطة ارتباطاً جزئياً بما مننت به الحرب الولايات المتحدة من خيبة — نقول نشئ نظام طوائف يبلغ من الصرامة ما بلغ في الهند . فهناك الدين هو الذي يقرر المركز وهنا الجنس . وتغييره طفرة يصدم أهل الجنوب صدمة عميقة كما يمكن أن يصدم الهنود إبادة البراهمة بقتة . وفي الحق أنه ليكون أكثر من صدم ، إنه ليمزق الجماعة الهندية في الراجح شذر مذر ، فيصبح الباطل حقاً والحق باطلاً ، ولا يكون لشيء معنى ، ويخشى أن يتجاوز خمسون مليوناً من الأمريكيين أيضاً

وسوداً آخر خط للسلطة المهيمنة وهو ما كاد اليابانيون في بوسطن يفعلونه .
ولعل الطريقة الوحيدة لتعديل نظام طوائف مقرر في حضارة من الحضارات
هى تغيير الاعتقادات فى أذهان الناس ، ولا يتم هذا فى سواد ليلة . والراجح أنه
لا يمكن فعله بمجرد اللجوء إلى العقل والعدل ، أو بقراءة حقوق الإنسان
فى الحدائق العامة .

كيف تحسن علاقات الأجناس

من المهم فى رأى دونالد بينج وشارل دولارد وغيرهما من العلماء الاجتماعيين
أن نفهم الفرق الأصلية بين تحامل الجنس والتمييز بين الأجناس . فالتحامل نموذج
حضارى لا يقبل للمهاجرة الصريحة ، ولا يجادل إلا فى حدود ضيقة . أما التمييز
فشئء مادم معين من قبيل منع الزواج من ارتياد الحمامات أو المطاعم أو المدارس ،
وجعلهم يركبون فى المقاعد الخلفية فى سيارات الأومنيبوس .

فالتمييز يمكن أن يهاجم ، وخاصة فى بلد تكون فيه التقاليد الديمقراطية قوية
فى غير ذلك من الاعتبارات ، فيختار للمهاجرة عمل معين ، فإذا أحكمت الخطة
أمكن أن يستبعد التمييز ، وقد استبعد . فالزواج يقبلون الآن لأول مرة فى بعض
كليات الجنوب . يقول الدكتور بينج : « وإذ يخف التمييز يخف التحامل بدوره ،
إذ هذا أمر لا مفر منه . وخير طريقة لذلك هى العمل والاعتقاد أكثر من الجدل
والدعاية . فإذا اقتصد فاعلو الخير فيما يتعلق بعلاقات الأجناس فلم يضيعوا الوقت
فى الانفعال والتهيج حول مسألة التحامل ، أمكن أن يتم تقدم حقيقى . »

وقد دلنا برانش ريكى مدير فرقة البيس بول ببروكلين على الطريق ، إذ وضع
چاكى رونسون ، وهو زنجى ، فى البيس الأول سنة ١٩٤٧ لأول مرة فى تاريخ
الفرق الكبرى ، وظاهره إلى الحد . وقد اقتضى رونسون منتهى اللباقة أن يصمد

في الشهرين أو الثلاثة الأولى ، وأن يتجنب ملاعبة بعض اللاعبين المولودين في الجنوب ، لكنه في أغسطس أصبح بذاته سُنَّة مسلماً بها ، يضرب ، ويصول ، ويعدو بمهارة بالغة . عندئذ قبل زواج آخرون في منتدى كليفلند وفي جماعة سمر سان لويس .

وقد سأل جون تشمبرلين ريكي هل كافح من أجل لاعبه الأول ليحل مشكلة اجتماعية ؟ فقال : « كلا ! لقد دربته لسبب واحد : أن أفوز بالعلم ! وإني مستعد لأن أدرب فيلاً بنابيين قرنفليين إذا أمكن أن يفوز بالعلم . » وهذا مما يتطلب الهندسة الاجتماعية كلها لتحسين علاقات الأجناس . وسنحتزى بمشكلة الزواج في أمريكا ، بيد أن ما تتضمنه من أمور ينطبق على العالم كله . إن أذكى الجنوبيين يرغبون مخلصين في أن يروا العلاقات حسنة بين الأجناس ، وإن كان من المشكوك فيه أن تقر غالبية البيض في الجنوب السحيق أى تغيير في النظام الطائفي الذي يدل عليه بعض السلوك دلالة بينة . فأى الطرق ميسور في هذا الصدد ؟ إن كتاب ليقون عن بوسطن يزودنا بارتياحات هامة ، وقد قدّم ينج في رسالة حديثة له قدراً آخر .

هب أن محافظ إحدى المدن أراد أن يتحاشى تجمهراً من جنس ما ؛ هب رئيس شركة فولاذ كبيرة يريد إدخال بعض العمال الزواج في مصنعه ؛ هب زعيماً من زعماء العمال يريد إقناع عماله بقبول زواج في الاتحاد ؛ إن أيّاً من هؤلاء ينبغي أن يستشير خبيراً . والاضطراب المتصل بالأجناس يقع في مكان ما من البناء الاجتماعي — في أومنيبوس ، عند باب مصنع ، حول مشروع مساكن ، في مدرسة . فالهندس الاجتماعي يدرس هذه النقاط ، ويستأنس بما كتب حولها ، وهو ما تزايد الكتابة فيه . ففي سنة ١٩٤٢ كتب جون ا. ديفز رسالة عن كيف يمكن الإدارة أن تدخل الزواج المصانع الحربية . وقد أعدت فرقة من علماء

الاجتماع والنفس والإنسان كتيباً لوزارة الدفاع خصت به الضباط البيض الذين كانوا سيقودون جنوداً من الزنوج في الحرب العالمية الثانية. وقد نشرت البحرية كتيباً مماثلاً ، وتصدر جمعية التعليم القومي كتاباً سنوياً عن كيفية معالجة هذه المشكلة في المدارس . وتداول كتب يدوية للبوليس تحلل الحوادث وحالات التوتر التي أفضت إلى تجمهرات بسبب الجنس ، وتساعد على تنبيه ضباط البوليس المكلفين بالخدمة في أقسام من المدينة يختلط فيها الزنوج بالبيض — وهي غالباً منطقة خطر . ومثل هذه الدراسات الفنية تساوى أطنافاً من النشرات والمنشورات التي تعالج ظلامات إخواننا السمر .

وتماثل الطرق التي يوصى بها الدكتور بنج الطرق التي تخفف أى توتر أو عداء ينشأ في الجماعة — في اتحاد عمال ، في مركز للعراجلين اليابانيين ، في ثكنات للجيش . ومن المؤكد عملياً أن الزعم القائل بأن مشا كل التوفيق بين الزنوج والبيض فريدة في نوعها بشكل ما ، خطر على التعاون ، إذ ينطوى على اعتقاد في نوع ما من المذاهب المتعلقة بالأجناس . انظر كيف اتبع ليتون هذه النصيحة في بوسطن آخذاً بمبادئ إنسانية عامة لا بمبادئ البيض والصفير .

اعتقادات منسوفة عن الجنس

لقد ألفنا أن نرى أنه لم يكن بد من وضع برامج صحية خاصة بالزنوج لأن هؤلاء كانوا يعدون من الوجهة الأحيائية أكثر قابلية من غيرهم للتدرن الرئوى ولغيره من الأمراض . وقد أثبت رجال العلم بطلان هذا الزعم . فالزنوج كغيرهم من الناس عرضة لما يتعرض له الغير من رداءة المسكن والحالة الصحية والحالة الغذائية . ومثل هذه الأحوال السيئة هي التي توجد التدرن الرئوى .

وقد اعتدنا أن نرى أن «ذهن الزنجى» لا يمكنه أن يتطلع إلى تعليم فوق ما تتطلبه مهنته من دراسة يتلقاها في مدارس كهلك الموجودة في تسكيبي وهامبتون . فالآن

نعرف أن هذا تقييد باطل . فتعليم الزوج ينبغي أن يسير على نهج التعليم الأمريكي النظامي ، ولا يتفاوت إلا تبعاً للأفراد والفرصة الاقتصادية لا الجنس .

واعتدنا أن نرى أن الزوجي المسكين قابل بصفة خاصة للإجرام والجريمة . فكانت ضوابطه الأخلاقية تعد ضعيفة ، وكان في رأينا لا يستطيع أن يقاوم الغواية إذا اعترضت طريقه . والآن نرى أن ضوابطه كضوابط غيره من الناس ، وأن المسألة حضارية لاجنسية . فإذا كان معدل الجرائم عند الزوج مرتفعاً ، فإن الباحث الاجتماعي يغشى المباهات التي نشأوا فيها محققاً ، ويتحرى نوع الأمن العاطفي الذي أصابوه وهم أطفال .

واعتدنا أن نرى أن الزوج موهوبون بحاسة خاصة للفناء والإيقاع والرقص . فالآن نعلم أنهم لا يفوقون في المزاج الموسيقى المطبوع أهالي كونتية أروستوك بمين . فإذا ربي أطفال الزوج أو أطفال البيض على الفناء والدق بالأقدام غنوا ودقوا بالأقدام .

ويعتقد نينج أن كلا النطين الصلبين المحقَّرين والعاطفي ضار بعلاقات الأجناس . فعند جولويس بمنلا لجنس خاص من الرياضيين الفائقين ضار جداً . « فمثل هذا الإكبار يدل على نظرية أحيائية في فروق الأجناس دلالة مؤكدة تأكيده ما تدل عليه الأبحاث الصلبة الضارة » . ورد الفعل الذي تحدثه سيرة جورج واشنطن كارفر العلمية الباهرة ينبغي أن يكون : « لم لا » أكثر من هذا التساؤل العام : « من كان يظن هذا ممكناً ! »

ينبغي أن تصمم التكتيكات بين الأجناس — ونحن نبحث الهندسة هنا — بحيث تجعل البيض والزواج يعتاد بعضهم بعضاً ، ويزدادون ألفة على امتداد مين ستريت . ينبغي أن يزداد اعتياد الناس رؤية الزوج في المتاجر ، والفنادق ،

والقطارات ، والحدائق العامة ، والمسارح ، والأومنيبوس وغير ذلك من الأماكن العامة ، يعملون كما يعمل سوام . فالآن نراهم في ساحة اليبس بول . يقول ينبغي إن من الإجراءات السيئة أن تمنع الأخبار التي لا تسر الزوج . فتشويه الإحصاءات لإظهار توفيقهم ليس بالتصرف الحسن . ذلك أن الحقيقة المجردة هي أفضل أداة في مجرى التغيير الحضارى البطيء من أى قدر من الحكايات المحرفة خصيصاً . فالزوج ليسوا أسوأ أو أحسن من بقيتنا . وإذا كنت ولدت غير بعيد من جورج رذر فورد آدمز ، فإنى لم أستطع أن أحل مسألة الأجناس لنفسى أبداً إلا بعد أن شرعت أنظر إلى الزوج نظرتى إلى الإيطاليين السمر أو الاسكندناويين الشقر — وهى ألوان تختلف من لوني — وإلى من عدا هؤلاء وهؤلاء من أناس لا يرنى لها أو ينوه بها أكثر مما يرنى لتونى بائع الفاكهة أو ينوه بحريتا جاربو .

خبط عشواء

إن فى أمريكا اليوم ١٢٣ منظمة قومية تشغل بملاقات الأجناس ، ولا دخل فيها لوكالات الاتحاد . ومعظم هذه المنظمات معوزة إلى أبهى فكرة عن تأثير دعايتها . فهى تبعث بالنشرات وتذيع الإذاعات ، وتأمل خيراً . يقول روبن م . ولينز الأصغر : « إن انتفاء البحث الملائم وما يتبعه من انتفاء قاعدة للعمل ثبتت صلاحيتها ، هو وجه من أظهر وجوه البرامج القائمة المتعلقة بالجماعات . فكم من إرادة حسنة ومال وفير ضُيع على مشروعات تهجأ القوانين المعروفة التى تفظم العلاقات البشرية . كم منها انقلب على صاحبه ليجعل الحالة السيئة أسوأ مما كانت . »

إن تحامل الجنس ينطوى على حكم سابق على أفراد وفقاً لمبدأ ثابت —

« الياباني هو الياباني » و « الزنجي هو الزنجي » — الأمر الذي لقي مسترز .
المقارب من جرائه في بوسطن . كذلك ينطوى تحامل الجنس على طائفة من
التقديرات . فالفرد المتهامل يدخل في موضوعه اعتقادات بعينها عن مميزات للغير
لهم أو عليهم . ومن المهم أن نلاحظ أن إصدار حكم من دون تمحيص في غير
مصلحة الشخص المحكوم عليه ، لا ينطوى دائماً على تحقير له . ففي العداء للسامية
ما يحمل على افتراض أن المبدأ الثابت يقرر النقيض أحياناً : « اليهود قاتلهم الله
أرشق مما ينبغي . »

ومن المشجع ونحن نرغم أنفسنا نريد حقاً أن نغير نظم الاعتقاد فيما يتعلق
بالأجناس ، أن نتذكر أن المدنية الغربية أخذت عن الفروق الدينية من ثلاثمائة
سنة مضت ، باعتقادات هي أقسى مما يقوم الآن . فأن ألوفاً من الأبرياء ، وفيهم
عجائز وادعات ، شنقوا وحرقوا وقطعت منهم الرؤوس . وقد ثارت الحروب الدينية
ونشطت مطاردات الساحرات عدة قرون . وقد تغلبنا على ذلك في الغرب — وعلى
الأقل على أعنف مظاهره — من دون عون العلماء الاجتماعيين . فلعله بمعونتهم
أن نستطيع التغلب على هذه المصيبة أسرع من ذي قبل قليلاً .

١١ - بعض قوانين التغيير الاجتماعى

لبث بعض مخبرى الصحف بعد هيروشيا ثلاثة أيام يطرحون على الكثيرين من العلماء الطبيعيين والكيميائيين وعلماء الحيوان فى جامعة شيكاغو هذا السؤال : « ماذا يعنى ذلك للمجتمع ؟ » ولم يخطر لأحد هؤلاء المخبرين أن يسأل هذا السؤال عالماً اجتماعياً إلا فى نهاية اليوم الثالث . والمغزى بغير حاجة إلى التوكيد ، فإنه أكبر ما حملنى على أن أكتب هذا الكتاب .

وقد كان العالم الاجتماعى الذى استشاره المخبر أخيراً هو وليم ف . أوجبرن من معهد علم الاجتماع . وكان من الصعب أن يجد رجلاً خيراً منه أهلية لتناول التأثيرات المحتملة للاختراعات الجديدة ، فهو أكبر من فسر الفكرة العريضة المعروفة بالتغيير الاجتماعى ، والتي هى بمثابة توسع للفكرة الحضارية بأكملها فيما يتصل بعلم الإنسان . وهو موضوع كنا نقابعه فى الفصول الخمسة الأخيرة . وقد ظل العالم أوجبرن سنين كثيرة يطبق على المستقبل معدلات قائمة على كيفية سلوك الناس فى الماضى ، فوصل إلى استنتاجات عامة يعينها عن كلا المعدلات والسلوك .

وقد تعاون الدكتور أوجبرن هو وفرنس بوزوو . ي . توماس من حوالى خمس وعشرين سنة مضت على إقامة شاخص فى تاريخ العلم الاجتماعى على أعظم جانب من الأهمية ؛ فدوا الفكرة الحضارية إلى علم الاجتماع وعلم النفس وغير ذلك من المعارف . وقد كان معظم المشتغلين بالعلم الاجتماعى إلى سنة ١٩٢٠ أو حوالىها ، يحاولون توضيح نشوء المجتمع وارتقائه بالتشبيه بنظرية داروين فيما يتصل بالوراثة ، والاختيار الطبيعى ، والتنوع . وكان الفرض أن السنن الاجتماعية لم تتقدم إلا حين تقدمت أدمغة الناس . وقوبل الإنسان الأبيض الحديث بسترته

التي يرتديها في الصباح بالإنسان المتوحش بالقرط الذي يجمه في أنفه .
لقد كان هذا كله مما يسرّ البيض جداً ، لكنه كان ينطوى على الانخداع . فإنه
لما تقدمت السنون وتحسنت معرفة الأنواع ، تزايدت الصعوبة في توضيح كيف
أمكن أن يتقدم الدماغ البشري بهذه السرعة ، فإن ما بين السفينة الملاحية
البداية وكوين ماري أقل من مائة جيل — وهي مدة أقصر من أن تسمح بتغيير
كبير في الدماغ أو في النوع . وهكذا أدحضت حقائق الأنواع هذا الفرض
إدحاضاً كافياً .

والآن كيف يمكن تفسير كوين ماري ؟ لقد قاس أوجبرن — وهو يفكر
في هذه المسألة — وعاء المخ في جمجمة لإنسان كرومانيوني عاش من
١٢٠٠٠ سنة مضت ، فوجد أنه يحتوي من السنتيمترات المسكبة قدر ما يحتوي
وعاء مخ إنسان حديث . وأجريت اختبارات أخرى ، فثبت كل الثبوت أن حجم
المخ ومشخصات الوجه عند أناس العصر الحجري في فرنسا — وهم أولئك الذين
حفروا تلك الثيران القوية على حيطان الكهوف — لم تكن أكثر بدائية من
الموجود منها في كلية أية جامعة يروك ذكراها .

هل كان عقل الإنسان الكرومانيوني — كأداة — قويا كمقلنا ؟ لقد بدا
الدليل متجهاً هذا الاتجاه ، ومن ثم جعل العلماء يبحثون عن فرض آخر فوجدوه
في الفسكرة الحضارية . فالتغييرات الحضارية تفسر ناطحات السحاب ، والأساطيل
الجوية ، والباخرة كوين ماري . وأيضاً إذا نحن لم ننقل إلى أطفالنا من المقدرة
العقلية اليوم أكثر مما أورث أسلافنا أطفالهم من ١٢٠٠٠ سنة مضت ، فإننا ننقل
إليهم قوانين الديناميكا الحرارية ، والهندسة التحليلية ، وما تحسن من المعرفة الفنية .
إن لدى أطفالنا اليوم مادية حضارية هائلة ، مكدسة ، يشتغلون بها ؛ عندهم جميع
أنواع الأكتاف يقفون عليها ، ولم يكن أطفال كرومانيون عرفوها قط . وقد

ابتكر ألفرد كورزيبسكى عبارة « إلام الوقت » لعملية التكديس هذه .

قانون النمو

إذا أضفنا إلى هذا الاستنتاج ما أبدى من أن الحضارة المادية تنمو وفقاً لقانون تضاعف — كالربح المركب — اتخذ كل شيء مكانه في نظام . إن نظرية نشوء العقل وارتقائه يمكن أن تستبعد لمصلحة نظرية أكثر ملاءمة للحقائق منها . فالاختراع ، والنمو المتضاعف ، والتوفيق الحضارى تفسر كلها كوين مارى تفسيراً مرضياً .

لقد كانت الحضارة المادية المتقلبة في عصر الجليد من جيل إلى جيل محدودة المقدار ، وكانت تتبدل في ببطء شديد . ثم تمت بعد ذلك اختراعات في الأسلحة وابتكارات في القوات والملبس والجهاز استخدمت تدريجاً ، فزاد معدل التغيير . فإذا أمكن إثبات عدد الاختراعات التي تمت من عهد أسلافنا الكرومانيين إلى سنة ١٩٤٨ على خريطة لارتفاع الجرى الناشئ ببطيئاً أولاً ، ثم ازداد ميله على الدوام مقارباً بحرى الربح المركب .

وما يعنيه هذا المعدل قد سجلته قصة المزارع الذى أحضر حصانه إلى الحداد لينعله فقال له الحداد : « إنى سأقضى سنتاً واحداً عن أول مسمار وسنتين عن الثانى وأربعة عن الثالث وهكذا دواليك حتى ينتهى العمل » وقد بدا هذا معقولا للمزارع فقبل العرض . ولم يكن المزارع قد باشر حاسبة مركبة من قبل ، فقد بلغت قائمة الحساب عن ثمانية مسامير للفعل الواحد أو ٣٢ مسماراً للجميع — بلغت ٤٢٩٤٩٦٧٢٢٩٥ دولاراً ! (وفى وسعك أن تتناول القلم وتثبت ذلك — وهو ما فعلته حين سمعت الحكاية أول مرة .)

وقد جمع أوجبرن عدداً من هذه المعدلات وكلها تشير إلى نفس الاتجاه ،

فتناول سجل اختراعات دارمشتات من سنة ١٤٥٠ إلى ١٨٩٩ وهو سجل هام ، وأثبت العدد مع التاريخ . وتناول عدد براءات الاختراع الصادرة في الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى ؛ وأطلع على سجلات مختلفة للاكتشافات التي تمت في الطبيعة وغيرها من العلوم الطبيعية ، فدلّت كلها على معدلات مركبة في النمو . وقام هارفي س . ليان في صحيفة حديثة لمجلس أبحاث العلم الاجتماعى بالتحليل ، فأثبت مساهمات في الكيمياء والتكوين وعلم طبقات الأرض والرياضيات والطب والبيولوجيا وعلم الحشرات وعلم النبات في القرون الثلاثة أو الأربعة الماضية في نطاق زمني يبلغ خمسا وعشرين سنة ، فأظهرت كلها المجري النموذجي للربح المركب . ففي الكيمياء على سبيل المثال تمت في فترة الخمس والعشرين السنة المدرّوسة أخيراً وهي من ١٨٧٥ إلى ١٩٠٠ — تمت ٦٨٨ مساهمة من ١٦١٦ سجلت منذ سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد . ولم يطرأ بعد سنة ١٩٠٠ نقص في أى من الموضوعات . بل إن ما تم من مساهمات في علوم الاقتصاد والسياسة والتعليم والفلسفة والموسيقى يدل على معدلات مماثلة . ويحتم الدكتور ليان بقوله : « لقد كان نتاج الإنسان المبدع يميل مع كل فترة تالية . . . إلى التضاعف في المقدار » . ولم تكن الزيادة في كل وحدة زمنية بترتيب ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ ولكن بترتيب ١ ، ٢ ، ٤ ، ٨ وما أعظم الفرق ! فإنه من قبيل ما اكتشف للزراع .

والنظرية التي تسند هذه الصور هي أنه كلما ازداد عدد العناصر في الحضارة المادية عظم عدد المخترعات . فإذا أنتج عشرة آلاف عنصر اختراعاً واحداً ، فالمتنظر أن تنتج مائة ألف عنصر أكثر من عشرة اختراعات . ذلك أنه كلما ازداد عدد العناصر ازداد عدد المركبات الممكنة بمعدل أكبر . فمن المستطاع تركيب ثلاثة عناصر على أربعة أوجه مختلفة ، لكنه يمكن تركيب أربعة عناصر على عشرة أوجه مختلفة (جرب ذلك في ورق اللعب) . ولذا فإنه بازدياد عدد المخترعات

تتزايد سرعة التغيير الفنى على الدوام . فيمكن أن يسير المرء من كهف رطب إلى نزل ساقوى على قاعدة قانون التضاعف من دون أن يطالب بمخلايا أخرى في مخه أو بأية زيادة في ذكائه . ولنعكس الرأى ! إذا كانت آلة ه . ج . ويلز الزمنية تدور جيداً ، فاستطاعت أن تنقل ألف وليد ممن أنجب ألمع الآباء الحديثين لتربيتهم أمهات من نوع كرومانيون ، أمكن القول بأن هؤلاء الولداء لن يزيدوا من سرعة سير الحضارة أو التقدم خطوة واحدة . ذلك أنهم لن تكون لهم في سنة ١٠٠٠٠ قبل المسيح مواد متجمعة يشغلون بها . ولنلح مثل هذه الفكرة حين ندرك أنه أيضاً لو كان ليوناردو نشأ القوانين التى تنظم طيران الطائرة لما أمكن الطائرة أن تطير (إلا كطائرة شرعية) لأنه عندئذ لا تكون اخترعت آلة من الخفة بحيث تسيرها .

تلكؤ حضارى

من الضروري هنا أن نفرق جلياً بين (١) الاختراعات المادية (٢) السلوك البشرى المترتب على هذه الاختراعات (٣) السنن الحضارية ونظم المعتقدات . وتدخل المخترعات عادة في الحضارة على مرحلتين . أولاً ، يغير الناس سلوكهم اليومى ليوائم المشروع الجديد ، فإذا كان نافعاً كالإذاعة بالراديو حدث التغيير بسرعة متوسطة في عشر أو خمس عشرة سنة . ثم يأخذ الناس بعد ذلك بزمن طويل في تغيير سننهم ونظم اعتقاداتهم ، مراعاة للاختراع ، وتدييراً للوسائل التى ترأب تأثيره في مصلحة المجتمع . والوقت الذى يمر بين المرحلة الأولى والمرحلة الثانية يعرف بالتلكؤ الحضارى . وهو اصطلاح ابتكره أوجيرن ، ويمثل جزءاً حيويًا من الفكرة الحضارية ، ومبدءاً من أهم المبادئ فى العلم الاجتماعى بكامله وأنفعها .

واختراع الآلة البخارية جعل الطاقة الجامدة تسير الآلات في الورش والمصانع . وقد عارض العمال الذين يعملون بأيديهم هذا الاختراع بعض المعارضة ، لكن معارضتهم لم تكن كبيرة . ولأن سرعة الآلة لا سرعة الإنسان هي التي سيطرت إذ ذاك على العملية فقد باتت حوادث المصانع أكثر مما كانت . وهو أمر لم يكن منه مفر . وقد استلزم الأمر في الولايات المتحدة ٧٥ سنة قبل أن تصدر قوانين تعويض العمال للملافة الحوادث . وقد جاءت هذه القوانين معارضة لنظام معتقدات كان المجتمع يأخذ بها قبل عهد المصنع ، ومنها أن العامل مكلف بالانتباه لنفسه . فلما تمت له السيطرة على العملية باتت المحاذرة على النفس واجبا عليه . وهذا التلصق الحضارى الخاص لا يقاس بالسنين فحسب ، بل يقاس كذلك بعدد الأرامل اللواتى تبين فريسة الفاقة والعوز ، وعدد العمال الذين تقطعت أوصالهم في خلال تلك الفترة . لقد استقبل كل واحد تقريرا باختراع السيارة فرحا ، اللهم إلا صانع المركبة . وقد كان التلصق الحضارى في أمريكا وجيزاً نسبياً ، فأجيزت القوانين على الأثر تقريرا لمراقبة سرعة السيارة واتجاهها . يمسد أن جماعة جيڪوب آمن في كونتية واين بأوهيو ما تزال تمنع أعضاءها أن يستعملوا السيارة والقوة الكهربائية والتليفونات والجرارات . فهذه المشاريع في اعتقاد هذه الجماعة من عمل الشيطان ، تشجع خطيئة الكبير .

ومع ذلك فقد ووجه أندرو يورد بمشكلة عملية ، إذ كان عليه أن يركب وليدته مرتين في الأسبوع إلى طبيب يعالجها ، يقيم على مبعدة خمسة عشر ميلاً ؛ فلما لم يعد يطبق هذه النزهة في مركبة يجرها حصان ، اشترى سيارة لتقاطع الجماعة على الأثر . وكان ما يزال مسموحاً له بأن يعمل ، لكنه جرد من حق التعامل مع المجتمع . فلم يؤاكله أخوه . فإذا خرج إلى الحقل للدرس تناول وجباته في المخازن والأقبية وحده ، فكان — كما حدث مخبراً لصحيفة « تايم » — كالكلب الذى

يطعم من طاسه ؛ يرفض الإسكاف إصلاح حذائه . وقد ظل التللكو الحضارى
حيال السيارة قائماً ثابتاً فى كونتية واين ، وإن لم يقم فى بقية الولايات المتحدة .
لقد أحدثت السيارة على الأقل وفى العموم فى حياة الشعب الأمريكى من
التغيير الجوهرى ما أحدثه الحصان فى حياة هنود السهول عند ما أدخله الإسبان
فى القرن السادس عشر . وما نزال فى مؤسسات كمحاكم المرور نحاول أن نمشى
السيارة خطوة خطوة . وبعض من أعظم ما يربكنا من المسائل فى الوقت الحاضر
كالبطالة الشاملة ، والمساكن غير الكافية ، وعدم الأمن الاقتصادى ، هو فى
الحقيقة من مشاكل التللكو الحضارى ، فلدينا الوسائل الاقتصادية ميسورة لحل
الكثير منها ، لكن الجماعة لا تسمح بذلك . والكومبرس برفضها يحدوه فى
الغالب شعور تام بالاستقامة الخلقية . وقد تخلفت نظم الاعتقادات عن إدراك
الحقائق . ومن بين ما يصور ذلك أقصى تصوير ذلك الجيل الكامل الذى ضاع
بين تقديم مشروع قانون تشغيل الأطفال أول مرة وبين إجازته نهائياً .

مواهب هنرى فورد

يقدم إلينا هنرى فورد صورة رائعة للنمو المتضاعف والتللكو الحضارى الذى
يرافقه ، فهو المسئول إلى حد كبير عن تغير من أعظم التغيرات فى سلوك الإنسان
فى كل الأزمان . وقد عُذ بطلا لتنشئته إنتاج الجملة فى صناعة السيارات . ولم يكن
الأمريكىون وحدهم هم الذين عدوه كذلك بل الروسىون أيضاً . بيد أن إنتاج الجملة
على نطاق فورد قد سبب لنوع الإنسان من المشاكل أكثر مما حل . وقد مكنا
« النطاق الناقل » من أداء الأشياء بأسرع مما كنا نؤديها . لكنه رمى فى أحجارنا
بمسائل الإنسان الصناعى ، واللباقة فى المركزة ، والمدينة الكبرى ، وأمراض
الأعصاب بالجملة . وقد هرب مستر فورد من هذه المشاكل إلى هوايات أثرية

— هي نقيضُ « النطاق الناقل » . ونلخص بيتر دوكر التناقض تلخيصاً باهراً فقال :
« لم يكن هنري فورد رمزاً وجسماً للثروة الجديدة ولعصر السيارة بقدر ما كان رمزاً
لمدنيّتنا الجديدة المتسمة بإنتاج الجملة . وقد مثل نجاحها في الفنيات والاقتصاديات
تمثيلاً تاماً ، وكان تمثيله لنفسها السياسي إلى الآن تاماً كذلك ، وهو الفشل في
إقامة مجتمع صناعي منظم . ومشكلة عصرنا المركزية قائمة في التباين بين عظمة
مصنع ريفرروج في تأدية وظيفته ، وكاله الآلي الذي لا تشوبه شائبة ، وبين
انعدام الشكل ونفشي التوتّر في أجرة ديترويت الاجتماعية .

هل نصطدم بشيء ؟

وهناك تناقض آخر غريب ناشئ عن التريث الحضاري هو العون المالي
الوفير الذي يقدمه المجتمع لتشجيع اختراعات مادية أخرى ، والمساعدة الهزيلة التي
يعاون بها على اكتشافات اجتماعية تقلب تلك . ومشروع قانون تأسيس العلم القومي
هو حالة في الموضوع تناول الفصل الأول وصفها .

ومن الخيف أن يطويك معدل متضاعف ، فهو شبيه بقطار سريع أفلت
السائق قياده . وأمثال هذه المعدلات تخرج في النهاية عن النطاق . فالبنس بالربح
المركب ينمو في بضعة قرون إلى كرة من الذهب في حجم الكرة الأرضية .
والطبيعة تسمح غالباً لأمثال هذه المعدلات بالبدء كما يشاهد في تضاعف أرجال
الجراد ، وذباب الفاكهة ؛ لكنها لا تبقى عليها طويلاً بحال من الأحوال ، فهي
دائماً تصطدم بشيء فتتضامل بغتة تضاولاً سريعاً .

فهل سوف نصطدم بشيء ؟ إن أوجبرن عالم أحوط من أن يجيب . ومع ذلك
فإنه يبين أنه حين يأتي اختراع كالقنبلة الذرية ينبغي أن يُسأل العلماء الاجتماعيون
إفراغ قصاراهم في اختراع شيء اجتماعي — كدولة عالمية ناجحة تواجه القنبلة .

وهو لا يعتقد أن من الممكن أن تعتمد وقف معدل الاختراع المادى . وهل يمكن أن تتصور أن تميز حكومة ما فى أى مكان قانوناً « يقف التقدم » ؟ إن الوقوف فى وجه مثل هذا القانون ليكون هائلاً ! والرد على التوترات التى تحدثها معدلات النمو يبدو موجوداً فى تشجيع معدلات أكثر ارتفاعاً فى التحليل الاجتماعى والاختراع الاجتماعى .

تراخى الاتجاهات

إذا قيس تغيير اجتماعى قياساً إحصائياً ، سبى سلسلة زمنية ، ووصف بخطوط متعرجة تتحرك مع الزمن مكتسحة أو متجهة وجهة عامة واحدة . والمعادلة الملائمة التى ترتبها طريقة أقل المربعات تجرى وسط التعرجات وتدل على الاتجاه . فإذا سجل معدل المواليد فى السنوات الأخيرة فى الأفطار الغربية وجدت التعاريج متراوحة كثيراً ، لكنها متجهة إلى أسفل من دون ارتدادات بيّنة . فالحرب نفسها لا تؤثر فيها كثيراً .

ولسنا نعلم لماذا يندر أن تتغير هذه الاتجاهات وجهتها ، مع أنه لا شك فى اتصالها بالنماذج الحضارية بصورة ما . وتدل الاتجاهات الاجتماعية فى مئات من الحالات على تراخ ملحوظ كائناً ما كان تفسير ذلك . وهنا درس للمهندسين الاجتماعيين . فإذا لم يتغير اتجاه تغييراً أساسياً فخير لك أن تسلم به ، وتضع برنامجك على مقتضاه . فإذا كنت مصمماً على تغييره فكن على استعداد لأن ترى التحرك بطيئاً جداً ، ووضع برنامج يخالف الاتجاه معناه الحبوط . ومن أول ما ينبغى لمصلح أن يفعله — إلى جانب مراجعة كشاف يبل للحضارات المتعارضة — هو أن يجد عالماً اجتماعياً مقدرراً يباشر بعض معدلات الاتجاه ليرى أحتاج له فرصة للنضال .

ويخلص لذوى الفطنة من المحافظين النصيح من يشير عليهم بمثل هذا المسلك .
ففى وسع خبير أن يقبضهم أين يسعفهم المجتمع والتلكؤ الحضارى فى الوقوف فى
وجه التغيير؟ وأين تكون المقاومة عبثاً . ويمكن أن نذكر بعضاً من الذين رشحوا
أنفسهم للرياسة لنقول إنهم كانوا خلقاء أن يديروا معاركهم الانتخابية أحسن مما
أداروها ، لو أنهم استعانوا عليها بخفنة من معدلات الاتجاه .

إن قانون التضاعف يلقى ظلاً كثيفاً على نظرية « الرجل العظيم » . وتزعم
هذه النظرية فى جوهرها أنه لو لم يكن جبارة الماضى ، لكنا ما نزال نعيش فى
أكواخ الطين العراقية . أما قانون التضاعف فعلى نقيض ذلك يدل على أن الذى
يقرر اختراعاً جديداً ليس ذهنياً جباراً بقدر ما هو عدد عناصر الحضارة . ولذا فإنه
لما بلغت الطبيعيات نقطة بعينها من التطور فى القرن السابع عشر استلزم الأمر
رياضيات حركية ليستمر التطور — الأمر الذى اخترع على أثره كلا لينتز
ونوتن حساب التفاضل والتكامل مستقلين . فلو أنهما لم يوجد لكان غيرها
اخترع هذا الحساب . والتاريخ حافل بعشرات الاختراعات المائلة المخترعة فى
وقت واحد . ونستطيع أن نتوقع أكثر وأكثر كلما توفر « إزام الزمن » .

ولو قد مات كولمبس بالطاعون قبل أن يكتشف أمريكا لا كتشفها غيره
سريعاً . فلماذا ؟ لأن طرق بناء السفن والملاحة كانت وصلت إلى نقطة كان
يمكن معها أن يبحر المرء إلى المجهول وعنده فرصة للعودة ، فالسفينة فى الحق هى
التي اكتشفت العالم الجديد .

اختراع الراديو

لقد نشأ أوجبرن ، هو وغيره من العلماء ، نشأ على مر السنين متنوعات
كثيرة فى موضوع التغيير الاجتماعى ، فأظهر كيف أن أجزاء الحضارة الحديثة

المتصل بعضها ببعض تتبدل بمعدلات مختلفة ثم تستطيل بعد ذلك . وقد تعقب موجات السلوك التي تتلو مخترعات هامة كالسيارة والراديو ، ودفع بمعدلات الاتجاه نحو المستقبل في جراءة ، ليرى ماذا ينتظر أن تكون التأثيرات المحتملة لاختراع جديد .

خذ على سبيل المثال كتابه عن الراديو ، فهو يدرج في « الاتجاهات الاجتماعية الحديثة » ١٥٠ تأثيراً ، منها اثنا عشر تنجح إلى الذبوع الحضارى جاعلة المستمعين أكثر تجانسا . وقد يأسف البعض لهذا باعتباره توسعا في نشر المعيار الأمريكى . ويدرك آخرون أن أناساً يزداد تجانسهم قد يقل كفاحهم الداخلى . وإليك بعض ما أثبت أوجبرن من تأثيرات :

قلّ ظهور الفروق بين المناطق .

نفذت حضارة المدنية موسيقيا وفنيا إلى مناطق ريفية .

قلّت الفوارق بين الطبقات الاجتماعية .

أوجد الاتصال بين المناطق المنعزلة وحوادث العالم .

أعيد الأميون إلى حياة الجماعة .

التركز على لغات أقل .

ازداد التقرب بين كندا والولايات المتحدة وأمريكا اللاتينية .

وفي القائمة نقطة فخواها « الاهتمام بالألعاب الرياضية يزداد بالراديو » . وهذا

صحيح . فمن ممن سمعوها يمكن أن ينسى إذاعة المباريات الأولى في بطولة الملاكمة !

لكن أوجبرن لم يقنع بهذا البيان الواحد ، فهو يمتضى في إدراج خمسة عشر تأثيراً

متفرعا في ميدان الألعاب الرياضية ، كنوع من الموجات الثانوية . ومن بين

هذه التأثيرات :

ازدادت أهمية المباريات الكبرى وأهملت المباريات المحلية .
ازداد ذبوع صيت الأبطال الرياضيين .
ازداد صيت بطولة كرة القدم مضافاً إلى ذلك زيادة المرتبات .
ازداد تجنيد اللاعبين في المناطق الريفية زيادة كبرى .
التفوق على الكليات ذات المستوى المدرسي العالي .
خفض الأعداد الرياضية الخاصة في الصحف .

وقد سجل واحد وستون تأثيراً لاختراع أشعة إكس ، وثلاثة وعشرون لاختراع
الحرير الصناعي ، و ١٥٠ لاختراع السيارة ، تنطوي على تبدل في أسلوب المغازلة
في أمريكا ، فقد حل الشاب ذو السيارة محل الشاب ذي القيثارة .

الطائرة في سنة ١٩٦٠

قد تقول : هذا كله ممتع جداً . وقد يكون كله علمياً جداً . ولكن ماذا
يمكن أن يصنع به المرء ؟ لقد أعد أوجبرن أخيراً جواباً تذكاريًا عن هذا السؤال
أيضاً . فقد احتفظت به الخطوط الجوية المتحدة كمهندس مستشار في العلوم
الاجتماعية لتقنياً بما يحتمل من تأثيرات اختراع الطائرة في العشرين أو العشرين سنة
التالية . ويقع تقريره المبسور الآن في أكثر من ٧٠٠ صفحة .

يذكرنا الباحث في أوائل بحثه بأن هنالك خمسين شيئاً مختلفاً يجب أن ينظر
فيها عند إثبات مسألة بعينها . ففي خلال عشر سنوات سينقل بالجو في الراجح كل
بريد الدرجة الأولى إلى محيط يتجاوز ٤٠٠ ميل من مدينة التصدير ، وكل بريد
الدرجة الأولى الأجنبي . وفي سنة ١٩٥٥ أو حواليها لن يكون ثمت أقل من ٧٥
مليوناً ولا أكثر من ١٠٠ مليون طن من الشحن الجوي في السنة — ومعظمها
شحنات مرتفعة القيمة كالنفوس النادرة ، والأفلام ، والجواهر ، وملابس الفنكر

والفراء ، ويجرى الآن بالفعل نقل المنسوجات بالجو إلى الصين ليطرزها نساء خبيرات ، ثم تعاد بالجو إلى نيويورك ليصنع منها روبات . فهل يدهش أوجبرن في سنة ١٩٥٥ أن يتناول صحيفة ، ويرى فيها إعلانا كهذا ؟

رحلة جوية كاملة حول العالم

١٥٠ جنيتها

سيكون على نيويورك وشيكاغو ولندن أن تفعل شيئا عظيما في تخطيط المدن إذا كانت ستساير عصر الطيران ، وتتمشى مع الوجهة التي تنحوها الاتجاهات الفنية . فأوجبرن يرى أن تكون المطارات في وسط المدينة لا خارجها حيث يستغرق الذهاب إليها خمسا وأربعين دقيقة تذهب سدى في تاكسى . والمدن التي ستستطيع أن تدبر مركزا أميناً سيكون لها ميزة كبرى على المدن التي لا يسمح لها بذلك موقعها الجغرافي أو مصالحها المثمرة في الأملاك غير المنقولة .

ولا يستطيع أحد أن يعلم بالضبط أين يكون مكان الطيران المدني في سنة ١٩٦٠ أو ١٩٧٠ . لكن تقديراً على أساس معدلات الاتجاه يبدو أكثر رجحانا من تقدير يقوم على مجرد التخمين أو التفكير الصادر عن التمني . فيجب الآن على مديري المطارات ، وشركات الطيران ، والخطوط الجوية التجارية ، وأصحاب المصالح المثمرة في الأملاك غير المنقولة — يجب على هؤلاء أن يضعوا الخطط للمستقبل على أساس ما . فالمصالح التي يتناولها هذا الموضوع ، عامة كانت أو خاصة ، هائلة في الآونة الراهنة . والعلم الاجتماعي يمكن أن يكون أكبر معين على تشكيل هذا التنبؤ .

١٢ - في أظلم ميدلتون

ننتقل الآن من الفكرة الحضارية كموضوع مركزي إلى مجموعة من التقارير تتصل بعلم الإنسان ، وتدور حول جماعات أمريكية نموذجية . ومادة هذه التقارير مختلفة من حيث اختصاصها ، لكن فيها ما يكفي لارتياح الكثير من تطبيقات مخططي المدن والمهندسين الاجتماعيين .

إن في مكتبة بيتي رقاً لميدلتون يحوى عشرين مجلداً يلذ لي جمعها كما يلذ الغير أن يجمعوا نماذج السفن . وقد بدأت مجموعتي في سنة ١٩٢٩ حينما استطعت « ميدلتون » لروبرت وهيلين ليند ، فألفتها منطقة جديدة مثيرة للاهتمام . وحين أخذت أكتب بعد ذلك كتاباً عن أثر بلاد المكسيك في نفسى قابلت بين « ميدلتون » ودراسة روبرت ردفيلد لتبوزتلان المدينة الأزتكية الواقعة على هضبة المكسيك . وهذا الارتياح للحضارات المتعارضة قد كان منى مجهود هاو غسب ، لكنه أمكن أن يظهر بعض الفروق البارزة بين عصر الآلة وبعض المجتمعات العاملة بأيديها .

ميدلتون التي تطوقها حقول القمح

لقد كتب كلارك ويسلر مقدمة كتاب « ميدلتون » الأصلي فقال : « إننا نسمع دائماً أن دراسة المجتمع يجب أن تكون إيجابية ... وحقائق العلم الاجتماعى هى ما زاول الناس » . فهنا إذن لأول مرة دراسة جميع ما يفعل الناس عملياً من أشياء في مدينة أمريكية عادية ، لوحظت كما يمكن أن يلاحظ علماء الإنسان مدينة في أظلم بقعة من أفريقيا أو في بولينيزيا . وقد كان ثمت الكثير من الارتياحات المحلية التي أجريت من قبل في أمريكا وبريطانيا ، لكن هذه الارتياحات كانت

معنية مبدئياً بمعدني الفحم أو العاملات ، أو بالأجور والمساكن وتكاليف المعيشة^(١) .
وقد حاول روبرت وهيلين ليند أن يفهموا الجماعة بأسرها . وقال الدكتور ويسلر :
« إن ميدانا جديداً فتح للعلم ، وهو علم الإنسان الاجتماعي في الحياة المعاصرة . »
كان في ميدلتون ٣٨٠٠٠ نسمة — والذي يعرفه كل امرئ الآن هو أنها
منسوبة لولاية إنديانا — كان عدد سكانها بهذا القدر عندما وصل إليها روبرت
وهيلين ليند بجماعتهم الصغيرة في سنة ١٩٢٤ . وكان الرخاء العظيم الذي ساد في
سنة ١٩٢٠ عموماً ، فاحتفظت به صناعات المحركات — تلك الصناعات الناهضة .
وكان اختيار ميدلتون من بين المدن الكثيرة المرشحة للدرس يرجع إلى أنها
أمريكية كالتفاحة المحبوزة . وكانت المصنوعات متنوعة ، وتجارة الجرار الزجاجية
زاهرة ، والفلاحون يأتون من الأراضي المحيطة الغنية بالقمح إلى سوق السبت في
بندر الكونوتية .

كان في المدينة ٤٢ كنيسة و ٦٣٠٠ سيارة . وقد قال عامل في مصنع من
ساكني الناحية الجنوبية : « إنني لأقطع عن الأكل ولا أقطع عن استعمال
السيارة » . وقال قاضي محكمة بوليسية بعد يوم مضى : « لقد باتت السيارة بيتاً
من بيوت الدعارة قائماً على عجل » .

وقد لبث الليندان سفتين تقريباً يدرسان المدينة وحركتها تحت عناوين سعة
كبرى . يدرسانها وهي (١) تكسب قوتها و (٢) تؤسس بيتها و (٣) تعلم
صغيرها و (٤) تستخدم فراغها و (٥) تذهب إلى الكنيسة و (٦) تدخل
العسكرية . وقبل أن ينتهيا من دراستهما كانا قد تهيئا ٤٥٤ نادياً وجمعية تشتمل
إلى جانب الفرقة التجارية منتديات أخرى للطبقة الراقية . ولما كان البيت في

(١) أشهر الدراسات السابقة لميدلتون كتاب « حياة الناس وعملهم في لندن » لبوث ،
و « ارتداد بنسبرج » على يد مؤسسة رسل .

مظهره القديم ينحل تحت ضغط عصر الآلة ، فقد حاول الناس إيجاد بديل منه بالانضمام إلى شيء ما . وقد جمع الليندان معلوماتهما من أحاديث أجريها مباشرة ، وملاحظات لاحظاها ، وأسئلة وجهها ، ومحف حللاها ، وحساب مباشر . كذلك حصلا على كافة أرقام التعداد في الولايات المتحدة مما يدخل في موضوع المدينة ، وإليها إحصاءات عن الولاية والمدينة . (وقد زيدت منذ سنة ١٩٢٤ بعض الطرق الجديدة المهمة .)

وكثير من ملاحظات روبرت وهيلين ليند يصلح لجماعات أخرى ، لأن لأمریکا الآن حضارة تعد معياراً . فإذا انتهينا من مطالعة القسم الخاص بتحصيل القوت على سبيل المثال ، عرفنا كما لم نعرف من قبل ، حالة سنة ١٩٢٠ الاقتصادية ، وأدركنا بطريقة تصويرية صحيحة كيف يوزع أولئك القوية والفتيات الذين قد يرام المرء يلعبون في أفنية مدارس ميدلتون على الأر بعمائة المهنة التي تتيحها المدينة من دون تمييز . ففنى الحوانيت والمكاتب والمصانع التي سيعملون فيها ، والبيوت والأكشاك والأكوخ التي سيسكنونها ويكونون أسرم فيها ، والمخازن التي سيشترون بضائعهم منها ، والإعلانات التي ستقرر احتياجاتهم غالبا ، والمقالات الافتتاحية والمواظ وخطب النوادي المصلحية التي ستغذى نظم اعتقاداتهم ، ومجموعات الدخل التي ينتظر أن يرتبوا عليها وفاقا لجدول معيشي دقيق منظر .

السنون التسمونية

وتنطوي مكتشفات ميدلتون فوق ذلك على مقارنة السنين التسعينية بالمشرينية . ويسمى ويسر هذا « نوعا جديدا في التاريخ » . فالملوفان يحاولان فيه استحضار ما كان من جيل مضى : « يخترق المدينة نهر صغير . كان لطيفا

يقصد للرحلة والصيد والتجذيف حين كان الشجر ما يزال قائماً على ضفتيه في سنة ١٨٩٠ . بيد أنه انكمش اليوم إلى جون ذهبت بلونه كيميائيات المصانع وفاحت فيه الروائح الكريهة المنبعثة من مجارى المدينة » .

وفي سنة ١٩٢٤ كان العمال ما يزالون يؤمون مدارس اللبسيه ، ويستمعون إلى بعض المحاضرات في الموضوعات القديمة — « ملتون كعلم » . بيد أن رجال الأعمال نبذوا هذا اللون من الثقافة بمخذافيه ، واختفت المجتمعات الشاذية التي كانت في السنين التسعينية ، فيما عدا أحدها للطبقة العاملة . وقد هوى نادى أبوللو الذي كان موضع رعاية الصفوة في المدينة ذات يوم . إن ٣٠٠ من تلاميذ المدارس كانوا يغتفون جونو في دار الأوبرا ! وقد نظمت عصبة طلبة الفن في سنة ١٨٩٢ ، فكان أعضاؤها يذهبون للتصوير على مجرى مياه النهر الأبيض الرائقة . أما نادى الفن في سنة ١٩٢٥ فيستمع إلى محاضرات عن العصر الفوطى ، ولا يمسك أبداً بالفرشاة أو أنبوبة الألوان . والموسيقى كالشعر وغير الشعر من القنوت تكاد لا توجد بين أناس ميدلتون في عهد كالفن كوليدج . ويدل هذا في ضوء العموم التي اكتشفها ميدلتون على مبلغ ما أصبح فيه مين ستريت من شذوذ .

إن كل امرئ يركب سيارة ، ويذهب إلى السينما . والناس يزدادون مع الأيام عزوفاً عن الراديو . وقد عادت شخصية مسنة في سنة ١٩٢٤ إلى ميدلتون لزيارة وجيزة فشكت من أن : « هؤلاء الناس يخشون شيئاً » . ويبدى الليندان أنه وسط مذهب فكري يحتفل بأخشن نوع من الفردية الخشنة لم يجروا أحد على امتداد مين ستريت أن يخالفه . وترحف كلمة « الحيرة » بين الحين والحين إلى النصوص . فالمواطنون حائرون في أعمالهم وفي أمور تقدم ، وفي الآلة الجديدة التي تستطيع أن تصنع قوارير الزجاج أسرع مائة مرة من نافخ اليد ؛ حائرون

في أمور الزواج والدين والدور المتزايد الذي تقوم به الحكومة ؛ حائزون في أمور أطفالهم وفي شئون نفوسهم .

إن التقاليد القديمة تعيش — وكثير منها يعيش بلا ريب في سنة ١٩٤٨ — لكنها أيضاً في السنين العشرينية لا يجرى فيها دم كثير . إن اقتصاداً مالياً وإنتاجاً بالجملة يتطلبان نظماً جديدة للاعتقادات ، لكنها لم تتبلور بعد . والتملك الحضارى يطول أجله . ومن خلف آل بويك ، ودق عجز الوليد الجديد ، يشعر المرء بحيرة جيل ضل الطريق .

الأزمة الكبرى

وعاد اليميندان إلى ميدلتون ليراجعا ما وجداه من قبل — عادا بعد عشر سنوات — منها أربع أخرى سمان وست عجاف . فكتبنا كتاباً آخر أسمياه : « ميدلتون تنتقل » . والآن وفي أمريكا ٦٠ مليون عمل ، يكاد لا يصدق أن نهذ كر كيف ألم بأمريكا الكساد إذ ذاك . فقد خسر أصحاب الحوانيت في سنة ١٩٣٣ — ٥٧ في المائة من تجارتهم بالقياس إلى سنة ١٩٢٩ . ومع ذلك فقد كان هنالك مخازن أخرى تبلغ ٦ في المائة تجاهد في سبيل البقاء . وقد هبط بناء المساكن ٥ في المائة ، وخفضت الأجور في المصانع إلى النصف ، وهبط بيع السيارات ٧٥ في المائة . غير أن مبيعات البترول لم تهبط سوى ٤ في المائة . وكانت السيارات قديمة ، لكن الناس ظلوا يسوقونها إلى حيث لا يعلم إلا الله . وفتح الذئاب ، الذين يقرضون المال ، مكاتبهم في كل مكان . ولما انتزعت جنرال موتورز آلاتها من مصنعها الكبير وغادرت المدينة ، بدا وكأن النهاية تحل . وقد كان ربع كامل من عدد السكان يعيش على الإعانات . ومع ذلك فقد ظلت ميدلتون سنتين بعد الأزمة تأبى في عناد أن تسلم بأن

رموز تقدمها يمكن أن يلحقها انتقاض ، وهى المعونة الذاتية ، وسيارات أكبر وأجود ، وحسابات فى البنوك ، وقيم عقارية . ولم يواجه زعماء المدينة الحقيقة إلا بعد أن أغلقت جنرال موتورز مصنعها . وعندئذ لم تدم هذه المواجهة طويلا . فسرعان ما أخذت شيكات الإدارة الأولى للتسويات العقارية تروى سوق السبت عند ما دخلها المزارعون لصرفها ، كما يسقى الرذاذ برية جافة . واستردت ميدلتون على الأثر نظم اعتقاداتها ... ولما انتخب المستر لاندن رئيسا — وقد أظهر اقتراع « ليتيرى ديجست » أنه سيكون الرئيس على التحقيق — أمكن أن يعود كل شيء أمينا سليما .

على أن العمال مع ذلك هجروا سنة ١٩٢٨ هجرانا تاما . فهم ينظمون الاتحادات كما لم يفعلوا قط من قبل ، وعهد الإضراب بالجلوس دون عمل — وهو عهد عظيم — قريب منا . ويجب أن نتذكر أن لكل ثلاثة من مواطنى المدينة فى مين ستريت سبعة عمال فى الناحية الجنوبية .

معتقدات ميدلتون

فى فصل بعنوان « روح ميدلتون » يحتفظ روبرت وهيلين ليند للمؤرخ الطلعة باعتقادات سنة ١٩٢٨ ، فلا أقل من ١٧٢ معتقداً قد أدرجت بترتيب طبقاتها . فبعد أن صرفت شيكات التسويات الزراعية ، وضمن الاتحاد ودائع البنوك ، وجعلت التجارة تنتمش ، أعيد تنظيم الاعتقادات . وإنى لأقدر ، وأنا أخص القائمة اليوم ، أن حوالى مائة من هذه المعتقدات قد أبطلت كلها أو بعضها بمجرد الحوادث . وبعض هذه المعتقدات قد كان مبطلا حين كان معظمها راسخا . وإليك أمثلة :

إن الأحوال الاقتصادية نتيجة نظام طبيعى ، ولا يمكن أن تبدلها قوانين من عمل الإنسان .

لقد انتابتنا دائماً أزمات ، وستنابنا .
إن الناس لا يعملون إلا مضطرين .
كل امرئ يريد في العمل يمكن أن يجد عملاً .
إن التجارة تسقوب استخدامنا كله .
الحانوت المفتوح هو الأسلوب الأمريكي ، واتحادات العمال تنطوى على الغباء
وإن لم تنطو على الشر .
كل الاعتصابات من عمل مثيرى الاضطرابات .
يجب أن يجاهد الفرد لنفسه ، وسيجد في النهاية ما يستحق .
التاجر الصغير هو عمود أمريكا الفقرى .
لا يمكن أن ينتظر من النساء أن يفهمن المسائل العامة .
إن شكل الحكومة فى أمريكا هو الشكل النهائى والمثالى .
إن الحكومة رديئة ، والسياسيين يمثلون أحط أشكال الحياة .
إن رفع التعريفة الجمركية معناه حماية أصحاب الأجور الأمريكيين من عمال
أوروبا المتسولين .
الضرائب شر دائماً .
المسيحية هى الشكل النهائى للدين .
الوعاظ أدنى إلى أن يكونوا أناساً غير عمليين ، ولا ينتظر أن يحسنوا عملاً .
إنك لا تستطيع أن تغير الطبيعة البشرية .
لقد تحدى ما وقع لميلتون بعد سنة ١٩٢٩ كل قاعدة لهذه المعتقدات تقريباً ،
فكأنما تأخذ الشمس فى التحرك من الغرب إلى الشرق . وقد أسف مين ستريت
لما قدمه الاتحاد من إعانات للمساعدة على إنعاش الجماعة وسخر منها . وتشبثت
الجماعة فى نفس الوقت تشبث الفريق ، تطلب من الإعانة المزيد ، ولا تشبع من

مزيد . وكانت نظم معتقداتها بذلك متعارضة الأغراض مع سلوكها المادى ، خالقة نوعاً من انقسام الشخصية فى الجماعة .

وإذن فيدلتون لم تعلم شيئاً من الحرب العالمية : رخاء جنونى ، وأزمة جعلت ربع أهلها متسولين ؟ كلا فليس الأمر بهذه البساطة . إن ميدلتون كمثل جماعة يجب أن يكون لها طاقم من الملابس الرمزية ، فإذا لم تحو السوق نماذج جديدة فستكفى النماذج القديمة . وميدلتون — وعلى الأقل أغنى أقسامها — ما تزال ترتدى الثياب القديمة . بيد أن الإيمان البسيط قد ولى : قبول ما كان فى الأيام الأولى من دون اعتراض . أما تحت السطح فيدلتون فى اضطراب عميق ، وفى دور انتقال .

بليينفيل بالولايات المتحدة

ومادمنا نمر بالف فلنقتاول « بليينفيل بالولايات المتحدة الأمر يكية » مؤلفه جيمس وست لفتى عليه نظرة عابرة . وقد عرف المؤلف ، وهو عالم من علماء الإنسان — عرف بالضبط نوع البلدة التى أراد دراستها . فبعد بحث طويل وجد جماعة ريفية تعدادها أقل من ألف نسمة فى الغرب الأوسط الذى يلائم مواصفاته ، فأجرى التحليل وحده بين يونيه ١٩٣٩ وأغسطس ١٩٤١ كجزء من دراسة أوسع نطاقاً ، تجمع موادها ، وتمولها كولومبيا ، ويديرها رالف لينتون .

وبليينفيل جماعة أقل تعقيداً من ميدلتون بكثير . فليس فيها مصانع . والزراعة على هامشها هى السبيل الرئيسية لكسب القوت . بيد أن نفس التناقض موجود هنا ، فى البرارى وغيرها . فالفاس لا يؤمنون بما يؤدونه فى الواقع . وفى أثناء الأزمة انتقلت بليينفيل من الاقتصاد الفردى إلى الاقتصاد الجماعى — وكان لا بد لها من ذلك أو تموت جوعاً — لكن أحداً تقريباً لا يوافق على ذلك . وأصبح الإحسان والإعانة من وظائف الحكومة الاتحادية ، إلا القليل من أعمال الخير الفردية التى

ما تزال إحدى الكنائس تؤديه . وينتفع بوكالات الاتحاد إلى أقصى حد ، وإن كان ينبغي عليها على الدوام أنها « تخرب البلاد » وأنها « تجعل الفاس غير راغبين في العمل » وأنها « تتدخل في أعمال الغير » .

لقد أقيم شكل جديد كامل من النظام الاجتماعي الريفي وفاق برنامج الحكومة الزراعي المؤلف من إدارة التسويات الزراعية وإدارة ضمان المزارع ، وأعمال صيانة التربة ، وقروض المزارع ، وكهربية الري ، وجمعيات التعاون التي تعينها الحكومة ، إلى آخر ما هنا لك . والنظام الأقدم الذي يقنول الأعمال الزراعية ، والأغراض الاجتماعية ، والأمن الشخصي ، بسبيل الانحلال ، بيد أن رد الفعل الذي أحدثه النموذج الجديد يدل على الاضطراب . وإنني لم أر هذه الثورة الزراعية التي أصابت أمريكا منذ سنة ١٩٣٣ قد وصفت هذا الوصف الحى في غير هذا الكتاب .

فطرق مستر وست الناجحة تثير الاهتمام . فقد طاف بعدة مراكز مشهورة متبذلة ، وجمع القيل والقال ، وشتى الأخبار في كل مناسبة ، وحضر أسواق الكنيسة ، ومآدب الغداء ، والجناز ، ومباريات البيس بول ، وعشاء الفطيرة ، والمزايدات العامة و « رسوم » يوم السبت ؛ ودرس في مدرسة عالية حين كان أحد مدرسيها مريضاً ، واشترك في عدة منتديات ومنظمات . وكان يقضى العصر والمساء في أحاديث تفتاوت لكل شخص بين ساعتين وعدة مئات من الساعات . وتلقى عن ثمانية من البالغين تواريخ حياتهم ، وتراوح بين ٣٠.٠٠٠ و ٧٥.٠٠٠ كلمة لكل تاريخ . واستأجر طلبة في مدارس عالية ليسجلوا تواريخ حياتهم تحت عنوان عام هو : « أتذكر » ، فبلغ بعضها ٥٠.٠٠٠ كلمة .

ونقب في سجلات محكمة الكونتية ، وسجلات إدارة التسويات الزراعية ، وإدارة الضمان الزراعي ، ومجلس الأمن الاجتماعي ؛ ولخص صفوفاً من الصحف الأسبوعية يرجع تاريخها حتى سنة ١٨٨٥ ؛ وقرأ في الأنساب ، وفي تاريخ كونتية

وورلند . وتلك مادة لخصها بهذه الكلمة المفاجئة : « إنه أيضاً في جماعة منعزلة مثل بليينثيل توجد مجموعة من المواد المطبوعة الداخلة في الموضوع ، وأخرى مدعمة بالوثائق يبلغ من وفرتها أن يقصر عمر المرء عن إتاحة قراءتها كلها . »

ديب سوث

وبلى بليينثيل على الرف ديب سوث . فقد قضى أربعة من علماء الإنسان تعلموا في هارفارد ، سنة ونصف سنة في مدينة جنوبية يبلغ تعدادها ١٠٠٠٠ نسمة يدرسون حضارتها في سنة ١٩٢٠ . وقد ألغوا عنها كتاباً استقوه من ٥٠٠٠ صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة ، عدا سجلات إحصائية عن المدينة والريف المحيط بها . وكان الباحثون الأربعة زوجين متزوجين ، أحدهما من البيض والآخر من الزنوج . فأتاحت لهم بذلك فرصة لا تداني لمراجعة الحوادث من كلا جانبي خط اللون . وتزودنا ديب سوث بغض النظر عن العلم الاجتماعي الداخل في موضوعها ، بصورة لا تمحى عن نظام المزارع الواسعة قبل الحرب الأهلية وبعدها . ترينا الذكريات الرومانسية والياسمين على أعمدة بيضاء ، كما وعتها نظم المعتقدات في الطبقة الراقية ، وكذلك الحقائق الملوسة في التاريخ وعلم الاجتماع .

« وتشاجر رث وجوزفين ، ورجعا في الماضي أجيالاً يحدث كل منهما الآخر عن أشياء عن أسرتهما ، وينقب عن أشياء لا يريد أحد أن يعرف عنها شيئاً . وهي الطريقة التي يتبعها الناس هنا ، فإذا جن جنونهم معك لا يجنون ، ولكن يرتدون في الماضي إلى أبعد ما يستطيعون ، يروون لك القصص عن أسلافهم . »

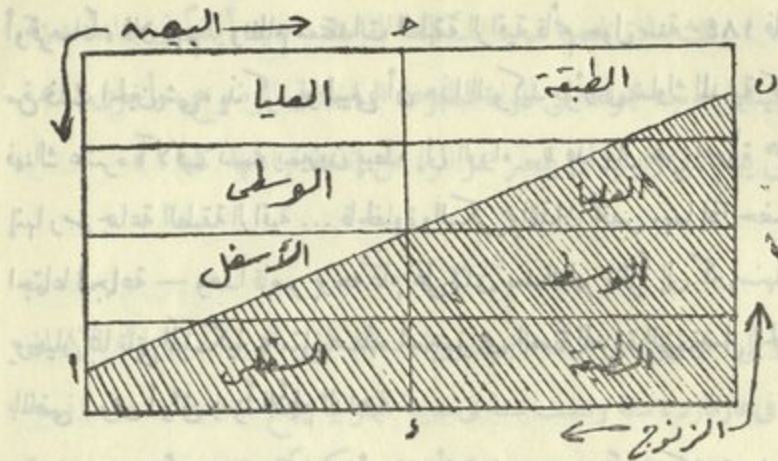
وأعظم إهانة ممكنة في أولد ستي أن تحقر « سلف المرء الأصلي » وزارع القطن الذي أسس الأسرة . أما الأجداد فلا يكثر لهم . وقد يكونون قطاع طرق

أوقرساناً ، فلا يهم . ونظام معتقدات الطبقة الراقية قائم حول سنة ١٨٤٠ فليس من ذلك الحين شيء يذكر . وطبيعي أن هذا التوكيد يؤثر في سلوك المدنية كله ، فهناك عشرة آلاف نسمة يسرون ببطء إلى الوراء . « قد يقال عن امرأة هزيمة إنها رمز جماعة الطبقة الراقية ... فالخفاوة والتكريم للذات تخص بهما إذا حضرت اجتماعاً للجماعة — وهذا قاصر بوجه عام على شأى بعد الظهر نظراً إلى كبر سنهما — يوحيان بما تلقى المملكية » مثل هذه العجوز هي الصلة المعززة التي تصل الحاضر بالماضى ، وهي أوثق رمزاً للأيام الذاهبة .

في تلك الأيام الذاهبة كانت أرستقراطية المزارع معترفاً بها كطبقة تعلو على كل الأحرار البيض ، كما يعمل هؤلاء بدورهم على كل العبيد السود . وقد انمحي هذا النموذج في الحرب الأهلية ، لكنه بعد شيء من التخبط في الأيام المظلمة التي جازها التعمير « أخذ نظام اجتماعي جديد ينشأ وبرتقى في أولد سقى وريفها . وقد نظم أيضاً علاقات الزوج والبيض فيما بينهم وبين أنفسهم وفيما بين كل من الجنسين والآخر . » كذلك قسم الأعمال بعناية فكان نصيب الزوج منها أقلها مدعاة للسرور .

الطبقة والطائفة

على أنه يقع الآن تغيير غريب يثير الاهتمام ، ولا يكتب أحد في أمريكا عن علاقات الأجناس وهو جاد ، من دون أن يتأمل في هذا التغيير ، لأنه يمتد إلى كل ناحية من الجنوب السحيق . ويرى فيه المحققون طارئاً من الطوارئ على نظام الطبقات . فالزوج المتعلمون أمثال الدكاترة وأصحاب المهن يرون أنفسهم ويُعترف لهم بأنهم مختلفون من العمال والخدم الذين يعملون لسكالا البيض والزواج . ويساعد الرسم الآتى على تصور النظام :



إن الخط أ ب هو الخط الطائفي الذي يفصل بين الزوج والبيض . فلا يجوز بحال من الأحوال أن يزوج زنجي من شخص أبيض . وقد تخرق قواعد أخرى ، لكنه لا سييل إلى خرق هذه القاعدة . ولا يستطيع المرء أن يزوج متخطيا نظاما طائفيًا معينًا ، ولا يمكن عد الأطفال الذين يولدون بتخطي هذا النظام أولادًا شرعيين . غير أنه في الجانب الزنجي من الخط وكذلك في جانب البيض ، تؤلف الطبقات درجات عليا ووسطى وسفلى ، وطبقة البيض الوسطى سعاير مماثلة لطبقة الزوج العليا ؛ وطبقة البيض السفلى تماثل في معاييرها طبقة الزوج الوسطى . وفي وسع الناس أن يتزوجوا عبر خطوط الطبقات ويتحركوا إلى أعلى أو إلى أسفل عبر هذه الخطوط . وليس هذا بالسهل أو بالذي يتكرر ، لكنه يحدث . وهذا التحرك هو ما يفرق بين نظام طبقات ونظام طوائف .

وكان الخط أ ب قبل الحرب الأهلية أفقيا ولم يكن مائلا ، فلم يكن هناك زواج يزاولون مهناً ، ولم تكن تمت طبقة عليا للزوج . وكان العبيد في القبو القرعى يعدون نوعا مختلفا كل الاختلاف . فهل يظل الخط أ ب يتحول حتى يدنو من الخط ح د ؟ عندئذ يتساوى الجنسان حقا وإن ظلا منفصلين . فإذا تخطيا هذا الحاجز فلن يكون في أولاد ستي بعد ذلك نظام طائفي .

ميدلتون أخرى

وعلى الرف كتب كثيرة أخرى ، فلتنزل هوم تون « وجه أمريكا » لشروند أندرسن ، ونقلب صوره . إن هذا الكتاب نوع خاص جداً فى التسجيل العلمى ، نوع قد يكون له مستقبل عظيم . فبدلاً من رجل يحمل كراسة نجد رجلاً يحمل آلة تصوير . وكتابة أندرسن كالمعتقد تشير الإعجاب . لكن صوره تحدثنا بأكثر مما يحدثنا قلمه .

وللحصول على هذه الصور بعث روى ستريكر من إدارة ضمان المزارع بمصورين إخصائيين إلى جميع نواحي أمريكا ومعهم تعليمات بأن يسجلوا كل ما يعمل الناس ، فلا يستوقفوا أحداً ، ولا يهذبوا صوراً ، ولا يلجأوا إلى الحيل ؛ قصة مستقيمة مدعمة بالوثائق ، وقد جمعوا أكثر من ٣٥٠٠٠ أصل .

فهوم تون ليست بذلك حكاية جماعية بعينها ، ولكن صورة عامة من حياة المدن الصغيرة فى سنة ١٩٣٠ — مين ستريث والكنيسة الأسلوبية ، واجتماع المدينة ، ونصب الحرب الأهلية التذكارى ، وعشاء الكنيسة ، ومخزن الأدوية ، والمدرسة ذات الحجرة الواحدة ، وشرفة الواجهة ، والصالون ، ودار السينما ، وشاكتون ، ولعبة البوكر ، ومحطة البنزين ، وغذاء نادى المصلحة ، واجتماع الانعاش ، وكونستابل المدينة .

فى مجموعة ستريكر هذه نوع نموذجى من التقرير التصويرى يحدثنا من طريق واحدة بأكثر مما ينبئنا به جدول أرقام . . . حقول قمح فى إيوا يتحلب منها قم الفلاح ؛ غبار وجفاف يحف منهما خلق أى إنسان ؛ صور سلام ريفى مشمس ؛ صور فظيعة لفقر الريف ؛ وجوه ذابلة لرجال ، ووجوه مطرقة لنساء برمات بأمور البيت ، ووجوه هزيلة لأطفال ؛ حظيرة البقر ، وأدوات الفلاح ،

وخرق المسام في المحصول — كل ذلك هنا — مأخوذة صورته في سياقه ، وفي علاقته بمحيطه ، ومحفوفة صفوفاً في خزان مقسمة ، تنتظر مخطط المدينة اليوم والمؤرخ في الغد .

يانكي ستي

ونصل الآن إلى المجلدات الأربعة المنشورة في مجموعة يانكي ستي — ميدلتون التي تحتم كل ميدلتون (وسيصدر مجلدان آخران) . هذه المجموعة هي أعظم المجموعات جميعاً تطلعا ، وأبهظها كلفة ، وأعمقها بحثاً ، وأكثرها فنية . والزمن وحده هو الذي سيقدر هل هي أيضاً أصدق مساهمة . فقد اشتغل بها ثلاثون عالماً فترة تربي على خمس سنوات من عام ١٩٣٠ — ١٩٣٤ وإن لم يعملوا جميعاً في وقت واحد .

وقد عُين و . لويد وارنر مديراً لهم بعد إذ عاد من دراسة لأناس أستراليا في العصر الحجري استغرقت ثلاث سنوات ، وانضم إليه علماء من هارفارد وشيكاغو وييل وغيرها . وكان بولس س . لت معاونه الأول . وكان اعتماد كرين التذكاري يمول هذه الدراسة .

وقد اختيرت منطقتان في أمريكا هما : نيو إنجلند ، وديب سوث ، بوصف أن لهما أثبت الحضارات المحلية . واختيرت مدينة في كل منطقة للتحليل المتواصل . وقد قبسنا من المشروع الجنوبي لمحة من ديب سوث ، فكان الشمال أكثر طموحاً بكثير . وكانت المدينة التي اختيرت مرفأً عظيماً للسفن الشراعية السريعة ذات يوم على مصب نهر كبير . فالآن قد انخفضت أعمالها الملاحية ، واقتصرت على صيد المحار على امتداد المياه الضحلة الموحلة . بيد أن مصانع الأحذية والنضيات وغيرها من الصناعات هيأت لأهلها في الأوقات العادية ما يحصلون منه

القوت . وتنافست الأسر التي تتاجر في الخزف القديم ، وتعيش كل منهما في بيت فخم من قبيل ما يوجد في المستعمرات ، أسر الزراع في أولدستي ، في افتخارها بالأسلاف والميراث . وتبدي المدينة كلها بموقعها على الأرض المرتفعة فوق النهر عمارة هي أطرف مما بنت أمريكا في مدة مائة سنة (والعامة عنصر من أهم العناصر في أية حضارة .)

فلما وصل العلماء الاجتماعيون كان في يانكي ستي ١٧٠٠٠ من الرجال والنساء والأطفال . وعند ما خرجوا لتأدية مهمتهم حلوا معهم بطاقات مخرمة من عمل آلة هوليريث لكل من هؤلاء مع خانات للعمر والجنس والمركز والعمل والنادي والدين والرأى السياسى والسكن والصحة والدخل والمصروفات والممتلكات والتعليم والمجلات التي تقرأ — ويعلم الله ماذا أيضاً . فإذا سررت البطاقات من آلة بعضها أمكن تعيين نوع كل واحد في المدينة على كل نحو مفهوم . ولم يتح لجماعة بهذا الحجم امتحان من هذا القبيل .

وقد كانت هيئة الباحثين مهمة على الأخص بتركيب الطبقات في يانكي ستي ، من اللقدم على من ؟ في بناء الأسرة ، ونظام المصنع ، وجماعات الأجناس كالإيرلنديين واليهود والبولنديين والسكنديين الفرنسيين والزوج ؛ وفي السكن ، وحقوق التملك ، وموارد الدخل ، والمنتديات ، والعصب ، والكنائس ، والمدارس ، والمركز السياسى للمدينة ... كل شيء قد سجل بالتفصيل الوافى . وقد خصوا نظرية متقنة « عن تحليل المركز » بمجلد كامل ؛ وهي نظرية يستطاع بموجبها تقرير حالة أو مركز كل واحد في المدينة تقريراً حاسباً بالنسبة لغيره .

قصة حقيقية

في وسط المجلد الأول ، وهو خلاصة ارتياد يانكي ستي ، نجد تجربة جديدة في العلم الاجتماعى . فإليك ست قصص وجيزة إنسانية صميمة ، على نحو ما يكتب في

نيويورك بدرجة ما . وكل منها قصة حقيقية استقيت مباشرة من البطاقات المخزنة والكراسات ، واتخذت بطبيعة الحال أسماء وهمية . وتبدأ إحدى هذه القصص كما يلي :

« قعد مستر تشارلز واتسون ملاحظ المقبرة القرفصاء يلاحظ اثنين من العمال وهما يحفران . وكان الجو حاراً ... فتوقف حفار عن عمله ، وأشعل لفافة من الطبايق ، وطفق يقول : « لماذا بحق الشيطان لا يدع فل* ستار شيخه ومجوزه يرقدان في سلام ؟ وفيهم كانا في هذا القبر ثلاثين سنة ؟ الآن ينبشهما ويطوف بهما المدينة . وما داما قد دفنا مرة فدعهما مدفونين ! »

وقصة أخرى :

« وعاد سام جونس إلى بيته بعد أن نمتى (لأصحابه) ليلة طيبة . وتسلس إلى فراشه بجانب زوجته . وهبطت اللوالب في وسط السرير . وكان ثلاثة أطفال صفار نائمين على فراش في ركن الغرفة . وكانت صبيتان ناميتان من أبنائه تنامان في المطبخ فوق فراشين فيما يلي الموقد ... فانقلب الجو بغتة بارداً قارساً . وكانت بقايا وجبة المساء ما تزال مبعثرة فوق مائدة المطبخ ... »

هذه القصص لها من التأثير ما لصور « البلدة الصغيرة » الشمسية ؛ فهي تتحدث عن الناس بأسلوب بشري حى ، وتقابل الموائد الباردة والرسوم البيانية .

الطبقات الست

لم تلبث هيئة الباحثين في المدينة حتى قابلت فرضاً كان مأخوذاً به . فقد بدأت أعمالها وهي تعتقد أن البناء الأساسى للمجتمع الأمريكى اقتصادى — ثراء فى القمة وفقير فى القاع — فكلما ازدادت غنى ازدادت اعتباراً . لكن الأدلة

مرعان ما تجمعت لتجمل من المسير قبول هذا الموضوع البسيط . ذلك أن الهيئة استبانة آخر الأمر ست طبقات بين أهالى المدينة أنفسهم : « إنها إحدى الأرستقراطيات اللواتى يسكن هنالـك ستريت ٠٠٠ » « إنه يختلط بمصابة ريفر بروك ٠٠٠ » وطبعى أن تكون هنالك طبقات بين بين . بيد أنه بعد آلاف من الأحاديث وضع كل واحد فى المدينة فى طبقة من الطبقات الست التالية :

١ — العليا العليا ٤ — الوسطى السفلى

٢ — العليا السفلى ٥ — السفلى العليا

٣ — الوسطى العليا ٦ — السفلى السفلى

فقد وجدت الهيئة أنه ليس من الضرورى أن يكون الأغنياء هم نزلاء القعة ، وأن يكون الفقراء سكان القاع . فأغنى طبقة هى التى تحمل فى الطبقة العليا السفلى ، بينما بعض الأسر العريقة ممن هم فى الطبقة العليا العليا فقيرة فقر فيران الكنائس . كذلك كان من المهم أن نلاحظ أن الكثيرين من صيادى المحار وهم فى الطبقة السفلى يسكنون أكواخا على امتداد النهر ، كانوا من نفس السلالة الأنجلوسكسونية التى ينتمى إليها عظماء هنـل ستريت . فلما دعتهـم الأقدار آثروا الصيد على التهرب .

ميدلتون كعلم اجتماعى

إذا سلمنا أن رف ميدلتون عندى يحوى أوثق المعلومات عن الجماعات الأمريكية المعاصرة وخيرها مستندا ، فهل هى من العلم الاجتماعى رقم ١ أو رقم ٢ ؟ هل تمثل تطورا لنظرية جديدة أو تطبيقا لنظرية تم تطويرها ؟ هل تضيف إلى الخزن شيئا ذا قيمة ثابتة ؟ إن قضاة خيرا من مؤلف هذا الكتاب هم الذين سيتولون الرد النهائى ، لكنى كناقـد وجامع طواف يجعل من ميدلتون هواية ، أجدنى على استعداد لأن أقول ما يلى :

١ — إن الدراسات المتواصلة حقا ، المبتدئة بما كان من روبرت وهيلين ليند ،

تقوم ثابتة على نظرية السلوك البشرى ونظائره العامة كما نشأها علماء الإنسان الحضاريون إلى الآن ؟ ففى تسند الفكرة الحضارية ، ومن ثم هى تطبيقات للعلم الاجتماعى رقم ١ .

٢ — على الرغم من ذلك أشعر وأنا أتابع هوايتى ، بأنه مطلوب نظريات أخرى وطرق أحسن للدراسات المعاصرة فى حضارات عصر الآلة . أشعر بأنه ينبغى أن نحصل على المزيد كلما مرت ساعة من عمر الإنسان .

٣ — ومع ذلك فإن المعلومات الميسورة بالفعل فى هذه الكتب والرسائل لن تكون ، كما قال ويسر ، إلا معينة لكل من يديرون شئون الجماعات — كالحفاظين ، ومديرى البلديات ، ورؤساء البوليس ، وقومسبرى الشئون الاجتماعية ، وسلطات السكن ، ومخططى المدن ، والباحثين الاجتماعيين ، وقضاة محاكم البوليس ، وموظفى المرور ، ومجالس إدارات المدارس .

فهل يعلم الموظفون بهذا التطور فى العلم الاجتماعى ؟ إنهم لا يعلمون . فمعظمهم لم يسمعوا قط بمدن كيدلتون ؛ وقد سألتهم فى ذلك مراراً وتكراراً . ومن ثم أحب أن أقترح مشروعاً آخر للبحث . تمويل جماعة مختصة من العلماء الاجتماعيين ليجمعوا جميع ما سجل عن ميدلتون وأضرابها ، ويقارنوها بعناية ، ويهتدوا إلى قواسمها المشتركة مع استنتاجات بارزة . يؤلف كتاب وجيز واضح يسمى « كتيب لمديرى المدن » يوجز الدراسة ويباع بثمن معقول ، ويعلن عنه إعلاناً واسعاً . فلقد زودتنا ميدلتون ونظائرها بالتركيب الجوهرى للجماعات الأمريكية كبيرة كانت أو صغيرة ، شمالاً وجنوباً ، شرقاً وغرباً — وإن تكن مدينة كبيرة لم تدرس إلى الآن . وسيكون هنالك أجوبة كاملة أو جزئية لمثل هذه الأسئلة :

ماذا يشبه قومي ؟ ماذا تفعل جماعتى إذا ألت بها شدة ؟ غلام أستطيع أن أعتمد دائماً ؟ كيف أستطيع أن أحدث تغييرات مع التعرض لأقل سحق شعبى ؟ ما هى أقوى نظم للمعتقدات تحترم احتراماً زائداً ؟

١٣ — ضوء جديد على إدارة العمل

لقد لبث الناس آلاف السنين يعملون أحياناً كأقارب ، وأحياناً كعبيد ، وأحياناً كأحرار مستجيبين لداعى غيرهم . وانتفاء المساواة فى العلاقة بين المدير والعامل ليس بالأمر الجديد فى شئون البشر — انظر إلى بناء الأهرام . بيد أنه من الصعب أن تدرك أن نظام المصانع ، وخاصة على الوجه الذى ينتج فيه جملة ، شئ لم يعرف قط فى أى مجتمع سابق . ونستطيع أن نقول ذلك من دون أن نخشى معارضة . ذلك أنه لم يكن ثمة قط محرك رئيسى على تسيير آلات المصانع قبل أن يخترع وات آله البخارية فى سنة ١٧٧٦ .

وعلاقة السيد والخادم — وهى التى كانت قائمة فى المصانع الأولى — قد اشتق بعضها من نظام الأسرة القديمة ، وبعضها من نظام الصبى والمصانع ، وبعضها من نظام سيد الأرض . وقامت هذه العلاقة على فكرة الحصول على البضاعة بين الحين والحين على الأقل ، لكنها ندر أن قامت على فكرة التعاون البشرى الصادر عن رغبة . ويبدى كارل بولانى فى كتاب « التحوير العظيم » إن المسألة الكبرى فيما يتعلق بنظام المصانع الأولى لم تكن فى أن هذا النظام استغل الناس اقتصادياً ، ولكن فى أنه أنلف نماذج حضارية عريقة فى القدم ولم يحل شيئاً محلها .

فالمصنع قد كان منذ البداية مؤسسة عرجاء . سبب سوء وضعها حركة العمال ، واتحادات الحرف ، والاتحادات الصناعية ، والاشتراكية ، والشيوعية ، ومذاهب فكرية مختلفة ضيقة العطن . ونشأت عنه كذلك تأثيرات طبيعية مكتومة كالإضرابات ، وإقفال المصانع ، والتخريب ، والتهاون فى العمل ، وتركه ، والتجمهر ، والمحرضين ، والمتأريسين ، وما لا يحصى من أعمال التدمير والعنف .

وقد ارتفع الصوت في تفسير فشل العمال والمديرين في التعاون على استخدام الآلة ، واتخذت هذه التفسيرات شكلاً مذهيباً . فقال المتحدثون عن العمال إن الرؤساء استغلواهم استغلالاً معيباً ، وجمعوا أرباحاً لا تخطر ببال ، بينما يتضور العمال جوعاً . وغضب الرؤساء لهذه التهمة فقالوا إن العمال لم يكونوا أكفاء ، وكانوا كسالى وجاهلة لا يعتمد عليهم ، ولا يصعب على المهيجين تضليلهم — ومعظم هؤلاء من الأجانب . وقد ظل « الكورس » قرناً ونيفاً يصخب من هنا وهناك من دون أن تقل كمية الاعتصابات ، والحزازات ، والسفاهات ، قلة تذكر أو تخف حدتها كثيراً . وقد اتجهت المحاولات الرئيسية لفهم أو على الأقل لتوضيح مشكلة العمال اتجاهين : أولاً إلى تحسين المذاهب الفكرية ، وكثير منها متنوعة في « نزاع الطبقات » — وقد أحنقت المديرين ؛ وثانياً إلى دراسات زمنية لحركات جسمانية يديرها مهندسون بالساعات الوقافة — وقد أحنقت العمال . ولم تطبق الطريقة العلمية كما عرفناها في أى من هذين الاتجاهين على المشكلة الحقيقية لعلاقات العمل والإدارة . وقد طبق فريدريك و . تيلر في كتابه « الإدارة العلمية » الطريقة العلمية على أسلوب العمل لا العامل . وقامت العلاقات الحسنة هنا وههنا بفضل اللقانة من جانب صاحب عمل حكيم ، فلم يعرف أحد كيف فعل ذلك ، وأقلهم معرفة ذلك المستخدم الحكيم .

في وسعك إذا بدأت عملاً صغيراً لطيفاً — وليكن إنتاج عربات يد من الألومنيوم — أن تحصل على كافة ألوان النصيحة العلمية فيما يتعلق بآلاتك وموادك . أما عن كيفية معاملة عمالك فلن تجد من هذه النصائح سوى النذر اليسير . تستطيع أن تشتري بطبيعة الحال « دفتر الأستاذ » وساعات بديمة ذات قشرة من الكروميوم ، لكنك لا تستطيع أن تشتري معلومات عن خصائص الرجال والنساء بين من يأتون للعمل عندك ، وعن درجات حرارتهم ونقط الغليان عندهم . وهكذا تأخذ

عربات اليد في بعض الأيام مجراها إلى الجدول ، وفي بعض الأيام لا تفعل ، فتأخذ تعجب : ماذا فعلت حتى بات عمالك يكرهونك هذه الكراهية . وتنضم في الحال إلى الجمعية القومية لأرباب الصناعات ، وتأخذ ترد على الكراهية بمثلا ، مشتركا في النعمة مع أصحاب الأعمال الآخرين .

هذه الدورة المضجرة استمرت من دون توقف تقريبا حتى جاءت جماعة من العلماء الاجتماعيين بإرشاد إلتون مايو ، فأجرت سلسلة من التجارب في أحد المصانع ، واكتشفت بعض النظريات الأساسية الداخلة في موضوعها . وقد جاء نشر روتلز برجر وديكسون لكتابهما « الإدارة والعامل » في سنة ١٩٤٠ شاخصاً في تاريخ العلاقات المالية والعلم الاجتماعي كليهما . وقد أدى هذا الكتاب إلى بطلان قرن من الآراء والتوكيدات والمذاهب حول العمل . فلننظر إلى اثنين من أشهر تجارب الكتاب .

تجارب هوثرن

في غرفة صغيرة من مصنع كبير بمدينة هوثرن على مقربة من شيكاغو يجلس ست فتيات إلى خوان ، وأمامهن قطع معدنية صغيرة في صَوَانٍ يراد جمعها في محول تليفوني يبدو بعض الشيء كصفارة جيب . وتراعى الفتيات أثناء العمل فلا ترى أصابعهن من خفتها ، فإذا أتمن محولا في دقيقة أو نحوها أسقطته في مجرى يحصيه بشكل آلي . وبذا يمكن أن يقدر معدل مقطوعية كل فتاة وكل جماعة من الفتيات في الساعة واليوم والسنة .

وفي ظهر الغرفة يجلس رجل معه كراسي يراقب كل شيء يحدث من يوم ليوم مدى خمس سنوات تبدأ في سنة ١٩٢٧ (وهناك من يحل محله من حين لآخر) والبنات لا يكرهنه بل اعتدن أن يحببته ، وكثيراً ما يفاتحنه فيما يمتصن . وقد تعود

أن يطمئن إليه كما لو كان أب اعتراف ، وهو يحترم ثقته به . والرجل يمثل الشركة ، شركة الغرب السكر بائية ، ومدرسة هارفارد لإدارة الأعمال ، وكلتاها تقوم بالاشتراك مع الأخرى بالتجربة تحت إشراف الدكتور مايو العام . وكان مايو قد قام بتجارب في « معهد التعب » بإنجلترا أثناء الحرب العالمية الأولى ، وعمل خلال هذه التجارب مع عاملات المصانع ، فأثبت أنهن كن أحيانا ينتجن من الذخائر في يوم مدة العمل فيه عشر ساعات أكثر مما ينتجن في يوم يعملن فيه اثنتى عشرة ساعة . وقد كان هذا يخالف الحس المشترك . لكنه لا يخالف الطبيعة البشرية التي قد تعب فتتراجع إذا طال عليها العمل أكثر مما ينبغي . وقد كانت فتيات هورن يؤلفن جماعة اختبار يقابل بينها وبين جماعة ضابطة تجمع المحولات في غرفة كبرى . وكان الغرض من التجربة تسجيل التأثير على الإنتاج من تغييرات مختلفة في الساعات ، والأجور ، وفترات الراحة ، والعمل بالقطعة ، وهلم جرا . وكان الزعم أن رفع الأجور يزيد الإنتاج بينما يقلله خفض الساعات — وهو الزعم المألوف المستند إلى الحس المشترك .

وقبل أن تبلغ التجربة السنة من عمرها كانت جميع الآراء السابقة قد قلبت في صورة خطيرة . فإذا كان أمر هاته الفتيات ؟ لماذا لم يسلكن السلوك الذي توقعوه لمن ؟ وإذا كان الباحثون من رجال العلم فقد ظلوا يسجلون في أمانة ما يحدث ، وإن جهلوا ما يسببه . وقد تطورت الحسكية على هذا النحو : كرسن الأسابيع السبعة الأولى لإيجاد فترة أساسية ، فكان متوسط ما تنتجه الفتاة في الأسبوع ٢٤٠٠ محول ؛ تعمل ٤٨ ساعة في الأسبوع بما فيه أيام السبت . ثم وضعت الفتيات على قاعدة العمل بالقطعة لمدة ثمانية أسابيع فارتفع الإنتاج . فأعطين فترتي راحة في الصباح وبعد الظهر لمدة خمسة أسابيع فارتفع الإنتاج ثانية .

فأطيلت لمن فترات الاستراحة فارتفع الإنتاج ارتفاعاً كبيراً .
وجربت ست فترات استراحة فأنخفضت المقطوعية قليلاً ، وشكت الفتيات
من فتور نشاطهن .

فأعدن إلى فترتي الاستراحة فارتفع الإنتاج من جديد .

فخفضت ساعات العمل في خلال سبعة أسابيع فارتفع الإنتاج .

على هذا المنوال استمرت الأمور تجربة تجربة ؛ كل تجربة تستغرق بضعة
أسابيع ، فأبداً أدخل عامل جديد زاد الإنتاج وازداد عدد المحاولات المارة بالعدادات
مع الاستثناء الواحد الذي أثبت . وجعلت هيئة الباحثين تأرق ويحفوها النوم كلما
رأت افتراضاتها تخيب . إن قوة لم يستطيعوا قياسها كانت تدفع بالمقطوعية إلى أعلى
مهما غيروا من ساعات العمل والأجور وفترات الراحة .

ثم استعدوا الاختبار أعلى . استرد من البنات كل شيء أعطينه في كل الفترات ،
وعد إلى حيث بدأت التجربة . ثمان وأربعون ساعة للعمل ، لا فترات استراحة ،
لا غداء ساخناً في الشركة ، لا عمل بالقطعة ، لا عطلة في يوم السبت ، لا شيء .
واستمر الاختبار الأعلى اثني عشر أسبوعاً فقفزت المقطوعية إلى القدوة : ٣٠٠٠
محول في الأسبوع !

واضطرب نظام العلماء الاجتماعيين كما اضطربت افتراضاتهم . حاولوا أن
يعيدوا البنات إلى الأحوال الأولى التي وجدها التجربة فإذا بالأحوال الأولى قد
اختفت . لقد حولت التجربة الجماعة ، فلم تعد للفتيات تلك الخصائص التي كانت
لها في البداية . فما هو هذا الشيء الخفي الذي قفز إلى التجربة ؟ وجعلت الهيئة
تتطلع باحثة عنه في جميع أرجاء المصنع ، لكنه لم يكن فيه .

وأخيراً وجدوه في الفتيات أنفسهن ، فقد تغير موقف العاملات . والشيء
الخفي هو هذا الشكل الذي يشعر به الفتيات الآن من نحو عملهن . لقد أحدث

العلماء تغييراً نفسياً في هاته الشابات بوضعهن في عالم ودود صغير من نوعهن واستشارتهن غالباً حتى أشعروهن شعوراً جديداً بمركزهن وقيمتهن . فلم تعد الفتيات تروساً منفصلة في دولاب مالى غير شخصى ، بل بتن يساعدن على نحو بسيط في تسيير الدولاب . وهكذا ظلت المقطوعية ترتفع كأنه ما كانت الأحوال المتغيرة حولهن . فاستنتج المحققون أن هذا حدث لأنه قد اعترف لهن بمركزهن وشعرن بأهميتهن . فقد وجدن عملاً استطعن أن يستبن غرضه بجلاء فأدوا مهمتهن بأسرع وبخير مما أدينها في حياتهن من قبل .

إن معظم مديرى المصانع منذ اختراع الآلة البخارية كانوا يعدون العمال « أيدياً » — كانوا يعدونهم جزءاً من تكاليف الإنتاج ، وجزءاً لا يعمل عليه في الجملة . فالعمال شئ يمكن شراؤه وبيعه كالحديد الخام . وأحياناً ، على سبيل التباين ، كان مدير رحيم من المديرين يعامل عماله كما يعامل صغار الأطفال فيقدم لهم الحلوى ويلطفهم . وقد بددت تجربة هوثرن هذه الأوهام ، وأثبتت أن الطريقة التى تحمل العمال يعملون بحمد ورغبة هى فى مبدأين أساسيين متحالفين :

أولاً — اجعل العامل يدرك أن عمله هام ، وأنه هو ذو شأن .
ثانياً — سلم بالحقيقة الواقعة فى أن المصنع جزء من المجتمع ، وأنه تحت سقفه يجب أن يؤدى المجتمع وظيفته بالطرق التى اعتمدها . فالمعصب والفرق والجماعات سيقتالف . فيجب أن يسمح وينتفع بها ، ويجب أن تحترم .

أربعة عشر رجلاً

ومضت هيئة المحققين إلى غرفة أخرى فى مصنع هوثرن لتركب فيها أدواتها . وكان فى الغرفة أربعة عشر رجلاً يشغلون بما يسمى « التسليك » . ومعنى ذلك مد الأسلاك إلى محولات لأنواع معينة من الجهاز التليفونى ، فتسعة منهم عمال أسلاك ،

وثلاثة سبا كون ، واثنان مفتشان . وبتصنيف آخر أربعة من التشك ، وثلاثة من الألمان ، وثلاثة من الأمريكيين ، واثنان من البولنديين ، وأرمي ، وإيرلندي — كوكيتيل مجلس متوسط من طراز شيكاغو .

هؤلاء الرجال أصبحوا فرقة على صورة ما ، ومجتمعاً صغيراً داخل مصنع هوترن الذي يضم ٢٠.٠٠٠ عامل . وعلى خلاف جماعة فتيات المحولات لا يعمل هذا المجتمع على زيادة المقطوعة التي هي أحد أسباب الدرس . ولم تنشأ هنا فرقة فحسب بل ارتفع زعماء طبيعيون إلى القمة . ومديرو المصنع في عليائهم لا يشعرون بقوة هذه الجماعة وصلابتها . وهذه الفرقة المؤلفة من الأربعة عشر رجلاً ليست معارضة للإدارة ، ولكنها لا تكترث لها نسبياً ، إذ عندها من الشئون التي تؤديها ما هو أهم منها . وهي بالدقة ظاهرة حضارية لا اقتصادية . ورجالها لا يعنون بمبلغ المال الذي ينقدونه بقدر ما تعنيهم المقارنة بين ما يؤجرونه وما يؤجره نوم وجيري . فالعامل النسبي هو الذي يهمهم .

وكانت الشركة قد اتخذت حديثاً « خطة للدفع حسب البواعث » ومؤدى هذه الخطة أنه كلما أدى العامل عملاً أكثر كسب أكثر . وهي خطة عادلة ، ولا تنص على الاستمجال . لكن الإدارة تفرض أنها ستزيد الإنتاج ، فلم تزد . فأعضاء الفرقة يلتزمون ٦٠٠٠ وحدة ثابتة في اليوم ، لا أكثر ولا أقل ، وإن كانوا يستطيعون إنتاج ٧٠٠٠ وحدة من دون تعب . فإذا طمع عضو في الفرقة في المزيد من الأجر ألزمته الفرقة حده . وليس ثم علاقة ظاهرة بين مقدرة الفرد ومقطوعيته . والفرقة هنا لا تتصرف حسب مصالحها المالية إطلاقاً . فلماذا ؟

عصر آخر لأدمغة هيئة البحث . لماذا لا يكسب العمال مالاً أكثر إذا كانت لديهم لذلك فرصة شريفة حسنة ؟ لقد بدا للهيئة أن الجواب عن ذلك هو أن العمال الموجودين في غرفة « التسليك » يهتمون باستبقاء جماعتهم أكثر من

اهتمامهم بالنقود . وكانت هذه النتيجة مما لا تجد مساعدة من خطة البواعث ، ولا استعداداً من الإدارة لمعالجتها ؛ ومع ذلك فإن أية إدارة تغفل مشاعر العمال وعواطفهم ونظم معتقداتهم إنما تعمل في الظلام .

لقد وجد مصنع هوترن العظيم زائراً كله بأمثال هذه الجماعات والفرق غير الرسمية يسيرها زعماء لم يحترم أحد من رجال السلطة . كانوا يراقبون « الجشعين » الذين ينتجون أكثر مما ينبغي و « الوشاة » الذين يبلغون عن أعضاء الجماعة . وحياة الواشى يمكن أن تجعل مريرة شديدة المرارة حقاً .

ووجد فوق ذلك أن المهندسين الموكلين باستيانة النافع من العمال حاولوا في الماضي شق الجماعات غير الرسمية ، آملين أن يبعدوا تأثيرها عن الأفراد ليزداد إنتاجهم . وهذه سياسة تبدو حسنة على الورق ، لكنها لما وضعت موضع التنفيذ ضاع الوقت وهبط الإنتاج ثانية . فهؤلاء الرجال الذين يمسون بالساعات الوقافة قد جردوا العامل في غباوة من الشيء الذي كان في الغالب يعمل لعمله معنى ، والذي من دونه يصبح تعاونه الكامل محالاً .

فرقة مصنع الطائرات

ودرس بعض آخر من المشتغلين بالعلم الاجتماعى من مدرسة تجارة هارفارد — درسوا خلال الحرب العلاقات بين العمال والإدارة في مصانع طائرات كاليفورنيا ، مندوبين من الحكومة للتحقيق في أسباب حبوط العمل والتخلف عنه بدرجة كبيرة . وإليك حالة تساعد على تفسير ذلك :

جون بيرجس زعيم فرقة في قسم ما . لم يُزَعِّمه أحد ، ولكنه وجد نفسه هكذا . وكل عامل في تلك الجهة من المصنع يعلم ذلك . ففي ذات يوم ذهب جون إلى المشرف ليقدم إليه شكوى عن أحد رجال فرقته — وهي مسألة بسيطة يسهل

جلها . وكان المشرف في يوم راحته ، يكره جون بصورة ما ، فطرده من العمل قبل أن يستمع له . وقد تكون شكواه خاصة بالنفور أو بالنفيل . فذهب زعيم فرقة لم تكن الإدارة تعلم أنه موجود . وكان جون ينظم الإنتاج على نحو ما يفعل مدرب ماهر في فرقة لكرة القدم ، إذ يوجد من مجموعة من المتحمسين الذين جمعوا كيفما اتفق قوة فعالة .

واكتشف الباحثون أنه كان يعظ في الأخلاق في هذا الطرف من المصنع ، وأنه كان قادراً على إراحة الأسطوانات في كثير من مشا كل النظام الصنعي — أي أنه كان قوة حقيقية . فالآن يخرج من باب المصنع يتميز غيظاً من المشرف والشركة . وفقدت الفرقة التي كان يتزعمها تماسكها ، وجعل أحباب التصميمات في مكتب الرياسة يعجبون من أن المقطوعة في هذا القسم قد تلاشت .

وهدى البحث في مصانع الطائرات العلماء الاجتماعيين إلى ثلاثة أنماط من الجماعة : (١) فرقة « طبيعية » يكاد لا يتجاوز أعضاؤها السبعة عدا . (٢) جماعة « عائلية » يبلغ عددها الثلاثين عضواً ، وفيها يرشد زعمائها العمال المستجدين ومن هم أقل دراية . (٣) جماعة « منظمة » كوتها الإدارة عمداً لتفيد من هذا النزاح البشري . ولا فائدة للإدارة من تحريم الجماعات غير الرسمية ، فسوف تتألف على صورة ما . وهذه الجماعات طبيعية كالحب ، فالمدبرون الأذكياء ينفعون الآن بدوافع مثل هذه الجماعات ، بل إنهم يعتمدون تشكيلها .

وأظهرت تجربة كاليفورنيا أن معظم التغيب عن العمل والحبوط فيه صادر عن العمال الذين لم يؤلفوا فرقة ، والذين لعلهم لم تتح لهم فرصة لذلك . وبذا لم تصبح لهم في المصنع حياة اجتماعية ، أو شيء يمسك مصالحهم ، ويستهدف ولائهم ، وهكذا يعود الطريق فيوصل إلى ذلك المبدأ الأول الذي وضعه علماء الإنسان ، وهو أن الإنسان حيوان اجتماعي .

إنك لن يعيبك أن ترى ما حدث في هذه التجارب ، فقد وصل العلماء الاجتماعيون أخيراً إلى النظرية الأساسية التي تقوم عليها العلاقات البشرية في المصنع والمكتب . وقبل هوترن لم يكن لدينا سوى التخمينات ، وغير معرفة عملية لبعض الخبراء لا تدعمها نظرية ، وقليل من الحس المشترك ، وطائفة كبيرة من المذاهب الصاخبة ترفع بها الإدارة والعمال عقائهم . فالآن أخذنا نعرف ماذا يحمل العمال على العمل ، وجعلنا نختبر المعرفة في تجارب مضبوطة . يقول ريتلزبرجر : « أحب أن أبدأ أن المدير لا يدير عمالاً ولا يدير عملاً ، ولكن يدير مجموعة منسقة من النشاط . إنه يدير نظاماً اجتماعياً . وهذه هي نظرية العلاقات البشرية متبانية مع أية نظرية فخواها أن الناس ، وهم يعملون ، يمكن أن يبحث في أمورهم بعيدين عن أعمالهم » .

والدرس الذي نقلناه هو أنه حين يدرس مصنع بوصفه نظاماً اجتماعياً وجماعة عاملة كميديتون وبلينثيل ، يكون لمسلك العمال معنى . فإذا عد المصنع مظهراً من مظاهر النزاع بين الطبقات أو السيطرة الأبوية أو نوعاً من حديقة الحيوان لأناس اقتصاديين — فإن ما يؤديه العامل لا يكون له في أغلب الأحيان معنى على الإطلاق . وكل ما يمكن المحقق أن يفعله تقريباً هو أن يندب سوء حفظ الطبيعة البشرية . ولا حاجة بنا إلى القول بأن زعماء اتحادات العمال يحتاجون إلى هذه المعرفة الجديدة حاجة مديري الشركات إليها .

مليون أوسطى

لعل أكثر التطبيقات الحديثة طموحاً هي مناهج « التعليم داخل المصنع » التي وضعتها لجنة « قوى الحرب من الرجال » في خلال الحرب . فقد لقن أكثر من مليون أوسطى في المصانع الحربية طرقاً جديدة لمعاملة الجماعات التي تعمل تحت

إسرتها . وهي طرق تقوم على أساس الاعتراف بأنهم مخلوقات بشرية في بناء اجتماعي . ويمكن الأوسطى بطريقة بسيطة من هذه الطرق أن يسوى حالة في المصنع بأن يحمل بِلْ على أن يخبره بمقاييسه في البيت . والبون شاسع بين هذا الأوسطى والأوسطى الذي سئل في زمن مضى :

« كيف تعامل عاملاً جديداً ؟ »

« أقف هناك . . . وأحذق فيه لأريه أنه أبكم . »

« ثم ماذا ؟ »

« ثم أبصق . . . »

لقد زود الفصل الدراسي الخاص بعلاقات العمل في مناهج التعليم داخل المصنع ، زود كل أوسطى ببطاقة زرقاء صغيرة دونت فيها المبادئ التالية ليرجع إليها دائماً :

دع كل عامل يعرف كيف يسير في عمله .

إطر عمله عند اللزوم ؛ قل له ذلك « والحكاية ساخنة » .

خير الناس سلفاً بما سوف يمسهم من تغييرات . قل لهم لماذا ؟

تطلع إلى مقدرة ليست في خدمتك الآن .

يجب معاملة الناس كأفراد لا كأرقام في كشف الأجور .

في أية مسألة عارضة أنفذ أولاً إلى الوقائع ، ثم زنها وقرر عندئذ فقط .

نفذ . ولا تنس بعد ذلك أن تراجع النتائج .

هذه الطريقة لحل المشاكل التي تعرض للأوسطوات ليست لحسب مما يقتضيه

الحس المشترك ، بل هي قائمة تماماً على الطريقة العلمية .

وتطبيق آخر يثير الاهتمام هو مشروع جمعية التدبير القومي الذي يديره

كلينتون جولدن ، وهو زعيم اتحاد من اتحادات الحرف ومدرس في مدرسة تجارة

هارفارد . فقد قام علماء اجتماعيون بدراسة عشرين مصنعا في جميع نواحي البلاد ، ذات صلات عمالية حسنة . درسوها على المسكان ، ووجدوا التعاون الفعلي قائما بين الاتحادات والإدارات . وإذا وجدت الخصائص مشتركة في كافة المناهج الناجحة أمكن استخلاص النتائج العلمية وتسييرها للمديرين وموظفي الحكومة والاتحادات في كل مكان . وإليك هذا الملخص السديد قدمه بنيامين م . سيليسكان ، وقد عاون مايو في هارفارد طويلا في كتابه « العلاقات العمالية والعلاقات البشرية » :

« يجب أن نغنى في بحثنا للعداوات الكامنة في الصناعة الحديثة بآلا نتخذ من رضى البشر في المجتمعات السابقة مثلا عليا ، فقد كان على الإنسان أن يحصل قوته بقرق جبينه كما يقول المثل . وليس في التاريخ المدون ما يبرر الاعتقاد بأن التعب والعرق قد وجدا يوما ما أمرين مرغوباً فيهما لذاتهما كل الرغبة . إن خفض تكاليف العمل التي يتحملها البشر وتقصم الظهر ، بنشئة المذهب الصناعى الحديث قد عد من أمد من منافع البارزة . وقد كان العمل منذ بدأت تجاريب البشر ، جزءاً من كل الجهود الذى بذله الإنسان للسيطرة والهيمنة على محيطه . ومن ثم فإن حالات الرضى ترتفع في العادة إلى شعور بالفعالية يستمدّه الفرد من دورة العمل اليومية . والعامل في المتوسط لم يعد يستمد هذا الرضى الأساسى من عمله . »

فكيف يسعه استرداده ؟ هذه هي المسألة الجوهرية في مشكلة العمال اليوم .

١٤ - لماذا يضرب العمال

لنعد لحظة إلى عربات اليد الألومنيوم التي كنت ستصنعها . فقد انضمت إلى جمعية أصحاب الأعمال كما تذكر ، لأن العمال كانوا يكرهونك . لكن مايو ومدرسته أوصحوا فيما أعتقد أن العمال لا يكرهونك في الواقع . إنما يكره العمال المركز الذي يجدون أنفسهم فيه في عمل مصنع أى إنسان تقريبا . فهم كالأمريكيين اليابانيين ، إذ هم وقوف من حول النيران في بوسطن ، تفعمهم مشاعر الخيبة وانتفاء الأمن . والحياة في المصنع قليلة المعنى ؛ واحتياجات البشر المتأصلة فيهم ، والمتنشئة منذ آلاف السنين الماضية ، أحيائية كانت أو حضارية ، تذهب من دون قضاء .

فكر على سبيل المثال في صنوف الإفساد ، وفي الانفعالات التي تسببها ساعة المواعيد . فالقسيم اليومي المنتظم الدقيق بين العمل واللهو يمثل حالة لا بد أنها كانت مجهولة في الحقيقة ، في خلال العصور الطويلة التي جازها تاريخ ما قبل المصنع . وهذا ما تقوله برباره روتن . فهذا وغيره من صنوف الإفساد والإحباط التي يحسها عمالك قد تبلور إلى أحقاد . وما لم يصنع شيء في صدده فسيجد في النهاية متنفسا في العنف . والعمال يتعلمون أن يبعضوك ، لأنفسك ، ولكن لأنك في نظرهم رمز اضطراب نفوسهم .

ولا قدرة لقانون على ملاقة هذه الحالة . وإذا استبعدنا كل المذاهب والنظريات والمهيجين لظلت حرارة النفس واضطرابها قائمين . وإذا أتحنا للعمال استخداما كاملا ، وضمننا لهم أجورا سنوية ، وموسيقى في كل قسم ، لظل مع ذلك شيء من هذه المראה وهذا الاضطراب قائما . إن تمت حاجة بشرية جوهرية

لم تقض ، ولا شيء يمكن أن يُلطفها سوى تغيير في بعض حالات العمل في ظل الإنتاج بالجملة .

فكيف تعرض عمالك لمتاعبهم النفسية ؟ لقد كانت هذه عملية طويلة يرجح أنها اجتازت قروناً من الزمان . وخير وصف وقع عليه نظري لذلك هو حكاية في المجلد الرابع من مجموعة يانكي سقى . فهي تبدأ بسرد نشيط لقصة إضراب في مصانع أحذية المدينة ، ثم تنتقل إلى تحليل ثلاثمائة سنة من التاريخ السابق للإضراب . فإذا أراد أحد أن يفهم ما فعل الإنتاج بالجملة بأولئك الذين يديرون الآلات ، فإليه حالة ملموسة في صورة جلية واضحة .

الإضراب

في يوم بارد من أيام مارس في أواخر كساد سنة ١٩٣٠ خرج ١٥٠٠ عامل من مصانع الأحذية الاثني عشر في المدينة من دون إنذار تقريباً ، مضربين في إجماع بلغ من أمره أن أقل كل مصنع « بالضربة والمفتاح » وأن لم يبق عامل واحد على مقعده ، فأدركت الوفاة الصناعة الرئيسية في المدينة في وقت كان من العسير فيه الحصول على عمل .

وقد ظل الإضراب شهراً كاملاً . ولم يمض عليه أسبوعان حتى كان المعتصبون تامي التنظيم ، وحتى جعلوا يترصدون في حذق كثير . وبعد أسبوعين آخرين اعترف مدير المصانع باتحاد العمال ، وقبل عندئذ تحكيم مجلس الولاية الذي أعطى العمال كل ما أضر بوا من أجله .

وقد بهت المديرون لجرى الأمور السريع . وكانوا كثيراً ما أبدأوا وأعادوا من قبل أن عمالهم أعقل وأحق بأن يعتمد عليهم من أن يضر بوا عن العمل . ولم يكن عمال يانكي سقى قبل ذلك تامي التنظيم . وقد أعلن رجال الاتحاد في مصانع

أخذية في مدن قريبة من يانكي ستي أنه من غير المستطاع تنظيمهم ، إذ هم أعند
وأكثر استقلالاً من أن يتم لهم ذلك . بل إن بعض العمال أنفسهم كانوا أخبروا
هيئة الباحثين قبيل الخروج من المصنع أنه لن يكون إضراب ؛ ثم وقع المستحيل .
« لقد خرج الأجانب والأمريكيون ، وهم قوام عشرة أجيال ، رجالاً ونساءً ،
هرما وحدياً ، يهوداً وغير يهود ، كاثوليكاً وبروتستانتاً ؛ كافة هذه الكتلة
المتنوعة من العمال غادروا أماكنهم ، فحوا في بضعة ساعات معظم الإنتاج الأساسي
الذي كانت يانكي ستي تكسب منه قوتها . وهم لم يضربوا فحسب ، ويهزموا
الإدارة هزيمة منكرة فحسب ، بل نظموا أنفسهم أيضاً ، وانضموا إلى
اتحاد صناعي . . . »

التفسيرات

فكيف أمكن أن يقع هذا ؟ لقد اقتضى الوقوف على الأسباب الحقيقية
أشهراً من البحث والدراسة . ومع ذلك فقد تواترت الإيضاحات في خلال عشر
دقائق من ترك العمل . لقد سأل كل واحد بطبيعة الحال عن السبب ، وأجاب عنه
كل واحد جوابه الخاص . وظاهر أن التأكد الذي نشده چون ديوي كان بغية
الجميع . فقال مدير : الكساد هو السبب ؛ وقال عامل : قلة الأجور هي السبب ؛
وقال يوناني من مفصلي الأخذية : هي مؤامرة من الأغنياء ؛ وقال مشرف :
مؤامرة من الحر ؛ وقال سيد من هل ستريت من العلية : مهيجو الاتحاد . . .
« كل رجل ، مالك وعامل ومواطن تسكلم بما أوحى به حمية جبريته
الاقتصادية . »

وقدّم كثير من تفسيرات الجبرية غير الاقتصادية وكثير من الضحايا . فقال
بعض الأمريكيين الإيرلنديين وهم يتمثلون من وصل أخيراً من اليونانيين

والبولنديين والأرمن : « إنهم أولئك الأجانب الملاعين . » وقال بعض أولئك الذين نزل آبائهم بالأرض الأمريكية قبل ذلك : « إنهم الإيرلنديون الملاعين ؛ إنهم يهود نيويورك » ويعنى قائلها النقابة المالية التى تملك مصانع الأحذية إذ ذاك . « لو كان رجال لطفاء من أمثال كالب تشوت ما يزالون يدبرون المصانع لما وقع أى اضطراب . » (وكان تشوت رأسمالياً محلياً رحيماً عاش فى سنة ١٨٩٠ .)

وكان الباحثون من رجال وارنر موزعين فى المدينة ، لأن الإضراب وقع وارتداد يانكى سقى على أشده ، فاتهمزوا الفرصة لطلب المزيد من المعلومات ، وتحدثوا مع مديري ن وعمال ، ومنظمى اتحادات ، ورجال حرف ، وموظفى بلدية ، ومحكى حكومة ، فأنبأنا جميعهم بسبب وقوع الإضراب . أنبأنا كل منهم بجزء من الحقيقة فلم يلم بها كلها أحد منهم ؛ وفى كل حكاية تغفل بعض الخصائص الهامة .

« فإذا قدر للعلم الاجتماعى أن يكون ذا قيمة لنا فيجب قبل كل شئ أن يكسب السلوك البشرى أهمية فوق أهميته ومعنى فوق معناه ، وهو ما يقيح لنا نظرة أعمق فى الحياة البشرية ، ويوضح لنا أكثر من المعرفة المستمدة من الحس المشترك لماذا تنصرف الخلوقات البشرية على غرار ما تفعل . والى بالضرورة يحل المشاكل . فلكى تحملها يجب أن تعرف أى المسائل تدخل فيها . »

وفى جملة المسائل التى طرحتها جماعة وارنر هذه المسائل : لماذا فى جماعة لم يقع بين ظهرانيها فى الماضى إلا النذر اليسير من الإضرابات التى لم ينجح منها شئ ، لماذا يخرج فيها العمال جملة ، وتثبت صفوفهم ، ويفوزون بكل مطالبهم ؟ ثم : كيف أمكن أن تنشأ منظمة عمالية قوية فى مدينة عجزت الاتحادات إلى الآن تقريباً عن أن تثبت فيها قدماً ؟

ما هى بالإيجاز الأسباب الحقيقية للإضراب متباعدة مع الأسباب المزعومة التى عرضت بهذه الكثرة ؟ إن العلماء الاجتماعيين لم يحتاجوا إلى طويل وقت ليتنفقوا

على أن أحد الأسباب كان الكساد ، فقد أصاب يانكي سقى كما أصاب ميدلتون بشدة . وقد روى كاتب من كتاب الإعانة : « لقد شاهدت هنا في يوم الثلاثاء الفائت ٣٦٠ وأمس ٢٤٠ شخصاً » . عندنا دكتوران وقسيس ومحامون ورجال أعمال مقيدون جميعاً على الإعانة — أناس قيدوا في دفاترنا ما كانوا ليخطرأ وبالك . كان المواطنون يحطمون أناتهم ليستدقثوا به . وكثير منهم كانوا يحشون أن يموتوا بانفعل جوعاً . »

إن المجرى المنحدر العنيف الذى اتخذ كساد لم يلبث أن ابتلع كل بنس من أموال الخير المحلية ، والذى استمر على الرغم من تأكيدات زعماء المدينة ومعتقداتهم جميعاً ، قد أخرج الناس عن مسلكهم العادى ، وأعدم لتصرف لم يسبق . وقد وضع كذلك أن الكساد زاد العداوة التى استشرها عمال الأحذية نحو المديرين شدة .

وقد ساهم الكساد وقلة الأجور ، والتغيرات السريعة المتلاحقة في صناعة الأحذية ، والانتظار حول المصنع من دون تقاضى أجور — كل ذلك ساهم اقتصادياً في أسباب الانفجار ، بيد أنه لا يفسره تفسيراً كافياً . فقد كان هنالك إضراب في أيام الرخاء في سنة ١٩٢٠ حين كانت الأجور مرتفعة والأحوال الاقتصادية على أحسن ما يرام . وحقق إنه كان إضراباً مفاجئاً ، لكنه ما كان ليحدث لو أن البواعث الاقتصادية كان لها وحدها دخل . إذن فقد كان ثمة شيء يستهلك حيويات العمال . فما هو ؟

تعقب الماضى

الآن تأخذ هيئة البحث تنقب في الماضى ، فتضع تاريخ يانكي سقى الاقتصادى والاجتماعى منذ تأسست سنة ١٦٣٥ (ولى جد هوأ كويلا تشيز نزل هناك بعد

ذلك بقليل قادمًا من أنجلتره) وتنشئ سلما فنيا لصناعة الأحذية . وقد استعانت
بـ جـون ر . كـومنز فى وضع تاريخ العمال لصناعة الأحذية ، واستعانت بـاميل
دركهايم فى تتبع التطور التقدمى للآلات وتقسيم العمل ، مما أدى إلى إنتاج
الأحذية بالجملة .

وقد أنشئ أول رصيف فى مرفأ يانكى سقى فى سنة ١٦٥٥ . وغادر الكثيرون
من المزارعين مزارعهم وخرجوا إلى البحر . وقبل سنة ١٧٦٠ كانت المدينة قد
باتت مرفأ هامًا لتجارة انتشرت فى سرعة . وبينما كانت فرنسا وبريطانيا تكالخان
بعد سنة ١٧٨٥ فى سبيل إنشاء إمبراطورية عالمية كانت السفن الأمريكية تستولى
على كثير من التجارة التى يزاوها الأوربيون ، تمخر بها عباب المحيط الأطلسى من
رأس الشمال إلى ساحل الذهب . وأعظم الأوقات جميعاً كان فى فترة السفن
الشراعية السريعة ما بين ١٨٢٠ و ١٨٦٥ . وفى سنة ١٨٥٤ أنزلت الأحواض
الحلجية سبع عشرة سفينة كبيرة . لكنه سرعان ما قضت السفينة البخارية على
عهد السفن الشراعية . فلما تحول القرن لم يكن بقى من هذه السفن سوى حفنة
من أسطول صيد كان يوما عظيم القدر . واليوم لا يمثل البحر سوى قوارب المحار
فى المضاحل الموحلة .

أحذية طويلة وقصيرة

فماذا كان على أهل المدينة أن يفعلوه حين أخفقت أهم صناعة لهم ، ودال
مجدهم ؟ بدأوا صناعات أخرى بنشاطهم اليانكى الذى يميزهم (وأذكر أنه نتاج
حضارى) ، فأنشأوا أولا صناعة الأمشاط ، ثم صناعة المنسوجات ، ثم صناعة
الأحذية الطويلة والقصيرة . وفى سنة ١٨٦٥ اشغل مائة شخص فى أربعة حوانيت
للأحذية . فلما كانت سنة ١٨٩٠ كان عدد المشغلين بهذه الصناعة يبلغ الألفين ،

يعمل معظمهم في مصنع واحد كبير . وعند ما حدث الإضراب كانوا حوالى ١٥٠٠ عامل كما أسلفنا القول .

فلنلق ، وهذا الماضى مائل لأعيننا ، نظرة على الجدول الوارد في صفحة ١٩٩ فهو من أهم الجداول التى صنفها العلماء الاجتماعيون ، يظهر على شكل ظفر الإبهام ما حدث للأحذية وصناعتها منذ سنى ١٦٠٠ الأولى . وأكثر من ذلك أنه يتيح ، نموذجاً مما حدث المرة بعد الأخرى في حينما دخلت الآلة لتحل أصابعها الفولاذية محل اللحم والدم . وقد أوجزت الجدول شيئاً طفيفاً ، وكتبته كما يظهر في مجلد يانكى سقى . ويظهر السبب التاريخى للإضراب في الجدول بوضوح مذهل . فقد اعتاد أن يصنع الأحذية نفس لابسها أو المقتخرين بصنعها أو كليهما . فالآن يصنعها أناس لا يلبسونها ، ولا فئسرة عندهم عما يحدث لمقطوعيتهم منها ؛ أناس حرموا من إظهار مهارتهم ، وجردوا من مركز كان لهم ، فذهب مع هذه المهارة . وقد بدل الإنتاج بالجملة صناعة الأحذية من حرفة إنسانية حركية هامة إلى حرفة سلبية رتيبة غير شخصية . وبذا لم يكن صانعو الأحذية في سنة ١٩٣٣ في حالة توتر اقتصادى نحسب ، بل كانوا كذلك في حالة توتر عاطفى ، فلم يكن عملهم جزءاً من حياتهم .

وياله من معدل في التغيير الاجتماعى ذلك الذى يبديه الجدول ! إنه لما قدم جدى ورفاقه لأول مرة كمزارعين مهاجرين إلى يانكى سقى ، كانت الأسر تصنع أحذيتها بأيديها كعمل من أعمال الشتاء . ثم جاء الإسكاف الجوال يحمل عدته ليأخذ الجلود التى دبتتها الأسرة ويقيم بين ظهرانيهم أياماً أو أسابيع يقيس في خلالها أقدام أعضائها من الوليد إلى الجدو يصنع لهم الأحذية . وكانت الضيافة من مأكل ومسكن هى فى الغالب ما يتقاضاه .

وحوالى سنة ١٧٦٠ فتحت لأول مرة حوانيت صغيرة لتصنع الأحذية لأهل

الناحية بالطلب . وكانت تسمى « حوانيت القدم » ، فإذا ذهب عميل لأخذ مقاسه تحدث عن طلبه ، وقدم له صانع الأحذية البضاعة كاملة . وظهر المقاول الأول أو الرأسمالي فيما بعد ، فاستأجر عمالا ليصنعوا له أحذية طويلة يبيعها في النواحي المجاورة . وبدأ التخصّص فكان بعض العمال يصنعون النعال ، والبعض يصنع الأجزاء العليا من الأحذية ، لكنه لم تكن هناك آلات بعد .

عهد الإنتاج بالجملة

نم طراً تغيير عظيم ! فقد اخترعت في سنة ١٨٥٢ آلة لخياطة الأجزاء العليا . وأمكن خلال عشر سنوات أن تعمل أجزاء أخرى على الآلة . فهبطت تكاليف العمل في كل زوج من الأحذية هبوطاً لم يعقل . هبطت إلى ١٠ في المائة من تكاليف اليد القديمة العاملة في بعض الحالات . وحيث أمكن قالب يد الإخصائي أن يخرج ٥٠ زوجاً في اليوم كانت الآلة تخرج ١٧٠٠ . وكانت آلة الحافة تنتج بنسبة ٥٤ إلى واحد مما تخطه اليد بالحز والإبرة . وقد ألم التغيير بالأحذية في التفاصيل فحسب ، لكن عمالة الصنع انتقلت من حرفة واحدة دقيقة يؤديها صانع من البداية إلى النهاية إلى عملية إنتاج بالجملة تنطوي على مائة عملية في كل زوج ، تؤدي الآلة معظمها . ولم يعد الصانع يملك عدتهم ، ولم يكن لهم يد في تصميم الآلات التي أرغموا فجأة على تسييرها ، ولا كان في مقدورهم أن يتنبأوا بما ستؤدي به الآلة بعد ذلك من عمليات . وهكذا فقدوا طمأنينتهم وخازم بضربة واحدة . وفي سنة ١٨٦٨ انضم الصانع إلى فرسان القديس كريستين في محاولة فاشلة لوقف تيار التطور الآلي . وقد هوى هذا الاتحاد ، ولم يظهر في يانكي سق منظمة عمالية قوية إلا بعد إحدى وستين سنة على أثر الإضراب الذي روينا قصته ولما نكد . وكان جميع الصانع القدامى قد توفوا إذ ذاك ، واشترت المصالح المالية

نشوء صناعة الأحذية في يانكي ستي وازدهارها

علاقات المنتج والمستهلك	علاقات العمال والإدارة	الملكية والهيمنة	تقسيم العمل	الفنية الصناعية	سنو ١٦٠٠
الأسرة تستهلك الأحذية التي تنتج .	كلها في الأسرة .	مواد وأدوات تملكها الأسرة أو يملكها أسلاف جwab .	أحذية صنعتها الأسرة لأعضائها بضعة أساكة جwابة .	بضغ أدوات يدوية أساسية .	
الأسر التي تصنع الأحذية تباعها أو تبتاعها مع الجيران .	كلها بين الأقرباء أو الجيران الاصقين .	هيمنة عليسة على المواد والأدوات . بعض العمال لا يملكون كل أدواتهم .	جماعة من الأسر تصنع الأحذية مع شيء من تقسيم العمل . بضعة أعمال تطوى على الحرف الكثير .	أدوات يدوية أكثر وأحسن .	سنو ١٧٠٠
الحائز الصغير يزود السوق المحلية . المدير المالك بائع أيضا .	نظام الصبي والصانع . العامل خاضع بعض الشيء المدير المالك .	حوافيت صغيرة يهين عليها عليا . المال ما يزالون يملكون الأدوات في العادة ، لكنهم يزودون بالجلد من مغاؤل محلي .	نظام التاجر حيث يمين رجل واحد الأعمال للصناع .	أول أدوات بسيطة من أدوات الآلة . آلات حواالج .	إلى الحرب الأهلية سنة ١٨٦٠
سوق قوية . منافذ كثيرة للبيع . منافسة حامية .	نظام الصبي والصانع . المالك يزاد اجتماعاً من العامل ، وينتدب لوظائف كثيرة في الإدارة .	للمصانع يملكون رأسماليون مليون . الأخيرون يملكون كل الأدوات .	صناعة الأحذية تذهب إلى المصنع ببعض آلات ولكن أيضاً بأعمال كثيرة تطوى على الحلق .	أدوات آلية أكثر اتقاناً . آلات ماكين . بدء الإنتاج بالجملة .	من ١٨٦٠ إلى ١٩٢٠
أسواق قوية ولكن منافذ قليلة للتصريف . كل الأحذية تباع إلى مجموعة واحدة تباع بالجملة .	يفقد المال غير المنظمين ما كانوا يحفظون . بلوذلك إنسراب وأعداد صناعي . مساومة جامعية تصل الصناعة . مديرون ينسبهم ملاك نيويورك .	ملكية الصناع والأدوات والآلات تنتقل إلى نيويورك .	الآلة تتولى عن الصانع مهارة الصناعة . عمل الصنع يصبح روتيناً مضجراً لا ينطوى على مهارة .	إنتاج كامل بالجملة ، خطوط الحشد ، أدوات آلية مكلمة .	من ١٩٢٠ إلى الحاضر

في نيويورك أصحاب المصانع المحلية للأحذية ، وانقطعت آخر حلقة للسيطرة داخل المدينة ، وبات صناعة الأحذية في يانكي ستي دولابا ماليا غير شخصي بقاتنا ، مخصصا لسوق بعيدة غير مفهومة ، في استطاعة الرقابة المهيمنة عليها في نيويورك أن تزيد في نشاط المصانع أو تعطلها . ولم يكن من ولاة الأمر من يبدو معنيا بهذا .

وهكذا غام « الحلم الأمريكي » وتلاشى في مصانع أحذية يانكي ستي . وكان رجال وارنر قد فرغوا من رد القصة إلى أصلها ، وبلغوا نهاية الذيل الطويل ، فباتوا يدركون لماذا خرج العمال رجلا واحدا في ذلك اليوم البارد من شهر مارس وانضموا إلى الاتحاد . وأوضحوا في نفس الوقت لماذا نمت الحركة العمالية في أمريكا من مليونين إلى ١٦ مليونا من الأعضاء في السنوات الأخيرة . وما اهتموا إليه يتفق وما أجرى من تجارب في هوثرن .

تأييد من علم الإنسان

كذلك يتفق مع استنتاجات ملقييل هرسكوفتس كما أبداه في كتابه « الحياة الاقتصادية عند الشعوب البدائية » . فالهرق البارز الذي يجده بين مجتمع الصناعة اليدوية ، ومجتمع الآلة ، هو أن الرجال والنساء في المجتمع الأول أمكن أن يسيطروا بأنفسهم على الطرق اللازمة لتحصيل القوت . فإذا كان هنالك تخصص في العمل فيندر أن يعتمد المصانع في معاشه على تخصصه لحسب ، فله أيضا قارب صيد ، أو حقل قمح ، أو مرساة أخرى يعتصم فيها من الريح .

« بل إن ما تتضمنه الحقيقة الواقعة في أن النمط البارز لما نعرفه من تخصص ينذر أن نصادفه بين الشعوب البدائية ، لما يلفت النظر أشد من غيره . فعندنا يجب على

العامل المستأجر الذي يستخدم مواد وآلات لا دخل له بها ، أن يقصر أوجه نشاطه على عملية صغرى . صحيح أن التخصص داخل الصناعة مما يقع بين الشعوب البدائية ولكن في حينما يكون على سبيل المثال فرد خبيرا بصنع جزء بعينه من قارب . ومثل هذا العامل يجده المرء ثانية ، ومن غير استثناء تقريبا ، عضوا تام الريش في جماعة تعاونية كبرى ، لا يلقى صعوبة من الناحية النفسية في تحقيق شخصيته فيما ينتج ...

« وإن من أهم الأشياء أن يستطيع عامل في نهاية يوم أو أسبوع أو سنة أن يشير إلى شيء ما يمكن أن يكون فخورا به ... إلى شيء يحتفظ فيه بمعنى الابتكار . فليس في ذلك بحال من الأحوال دلالة على أن هناك غريزة من غرائز الخدق ، بل فيه اعتراف بأن العامل وهو يتبين شخصه فيما صنع ، من دون وعى ، بحس الرضا . »

ويعضى الدكتور هر سكوفتس ليرى كيف أن صانعا من جزر أندامان يحلو له أن ينفق الوقت ساعة بعد ساعة وهو جاد في دق قطع من الحديد بقدم حجرى ، أو تحسين شكل قوس ، وإن لم تكن ثم ضرورة ملحوظة لمثل هذا التمام . والباعث فيما يبدو هو روح التنافس ... إنتاج عمل يفوق أو على الأقل يدانى عند المقارنة ما يعمل الجيران . وأمثلة هذا الدافع المتأصل مسجلة في كافة الأقطار وجميع العصور . وقد وجد منفذا تقريبا في مصانع أحذية يانكى سقى .

ارتياحات إنشائية

يلوح لى أن العلماء الاجتماعيين قد استنتجوا لنا لماذا يوجد اضطراب في المصانع . فإذا عندهم عن تخفيفه ؟ إنه لم يقدم منهاج كامل لحل مشكلة العمال . غير أن

التشخيص يجب أن يسبق العلاج دائماً . وإنها خطوة عظيمة إلى الأمام أن تعرف أين توجد المصاعب الكبرى .

لقد وضع المبدعان الرئيسيان اللذان يقوم عليهما العمل الإنشائي توضيحاً كافياً : أعد أولاً ما كان للعمال من مركز وشعور بالأهمية ، وثانياً اجعل مركز العمل جزءاً لا يتجزأ من المجتمع . فكيف تفعل هذا مع ذلك ؟ مسألة أخرى وصعبة . فلنتبع أفكار ف . ج . روتلز برجر في هذا الموضوع كما بسط في مجلة « هارفارد بيزنس ريفيو » . إنه أولاً يخطط بناء مصنع حديث :

١ — في القاع أناس يُسمون المستخدمين مفروض فيهم أن يطابقوا تغييرات لم يكونوا محدثيها ، وأن يفعلوا ما يطلب منهم فعله ويؤجروا عليه . وفوقهم مباشرة ٢ — أناس يُسمون الملاحظين مفروض فيهم أيضاً أن يحافظوا على الخطط والمعايير التي يبعث بها إليهم من هم فوقهم ويشملون

٣ — الإخصائيين الفنيين والمهندسين والمحاسبين والتكفلين بالكفاية المفروض أن يتكروا ضروباً أفضل للإنتاج والمراقبة ، وأن يعينوا ٤ — الإدارة التي ترى أن أكبر تقدمية تقدمها لأولئك الذين يعملون لها هي زيادة الأجور . وترى الإدارة أنها تعمل ، ولا تيسر لحسب طريقة للعيش ، وأن الجماعات غير الرسمية في المصنع إما رديئة وإما غير موجودة ، وأن السلطة جميعها تأتي من القمة ولا يسمح بقرارات تصدر عن القاع .

إن نظرية الإدارة بحذاقها فيما يتعلق بمعاملة العمال يرجع تاريخها إلى القرن الثامن عشر حينما كان يفترض أن المجتمع كان مؤلفاً من رعايا لا نظام بين أفرادها ، وأن هؤلاء الأشخاص لا يهمهم سوى الجري المنطقي وراء الربح والملاذ — فكرة الرجل الاقتصادي .

في وجه هذه الافتراضات التي كادت تكون عامة ، والتي أخذت بها الإدارة ، نصحيت ، إن لم تكن أنكرت كل الإنكار ، رغبة العمال في أن ينتموا إلى جماعة ، ويكونوا جزءاً عاملاً منها ، رغبتهم في الاجتماع الجميم في العمل بمخلوقات بشرية أخرى . وهي رغبة من أقوى رغبات الإنسان على التحقيق . والإنسان في متابعة هذه الرغبة غير منطقي بالضرورة ، ومعنى ذلك أنه يريد « أن يمدح أنه ليغبط وجهه » وهذا ما تعلمه الإدارة كل العلم . وهكذا أعطتنا الإدارة بيد كيلة ضخمة من العمل القوي لم تحلم بها مدنية قط ، وباليد الأخرى « الجانب السيء من التقدم » جيلاً من المخلوقات البشرية المضطربة النفوس الخبيثة الآمال .

ويعتقد الدكتور روتلز برجر أن على المديرين أن يكونوا أكثر من غيرهم إلماماً بما يجري داخل منظماتهم . فكل ما يعرفونه الآن هو البنيان الرسمي كخطط على خرائط المنظمة . والبنيان غير الرسمي هو الذي يهم أكثر . وتلك قارة مجهولة لمعظم المديرين اليوم .

كذلك يحتاج المديرون إلى أن يتعلموا الكثير عن علم المعاني ، وعن الاتصال من القمة إلى القاع ، ومن القاع إلى القمة . فما لم يكن العمال والإدارة على اتصال دائم ، فإنهما يكونان كالشاة الذين قطعوا في المعركة أثناء الليل عن هيئة أركان الحرب . فبإحدى طرق لإقامة أداة تزيل الشكاوى ، ووضع مناهج لإجراء الأحاديث للتغفيس — كما حدث في هوترن — يدخل تحت هذا العنوان . وبذا تكون استفتاءات العمال طريقة سريعة للنمو .

وكذلك ينبغي أن تتعلم الإدارة أن تدع العمال يشتركون في وضع معايير لما يؤدي من عمل . فبهذا يمكن أن يشعروا بأنهم يشتركون شخصياً في المقطوعة . وينبغي لنفس هذه الغاية أن تشجع الإدارة العمال على إبداء اقتراحات لتحسين الطرق أو الإنتاج مع أجرهم المناسب على ما يقبل من اقتراحات .

وقد حققت لجان العمال والإدارة في أثناء الحرب نجاحاً عظيماً في المصانع التي كان فيها اتحاد مسئول ، والتي كانت الإدارة فيها تعاون من دون تحفظ . وكثير من هذه اللجان لا تزال تعمل . وثمت نشاط إنشائي آخر في الفصول الدراسية المسماة « التعليم داخل المصنع » وهي فصول للأوسطوات الذين أسلفنا ذكرهم في الفصل السابق . وهنا ميدان غير محدود ، في وقت السلم ووقت الحرب على السواء .

يقول روتلز برجر : « لكن لعل أهم الأشياء جميعاً هو أن نمط المدير المنتظر سيكون عليه أن يتعلم التمييز بين عالم المشاعر وعالم الحقائق والمنطق . . . » فهل يسعنا أن ننشئ مديريين على الفرار الأولي ؟ هناك عمل ليتون كأساس ، وعمل جنكنز عن « الطريقة المقيّنة » ويرى روتلز برجر أن هذا ممكن . فهو يقول إنه لو أن نصفاً فقط من واحد في المائة من الوقت والمجهود والمال الذي أنفق في تحسين الآلات خصص لآليات الطبيعة البشرية لأمكن الشيء الكثير . إن مشروع مانهاتن يتكلف ٥٠٠ مليون جنيه . ونصف واحد في المائة من هذا المبلغ هو مليونان ونصف مليون من الجنيهات ، وهي تكفي للصرف على الكثير من الدراسات على غرار ماتم في هوثرن ويانكي ستي وبوسطن .

« إنه لا يبدو معقولاً أن نفرض أن نخون الإنسان فطنته في هذا المشروع إذا أفسح لها المجال . إن المهمة جسيمة ، والدعوة إليها عظيمة ، والحوازر مرتفعة . لكنه بسلوك مثل هذا الطريق الوعر وحده يمكن أن تنهض زعامة العمل بتبعاتها الاجتماعية الحقيقية . » إننا بحاجة إلى البحث والمزيد من البحث . وإذا كان لنا من الماضي مرشد فلن تحمل مشكلة العمال بالعاطفة والتخمين واللقائنة والخنو الأبوى أو أيضاً بالحس المشترك ، وإن أمكن الانتفاع بقسط وفير من هذا

الأخير . لن تحمل المشكلة على أيدي رجال في الكونجرس يجيزون القوانين
لكي يجمع زعماء اتحادات الحرف ؛ ولن تحمل على أيدي محامين بارعين يُرون زعماء
الاتحادات مبلغ ما يستطيعون المضى فيه . ولن تحمل بالشيوعية أو بأية « ماركة »
أخرى من المذاهب الفكرية . وإنه ليقال إن مركز الخلقوات البشرية في المصانع
الروسية لا يختلف سوءاً عما هو عليه في مصانعنا . وحقاً إن هذا المركز لينزع
إلى السوء كلما وجد مصنع .

ستحل المشكلة ، إذا كانت ستحل ، بمواصلة نوع العمل الذي تم في هوثرن
ويانكي ستي ؛ بتطبيق الطريقة العلمية تطبيقاً قوياً .

١٥ - قياس الرأي العام

لقد وجدت وأنا أجرى هذا الارتياذ « بالسلسلة والبوصلة » عددا من الخبراء الذين يعتقدون أن تحرى الرأي العام عمل بارز في العلم الاجتماعى يلى فى الأهمية الفكرة الحضارية فى علم الإنسان . والاستفتاءات التى أجريت فى هذا التحرى من حداثة العهد بحيث لا تدخل فى أى من المعارف المعتمدة ، وإن كان علماء الاجتماع — وهم الأيقاظ دائما لارتياذ أرض جديدة — قد سجلوا زعما . وإنى لأرتاب فى أن يسلم مستر روبر أو مستر جالوب بأنه من العلماء الاجتماعيين ، وإن كان يؤثر أن يسمى مشغلا بالعلم .

ومهما يكن من استنتاجنا عن الموقف النسبى للاستفتاءات فقد ساعدت الاستفتاءات على إنصاف الديمقراطية السياسية ، وهى على التحقيق أنباء . فإنه من العسير أن تتناول صحيفة لا تجد فيها تقريرا لجالوب عما يرى الناس فى مشروع مارشال ، أو ارتياذا لروبر عن أوان توقع الناس للأزمة القادمة وهكذا .

فشل « ليتيرى ديجست » الجسم

فى سنة ١٩٣٦ روت « ليتيرى ديجست » — وقد تكلفت كثيرا فى جمع ملايين من بطاقات البريد وترتيبها — أن الفرد م . لاندن سينتخب رئيسا بأغلبية ساحقة . فلما أظهرت النتائج الفعلية أنه هزم هزيمة ساحقة كفت « ليتيرى ديجست » فى الحال عن الظهور . فقد وضع أن شيئا ما قد أخطأ فيه الحساب خطأ كبيرا ، كائنه ما كانت العناية المبذولة فى إحصاء البطاقات . لكن جورج جالوب والمروبر ، وهما محدثان فى هذا الميدان يكادان لا يعرفان ، تنبئا تنبئا صحيحا بانتخاب المستر روزفلت . فهل كان هذا مجرد حظ ؟ لا . فقد استخدما

طريقة علمية دقيقة بالنسبة لذلك اليوم ، لكننا بعد ليست من الدقة الكافية كما أظهرت انتخابات سنة ١٩٤٨ . هذا بيننا أهملت « ليتيرري ديچست » العلم . من ذلك الحين جعل المستفتون المعتمدون يزدادون أخذاً بالطرق العلمية ، ويزداد الاهتمام بعملهم زيادة مضاعفة .

وإذا نحن درسنا الفرق بين استفتاء « ليتيرري ديچست » واستفتاءات جالوب وروبر في انتخابات ١٩٣٦ لا نلبث أن نلم بالنظرية الأساسية التي يقوم عليها العلم الجديد . على أننا يجب أن نعرف المعنى الفنى الذى يقصد إليه المستفتون من استعمال المصطلحين الخاصين « كافة » و « عينة » .

فهم يقصدون بالكافة السكان مدروسين جملة . وفي حالة الانتخابات هذه كان الناخبون في كافة الولايات الثمانى والأربعين هم الذين يذهبون إلى أما كن الانتخاب ، ويجذبون عتلة ، أو يرسمون علامة في يوم من أيام نوفمبر ١٩٣٦ . ويزى بعين الذهن ملايين منهم يتجادلون ويتناقشون ، مستعدين للذهاب في النهاية إلى التصويت . وإنه لبحر خضم من البشر ! وطبيعى ألا يستطيع مستفت سؤال كل أحد من هذه « الكافة » سلفا كيف يكون اقتراعه . أما الحكومة فيكلفها سؤالها في يوم الانتخاب الكثير من الملايين .

وإذن ماذا نستطيع أن نفعل ؟ نستطيع أن نلتقط عينة من جملة السكان ونسألها . فكيف يمكن التأكد من أن « العينة » تمثل « الكافة » ؟ هنا يجب أن نقف ونفكر ، لأنه في معنى العينة الخاص لغز الفن . فمن الواضح أن العينة ينبغي أن تكون كالمجموعة كلها في كل اعتبار ما خلا الحجم . فيكون لها بالضبط نفس الأقسام والطبقات التي للكافة التي تمثلها .

فما هي الأقسام الرئيسية في الناخبين من سكان الولايات المتحدة جمعاء

في سنة ١٩٣٦؟ لا شك أن كلا الرجال والنساء سيصوتون ، فينبغى أن تتضمنهما العينة بنسبة أحدهما إلى الآخر . وسيصوت الزوج — في بعض الولايات على الأقل — فيجب أن يدخلوا في العينة عن الولايات التي سيصوتون فيها ؛ ثم المزارعون والموسرون والأوساط والمسنون والشباب والفقراء وعمال المصانع . يجب أن تظهر العينة كافة الجماعات الرئيسية بالنسب الصحيحة .

حسن ! فهذا لب موضوعنا كله . فقد أدخل السيدان روبر وجالوب كافة الجماعات الفرعية في العينة ، بينما أغفلت ذلك « ليقيررى ديچست » إذ قام استنتاجها على عينة مطعون فيها من الناحية الإحصائية ، أى أنها لا تمثل من سيذهب فعلاً إلى صناديق الانتخاب ، بل جاءت بطاقات البريد من أسماء في دفاتر التليفونات بقدر كبير . فأظهرت انحرافاً نحو الطبقات العليا ، على حين يصوت الفقراء ولا يفتنون تليفونات .

كذلك اعتمدت « ديچست » على أناس تأصلت فيهم عادة الكتابة إلى حد إرسال البطاقات بالبريد . لكن الناخبين الذين يحسنون استعمال « المفتاح الإنجليزي » قد لا يحبون الاشتغال ببطاقات البريد ، فإنهم يخطئون أنفسهم بالخير . وهكذا أضافت ديچست في نفس الاتجاه انحرافاً آخر نحو أكثر الطبقات تعليماً والمحافظين والموسرين من الأمة . والموسرون كما تدل التقاليد يتجهون نحو الحزب الجمهورى . وبذا لم يصعب على « ديچست » إطلاقاً أن تكسب الانتخابات للاندن ، والنسيان لنفسها .

لقد اتضحت الآن قيمة نظرية العينة — وهى قيمة عظيمة . فإذا كانت هناك طريقة للحصول على عينة صادقة فإننا نهتدى إلى أشياء عن المجموع الكلى أو الكافة بجزء صغير من تكاليف الإحصاء الكامل . فلا يسعنا لحسب أن نجيب عن أسئلة كثيرة أخرى ، بل يسعنا أيضاً أن نجيب عن أى منها أسرع كثيراً .

فلطريقة حجمها وسرعتها ، وهي تطبق على أنواع كثيرة من المجموع غير العضوية والعضوية على السواء ؛ على البيلي والحبوب والمسامير والغنم والشجر والبضائع التي تنتج بالجملة ؛ على أى شئ له خصائص موحدة الشكل . (وسنعتقب تاريخ العينة بإيجاز في الفصل التالى .)

إن لنا حين يتناول الأمر أناساً وجماعات طريقاً إلى معلومات رخيصة دقيقة عن مظاهر كثيرة لعدد السكان — أصواتهم ، ودخولهم ، وأعمالهم ، وبيوتهم ، وصحتهم . ويزعم روبر أنه يستطيع بسؤال ٥٠٠٠ أمريكي أن هل يتوقعون على سبيل المثال أن يأخذوا عطلة في الأشهر الستة التالية ، أن يحصل في نطاق بضع نسب مئوية على نفس الجواب الذى يمكن أن يجيب به مائة مليون من الأمريكيين البالغين في إحصاء كامل . إنه يعتقد أن آلاف الخمسة يمكن أن يتيحوا عينة دقيقة بصورة معقولة من المائة المليون . فإذا كان مصيباً ، وثمت ما يحمل على افتراض ذلك ، فانظر مبلغ الوفرة الهائل في النفقات فهو بنسبة ٢٠ر٠٠٠ إلى واحد . وهنا عرَضاً السبب الذى من أجله لم تقترح أنت وغيرك . فلك لحسب فرصة واحدة من ٢٠ر٠٠٠ يسألون هذا السؤال .

وقبل أن تؤخذ العينة بالطريقة العلمية لم يكن زعيم أو سياسى ، أو مصلح أو خطيب ، ممن يروجون لعب الصابون ، يستطيع أن يعلم بصورة إيجابية ماذا يرى الناس حقاً في المسائل العامة . فقد كانت جل اعتمادهم على اللقانة ، أو على التفكير الذى تحدوه الرغبة ، أو على اليأس القائم من ذكاه الدهماء . فكان رجال الكونجرس يميلون إلى استنتاج الأشياء من بریدهم الذى يزودهم بعينة مخيفة جداً من ملأ رجل الكونجرس . وليس سوى الساخطين جداً أو الجادين والمتعلمين جداً من يكتب الرسائل ويرسل البرقيات إلى رجال الكونجرس . مثال ذلك أن

بريد الكونجرس دلّ في ١٩٤١ على ٩٠ في المائة ضد مشروع القانون . لكن استفتاءات معنياً بها دلت على غالبية من جميع الأمريكيين مع مشروع القانون . وكانت الموافقة على القانون بكثرة صوت واحد .

كيف تجرى استفتاء ؟

بدأ استفتاء الرأي العام بصورة جدية حوالى سنة ١٩٠٠ « بأصوات وهمية » للرئيس ، معظمها مما أدارته الصحف . وقد كانت هذه الأصوات خاطئة إلى درجة كبيرة ، لكنها كانت مما أحبه الناس ، لأن الناس كانوا يحبون أن يقرأوا ما يدهم على مهب الريح . وفي انتخابات سنة ١٩٢٨ أجرى من أمثال هذه الاستفتاءات ما لا يقل عن أربعة وستين . ويمكن أن يقال إن مجهود « ليتيرى ديجست » كان أجل ما بذل في هذا الصدد وآخر ما أخرج الأصوات الوهمية . وما تزال صحف صادقة تنشر أعمدة « للمخبر المتحرى » الذى يقف خمسة أشخاص من مين ستريت ، ويسألهم هل يظنون أن مكان المرأة هو في البيت ؟ وتجيء الردود مسلية غالباً ، لكنها خلو من المعنى ، بوصف أنها تعبر عن الرأي العام .

وإجراء استفتاء اليوم عملية كبرى يقوم فيها الهاوى بما يسهه القيام به محاولاً أن يستخرج من النفاية سلفوثيرازول . فإذا كانت « الكافة » هم جميع البالغين في الولايات المتحدة فقد نحتاج إلى ٤٠٠ من المدرسين على إجراء الأحاديث يركزون في نقط استراتيجية في جميع نواحي البلاد . فقد اتسعت مادة الموضوع وتنشأت إلى أبعد من مدى التنبؤ بنتيجة الانتخابات . وقد أفادت استفتاءات الرئاسة في امتحان الطريقة ، وحببت الفكرة إلى الناس في صورة مؤثرة . والأهمية الاجتماعية لهذه الاستفتاءات تدانى في المستوى سباق الخيل . فمعظم المستفتين يودون لو خرجوا الآن من هذه الاستفتاءات .

ولعل خير طريقة لفهم هذا التطور الجديد الهام للعلم الاجتماعى هو تتبع استفتاء يعالج مسألة من مسائل السياسة العامة من البداية إلى النهاية . ولتلاحظ الخطوات التى تدخل فى هذا ، فهى ثمان وكما يلى :

١ — اختيار المسألة

٢ — اختيار الكافة

٣ — اختيار العينة لتمثيل الكافة

٤ — صوغ المسألة

٥ — اختبار المسألة فى عينة من العينة

٦ — تدريب المستجوبين وعملهم فى الميدان

٧ — ترتيب ملاحظات المستجوبين

٨ — صياغة الاستنتاجات وكتابة التقرير .

وسننظر فى كل من هذه الخطوات بدورها معتمدين الفينة بعد الفينة على مقال فنى كتبه اليانور ماكوبى وروبرت هولت فى صحيفة « المسائل الاجتماعية » . وقد تسأل لماذا لا توفر تكاليف الأحاديث ، تجرى من باب لباب ، وترسل الأسئلة بالبريد ؟ لأن البريد — كما دلت حالة « ديجست » المؤسفة كل الدلالة — يزودنا بما ينطوى على انحراف منظم . فإذا كانت الكافة مؤلفة من أساتذة كليات فحسب فقد يحىء استجواب البريد مرضياً — مفترضين أن عدداً كافياً من الأساتذة سيردون .

الخطوة الأولى : اختيار المسألة التى يستفتى فيها

هب أنك المدير ؛ فما الذى تريد أن تسأل الناس عنه ؟ وإذا سلمنا بأن من المهم أن تحصل على جواب نهل هناك ما يحمل على الاعتقاد بأن عدداً كافياً من المواطنين

يعرفون شيئا عن الموضوع يجعل للجواب شأنا ؟ خير لك ألا تحاول « مشروعا حرا » ، ذلك أنه لا فكرة عن معنى المشروع الحر إلا عند ثلاثة من عشرة من الأمريكيين . فالكثيرون يظنون شيئا من قبيل ما يخص من سعر البضاعة لقاء بيعها بلا لفافة . والناس بحاجة إلى أساس قبل أن يستطيعوا الإجابة عن مسألة في السياسة — إلا أن تكون مستفتيا وقصدك تقرير انقضاء الأساس . وثانيا إذا كان الناس يدرون في الموضوع شيئا فهل يهمهم ؟ وهذا مما يفتح موضوع قوة الشعور العام — وهو موضوع هام . فالمسائل التي لا يهتم بها الشعور العام لا تستأهل الاستفتاء . ثم ما مبلغ ما ينتظر أن يكون لرد الفعل من دوام ؟ فالمسائل المعرضة لتغيرات كبيرة مفاجئة في المواقف الشعبية أقل معنى من تلك التي هي أكثر ثباتا .

وصفوة القول أن مهمتك هنا بوصفك مديرا أن تختار المسائل ذات المعنى ، وتطبق عليها طريقة الاستفتاء . وقد يكون هناك طائفة من الأشياء الممتعة تحب أن تسأل عنها ، لكنه مالم تنبهه فلن تكون للنتائج قيمة . وفي رأيي ، إذا أردت أن ألقى حلدا على عواهنه ، أن أكثر من نصف المسائل التي طرحها مستفتون معتمدون منذ سنة ١٩٣٦ كان ينبغي في الراجح ألا توجه . والحقيقة الواقعة في أن نتيجة ما تحمل نسبة مئوية طيبة أحيانا إلى المكان العشري الثاني ، لا تضمن صحة هذه النتيجة . فالحاصل الحسابي ليس أبدا خيرا من المدلولات التي يقوم عليها .

الخطوة الثانية : اختيار الكافة

هل تكون الكافة جميع البالغين من سكان الولايات المتحدة الأمريكية ، أو الزوج المشتركين في حصاد الميسيسيبي ، أو دكاترة الفلسفة في علم الاجتماع ، أو العمال العاديين في شركة محركات فورد .

لقد دل استفتاء فعلى بين جميع عمال فود فى سنة ١٩٤٦ على أن ٦٦ فى المائة منهم يعتقدون أنه لم يبذل مجهود ما فى سبيل إشعارهم بأنهم جزء من الشركة ، أو أنهم يهتمونها — وهو ما قاله هنرى فورد الثانى . وقد كان روبر الذى أجرى هذا الاستفتاء يستخرج عينة من العمال سنوات ، يسألهم عما يطلبون أكثر من سواء . وقد تمخض استخراجه العينة هذا عن نموذج معين من تلك النماذج الجليدية الجامدة التى لا يلم بها تغير سريع . ويريد العمال على الترتيب : (١) الأمن ، (٢) فرصة للترقى ، (٣) أن يعاملوا كبشر ، (٤) أن يشعروا بأن عملهم ذو شأن . وهذه النتيجة التى تثير الاهتمام الكافى تميل إلى تأكيد ما أورده و . اير . توماس من رغبات أربع لنوع الإنسان . وهى أيضا مما يتفق وتجارب هوثرن .

الخطوة الثالثة : اختيار العينة

كم عاملا من عمال فورد كنت خليقا أن تسأل فى المسألة السالفة ؟ كيف تنقيهم ؟ إن بعض الأفراد يجب أن يختاروا من الكافة بطريقة تضمن تمثيلهم لكل من تشتمل عليه الكافة . وهنا تأخذ العملية تصبح فنية حقا ، ويأخذ الهاوى يخرج بكامله من أعماقه . إنك تختار من بين الطرق البديلة المختلفة « استخراجه العينة كيفما اتفق » و « استخراجه طبقيا » و « اريادات الحصص » و « اريادات المنطقة » الخ . ويتوقف اختيارك على خصائص الكافة .

واستخراجه العينة كيفما اتفق معناه أن تستخدم طريقة آلية فى الاختيار تتيح لكل فرد فى الكافة فرصة مساوية لفرصة غيره للدخول فى العينة . فإذا كنت تختار عينة من مجموعة من البلى جاء اختيارك مرضيا كل الرضى . إذ يمكن أن يتم بالنقاط حفة من أى مكان ، وإن كان لعله من الأصوب أن تهز المجموعة كلها أولا .

لكنك إذا كنت تستخرج عينة من الناس لتخصيصه واحدة ، فإن أخذ العينة كيفما اتفق يصبح أكثر تعقيدا . فافرض أننا نريد أن نعرف كم بين الأيالك والزبرا من أعضاء الكنيسة ، فهذا جزازات العضوية تحمل عشرات آلاف الأسماء . افتح أى كتاب كيفما اتفق وخذ آخر عدد من رقم الصحيفة . فإذا كانت الصحيفة تحمل ٤٦ خذ العدد ٤ . إذن فلتبدأ بالجزازة الرابعة فى قوائم العضوية ثم خذ كل جزازة متممة للمائة بعد ذلك . فإذا أردنا أن نستخدم عينة أكبر ليكون هامش الخطأ بذلك أصغر فنخذ جزازة متممة للعشرين . وقد أثبتت تجارب سابقة أنه إذا حاول شخص ما التقاط عينة ، وليكن أحكم الحكماء ، فإنه ينحرف عن الجادة فى العادة . فإذا أخذ بنظرية الاحتمال فمن الممكن أن تقدر مبلغ خطأ العينة أو الحيد عن النتائج إذا أحصيت الكافة إحصاء تاما . يقول أنجس كامبل « إن علم العينة قد بلغ حدا يمكن عنده اختيار عينات مبرأة من خطأ محتمل معروف لتمثل فى الواقع أية كافة تهم المستطلع . »

ويقال عن وحدات الكافة إذا لم تكن طليقة كالرمل أو البلى إنها «معنقدة» ففي هذه الحالة لا بد أن تشتمل العينة على عناقيد ماثلة . وقد أنشأ جالوب وروبر عناقيد فى سنة ١٩٣٦ ولم تحدثها « ليتيررى ديجست » . فإذا حدث انحراف أو بدا غرض ، أى إذا كانت صيغة عنقودك تحوى نسبيا غير صحيحة لم تغد فى زيادة حجم العينة ، فهى تركب الأغلاط بذلك .

وهذه الخطوة الثالثة كما ترى تلائم الاختبار بالطريقة العلمية . وكما قال جولييان ل . وودورد فى « بوليتيكل سينس كوارترلى » : « إن تطور النظرية الإحصائية التى يقوم عليها أخذ العينة الصغيرة ونشأ الطرق التى تتبع فى أخذ عينات من عدد ضئيل من السكان وفاقا لها ، يمثل مظهراً من مظاهر التقدم العلمى العظيم حقا فى القرن العشرين . »

والمسألة العملية الكبرى التي تعرض في الخطوة الثالثة هي اختيار طريقة أخذ العينة التي تتطلب أقل وحدات فيها ، مع هامش مفروض للخطأ ، أو ٥ في المائة أو أى شيء يمكن اغتفاره . وبذا يمكن أن يظل الارتياح أقل ما يكون كلفة مع أقل عدد من الأحاديث .

الخطوة الرابعة : صوغ السؤال

إن صوغ السؤال الذي يطرح على الجمهور بحيث يفي بالعرض مسألة تبلغ في حرجها ما يواجه الخاطب . فهذا يجب على المتراد أن يستعمل ذوقه وعطفه ولقائمه . فإنه ليس لديه من المعرفة ما يُعينه ، ولا يقيس له منها ما يقيس من نظرية أخذ العينة ؛ فهو مواجه إلى جانب أشياء أخرى بمشكلة في معنى الكلمات وفي علم المعاني . وما يجب أن يسعى إليه فوق كل شيء — مع استثناء سنثبت فيما بعد — هو سؤال واضح كل الوضوح ، وُبعد عن كل ما يثير من الكلمات كما يستطيع المسئول أن يجيب في حرية من تلقاء نفسه ، صادرا في إجابته عن مشاعره الباطنة ، ومسيرا مركزه وحالته .

لقد وُجد عندما كان المستر روزفلت رئيسا أنه مما يزيد تأييد الشعب لسياسة يستفتى فيها أن يربط بين اسم الرئيس وبينها . وقد سئل الشعب « أيرى أن ترسل الولايات المتحدة القوات إلى شعوب أوروبا الجائعة ؟ » فكان نصيب هذا السؤال من الإيجاب أكبر من نصيب نفس السؤال محذوفة منه كلمة « الجائعة » . ومع ذلك فليلا حظ أنه لو كان الناس يجوعون حقا في أوروبا وقتئذ — كما يجوعون في سنة ١٩٤٨ — لوجب أن تبقى الكلمة في السؤال . وفي سنة ١٩٤٦ أجرى روبر اختيارا في علم المعاني يبحث على الاهتمام . وفق بين جماعتين من الناس حتى كانتا عينتين تشخص إحداها الأخرى عمليا . وقد

حقق ذلك بتوجيه أسئلة مختلفة والحصول على نتائج مقاربة جدا في نسبها المثوية . ثم أخذ بعد ذلك يسأل كل جماعة على حدة طائفة متشابهة من الأسئلة فيما عدا كلمة جديدة ذميمة هي كلمة الدعاية ، وجهها إلى إحدى الجماعتين .

كان الموضوع العام هو نفع ما تذيعه وزارة الخارجية على الخارج من إذاعات . وقد سئلت الجماعة أن تختار من ثلاثة مواقف بديلة موقفا مؤداه « إن بعض الناس يقولون إنه خير أن نوضح وجهة نظرنا ونذيع الأنباء معاً . » فكانت نسبة الموافقين ٤٢٨ في المائة . أما الجماعة ب فتلقت الصيغة التالية — ولا حظ أنها نفس السؤال الأول بالدقة : « إن بعض الناس يقولون إنه خير أن تضمن الإذاعة شيئاً من الدعاية وتذيع الأنباء معاً » . فهبط رد الفعل بالموافقة إلى النصف تقريبا ، فجاءت نسبتها ٢٤٧ في المائة . ومن الصعب أن تجد مثالا خيرا من هذا المثال لما تفعله كلمة مثيرة بآراء الناس .

إن علينا في الخطوة الرابعة أن نقرر هل نستعمل أسئلة « مغلقة » أو أسئلة « مفتوحة » أو مزيجاً من الاثنين . والأسئلة المغلقة هي التي يجيب عنها المستول بنعم أو لا أو بكلمة « لا أعرف » أو يختارردا من ردود بديلة معروضة عليه . مثال ذلك : « إذا قامت الانتخابات اليوم أ كنت تفتخب ترومان ... دوى ... لا أعرف ... » وقد كان المؤلف أن تذهب « لا أعرف » بلا أثر في بعض الاستفتاءات ، لكنها اليوم ذات أهمية مؤكدة . ذلك أن جهل الجمهور بمسائل بعينها يمكن أن يقاس بالنسبة المثوية لرد « لا أعرف » . فالنسب المثوية القائمة بحسب على أولئك الذين يفضلون شيئاً على شيء ، مع إغفال ردود « لا أعرف » تدل على استنتاج غير نزيه إلى حد كبير .

ويجرى سؤال مغلق أكثر تعقيداً على هذا المنوال : « أي هذه الأسئلة أقرب إلى تعبيرك عما تحب أن تفعله الولايات المتحدة بعد الحرب :

« ١ — عدم الدخول في محادثات مع البلاد الأخرى ؟ »

« ٢ — الاعتماد على محادثات منفصلة ؟ »

« ٣ — الاشتراك الفعلي في منظمة دولية ؟ »

فيختار الجيب رقماً من هذه الأرقام أو يرد بلا أعرف .

على أن السؤال المفتوح لا يداني في حسن الصياغة تلك التشكيكة المغلقة . فهو يدخل ظلالاً من الرأي ، وقد يكشف كذلك عن عامل التركيز . فطالب الحديث يبدأ بمسألة عامة كبيرة ، وينزل منها إلى حالات ، مشجعاً المسئول على التعبير عن رأيه بكلماته هو ، والتفكير في كافة وجوه الموضوع . مثال ذلك :

« ماذا تعتقد أن سيقع للأسعار في العام التالي أو حواله ؟ »

« لماذا تظن هذا ؟ »

« ماذا تفعل لذلك في مشترياتك ؟ » الخ .

فالأسئلة المفتوحة غالباً ما تكون إجراءً أحسن من غيره في معرفة الرأي ، بيد أن طالب الحديث يجب أن يكون أحسن تدريباً ، وأكثر عملاً ، وأصعب مهمة من حيث التسجيل وتدوين الملاحظات . فبدلاً من أن يحصل على « لا » و « نعم » و « لا أعرف » ، يجب أن يدون كل ما يقول الجيب تقريباً — فأكثرنا يحبون الكلام (وفي الفصل التالي مثال من الحديث المفتوح) . وإياه ليحسن أحياناً أن تجمع بين الأسئلة المغلقة والمفتوحة على هذا النحو :

« أترى أن نودع في الصين من المال أكثر مما نودع ؟ »

« لماذا تشعر بهذا الإحساس ؟ »

وقاعدة أخرى في صوغ الأسئلة هي أن يكون السؤال عن شيء واحد في المرة الواحدة . فالسؤال : « هل ترى من الحكمة أن تضع المال هذه الأيام

في العقار الثابت والسندات ؟ » سؤال ردىء . فقد يؤثر جورج آدمز العقار الثابت ويخشى السندات ، بينما يرى مصرفيّه العكس .
ولمرة الواحدة التي يلوح فيها جائزاً أن تحمل السؤال فوق ما يحتمل هو في الاستفتاء لتعرف مدى التحامل . فإن الأسئلة المبهمة المألوفة عن تحاملات الجنس والدين لا يجيب الناس عنها صراحة . فالكثير من الأمريكيين ينجحون من مشاعرهم ضد الزوج أو اليهود أو السكاوليك . وهؤلاء سيردون ردوداً ثابتة قائمة على خير مبادئ السباكين . لكنه حين يقول المستجوب : « حسناً ، انتهينا من هذا . والآن قل لى ما رأيك حقاً في أولئك اليهود القذرين ؟ » — حين يقول المستجوب هذا يذر التحامل قرنه . وقد قررت مارى يهودا في مؤتمر ولينتون سنة ١٩٤٧ أن هذه الطريقة أحدثت تحولاً في الإجابات بمقدار ٢٥ في المائة .

كذلك أبدت الآنسة يهودا أنه لما استفتى الآباء في العقاب أو التأديب البدنى أجاب ٨٠ في المائة منهم جواب الكتب المدرسية قائلين إنهم يعارضونه . لكنهم لما لوحقوا بتجربة من السلوك الفعلى وجد أن ٧٠ في المائة من هؤلاء يضربون صغارهم . ويبدو أن هنا فرصة حسنة لعلماء الإنسان لاستخدام هذه الطريقة في دراسة التلكؤ القائم بين نظم المعتقدات والسلوك المادى . وأخيراً يظهر بعد كثير من التجارب في الخطوة الرابعة أنه إذا انغمس الناس في الحقائق الواقعة كل الانغماس ووصلوا إلى استنتاجات ثابتة ، فلن يتأثروا لحسن الحظ كثيراً بترتيب الأسئلة أو سياقها أو صيغتها .

الخطوة الخامسة : مجرى الاختبار

إنه بعد أن تضع صيغة السؤال وضعاً مرضياً يتلوه ذلك أن تلقى به في مهب

الريح وتقيس الارتكاسات . ففي دراسة حديثة تتبعتها جيداً جُربت أولاً اثنان وعشرون سؤالاً مع مائة من الناس . والقصد من ذلك أولاً هو الحصول على العينة النهائية المؤلفة من ٥٠٠٠ لتمثيل كافة تشتمل على جميع البالغين في الولايات المتحدة . وفي عينة العينة هذه كان على المستجوب أن يدون الأجوبة بإضافتها ، ويطلب إلى المجيبين أن يوضحوا بالتفصيل ماذا يعنون بردودهم . وبذا يزول الغموض عن عبارات مهمة ، ويستطاع تصحيحها قبل الاستطلاع النهائي .

وقد أورد كِونْ ماك نِمر حالة مسلية . فقد سئل الناس في استفتاء شفوي هل هم معارضون في أن تتولى الحكومة مراقبة الأرباح ، فأجاب عدد مدهش من ذوى الدخل القليل بنعم إنهم معارضون . وقد هدى جس النبض إلى اعتقاد بأن الله لا الحكومة هو نعم الوكيل في مراقبة الأرباح . ومثل حالات سوء التفهم هذه مما يساعد مجرى الاختبار على كشفه . وما كان هذا ليحدث بطبيعة الحال لو أن المستفتي سلم الناس أسئلة مكتوبة .

الخطوة السادسة : الحديث

إن من تنقصهم الدربة في المستفتين يمكن أن يقلقوا كل شيء رتبناه إلى الآن — الكافة والعينة والصياغة ومجرى الاختبار . وأسهل أن تدربهم على الأسئلة المغلقة من أن تدربهم على الأسئلة المفتوحة . لكنه مطلوب دائماً من المستفتي أن يحسن الحكم على الأشياء . فهو يحتاج إلى ذلك في الدخول على الناس وحملهم على الكلام . والمألوف أن معظم المستفتين من النساء لا الرجال — ربات بيوت ذكيات يعملن بعض الوقت .

فالمستفتي في استطلاع يتعلق بالبطالة يجب ألا يقول أبداً : « إنك لا تعمل الآن ، أليس كذلك ؟ » بل يقول دائماً : « أتبحث عن عمل الآن » أو « هل

تنتظر برهة ؟ » وسبب من أسباب هذا واضح ، وهو أن يسمح للمجيب بأن يحافظ على كبريائه . كذلك يجب ألا يلقن المستفتي المسئول الردود أبداً ، كأن يقول له : « أتقول ذلك من جراء غلاء المعيشة ؟ » فهذا مما يحمل غير واحد من المسئولين يتبع موجّه بقوله : « بالتأكيد ، هذا هو السبب » وفي هذا تأثر به . ويعتقد بعض النقاد أن المستفتي هو أضعف حلقة في السلسلة كلها . وليس شك في أن البليد أو غير المدرب لم يخلق كلاهما لهذا العمل . وسنصنعي في الفصل التالي إلى حديث فعلى مع عامل من عمال الأحواض لنصور طبيعة هذه الخطوة — تلك الطبيعة الحرجة .

الخطوة السابعة : ترتيب النتائج

لقد انتهى المستفتي من جولاته ؛ وملاحظاته مدونة الآن تدويناً حسناً . ففي الإمكان إرسالها إلى مكتب مركزي لتبويب . بيد أن الطريقة الحديثة لذلك هي إعداد بطاقة مخزومة لكل وحدة في العينة ثم ترك آلة هوليريث تؤدي العمل الكتابي ، فيقسم البطاقات بسرعة وتحصيها . والأسئلة المغلقة توأّم البطاقة ، لكن المفتوحة تتطلب نظاماً شفرانياً أعقد بكثير . والحق أن الشفرة تصبح علماً في ذاتها .

الخطوة الثامنة : تدوين النتائج النهائية

وبتناول الآن المدير المشرف على عملية الاستفتاء النسب المثوية التي تعدها الآله ، ويباحث فيها موظفيه . ولعله يوازن شيئاً ما بين هذا العامل وذاك ، ثم يجلس لكتابة تقريره . وستجد تقارير مستروربر في « فورشن » كل شهر وفي غير « فورشن » من المجلات . وتجد تقارير مستر جالوب واسعة الانتشار في الصحف . وقد تُسلم ، كعميل من عملاء الإعلان ، تقريراً خاصاً عن السوق فيما

يتعلق بآلة غسيلك الجديدة ، وكيف تعجب الناس ؛ أو كمرشح لوظيفة عامة ، تقريراً سرّياً جداً عما تراه نخبة من كبار المصوتين في ترشيحك .

ويجب على مدير العملية الاستطلاعية وهو يكتب تقريره ألا يوضح ما تدل عليه الأرقام فحسب ، بل يوضح بجلاء كذلك ما لا تدل عليه الأرقام . وعادة الناس الضارة في تعميمهم ما يستنتجون من مدلولات ناقصة يمكن أن تشيع الفوضى في أي استفتاء لم تبذل عناية في حمايته . يجب على المدير أن يحذر قراءه على الدوام من تعميم النتائج على كافة مختلفة عن الكافة التي جرى في شأنها الاستفتاء . مثال ذلك أنه قد لا تكون أغلبية المزارعين في الولايات المتحدة هي التي تريد أن تكتب أسعار الحبوب مقارنة بل أغلبية مزارعي إيوا فحسب ... وهكذا .

وقد وضع روبر آر بع قواعد عظيمة لكل مدير استفتاء :

١ - يجب عليه أن يذكّر القراء بأن الأجوبة عن كل الأسئلة لا يمكن قبولها بقيمتها الظاهرة .

٢ - إن الاستنتاجات لا يمكن أن تقوم بشكل ثابت لا يتغير ، على أجوبة أي سؤال .

٣ - يجب ألا يتغاضى أبداً عن أهمية الجواب بلا أعرف .

٤ - إن السؤال وقد صيغ صياغة مختلفة قد يحدث نتائج مختلفة .

واقترح أن يضاف إلى هذه القواعد الأربع تحذير خامس . إن فرقة مختلفة من المستفتين طلاب الأحاديث قد تكون استحدثت أيضاً نتائج مختلفة بعض الشيء - ربما كان شيئاً لا يذكر ، لكنه يجب التحذير منه .

ومن الواضح مع التجاوز اللازم أن ههنا آلة قوية جديدة للعلم الاجتماعي بسبيل التكوين . وقد نُشئت إلى ذلك في الولايات المتحدة وحدها تقريباً . وتحري الرأي العام هو نتاج مشترك بين نظرية الاحتمال وأساندة السكليات وخبراء الحكومة ورجال الأعمال - وهذا تركيب غريب لكنه حيوي .

١٦ - مستقبل الاستفتاءات

في طبقة عاطلة صغيرة هي مسكن عامل في حوض البحرية الشرقية يجلس مستفت يجرى الحديث . والوقت في فبراير من عام ١٩٤٦ ، والمستفتي يمثل مكتب الاقتصاد الزراعي الذي يدير استفتاء عن مدخرات الناس وخططهم المالية . وهو تطور حديث في الاستفتاء العلمي قائم على طلب العينة من منطقة ، وعلى الأسئلة المفتوحة ، فألق بالك إلى ما يحدث . ذلك أن هذا الحوار الصغير يلقي ضوءاً قوياً على مقدرات طريقة الاستفتاء وتحديداتها .

وقد سبق اختبار الأسئلة التي يوجهها المستفتي وعويرت في عناية . والله يعلم ماذا تكون الردود مع ذلك على أسئلة مفتوحة كهذه . فيجب على المستجوب أن يحاذر ، وأن تكون ذاكرته مرتبة ، وطريقته الشفوية محفوظة جيداً .

وعامل حوض البحرية في الأربعين من عمره ، تعلم في مدرسة إعدادية ، ويعول زوجة وطفلاً . وقد أجاب على استجواب ماهر عطوف ، فأخبر المستجوب منذ برهة أن دخله في سنة ١٩٤٥ كان يقرب من ٥٠٠ جنيه وأنه يكسب الآن ٧ جنيهات في الأسبوع مقابل ٩ من عام مضى قبل التخفيض . ولا يرى العامل بأساً من الإجابة على أسئلة شخصية لأنه قد أكد له أن اسمه لن يذكر ، وأن الغرض من الحديث هو الحصول على معلومات علمية نافعة للبلاد . ومثل هذه الدعوة مما يستجاب له دائماً — كما وجد الدكتور كينزي .

المستجوب : الآن وقد انتهت الحرب أيمكنك أن تقول إنك أحسن أو أسوأ حالاً من الفاحية للمالية مما كنت والحرب ما تزال دائرة الرحي ؟
العامل : إننا نعاني وقتاً عصيباً . فقد كفا إلى نوفمبر نعمل ٥٤ ساعة في

الأسبوع . فالآن رجعنا إلى ٤٠ ساعة ، وهذا فظيع . فالدخل باق على حاله ، وليس في استطاعتنا الانتقال إلى مكان أرخص لأننا لا نجد ، فكل المساكن مكتظة ، وهكذا لا بد أن ندفع أكثر . والغاز والنور والكهرباء والتأمين وكل شيء يكلفنا غالياً . إن امرأتى ربة بيت عجيبه . والحق أننى لا أدرك كيف تفعل ذلك .

المستجوب : ماذا تظن أن ستكون عليه الأمور في البلاد في العام القادم أو نحو ذلك على العموم ؟

العامل : صحيح أنه إذا زلت الأسعار لن تكون الحال بهذا السوء ، لكنها لا تكف عن الارتفاع . فإذا ارتفعت أكثر مما هي كثيراً ، وازداد ضيق هؤلاء الكثيرين فلست أرى كيف نستطيع العيش إطلاقاً .

المستجوب : إن هذا الاستطلاع كما قلت لك يتعلق على الأكثر بالادخار والإنفاق ، فهل من عادتك أن توفر بعض دخلك أولاً ، أو أنك تؤدى أولاً مصروفاتك ثم تدخر ما يبقى ؟

العامل : لقد كنا ندخر بنظام . فامرأتى تصر على ذلك . لكننا الآن لا نستطيع . لقد كان يؤخذ من أجرى جنهتان وعشرة شلنات بانتظام للقراطيس المالية .

المستجوب : ما هو غرضك الرئيسى من الادخار على وجه العموم ؟

العامل : أن يكون لنا بيت يوماً ما .

المستجوب : والآن والحرب قد وضعت أوزارها أظن أنك ستحاول ادخاراً مثلما ادخرت في الماضي ؟

العامل : إننا لا نستطيع الادخار بقبائلاً ، لأننا لا نريد !

المستجوب : وعلى العموم أيمكنك أن تقول إن الادخار اليوم أم مما كان في خلال الحرب أم إنه أقل أهمية ؟
العامل : إن من المهم دائماً للرجل المتزوج أن يدخر . فعندنا غلام يجب أن نعلمه .

هذا الحوار المأخوذ عن كراسة المستجوب ، والذي لم أقتبس منه سوى جزء يسير ، ينبئني عن تعرف الرأي العام بأكثر مما تنبئني به أعمدة كثيرة من الإحصاءات . فأنت تراهم جالسين حول مائدة المطبخ المغطاة بمشع ذي مربعات حمراء — الولد يجتهد في التوفر على عملية قسمة طويلة ؛ والزوجة التي هي مديرة بيت مدهشة تحوم في المؤخرة تواقاً إلى الاشتراك في الحديث ، لكنها لا تأنس في نفسها الشجاعة لذلك . صورة عامة ، إنسانية ، إلى هذا الحد ، مؤلمة تقريباً .

بيد أنها مع ذلك موضوعة في إطار علمي صارم . فقد اختبرت هذه الأسرة الصغيرة بعناية لتكون جزءاً من كافة تتناول البلاد كلها ، وكان اختيارها على قاعدة الحساب الذي يتبع في أخذ عينة من منطقة . وقد درب المستجوب أسابع ، واختبرت الأسئلة مقدماً . وكل موقف اتخذته العامل ، وأعرب عنه سيدون بالشفرة ، وينقل إلى بطاقات مخزومة ويمر من آلات . والاستنتاجات التي تخرجها الآلة سيستخدمها موظفون كبار من موظفي الحكومة ، لتسكون رائداً لهم في السياسة .

فإذا لم يكن هذا علماً مطبقاً على شئون بشرية فأين نجد مثل هذا العلم ؟
لكان يسعنا أن نبحث بعيداً في العلوم الاجتماعية عن حالة أكمل من هذه يُلام فيها بين الطريقة العلمية وبين دراسة العلاقات البشرية . بيد أن حالات القوة والضعف في تحرى الرأي العام يعبر عنها هذا الحديث .

نظرية أخذ العينة

لقد وضحت معظم طرق الاستفتاء ومشاكله في سلسلة من الخطوات الثماني الواردة في الفصل الأخير . وقد استطاع تأليف كتاب عن كل خطوة من هذه الخطوات . وقد ألف في ذلك بعض الكتب فعلا . فلننظر أولا في الحالات التي تدل على قوة الطريقة الفنية ؛ فإن لها حجر أساس صلبا كما أبتأ من قبل . وحجر الأساس هذا هو نظرية أخذ العينة ومباشرة ذلك .

فقد اتبع هذا الإجراء غالبا في أشياء مادية لآلاف من السنين . ومن أمثلته الأولى أخذ عينة من النبيذ لتذوقه — فقد كانت بضع رشقات من نبيذ ما كافية لتعيين نوع كرمه . ومعظمنا يستعمل طريقة العينة لنوفر على أنفسنا عملا ما ، وذلك من دون أن ندرك أننا على شفا طريقة علمية . مثال ذلك أنني لما أردت في ذات يوم أن أعرف كم كلمة كتبت في هذا الكتاب أحصيت الكلمات التي تحتويها خمس صفحات مكتوبة على الآلة الكاتبة اخترتها كيفما اتفق ، وأخذت متوسطها وضربته في عدد الصفحات . وكنت أعرف من اختبارات سابقة أن النتيجة ستكون بفرق ٢ ، أو ٣ في المائة من العدد الحقيقي للكلمات . وفي كل خريف أقدر متوسط النمو في ألف شجرة صغيرة من الشجر القائم على الغل خلف بيتي ، فأقيس بعصا طويلة طولها ياردة ، مائة شجرة متتابعة على امتداد الممر ، علما أن هذا سيمطيني رقما قريبا جدا من الغرض الذي أتوخاه .

ويظهر أن أول استخدام للعينة العلمية في الميدان الاجتماعي كان عند ما استخدم هالي الذي قابلناه في الجمعية الملكية ، إحصاءات الوفيات في برسلار سنة ١٩٣٦ . ليستخلص منها استنتاجاته عن الوفيات في نوع الإنسان — وليضع عَرَضاً أساسا لعملية التأمين . وفي سنة ١٨٠٠ قدر السير فردريك إيدن عدد السكان في إنجلترا

بتسعة ملايين ، مستخدماً طرقاً في أخذ العينة . وفي السنة التالية تأيد تقديره بالإحصاء
الفعلى الذى أحصى « الكافة » كلها . والاستيعان أو أخذ العينة يمكن تطبيقه
في كل ميدان تقريباً في العلمين الطبيعى والاجتماعى . ومن بين الطرق التى يغلب
الأخذ بها اليوم ما يلى :

معاينة البضائع والأجزاء التى تنتجها المصانع بالجملة . مثال ذلك أن لجونسون
وجونسون في مصنعهم بنيورنزيوك ٣٠٠ محطة للاستيعان .

تقدير نتاج المحاصيل — وهو ما زاوته وزارة الزراعة بتوسع .
حساب الإحصاءات الاقتصادية ، كعدد العاطلين وكالأجور والأسعار وأحوال
السكن — وبذا توفر أموال دافى الضرائب .

ارتياحات لشئون الصحة والجريمة والشباب ، وفي الحق كل نوع من أنواع
الاستطلاع الاجتماعى .

استطلاع رأى العام فيما يتعلق بالمسائل السياسية والاجتماعية .
أبحاث في السوق : للاهتمام إلى أجوبة أسئلة مثل : « ما الذى لا تحبه
في سيارات فورد ؟ » ، « ما هى عجيبة الأسنان المفضلة لديك ؟ » كذلك لقياس
مبلغ الرضا عن برامج الإذاعة .

وقد نشطت الأزمة نظرية الاستيعان وطريقته تنشيطاً هائلاً . فقد كانت
الحكومة بحاجة ملحة إلى إحصاءات للعاطلين ، والذين يتلقون إعانات ، والقابلين
للانتفاع بمساعدات الضمان الاجتماعى الخ . ولم يكن ثمت وقت لإجراء إحصاء
كامل . كذلك كان مثل هذا الإحصاء خليقاً أن يكلفها كثيراً جداً . والعينات
قد تفى بالغرض مع هامش محسوب من الغلط لا يتجاوز كسراً بسيطاً من النفقات
وجاءت الحرب فسارت بالطريقة إلى مدى أبعد ، فأخذت عينات لتقدير
ما يحتاج إليه المستهلك ، وتقرير تسهيلات السكنى ، والحالة الصحية ، والبضائع

التي تورد في أمد وجيز ، والأسعار ، وحالات الجرد عند التجار ، ورد الفعل العام لإجراءات الحرب ، وخصائص المختارين ، ومواقف الجنود ، وتأثير إلقاء القنابل على إنجلتره ، ومواقف العمال في المصانع الحربية ، والاستماع إلى الراديو ، والرقابة على الذخائر ، وأشياء كثيرة أخرى .

ومع ذلك على قول سيتمان : « مهما يكن في هذا من تقدم كبير فإنه بشير توسع عريض في الاستيعان في المستقبل . والمتنظر أيضاً أن يتم تحسن آخر في الطريقة » . وعلى ذلك فإن استفتاءات الرأي العام ليست سوى مظهر من مظاهر نمو نظرية الاستيعان وطريقة تطبيقها . ومهما يحدث للاستفتاءات فإن تطبيق الطريقة العلمية في أخذ العينة لا يمكن إلا أن يتسع كما تدل قائمة الاستعمالات السالفة الذكر .

نقط قوة ونقط ضعف علمية

فلننظر الآن إلى استفتاءات الرأي نفسها نظرة أعمق ، فأهم قوة لها هي ما تنطوي عليه نظرية الاستيعان أو أخذ العينة . وهذه الاستفتاءات ستفيد في المستقبل من تقدم تلك النظرية كلما أضاف البحث فيها معرفة جديدة إلى المخزن . ومصدر آخر من مصادر القوة هو طرق التصنيف — الشفرة ، والبطاقات المحرمة ، والآلات المعجية .

ونمت مصاعب بعينها توضح في أربع حلقات من السلسلة : (١) اختيار المسألة الأصلية (٢) صياغة السؤال (٣) الدور الذي يقوم به المستجوب (٤) تفسير النتائج .

أمثلة خلو من المعنى

أحسب الجادين من المستفتين يمكنهم أن يفيدوا من دراسة كتاب برودمان

« منطق الطبيعيات الحديثة » الذي أشرنا إليه في الفصل الثاني . ففيه يجدون تمييزاً جوهرياً بين الأسئلة ذات المعنى والأسئلة التي لا معنى لها . والسؤال الخالي من المعنى هو ما لا يمكن أن تجيب عنه عملية في العالم الطبيعي . فهو من ثم لفظي تماماً ومقرره رؤوس الناس . وسيكون عند الأفراد فكر كثيرة مختلفة عنه حتى ليكون مضيقاً للوقت أن توجهه في استفتاء . وإليك بضعة أمثلة استشهد بها برديمان وغيره :

أيجوز أن يُحد المكان ؟

أيجوز أن يكون للزمان بداية ونهاية ؟

أكان هناك زمان قبل أن توجد المادة ؟

أيمكن ألا يتواصل المكان أو الزمان ؟

هل الوراثة أهم من البيئة ؟

ما هي القيمة الاقتصادية ؟

أهناك حياة بعد الموت ؟

هل الغنى أهم من العلم ؟

هل يخلق العمل الغنى كله ؟

فهناك عشرات من هذه الأسئلة كانت تناقش منذ العصر البابوليثي من دون أن تجد الجواب — بعد على الأقل ، أو يقوم الأمل في طريقة للاهتمام إليه . ويأبى الطبيعيون أن يضيعوا وقتهم في أسئلة من هذا القبيل . وإن العلماء الاجتماعيين ليحسبون صنعاً إذا هم احتدوا في ذلك مثال الطبيعيين . وإذا نحن لم نرد سوى التسلي بجدل مثير فلا بأس بالأسئلة الخالية من المعنى . أو هي قد تنفع في تقدير نظم المعتقدات ، ولكن لحسب إذا تعمد المستفتون توجيهها . ولنأخذ مثلاً هذا السؤال الذي لا يحده زمن : هل الإنسان حر فيما يفعل

أو أن القدر هو الذي يُصَرَّف الحياة ؟ وقد سهر الإغريق الليالي مشغولين بهذا السؤال . على أنه فليتحاول أن تجد أمراً بمعنى ما يرى بردجمان لتجيب عليه . انظر تحت الفراش ، وخارجاً في الفناء ، وتحت في القبو ؛ في أى مكان تحب في العالم الطبيعي ، فإنك ستتعجب إن عاجلاً وإن آجلاً في البحث ، وتوافق على أنه لن توجد عملية ، وأن السؤال القائم عديم المعنى . ويمكن أن يساعد إنذار بردجمان العلماء الاجتماعيين على اختيار الأسئلة التي تعنى شيئاً وتوضحها كليهما . ويمكن أن يساعد علماء المعاني أيضاً في صوغها .

نقط ضعف أخرى

وحلقة ضعيفة أخرى هي عمل المستجوبين في الميدان . فعلى عتبة الباب ، وفي المطبخ ، وعلى ناصية الشارع يتصل شخصان يحقق بهما خطر دائم من تشويه الاسطوانة (التسجيل) . والزاحج أن تدريب المستجوبين سيكون في النهاية مهمة يؤديها علماء النفس الاجتماعيون .

وتمت فضلاً عن ذلك اختلاف يمكن قياسه بين المواقف العامة ، وأعني بها تلك المواقف التي يحب الناس أن يسلّموا بها ، وبين المواقف الخاصة . وقد شهدنا ذلك في الأسئلة الخاصة بالعداء للسامية في الفصل الأخير على نحو ما استشهدت به مارى يهودا . فالمستفتون يهتمون في الغالب بالردود الشفوية ، وهذه قد تكون سطحية إن لم تكن مضللة فعلاً . وهذا نقص يجردها من الصدق وإن لم ينف إمكان التعويل عليها . ذلك أنه ما دام يجب يلتزم نفس الجواب كلما سئل نفس السؤال ، عُد الجواب في العادة مما يمكن التعويل عليه ولو كان كذباً .

هذا ولم تحمل مشكلة الروغان كل الحل على الرغم من كثرة البحث وكثرة الضمانات . كما أن فهم البواعث واستيعابها ما يزال أقل وجوداً — وأعني

بالبواعث تلك الأسباب التي قد تحدد الناس إلى الإجابة كما يفعلون في حالة معينة . وكيف يمكن أن يكون الأمر بخلاف ذلك وليس ثم للبواعث البشرية في العموم نظرية تعتمد عليها ؟ وقد شجع النجاح العملي في الاستفتاءات الطلاب على محاولة إقامة نظرية سامقة عليها تعتمد على وحدة أساسية للسلوك تسمى « الموقف » . وكثيرون من علماء النفس يستقربون « بالمواقف » وهذا منهم مفهوم . فهم يريدون مزيداً كبيراً من البحث ونظرية أكثر إقناعاً .

إشارات الخطر

وهناك إلى هذه المصاعب الداخلية أو المتعلقة بالبناء أخطار من الخارج تدم الحقيق العلمي . ويحاول الأدعياء والدجالون استغلال ذلك كما هي الحال في ميادين الكسب الأخرى . وقد تنبّهت أخيراً إلى حالتين ، عرض في الأولى تاجر ذو نفوذ أن يقوم لأحد رجال الكونجرس باستفتاء يمكن أن يتيح ، كما قال ، أية نتيجة شاءها رجل الكونجرس مع نسب مثوية تصل إلى الخانة العشرية ؛ وأفاد في الثانية استفتاء عن موقف عمال أجرى حديثاً في مصنع كانت علاقات العمل فيه أسوأ ما تكون — أفاد ما يدل على أن عمال المصنع هم أسعد عمال في المدينة . وفي هذا مخالفة كبيرة للواقع . فعلى الجمعية الأمريكية لتحري الرأي العام — وهي الجمعية المشكلة حديثاً والمشملة على إخصائيين من السكليات ومن الحكومة ودوائر الأعمال — أن تعين لجنة نزيهة حازمة ، لجنة أخلاق ، تقلل من هذا النوع من الأشياء ، كما يقلل وجود الدكاترة والمهندسين وجود الأدعياء في المهن . وخطر خارجي آخر ربما كان شراً مما تقدم ، وهو إرهاب الناس بالاستفتاءات . ولست أعني بذلك إضاعة أوقات المحبيين في إجابتهم عن الأسئلة التي توجه إليهم بقدر ما أعني ملء الصحف بنسب مثوية عن هذا الموقف أو ذاك حتى يضجر

الجمهور الضجر كله من هذا العمل بمخافيره . وقد شكّا چون كروسبي في عمود الإذاعة الذي يجره في نيويورك هرا ديريون قائلاً أخيراً :
« ليس ثم صناعة يركبها الشيطان من الأرقام كالإذاعة . فأذواقنا ، وعادات استماعنا ، وعادات عدم استماعنا ، وما نحب وما نكره ، وأسباب حبنا وكرهنا ، وشدة حبنا وكرهنا ، لتقاس الآن في شراسة وضراوة ، ويقاس كل شيء فيها بلا انقطاع . فمن هذه الاستفتاءات التي لا تحصى تأتينا كتلة من الإحصاءات التي تدل على أي شيء يريد المذيع أو المعلن أن يسمع الناس . . إن التليفون يذيق للمستمعين كل نصف ساعة . وأجهزة الراديو توصل لتسجيل استماع الأمر كل بمفردها من دقيقة لدقيقة . والمستمعون يمتطون بطاقات البريد تطالبهم بنعم أو لا ولماذا . . . بينما يقترح نظام إذاعة كولومبيا أن يختبر ما نحب وما نكره بالرادار . . . إن الراديو لم يعد يسترشد بالبحث والتحري بل بات عبداً له . »

مراقبة الخطباء الشعبيين

ومع مراعاتنا المراجعة الواجبة لهذه المصاعب الداخلية والخارجية على السواء فإنه لا خفض هناك من شأن التقدم الهائل الذي تم منذ أيام « ليتبري ديجست » فإن نفس ارتفاع مجرى النمو خليف أن يصيب المزاويلين بالدوار .
إن زعيما مستولاً من زعماء الرأي لا يجرؤ الآن على التصريح برأيه في الأمر يكيين من هم ، وماذا يريدون ، وكيف يشعرون ويسلكون — لا يجرؤ على ذلك من دون أن يكون ملماً بالاستفتاءات . فنذ سنة ١٧٧٦ وقبلها بأمد طويل في الراجح ، ورجال الدولة والمحروون والسياسيون والقسس يمشون في شئون الأمريكيين وملوهم الثقة التامة . وكان يسمهم أن يشتطوا في القول كما يشاءون لأنه لم تكن ثم طريقة لضبط بياناتهم . وكل ما أمكن ناقد أن يفعله

هو الخط من قديم — والسياسى رجل صعب فى حظه من الأقدار . وأخيراً وجدت طريقة علمية لكبح جماح الجامح . فمن الآن فصاعداً على هؤلاء العباقرة اللقنين أن يعرفوا ما يتحدثون عنه أو يسكتوا .

« ... يا حضرة الرئيس ، إنى أمثل إجماع رأى لكل رجل وامرأة وحفل فى ولايتى العظيمة ... »

« تمتع جداً يا حضرة السناتور ، ولكن لماذا يظهر هذا الاستفتاء أن أربعة عشر فى المائة فقط من البالغين فى ولايتك العظيمة يوافقونك ، وأن عشرة فى المائة لا رأى لهم إطلاقاً ؟ »

ما أحلى هذه النغمة فى أذن من يحب الحقائق ولا يأمن الخطباء الشعبيين والتوكيدات اليقينية !

مواقف العمال

وتطبيق جديد هام لتحرى رأى ، وهو ما أثبت فى الفصل الرابع عشر ، هو استفتاء الناس فى المصانع لتعرف رأيهم فى سياسة الشركات وفى الأوسطوات والإدارة وأعمالهم . وقد استمددت من استطلاعات روبر معونة لا تقدر عندما كنت أدرس علاقات العمل فى ستاندرد أويل كمبانى فى نيوجرسى . وتصور قصة من القصص القيمة تصويراً حسناً . فقد كان المستر روبر يوضح فكرة الاستفتاء لاجتماع للاتحاد ، فكان العمال يلزمون الصمت ، ثم لم يلبث أن نهض موظف فى الاتحاد على قدميه فى بطاء وقال :

« إنى أؤيدها ؛ فهى فكرة حسنة ، وإليك السبب . إنى أنبئ الإدارة بما يريد العمال . يريدون هذا ويريدون ذاك ، وأضرب للمائدة بيدي . فيقول بيل (الملاحظ) لا ، إن هذا ما لا يريد العمال . إنهم يريدون ذاك ويريدون

كيت ، ويضرب المائدة بيده . وليس منا أحد يعرف شيئا مما عما يريد .
حقا . فانا مع المسترور في وجوب تعرف ذلك .
والاستفتاءات الخاصة بمواقف العمال إذا أجريت بعناية يمكن أن تكون
عظيمة القيمة في إيجاد الاتصال وتشجيع الطريقة الجديدة بحذافيرها في تناول
مشاكل العمال والإدارة .

استفتاءات الحرب

لقد نظم صمويل ستوفر ، وهو الآن مدير « معمل » العلاقات الاجتماعية
في هارفارد ، كثيراً من استفتاءات الجيش خلال الحرب . وقد دخل معمله عشرة
ملايين من طلبة البحرية . وكانت الجنود تستفتي سراً وتكراراً ، وتسأل عما تراه
في طعامها ، وجهازها ، وبذلاتها ، والترفيه المتاح لها ، وطرق الترقية في الجيش ،
وعيوب القيادة ، وأساليب الدربة ، وما يعتزمون بعد الحرب من خطط . وقد قرر
الجنود أنفسهم ، عن طريق الاستفتاء ، نظام التعويض عند الاستفتاء . فلم يقل
حظ هذا النظام بعد ذلك قط عن ٧٠ في المائة من موافقة التأمين الحكومي .
وقد سار ذلك النظام على ما يرام حتى أن البحرية أخذت به .

لقد كان الجيش يعرف مقدماً ، مع هامش لا يتجاوز ثلاثة في المائة ، كم مستحقاً
سينتفع بحقوق التأمين الحكومي قبل ميعاد الاستحقاق بسنتين . فانظر مبلغ
ما وفرتة الحكومة بمعرفتها سلفاً ما تدبره في هذا الأمر الهائل . وقد كشف
رئيسيس ليكر باستفتاء أنه إذا سهلت الخزانة للناس استهلاك سندات الحرب
ازداد ما يشتري منها وظلت سندات أخرى من المعفاة من الضرائب مشتراة . وقد
كان هذا الرأي يناقض بعض الآراء الإيجابية في بعض الدوائر المالية العالية ، بيد أن
الخزانة وثقت بالاستفتاء ، وأجرت التغيير ، وحصلت على النتائج التي تنبأ لها بها .

وقد لبث مكتب التسعير ومجلس الإنتاج الحربى على اتصال وثيق بالجمهور باستطلاع رأى مراراً وتكراراً . فعند ما كان استفتاء يبدى ارتكاساً عاماً سيئاً لمكتب التسعير فى أية مدينة كانت رسل الصلح توفد على عجل إلى المكان قبل أن يتفاقم الخلاف ، فتغير التسعيرة أحياناً ، وتفسر ضرورتها أحياناً أخرى تفسيراً أحسن من ذى قبل ، فأى مستقبل للعلاقات العامة يساعد هذا على إعداده .

وأظهر استفتاء فى يونيو ١٩٤٦ أن ٧٨ فى المائة من الأمريكيين أرادوا أن يستمر مكتب التسعير مدة أطول ، وكان المفروض أنهم كانوا يخشون التضخم من دونه . ومع ذلك فقد قتل الكونجرس هذا المكتب بزعم أن المزاومة ستعود بعد طول سبابتها فتتخفف الأسعار . فثبت أن الكونجرس كان مخطئاً وأن الناس كانوا مصيبين .

العمل البارز

ولعله من شأن ذلك أن يظهرنا على العمل البارز الذى أدته الاستفتاءات ، فقد أثبتت بالبرهان الإحصائى القوى حكمة الناس ، وأنصفت بذلك الديمقراطية السياسية من زاوية علمية تقابلها زاوية أخلاقية محضة . فأظهر الزمن وأظهرت الاستفتاءات ثمانية أن غالبية الناس مستعدون لأن يستبقوا مع زعمائهم فى اتخاذ القرارات ويسبقوا الكونجرس بعدة سنوات . وقد كتب وليم إيدجيت من منظمة جالوب كتاباً كاملاً عنوانه « ماذا يرى شعبنا » حافلاً بأدلة ذلك . وأول فصول هذا الكتاب معنون بكلمة كارل ساندبورج : « الشعب ، أجل » . وهو يستشهد بأصوات الاستفتاء فى التسليح ، وزيادة ضرائب الدفاع ، والسحب ، ومراقبة الأسعار والأجور ، ونظام البطاقات ، وقانون لمكافحة الإضراب — كل

هذا وافق عليه الشعب قبل أن يوافق الكونجرس . وفي مارس ١٩٤٠ بعد دخول الفرق المدرعة بولونيا بستة أشهر سأل الجيش الكونجرس مالا لبناء ١٣٠٠ طائرة مقاتلة ، فاعتمد الكونجرس المال لإنشاء ٥٩ مقاتلة فقط . ومع ذلك فإن الأمريكيين كانوا يصوتون بنسبة ٩ إلى واحد في مصلحة قوة جوية أكبر .

والناس على التحقيق ليسوا دائماً على صواب إذا حكمنا بما يلي من الحوادث ؛ لكن مستر ليدجيت يرى أن الشعب يحس الواقع خيراً مما يحسه أولئك الذين انتخبهم لتمثيله . وسرعان ما تملك الشعب الحيرة إذا انقلبت المسائل التي يراد منه معالجتها ، فنية محضة . ولكنه إذا عرضت عليه سياسات عريضة ، فإن الاستفتاء يؤيد ذلك التحذير العميق الذي وجهه المرحوم ريموند كلابر وهو : « لا تقل في تقدير معرفة الشعب ، ولا تستهن بذلك ! »

نظرة إلى المستقبل

إن قياس الرأي العام في المسائل السياسية ينفع فحسب في جماعة لا يخشى أناسها الإعراب عن آرائهم . أما في البلدان التي تسود فيها اشتراكية الدولة فلا قيمة له في معظم مسائل السياسة . ففي بلد ديمقراطي يمكن الطريقة أن تبقى خط الاتصال ممتدا بين المواطنين والحكومة خيراً مما تبقى رسائل موجهة إلى الكونجرس ، وأحسن كثيراً مما تبقى جماعات الضغط .

وقد زعمت بطبيعة الحال الغالبية الجمهورية في الكونجرس بعد انتخابات نوفمبر ١٩٤٦ أنها موكلة عن الشعب . وهكذا شرعت في إعداد مشاريع قوانين مختلفة تتناول الضرائب والعمل والاقتصاد الحكومي الخ . وأثارت على الأثر صفاً كاملاً من أوكار الزنابير ، وزادت في شعبية الرئيس ترومان . وواضح أن الكونجرس لم يكن حاصلًا على نوع التوكيل الذي ظن أنه حاز عليه .

وكان من الممكن أن يعلم رجال الكونجرس من سلسلة من الاستفتاءات المسئولة أنهم حائزون في الواقع لهذا التوكيل . ولم يكن من الضروري أن تحمل مثل هذه المعلومات رجال الكونجرس على اتباع المطالب الشعبية ، بل كان يمكن أن تدعهم يعملون في النور بدلا من الظلام . ويجب للمورور أن يرى الاستفتاءات تجريها الحكومة نفسها بانتظام ، وتكلف بها رجالا تعادل نزاهتهم نزاهة قضاة المحاكم العليا .

ويذهب جورج لندبرج في هذا إلى حده المنطقي ، فيقول عن « هل يستطيع العلم انقاذنا » ، « إنه بوساطة استفتاءات يتعرف فيها الرأي العام وتدار إدارة مثلى يستطيع الموظفون العامون الذين هذه مهنتهم أن يببدوا الجدارة التي يزعمها المديرون المركزيون ذوو السلطة ، ثم يخضعوا الإدارة مع ذلك وفي كل وقت لما يمليه بارومتر من إرادة الشعب هو أدق مما يزودنا به جميع ما بطل فنيا من جهاز العمليات الديمقراطية التقليدية . »

لقد أخذ الدكتور لندبرج يباشر ما يعظ به بإقامة معمل للرأي العام في جامعة واشنطن لا ستطلاع شعب الولاية في مسائل كمشروع مارشال ، والأشخاص المقالين ، والخدمة العسكرية العامة ، وضريبة المبيعات ، ومد المعونة الحكومية إلى العناية الطبية ، والزيت أو الزبد ، والسكن ، وتكاليف المعيشة ، وما تفضله في الإذاعة الخ . فالآن يدرّب سبعون مستجوبا ؛ والمتنظر أن يحصل عدد من الطلبة الخريجين على دكتورات في الفلسفة فيما يتصل بهذا المنهاج . وقد جاء في الإعلان الصادر في أوائل سنة ١٩٤٨ : « إن معمل الرأي العام سيبحث في قوانين علمية وعن مبادئ فعالة في العلاقات البشرية . »

إن هنا ميدانا عرضاً هاماً للبحث فيما يتصل بالرأي العام في المستقبل ، وذلك أن يجمع بين الزعماء والأتباع بإنشاء خطوط أحسن للاتصال . ويمكن أن توجد

ميادين أخرى مغرية في المدن الصغيرة ومراكز المدارس والمصانع والمناطق الريفية — لتعريف مديري المصانع ومخططي المدن وقادة المراكز بما يضايق الأهالي المحليين وما يريدونه حقاً . ولا حد لمستقبل الإجراء الفني في هذا الميدان .

ويبدى سمويل ستوفر هذه النقطة الهامة فيقول : « إن الاستفتاءات قد تحمل الحقائق محل الأساطير حين يبحث الناس المسائل السياسية القائمة في الصحف والإذاعة وحانوت الخلاق . فنحن مشغولون بالعالم الاجتماعي ، مطالبون بتحسين الأدوات على الدوام ، وبوصفنا مواطنين ، مطالبون في الحكومة وخارجها بأن نراعى أن تستخدم هذه الأدوات القوية بحكمة . . . فليس ثم نكوص . »

تذييل

في انتخابات رئاسة الولايات المتحدة التي جرت في سنة ١٩٤٨ تنبأ الخبراء المراجعون للاقتراع في ثقة — تنبأوا بنصر ساحق للحاكم ديوي . وقد نجح المستر ترومان — كما يعلم كل امرئ الآن — بأغلبية عادية . فهل تلقى هذه النتيجة ظلاً من الشك على الاستنتاجات المستخلصة من الفصلين المتقدمين ؟ من الواضح أن الاستفتاء الانتخابي ليس مضبوطاً ، فهل يعني تنبؤ سنة ١٩٤٨ الخطأ انهيار نظم الاقتراع الحالية كما سبب التنبؤ الخطأ في سنة ١٩٣٦ سقوط « ليتيرري ديچست » ؟ هل يعني ، كما يعلن بعض النقاد ، أن نظرية الاستعيان (أخذ العينة) نفسها مشكوك فيها ، وأن العلم لا يمكن أبداً أن يطبق على الشؤون البشرية ؟ كلا بالتمام ، فإن غلطة واحدة أو مائة غلطة لا يمكن أن تطعن في الطريقة العلمية . والنقطة المهمة هي ما الذي اتخذ لتصحيح الخطأ . إن أخطاء انتخابات سنة ١٩٤٨ هذه قد تلاها فيض من التحليل بلغ من شأنه أنه بات من الحتم زيادة الدقة العلمية . وكما قال مسندت : « إن هذا سيؤخر على خمس سنوات وسيقدم علم تجري

الرأى العام خمس سنوات » وقد عين مجلس أبحاث العلم الاجتماعى لجنة خاصة لإعادة النظر فى الأرقام .

إن سبباً واحداً فحسب لا يمكن أن يفسر فشلاً شنيعاً . ومن بين هذه الأسباب التى عينت ، بعض نقط الضعف التى أسلفنا الإشارة إليها مثل تناول ردود « لأعراف » وتدريب المستجوبين . فعظم النقد متفقون على أن العينات كانت دقيقة خالية من الغموض ، وكان يمكن أن تنبأ تنبؤاً صحيحاً بالنتائج إذا كان كل الناخبين ذهبوا إلى صناديق الاقتراع فى نفس اليوم . ولو أنه صيغت أسئلة لتسجيل كثرة ما يؤثره الناخبون ، فلربما كانت الردود جاءت نذيرة . فإن المشاعر القوية التى ألهمها المستروروزفلت — له وعليه — جنحت إلى جعل النتائج الأولى فى سنى ١٩٣٦ و ١٩٤٠ و ١٩٤٤ مما يعول عليه أكثر من غيره بكثير . أما فى سنة ١٩٤٨ فإن المصوتين غيروا رأيهم على نطاق لم يعرف من قبل .

إن الاستيعان ما يزال علماً يتضمن استيعان الرأى . واستفتاءات الرئاسة إذا جرت بحسن الآلت نشر . وإنى أكرر أن أهميتها الاجتماعية تشبه أهمية سباق الخيل . وقد تقدمت نظرية الاحتمال شقة بعيدة عن تكهنات باسكال وفرمات ؛ وما يزال يعلق على الاستفتاء أن يذهب إلى ما وراء التنبؤ بنتائج الانتخابات بعيداً .

١٧ - هل الإقتصاد علم ؟

إن زعماء الكونجرس الجمهوريين يعدون العدة للسبق بخطتهم في تخفيض الضرائب . بيد أن رجال الاقتصاد غير متفقين على هذا التخفيض ، أيجر التضخم أم يحدث العكس . إن هؤلاء الناس يهبطون بالمسألة كلها إلى علم غير مضبوط . وإني كرجل كثير أن أسمي اقتصادياً ، أعترف بأن ضحكي من طرفة هوارد بريكر في « نيويوركر » مفتصب بعض الشيء . فإن « علمنا » محصن بالكثير من النظريات المحصلة ، والكثير من الرسوم البيانية التي تحدث تأثيرها في النفس ، وبعض من أشد الحسابات تدميراً مما أمكن أن يشاهد في البر والبحر ، لكنه طال ما ثبت عدم إمكان التعويل عليه في التنبؤ ، وهو آخر اختبار للعلم .

وقد ألف جورج سول مرة كتاباً يسمى « فن الاقتصاديات النافع » ، لكنه من الجائز أن يتساءل المرء - وكثير من هم المتسائلون - ما مبالغ نفع طائفة من المبادئ تقول إن أشياء بعينها ترتفع فتنخفض ، وأن من المؤكد أن تنخفض فترتفع في الحال .

وسنتناول في هذا الفصل والذي يليه ، أغلب ما نتناول ، العلم الاجتماعي رقم ٢ مع نظريات وفروض وافتراضات ثبت أنها حركت إلى حد هائل وأنارت اهتمام الناس قرناً ونصف قرن ؛ بيد أنه كان يعوزها غالباً أن تحقق تحقيقاً كافياً . وسنورد سبباً من الأسباب التي لعله من أجلها لا يمكن أبداً تحقيق بعض من أعم النظريات .

خمس عشرة تنبؤاً

١٩٢٥ - ١٩٤٧

هـب أننا ، لنصور نقص الكثير من التفكير الاقتصادي ، التيقظنا ، كيفها

اتفق ، بعض التنبؤات الموثوق بها في السنوات الأخيرة . وإنه ليتمكن لسوء الحظ أن نضيف إلى ذلك حالات أخرى كثيرة على أهون سبيل .

١ — عادت بريطانيا إلى قاعدة الذهب في سنة ١٩٢٥ عقب الحرب العالمية الأولى مستجيبة في هذا الإجراء لحث كبار المصرفيين والخبراء الماليين والاقتصاديين ، وهو حث كاد أن يكون عاماً . فقد كانوا واثقين من أن هذه العودة إلى قاعدة الذهب ستعيد مركزها الاقتصادي في العالم سيرته الأولى ؛ غير أنها لم تحدث شيئاً من ذلك . وبعد ست سنوات من المصاعب المالية التي كانت تتزايد على الدوام عدلت بريطانيا في سنة ١٩٣١ عن قاعدة الذهب إلى الأبد في الراجع .

٢ — لما ارتأت روسيا في سنة ١٩٢٧ أول مشروع لها من مشاريع السنوات الخمس سخر منها خبراء لندن وباريس ونيويورك ، إذ قالوا إن روسيا مفلسة ، فمن أين تجمع ٦٠ بليون روبل لتمول بها مشاريع رأسمالية ؟ من أين تأتي بالمال ؟ وبعد نهاية السنوات الخمس كانت هنالك المصانع ، والخزانات المولدة للقوة ، والسكك الحديدية ، وأبراج الإرسال ، والمدارس ، ومستحدثات السكنى ، ومصانع الفولاذ — قائمة جوهرية ثابتة . فمن أين جاء المال ؟

٣ — وفي سنة ١٩٢٨ لم يكن في الولايات المتحدة ستة من رجال الاقتصاد يرون الأزمة البادية ، بل إن الكثيرين على العكس من ذلك كانوا بسبيل الاعتقاد بأن دورة العمل قد سلت ، وأن الناس بلغوا مستوى ثابتاً من الرخاء .

٤ — بعد تداعى سوق القرايطس المالية في سنة ١٩٢٩ كان من يسلمون بأن هذا أكثر من تحول بسيط وتحول سليم ، لا يعدون بضعة خبراء ماليين . وقد أكد لنا أن الرخاء قاب قوسين أو أدنى .

٥ — في سنة ١٩٣٥ أعلن مالى واقتصادى ملحوظ أنه ما لم توازن ميزانية الاتحاد على عجل فسيهدد الأمة بالخراب تضخم هائل . وإنى لأذكر ذلك جيداً

لأنى ناقشت هذا المالى الاقتصادى فى الموضوع أمام جمهور محافظ فى نيويورك .
وقد تغلب على من دون مجهود لكن الحوادث عجزت عن تأييده . فإن الميزانية
لم توازن ، ولم يقع أبداً التضخم الذى تنبأ به .

٦ — لما ارتأى هتلر تسليح ألمانيا تعالت الصيحة من السلطات العليا بأن
ألمانيا مفلسة ، وأنها لا تستطيع أن تدفع حتى التعويضات ؛ وهتلر لا يملك ذهباً
أو عملة أجنبية ؛ فمن أين يأتى بالمال ؟ وقد كان أسهل على الناس أن يقتفسوا وهم
يتصورون هتلر مفلساً ، بالى الأعمال .

٧ — قال اقتصادى كبير فى سنة ١٩٣٧ — وقد استشهد به بيردزلى
رَمَل — إنه مالم توازن مصروفات الاتحاد بالإيرادات فإن معدل الفائدة سيرتفع
من ٦ إلى ٨ فى المائة . فاستمر العجز كما كان من قبل ، واستمر معدل الفائدة
على حاله .

٨ — فى سنة ١٩٤٠ أ كد الخبراء أنه مع دين اتحادى يبلغ مبالغ مرئحة
مكونة من ١١½ بليون جنيه سيكون من المتعذر جداً إن لم يكن من المحال تمويل
برنامج للدفاع والتسلح . فثبت على العكس من ذلك أن هذا سهل إلى درجة
مدهشة . وحقاً إنه فى سنة ١٩٤٠ لم يكن فى البلاد اقتصادى واحد — ومؤلف
هذا الكتاب ضمناً — يجرؤ على الاعتقاد بأن سمعة الولايات المتحدة يمكن أن
تنهض بدين قدره سبعون بليوناً من الجنيهات ولا تزول .

٩ — لما دخلنا الحرب ناشد الاقتصاديون الأمة بشدة أن تختار بين المدافع
والزبد ، لأننا لم نكن نستطيع الحصول على الاثنين . لكننا حصلنا على كليهما —
على أقوى تشكيلة من المدافع فى تاريخ البشر ، وعلى كمية من بضائع الاستهلاك
أعظم قليلاً مما كانت قبل الحرب ، وإن كانت وزعت بين السكان توزيعاً مختلفاً .
١٠ — وفى خريف سنة ١٩٤١ أ كد لنا فيض من المقالات وتقارير

الصعيف أن اليابان ليست خطرا حقيقيا لأن سنوات الحرب الطويلة في الصين استنفدت مواردها ، ولأنه لم يكن لديها ذهب ، ولا هي كانت من الناحية الاقتصادية سوى صدقة جوفاء . وحدثت مفاجأة بيرل هاربور وهذه الأقوال على أشدها . وعندئذ بها إضبارة تصلح لمخفف من المتاحف .

١١ — وفي سنة ١٩٤٣ قدر مكتب إحصاءات العمل أنه سيكون هنالك من ٧ إلى ١٢ مليون عاطل بعد يوم النصر بستة أشهر ، فثبت أن الرقم الفعلي في مارس ١٩٤٦ كان ٢٠٠٠.٧١٠.٢٠٠ ؛ فلم تتجاوز البطالة أثناء التحول ثلاثة ملايين (محسوبة بهذه المناسبة بطريقة الاستيعان المنطقي [نسبة إلى منطقة]) .

١٢ — في أوائل الحرب كان الاقتصاديون يرزحون تحت كابوس مما أسموه ، متشائمين ، بالثغرة التضخمية . غير أن هذه الثغرة لم تحدث — لم توجد على الأقل بصورة تنذر بالويل . ولم ينفق المواطنون أموالهم بالطريقة التي توقعت النظرية الاقتصادية أن يفقوها بها .

١٣ — عارض كثير من الاقتصاديين أية خطة لفرض رقابة عامة على الأسعار في أوائل الحرب ، إذ كان الاعتقاد أن مثل هذه الخطة لن تنجح ، بل تجعل حالة الأسعار أسوأ مما هي إذا هي أنتجت شيئا . وكما قال جاك . جالبريث : « إن البيدا جوجيا القياسية قد أدت هذا الاستنتاج حرفيا مدى أجيال » . ومع ذلك فقد أنشئ مكتب التسعير ، ونجحت إدارته نجاحا مدهشا ، مبقية معظم الأسعار في حدود ضيقة خلال فترة الحرب .

١٤ — في ربيع سنة ١٩٤٧ كان معظم الخبراء يرون أن التضخم بلغ منتهاه . وأظهر استطلاع معروف أجرى في دوائر العمل أن الدلائل متوفرة على أنه ستكون هنالك ردّة في الأعمال ، وأن هذه الردّة ستضرب ضربتها في الصيف الفائت .

وجاء أغسطس وسبتمبر الذهبي وكل الخطوط تواصل ارتفاعها القوى إلى طبقات الجو العليا .

١٥ — في الثالث من يولييه ١٩٤٦ والكونجرس يلغى مكتب التسعير في حماس ، نشرت الجمعية القومية لأصحاب المصانع إعلانات على صفحات كاملة عنوانها :

الثقة في المستقبل

جاء فيها : « إذا استمر إلغاء الرقابة على الأسعار فسيرتفع إنتاج البضائع سريعا ، وتعدل الأسعار عاجلا بالمزاحة الحرة فتنزل إلى المستوى الذي يرغب المستهلكون في الدفع عنده ... ذلك أنه ما دامت مجلة الإنتاج تعود إلى الدوران فإن العرض يلتقي بالطلب ... وسوف تكون الأسعار معتدلة معقولة للجميع . »

بيد أن أسعار معظم البضائع ظلت على الأقل عشرين شهرا بعد هذا الإعلان ترتفع . ولم يفسر لنا الاقتصاديون الذين استخدمتهم الجمعية القومية لأصحاب المصانع ماحدث لقوة المزاحة الحرة في موازنة الأسعار — تفسيراً مرضياً قط .

إن خبراء الأعمال ، وخبراء الحكومة ، وخبراء العمال ، وكبار المصرفيين ، والخبراء الماليين ، وأساتذة الكليات ، والمحررين ، ومؤلف هذا الكتاب — كل أولئك خانهم التوفيق بفروق في الحساب مزعجة كل الإزعاج . فإذا هنالك ؟ إن أى فرع آخر من فروع العلوم الاجتماعية التي نعالجها ليس له مثل هذا السجل . حسبنا أن نستعرضه فلا يعود يدهش أحداً أن يظن رجل الشارع في نفسه أنه اقتصادى كلى أستاذ .

النظريات الجوفاء

لا بد أن يكون ثمت سبب لهذه الأخطاء الجسيمة تصدر عن علماء جادين أذكياء . وقد أبديت إيضاحات مختلفة من أبناء هذه الطائفة ومن الخارجين عنها

على السواء . فقد وضعت « إيكونومست » الهندية إصبعها على مصدر من مصادر هذه المتعبئة . والأيكونومست بوصفها أكبر صحيفة اقتصادية في العالم تتكلم عن علم :

« إن الاقتصاد علم غريب إذا صح أن يكون علماً على الإطلاق . فالحق الذي ينقب في عموميات الكتاب المدرسي في العلوم الطبيعية يجد في أساسها مجموعة من الحقائق الواقعة روجعت بتجارب مضبوطة ، وعرفت بما يمكن أن يوجه الذكاء البشرى الأشياء به من دقة . والحق الذي يفعل ذلك في الاقتصاد مخترقا سقار الدخان الذي تنشره مجارى التحول والرموز الرياضية ، لن يجد حقائق بل مجموعة من الافتراضات النفسية الأولية ، روجعت ، إذا كانت روجعت على الإطلاق ، بالحس المشترك الفج . وسيجد معظمها خطأ كما هو حال معظم الافتراضات التي من هذا النوع ... فعدم وجود قاعدة واقعية هو الذي جر هذه الحالة ، وبينما يزعمون دائماً أن الجيش يكسب دائماً الحرب الأخيرة ، يشغل الاقتصاديون بصورة لا تتغير تقريباً للتغلب على الأزمة الأخيرة . وخصيصة العلم الأصيل هو أن مزاوليه . . يستطيعون أن يقولوا للرجل العملي ما يتوقع في الناصية التالية . وقد يفعل الاقتصاديون ذلك أحياناً ، لكن عليهم ، كما يفعل هؤلاء أو بأقل مما يفعلون ، أن يترثوا في صوغ نظريتهم حتى يعرج الرجل العملي نفسه على الناصية ... »

وقد كانت هنالك تنبؤات صحيحة أيضاً . إذ أحرز روجر بابسن شهرة عجيبة بالتنبؤ بأزمة سنة ١٩٢٩ العظيمة في رسالته التي كانت مطلوبة منه ، وذلك قبل أن تحدث الأزمة ببضعة أسابيع . لكن لاحظ أنه لو كان الاقتصاد علماً لكانت غالبية المهنة راجعت تقاريراته ووافقته ، بدلاً من أن تكون عملياً مشغولة برجل آخر في الجانب الآخر من السياج .

وكما هو الحال الآن تنشق زمرة في مذهب آخر لإخفاقه في تحقيق تنبؤ له .

فلقد هلك خصوم كينز لما ظهر أن تنبؤ مكتب إحصاء العمل عن البطالة بعيد عن الصواب كما توقع هؤلاء الخصوم . أما رجل الشارع فقد نظر إلى هذا بوصفه دلالة أخرى على أن الاقتصاديين جميعاً لا يمكن التعويل على كلامهم . والعلماء الحقيقيون يفخرون بدربتهم ، ويتولاهم الهم ، إذا خابت لهم تنبؤات معنى بها . وهل تقصور على سبيل المثال جماعة من الفلاسفة يفركون أيديهم غبطة ، ويقولون : « بديع ، إن مذهب هالي لم يدر الدورة التي قدرها له ! »

فروض مزعومة

من أول ما يلاحظ عن النظرية الاقتصادية أنه يسيطر عليها مدرستان تناقض إحداها الأخرى . فمدرسة ترك الأمور وشأنها ترى بين ما ترى أن الحكومة يجب أن تكون عملياً بمنأى عن كل شيء ، بينما ترى مدرسة كارل ماركس أنه ينبغي عليها أن تتدخل عملياً في كل شيء . ويفضل معظم الاقتصاديين الأمريكيين المدرسة الأولى ، ويفضل الأخيرة كثير من الاقتصاديين الأوربيين . وتشكون المدارس أو المذاهب في العلوم الطبيعية أيضاً خلال مرحلة الفروض . لكنه حين تقوم الحقائق يتحدد تلاميذ هذه المدارس . ولا بد من اتحادهم إذا كانوا سيكونون من المشغولين بالعلم .

وقد صاغ إلتون مايو بعض « الافتراضات النفسية » الأولية التي تشكو منها الأيكونومست ، في كتابه « المشاكل الاجتماعية في مدنية صناعية » . وهو يجد ثلاثة من هذه الافتراضات في قرار الاقتصاد الكلاسيكي — وهو المذهب الذي لقناه أنت وأنا في المدرسة . والافتراض الأول يسند الماركسية ، وهو ما يثير الاهتمام .

١ — إن المجتمعات البشرية تحكمها « قوانين طبيعية » لا يمكن أن يغيرها

الإنسان . (فالجبرية الاقتصادية التي يقول بها الماركسيون هي أيضا افتراض لقانون طبيعي) .

٢ — إذا سعى فرد إلى خدمة مصلحته الاقتصادية وحدها فإن انسجاماً أنتمى يتقرر ويكون من شأنه أن يلغى الأناية الظاهرة ويطابق القانون الطبيعي ، ويعمل إلى أقصى حد في الإنتاج والثروة .

٣ — إن تدخل الحكومة وخيم العاقبة لهذا التوازن للنسجم ، فيجب أن يكون هذا التدخل أقل ما يكون ، وإلى الحد اللازم لحفظ القانون والنظام .

وأحد الرجال المسؤولين عن هذا المذهب هو ديفيد ريكاردو ، فهو ، وقد تدرب على أعمال السمسرة في لندن ، لم يجمع حقائق كثيرة عن الإنتاج والتوزيع الفعلي ليسير على هديها . بيد أن عقله القوي أقام بنيانا منطقيا رائعا اصطلاح على تسميته : دع الأمور تجري . ويقول مايو إن هذه الفلسفة لم تحقق ، غير أن الطلبة ظلوا قرنا ونيفا يدربون على أقيستها المنطقية في جامعات العالم الغربي . بل إنه لينتظر منهم أن يدبروا أعمالهم على مقتضاها .

ويعلم الدكتور مايو من مركزه في مدرسة تجارة هارفارد أن من المحال التوفيق بين ريكاردو وبين مشاكل عملية في إدارات الأعمال وعلاقات المال والإدارة . وهو يستشهد بتشستر ايد . بارنارد رئيس شركة تليفونات نيويورك الذي شكى من بضع سنوات مضت من أنه لم يستطع أن يجد في كل ما كتب عن الاقتصاد رسالة تتناول نظام العمل الذي كان عليه أن يباشره كل يوم . وقد كان على مستر بارنارد أخيرا أن يكتب هو كتابه حول الموضوع وهو ما أسماه « وظائف الهيئة التنفيذية » . وأسوأ من ذلك ، على قول مستر بارنارد أن الاقتصاديين عاجزون عن تبين الأهمية النهائية للمنظمة بوصفها المظهر الإنساني الرئيسي للمجتمع نفسه . ومعنى ذلك أن رجل الأعمال يفعل شيئا للعالم الحقيقي المفروض أن الاقتصاديين يترجمون عنه ، لكنهم في الغالب غير شاعرين به .

فروض الغوغاء

يلاحظ مايو أن المجتمع كما تتمثله مدرسة «دع الأمور تجري» يتألف من أفراد غير منظمين يتصرفون بكيفية مقدر لها منطقياً أن تخدم مصلحة كل منهم الذاتية، وبكيميا غريبة مع ذلك من قبيل عملية «تحويل النحاس إلى ذهب» تسمى «القانون الطبيعي» تضمن الانسجام بين الجميع. ولم يكشف علماء الإنسان شيئاً مماثل هذه الحالة. واقتصاديات ريكاردو هي «دراسة السلوك البشري في حالات غير عادية، أو على التقيض من ذلك دراسة سلوك غير عادي في أحوال عادية» وعدد من لا يصدر من الناس إلا عن مصلحته الذاتية قليل جداً. فلنلاحظ من جديد هؤلاء الرجال الأربعة عشر الذين كانوا يعملون في غرفة «التسليك» في هورن. ويجد مايو في عمله الاكلينيكي الجلم خلال فترة تربي على ثلاثين سنة، أن الخلوقات البشرية لا تستبد بها المصلحة الذاتية إلا حين يخذلها المجتمع. ولا يذكر لينتون في هذه الأثناء «قانوناً طبيعياً» ولا يروي عن «الاقتصادى الأثير» إلا بوصفه نمطاً شاذاً.

فأراء ريكاردو بالإيجاز تعارض الفكرة الحضارية على نحو ما بسطنا من قبل حيث لا نجد الإنسان وحدة ذرية في مجموع بشرى أو غوغاء، بل نجده عضواً مكملاً — أو نجده مستميتاً في أن يكون عضواً مكملاً لعصابة أو جماعة أو مجتمع تربطهم جميعاً نماذج حضارية منذ القدم. وقد يعذر ريكاردو، لأن مورجان لم يقم بدراسته الأولى لعادات سينيكاً إلا بعد أن دونت مبادئ الاقتصاد السياسى وفرض الضرائب. وأصعب أمراً أن نوضح لماذا استمر أتباع ريكاردو يتجاهلون علم الإنسان الحضارى، وعلم النفس الاجتماعى إلى يومنا هذا؛ فذهبهم من المذاهب الخجومة التى تغلق على نفسها الأبواب.

الاقتصاديون يؤيدون مايو

إن مايو عالم من علماء النفس في الشؤون الصناعية . لكن الكثيرين من رجال الاقتصاد يتفقون معه . وقد توقعه ويزلى س . ميتشل من عهد يرجع إلى سنة ١٩١٤ — ولعله الآن أبرز اقتصادى أمريكى — توقع مايو بتوكيده الحاجة إلى الالتفات إلى العلوم الاجتماعية الأخرى . فقد قال في « كوارترلى جورنال » إن الاقتصاديين نسبوا « ضمناً إلى الناس الذين كانوا يحللون سلوكهم خواص بعينها تنفق والحس المشترك ، وتلائم النظر ، وخاصة وضع المبدأ المؤلم السار ... » في تلك الأثناء أهمل علم النفس مذهب المتعة كمبدأ يسيطر على سلوك البشر . وهو مذهب تقوم اقتصاديات كل من ريكاردو وجيفوز مستعرضة عليه . ومع ذلك فإنه لما هدم علماء النفس مذهب المتعة أكان الاقتصاديون عدلوا نظريات ريكاردو ؟ قال الدكتور متشل إنهم لم يكونوا عدلوا . وقد نوه بأن علم النفس لا يعنى الاقتصادى . « وبذا يقال إن الاقتصاد يقوم على حقائق الاختيار البسيطة ، وإن التفسير السيكولوجى مسألة لا يكثر لها علماً . »

هذا الاستبعاد اللطيف يجعل النظرية الاقتصادية القديمة من التطهر والتخفف بحيث لا يصبح للطبيعة البشرية محل فيها . وقد نادى ميتشل بإعادة الطبيعة البشرية كقاعدة للرأى الاقتصادى . وقال إنه عندئذ فقط « يكف الاقتصاد عن أن يكون نظاماً من النطق المالى ، ودراسة آلية لتعادلات متوازنة في أحوال غير قائمة ، ويصبح علماً لسلوك البشرى » . وكان هذا موقفاً جريئاً يتخذ اقتصادى في سنة ١٩١٤ ، لكن كل شئ حدث في السنوات التالية كان من شأنه أن يقويه .

مشاحنات بين المكاتب

يتناول إدوارد هـ. تشمبرلين في عدد مايو ١٩٤٦ من «أمريكان أيكونوميك ريفيو» صحيفة لأستاذ زميل تبحث في نفس الموضوع :

« بحث الأستاذ نيت ووجد ووصف قوانين النظرية الاقتصادية « الخالدة الثابتة » . ومع ذلك فالنتيجة شيء يمكن أن يوصف أدق من هذا بأنه موجز من نظامه الخاص في الاقتصاد يشمل معظم تحاملاته المعروفة أحسن مما يعرف نظامه ... كم من الناس يوافقون على أن « النظرية الخالصة يجب بلا أدنى ريب أن تبعد المال الحقيقي كل الإبعاد ؟ » ولاحظ السبب — إنها تتعارض مع « القول بمعرفة سابقة خالية من الإبهام » . ورد الفعل الذي يحدثه هذا عندي هو أنه إذا كان مثل هذا القول يقضى ، من أجل النظرية ، إلى مثل هذا البعد الكارثي عن الحقيقة بحيث يسمح المال من الصورة ، فهذا وقت النخلص من هذا القول ... إنه ليقال لنا إن قوانين الاقتصاد « الخالدة الثابتة » هي مما يصف الحقيقة . ومع ذلك فإن بياناً دالاً هو ما يلي : إن القوانين الاقتصادية يجب أن توضع على أساس رأيين ... لكن الحقائق تناقض كثيراً هذين الرأيين ... »

وعلى هذا المنوال تجرى عدة صفحات « مره » . وهذه المشاحنة الصغيرة التي قامت بين مكنتين نجمت عن أن نظرية الأستاذ نيت الصارمة القائلة « دع الأمور تجري » لا محل فيها للحقائق المرعية المتعلقة « بالمزاحمة الاحتكارية » . وقد لاقى الأستاذ تشمبرلين مصعبية في التأمل الفعلي لفتابات كبيرة مثل جنرال موتورز وإي. إيه. دي بون ، والاهتداء إلى متنافسة في مستوى ومحتكرة في مستوى آخر .

أشياء أخرى متساوية

يقترح هورست مندرز هوزن الأستاذ بكلية بنجتن في رسالة مستفيضة إلى «أمريكان إيكونوميك ريفيو» أن تلغى جميع المحاضرات التي تلتقى على الطلبة في المبادئ الاقتصادية «لأنها على التعيين ليست مبادئ اقتصادية يمكن اليوم أن توحد خبرتنا الاقتصادية». وهو يرى أن محل هذه المحاضرات أخرى تصف المظاهر الاجتماعية للإنتاج والتوزيع. ويقول إنه منذ الأزمة الكبرى قد فقد المذهب الذي يقضى بنظام الأسواق ينظم نفسه بنفسه — فقد قدرته، وأن النظرية التي يقوم عليها مثل هذا النظام فقدت صلاحيتها. والمقرر الحقيقي للنشاط الاقتصادي هو تلك «الأشياء الأخرى» التي يحب النظريون الاقتصاديون أن يزعموا أنها متساوية — مثل ضروب الرقابة الحكومية، والأهداف الاجتماعية، والخطط القومية، والحركة العالية الجديدة الهائلة، والحرب والتقابل الذرية — تلك الأشياء التي تدير حركة الملعب تاركة النظرية القديمة قشرة جافة تقريباً. فكيف تدير الملعب؟ إن الاهتمام إلى أجوبة عن هذا السؤال هو المهمة الحقيقية للإقتصادي الحديث.

١٨ - متعبة النظرية

في سنة ١٩٣٩ بارح كولن كلارك لندن وقد تبذرت أوهامه في النظرية الاقتصادية في صورة خطيرة . وقد صدمته على الأخص عادة إقامة كتاب على أساس من الآراء النظرية ، ثم اختيار عدد محدود من الحقائق الواقعة بعد ذلك لتصوير الاستنتاجات التي تكون استخلصت . « وبذا توضع العربية النظرية بصورة فعالة قبل الحصان الواقعي » .

ويقسو چون م . كلارك الكولومبي بالمثل على بعض النظريين الاقتصاديين ، فيلاحظ أنهم ينظرون إلى قضاياهم كما لو كانت نتاجاً نهائياً بدلا من أن تكون أدوات للتحليل ، وأنهم يؤمنون بالمطلقات لا المساجريات . إنهم يجمعون في نظرية ما يعنى به المستنيرون ، ويأبون التخلي عن قضية منطقية مهما شك فيها ، ما دامت تخدم « التوازن المقدس » . كذلك يزدرون اللغة الواضحة ويؤثرون اللهجة الغامضة التي لا يفهمها فيما خلا الدائرة الداخلية سوى القليل .

ويستطرد چون م . كلارك فيقول : « إن الاقتصاديين الجامعيين قد هذبوا دستورهم الذي تلقوه ، في صورة تدل على مزيد الافتدار ، ولكن مع شيء كثير من العمى أو التعامى الطقسي عن مظاهر هامة حيوية من مظاهر العالم الذي يفسرونه . » فهم يحاولون أن يصطنعوا « علما » بشطب الحقائق المستعصية . وكذلك يشطبون كل ما خلا ذلك من العلم الاجتماعي مفترضين افتراضاً غريباً أنه « لا يتفق والعلم » أن نبحت في الأهمية البشرية للأشياء . وبالإيجاز يبدأ تفكيرهم بسعر في السوق ثم يعجز عن القلفت حوله ليرى من الذي يحدد السعر ولماذا . والمفروض أن افتراضات ريكاردو معنية بذلك .

المدرسة الرياضية

يعني جون كلارك عناية خاصة بمذهب الاقتصاديين الرياضيين الجديد — أولئك الذين يستطيعون أن يلقوا بسعر فول الصويا في سوق أوماها — في معادلة تفاضلية تكاملية قبل أن نستطيع النطق بكلمة « آدم سميث ». يقول جون كلارك إن الاقتصاديين الرياضيين يؤلفون طائفة نامية قديرة تستخدم طريقة غامضة ولغة خاصة تزيدان دائماً في إبعاد نتائجهم عن أفهام بقيتنا ؛ يلوح ذلك في احتجاجهم بأن كلامهم مفهوم ، لا غبار عليه . ولا يكمل عملهم من دون تحقيق خارجي إيجابي لأرائهم وقضاياهم المنطقية لنرى هل تحمل أى شبه بالحقيقة . والرموز المعنوية يمكن ، أفي المضاربة المفتعلة ، أن تجعل بحيث تصطنع أشياء تنافي طبيعة الحقائق الاقتصادية التي تمثلها . ومن هنا لا تستبعد الرموز التفكير المفكك من تلقاء نفسها . ويلاحظ جون كلارك أن قوائم العرض والطلب مناطق خطيرة بصفة خاصة لهذه الرياضيات ذات الطاقة العالية .

ويشاطر باست جونز هذا الرأي . فهو بوصفه مهندساً ورياضياً مختصاً بالمصاعد ذات السرعة الفائقة المركبة في ناطحات السحاب ، تختبر معادلته بأقصى أنواع الواقع : فنلطة واحدة تحمل المصعد يخترق السطح . وقد جعل مستر جونز من الاقتصاد هوايته عدة سنين ، فنقب عن قوانين تطابق الطريقة العلمية ففشل في هذا البحث . فهو يستنتج أن أحداً بعد لم يقدم مدلولات كافية عن السوق تثبت بصفة عامة صحة قانون اقتصادي أصلي كقانون العرض والطلب . وفي الحق إنه ليجد في كثير من الحالات النوعية أن « القانون » المزعوم يسير رأساً على

عقب^(١) . فليس ثمت على قوله حالة عامة للسوق تعكس الصلة بين السكم والسعر كما يقولون .

كذلك لم يجد جونز بعد تحرير نشيط أى تحقيق على لما يقال له « نظرية السكية » فى المال ، وهى النظرية التى تثبت أن الأسعار وظيفة لعدد وحدات المال فى النظام — وبعبارة أخرى إنه كلما ازداد ورق النقد ارتفعت الأسعار . فهو يقول إنه ليس ثم علاقة مباشرة يمكن قياسها بين الاثنين ، ويتحدى أى رياضى أن يثبت العكس .

وهو بالمثل كثير الشك فى أرقام الأومنيبوس القياسية بالنسبة للأسعار والإنتاج و « الأحوال التجارية » وتكاليف المعيشة ، إذ يقول فى كتابه « الخيول والنفاح » :

« قد ينفق المرء جانبا من حياته يرتب فى ذهنه أمورا خيالية لا علاقة بينها وبين الأشياء ... هذا رجل رياضى . ورجل آخر قد ينفق حياته ليكتشف ما يكون من الأشياء الطبيعية له نفس هذه الترتيبات الخيالية ، إذا كان منها شيء له ذلك . هذا رجل يشتغل بالعلم . لكن هذا العالم خليق أن يفرق فى شبر ماء إذا لم يبق دائما على ذكر من الفرق بين العمليات الرياضية المنطقية للتفكير وبين الطبيعة المحددة بدرجة ما — طبيعة الأمور التى وجد أنها قائمة بين الأشياء الطبيعية . إن اثنين زائد اثنين للرياضى تسارى أربعة . لكن العالم الذى يجد أن حصانين زائد تفاحتين تساوى أربعة أشياء طبيعية ، يحتاط كل الاحتياط فى تعليق أية أهمية على رقم ٤ . ولا يعنى هذا شيئا على الإطلاق فى القضايا المنطقية . فليس فى الإمكان جمع خيول على تفاح أو ضرب خيول فى تفاح أو قسمة تفاح على

(١) على أن الصحف ذكرت أخيرا عن أحد أعضاء الكونجرس أنه قال إنه لن يشك بعد الآن فى قانون العرض والطلب كما لا يشك فى حركة المد والجزر .

خيول والحصول على خارج له معنى . يقول جونز إنك إن فعلت هذا خرقت مبدأ التجانس في المقادير ، يؤيده في ذلك رياضيون وعلماء مختصون آخرون تأييداً قوياً ، وفي جملة هؤلاء لانسلت هوجين مؤلف كتاب « الرياضيات للعلميون » . والمتفرج الطلعة يصعب عليه ، من دون أن يحاول الحكم على هذه المعادلات التي تترك في الذهن طابعها ، ألا يتفق وجون م . كلارك في أنه ينبغي أن يتدخل حجة من الخارج ويقدم لنا عرضاً إيجابياً لهذه الحالة . وأي استعمال للرياضة لا يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالحقائق الطبيعية مقدر له أن يكون له عكس التأثير المطلوب وألا يقوى مركز الاقتصاد بحال .

النظريات الثلاث الكبرى

إن الأشكال الرئيسية الثلاثة للنظرية الاقتصادية هي اليوم المذهب الريكاردى ، والمذهب الماركسى والمذهب الكينيزى . وهناك أشكال فرعية لا تحصى مثل الضريبة الفردية والتسليف الاجتماعى واشتراكية الطوائف (كانت شائعة فى أوائل سنة ١٩٠٠) الخ . وكلها تلائم الأساليب الشعبية والمؤسسات فى حضارة عريضة واحدة هي المدنية الغربية .

وقد أقام ماركس جانباً كبيراً من نظريته على ريكاردو ولكن مع فرق خاص . كذلك استند استناداً قوياً إلى هيجل ، وهو سند لا يزداد مع الأيام قوة على الرغم من فهرسه اللفظى البديع فى « الموضوع وتقيضه والموفق بينهما » . وملقيه هرسكوفتس رأى بالغ الشك فى جبرية ماركس الاقتصادية ، فهو يرى رفضها كما يرفض أى تفسير تعسفى آخر للحضارة . وهو كالم من علماء الإنسان لا يستطيع أن يجد شيئاً ينطبق عليها فى دراساته . ولا يفيد علماء الإنسان من جبرية ماركس الاقتصادية أكثر مما يفيدون من قانون ريكاردو الطبيعى . فهذان كبداين عامين من عمل المنطق لا الملاحظة المحققة بعناية

معنى جون ماينارد كينز

من الممكن أن يكون المرحوم اللورد كينز اكتشف قطعة من نظرية اقتصادية جديدة تصلح لأن تدخل مخزن معارف العلم الاجتماعى . والذي فعله على التحقيق هو تحطيم النماذج الصلبة ، ريكاردية وماركسية ، وإناحة نوع من الجسر بين النظرية والواقع ؛ ولم يكن فى السابق ، كما رأينا ، كبير صلة بين الاثنين .

ويناقش جون م . كلارك فى المقال الذى أسلفنا الإشارة إليه ، يناقش كينز فى تجرد وبصيرة فيقول إننا وإن لم يحن الوقت بعد لكتابة سيرة كاملة قد بدأنا فى استبانة ذلك الذهن اللامع الذى ألقى مثل هذا الضوء الباهر على العالم الاقتصادى الحديث مستفتحاً فى سنة ١٩٢٠ « بالعواقب الاقتصادية للصالح » . وقد كان موضوع كينز الأكبر أن « إنفاق الدخل لا ينطوى على عناية ذاتية آلية تستهدف على الدوام توظيفاً كاملاً » . وقد أدار معركته الأولى على ما افترضه ريكاردو من نقيض ذلك ، فقال فى الواقع إنه إذا بدأ اقتصاد يرتفع أو ينخفض فى دورة كبرى من التضخم أو الانكماش فأجدر بالزعماء أن يفعلوا فى هذا الصدد شيئاً ، لا أن يقفوا مكتوفى الأيدي ينتظرون قوى خفية وقانوناً طبيعياً يصلح الأمور .

ففى الهبوط أولى للحكومة أن تنفق إذا لم يكن لدى المستهلكين ما ينفقونه ، وإذا خشى رجال الأعمال أن ينفقوا فى استثمار جديد . وقد كانت هذه السياسة معقولة بقدر ما كانت كفراً من وجهة نظر ريكاردو ، لأنها اعترضت النظرية الثالثة القائلة « دع الأمور تجري » فذلك التدخل من جانب الدولة شر مطلق فى نظر ريكاردو . بيد أن كينز لم يكن ماركسياً ، بل كان إلى آخر نسمة من حياته منافعاً قويا عن المنافسة الحرة فى حيناً أمكن استخدامها فى صورة نافعة .

ويقدم هورست متدرز هوزن خلاصة ممتعة فيما يلى :

« لما أكد جون ماينارد كينز أن اقتصاديات السوق قد تنتهج بطلاة ملحة عن غير قصد ، وأنها تتوازن بالزيادة والنقصان في الاستثمار أكثر مما تتوازن بالأسعار والأجور ومعدلات الفائدة ، ختم في الواقع عصر الاقتصاد النظامي المحض ... فقد أثبت الشعور الشائع بأن المجتمع لا يمكن أن يجد تجربة اقتصاديات السوق من دون أن يدفع ثمنها بكرة في الواضح أن يدفعه وهو : كتلة من البطالة الدورية الطويلة . ومهما يكن من نفع نظرية كينز كحافز إلى طرق بعينها من النشاط فإنها لا تقدم نظاما اقتصاديا إيجابيا . »

وقد أجهل كينز نفسه طريقته الجوهرية في فصوله الأولى فقال إننا نقف في منتصف الطريق بين نظريتين تقول إحداها بأنه ينبغي أن تحدد الأجور إجباريا بالرجوع إلى ما هو عدل ومقبول بين مختلف الجماعات في المجتمع الاقتصادي ، وتفيد الأخرى — وهي نظرية التفاضل والتضحية — أن الأجور ينبغي أن تسوى بالضغط الاقتصادي وهو ما يسمى بعبارة أخرى « الحقائق المرة » ، وأنه ينبغي أن تواصل آلتنا الضخمة دورانها من دون اعتبار إلا لتوازنها في مجموعه .

لقد أكد كينز أن الناس الذين يتلقون إعانة البطالة ، لا الأسعار في الأسواق ، هي الدلالات الاقتصادية الأهم . وهي بذلك تخلق بين الاقتصاديين المهنيين اختماراً ينافس الاختمار الذي خلقه أينشتاين بين الطبيعيين قبل ذلك بجيل . ومع أن كينز لم يحدث معادلة « الطاقة = الكتلة × مربع سرعة الضوء » لتحقيقها الجمعية الملكية ، فإن رأيه في مضعف الاستثمار يستحق اختباراً كاملاً .

كذلك عبر عن شعور كان الاقتصاديون آخذين شيئاً فشيئاً في مشاطرته إياه ، وهو أن نظرية ريكاردو لم تلائم الواقع الملاءمة الكافية لأن تضمن العمل بمبادئها في ضائقة كبرى . ولم يكن في تلك الأثناء — لا سيما في أمريكا — كثير من

الإقتصاديين مستعدين لأن يعتنقوا الماركسية كبديل . فهي أيضاً قد قامت على افتراضات مزعومة إلى حد كبير . وقد بادر كينز من طريق وسط إلى النجدة ببرنامج مادي كان يفيد في الواقع : « لا تقف هناك مؤملاً إلهاً من الآلة ! فافعل شيئاً ! » وقد أبدى ارتيادات بديعة لما يجب عمله .

فترة الاختبار

إن العالم سيشهد في بضع السنوات القادمة اختباراً هاماً للفكر الاقتصادي السائدة ، وتسندها جميعاً أضيافاً مكتلة من النظريات . ولقد وجدنا مع ذلك أنها ليست بالنظريات الصائبة جداً ، فهي على أحسن فرض علم اجتماعي رقم ٢ ، وعلى أسسه ، تأكيدات يقينية تشمل على أشد المتناقضات إزعاجاً . وقد بذلت جهود صادقة لتطبيق هذه الفكر والنظريات كجزء مما يسمى « الحرب الباردة » . وسيفسر النتائج دعاة وفق ميولهم السياسية ، بيد أن المراقب الدقيق يجب على الرغم منهم أن يكون قادراً على استخلاص بعض النتائج التي تثير الاهتمام .

سنرى أولاً ما يحدث للفكرة الشيوعية في أوروبا الشرقية حيث فرضت روسيا بعض سننها الاقتصادية على بولنده وتشيكوسلوفاكيا وألمانيا الشرقية والمجر ويوجوسلافيا . فالشيوعية نوع من الماركسية التامة الإنفاس .

وسنرى ثانياً ما يحدث للإشتراكية الديمقراطية في ألمانيا الغربية والبلاد التي يتناولها مشروع مارشال وهي بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وألمانيا الغربية وبلجيكا والبقية . وهذا المذهب أرحم كثيراً وألين من الماركسية ، فهو لا يطالب بثورة عنيفة ، ولا يحرض على إلغاء الحريات المدنية ، بل يهتم على الأكثر بتأميم الصناعات . (والإشتراكية ، عرضاً ، يكرهها الشيوعيون أكثر مما يكرهون الرأسمالية) .

وسنرى ثالثاً ما يحدث « المؤسسة الحرة » في الولايات المتحدة . فإن العودة بعد الحرب إلى الأحوال العادية تتعاقس أمام التضخم ، وسلسلة الرقابات التي يقتضيها مشروع مارشال من الحكومة ، وأزمة المساكن ، وخطر الحرب العالمية الثالثة . وهذه مشاكل أضخم وأعقد من أن تعالج وفقاً لمبدأ الأعمال كالعادة . وسنرى أيضاً مبلغ ما يصل إليه في الواقع ما يقوم من خبطة حول المنافسة الحرة وإنفاذ القوانين السكاخة لشركات الاحتكار .

ورابعاً سنتاح لنا في بضعة الأعوام المقبلة الفرصة للملاحظة مصير النقطة التي تعود بأشد الإعجاب في كل النظريات الاقتصادية ، وهي التي يعزها أنصار كينز وأنصار ريكاردو على السواء ويذكرها نفس الاشتراكيين بالخير ، ألا وهي التجارة الدولية الحرة . فقد اتفق حوالى ستين أمة في جنيف سنة ١٩٤٧ بزراعة ويلي كلايتون على أن يتيحوا للسوق العالمية الحرة تجربة أخرى — بشروط مختلفة . وسيكون من الممتع أن نراقب هل تنجح السوق الحرة أو تنجح الشروط . وقد جعل المدافعون عن التعريف الجركية العالمية في الولايات المتحدة يرفعون عقائهم بصيحات الحرب بالفعل .

سنرى . وكشتغلين مجدين بالعلم قد نمد هذه الخطط كتجارب في أربعة معامل هائلة ، متجاوزين على قدر الإمكان عن التقلبات المركبة . وفي ظني أن واحدة من هذه الخطط لن تخرج ظافرة . وقد أخطى الحساب . بيد أن ما يمكن أن نتأكد منه بصورة معقولة هو أنه في حالة النشل سيكون لأصحاب كل من هذه المذاهب الآتية الذكر — وهي الشيوعية والإشتراكية الديمقراطية والمؤسسة الحرة والتجارة المتعددة النواحي — بطارية من الإيضاحات المنظمة مصفوفة ، معدة .

هل الإقتصاد علم ؟

نحن مرة أخرى عند المسألة الأولية التي أشرنا في الفصل الأخير . والجواب عنها — بقدر ما يتعلق الأمر بالنظرية العامة — يلوح نفيًا . فإذا خص المرء العمليات التي تجري داخل بنك ميدلند على سبيل المثال ، أو شل مكس ، أو ينيليفر ، أو الاتحاد القوي لرجال السكك الحديدية أو البورصة أو الخزنة ، وجد أن الحوادث الحركية التي تقع هناك لا تطابق النظريات الاقتصادية الخاصة بها سواء أ كانت ريكاردية أم ماركسية . لقد وُصف عالم القدرة بدقة ، أما عالم الإقتصاد فلا — أو أنه لم يوصف بما يجعلك تستطيع أن تصنع منه قبلة اقتصادية . إن القنابل الاقتصادية تنفجر ، ما في ذلك شك ، لكن أحداً لا يعرف بالضبط لماذا .

إن لي ثلاثين سنة أقرأ ما كتب عن الإقتصاد . و بوصفي محاسباً بالمهنة قد اطلمت على بواطن كثير من مؤسسات الأعمال فاستوعبت كل النظريات القياسية من حرية العمل ، والاشتراكية ، والضريبة الفردية ، والتسليف الاجتماعي ، و كينز ، والجمعية التعاونية . وليس في هذا ما يطابق الحقائق الإيجابية التي شاهدها . و كينز أقرب من غيره ، ولكن نظريته ، كنظام عام ، لا يمكن أن تكيف .

وقد انتهيت إلى أن البحث عن نظام إقتصادي لن يصل إلى شيء ، ولن يجدي كما لا يجدي البحث عن نظام فلسفي ؛ وقد أكون مخطئًا . لقد انتهيت إلى الاعتقاد بأن الأسعار والأجور وتكاليف الإنتاج والأرباح إنما هي تعبيرات عن السلوك الإقتصادي الذي تقوم عليه — وهو ما تسلكه المخلوقات البشرية حيالها . ومثل هذا السلوك الإقتصادي بدوره ليس سوى جزء من سلوك حضاري . قالتصرفات الاقتصادية على ذلك ستكون غالباً غير حكيمة ، وسيبالغ فيها إلى

أبعد مما تتطلبه ضرورات الإقتصادى الأثر . ولن يمكن حسابها مطلقاً على قاعدة التوازن مهما يكن من قوة الرياضة^(١) .

لقد أوضح علماء الإنسان وعلماء الاجتماع إيضاحاً كافياً ، لى على الأقل ، أنه ما من مخلوق بشرى عاش فوق هذه الأرض كانت له الخصائص المسندة فى الكتب المدرسية إلى الإقتصادى الأثر . وما من مجتمع وُجد ، اتبع التجربة الإقتصادية التى وضعها ماركس وانجلز كمبدأ أصلى . فالتوازن الكامل ، هو « هناة » اقتصادية لا يحدها مكان أو زمان . والكلمات العظيمة تنتشر ونذيع ، لكنى لا أستطيع أن أجعلها تتصل بأية حقيقة أعرضها إلا بصورة متقطعة غير متواصلة إلى أقصى حد . ولا يلوح أننى الوحيد فى هذا الاستنتاج ، فقد انتهى إليه علماء من أمثال مايو وميتشل والكلارك كين وكثير غيرهم .

فلا عجب إذن ألا تتحقق التنبؤات غالباً ، فالذى يحاول أن يضع نظرية اقتصادية « صرفة » هو كألين فى محاولتها أن تلعب السكروكيه من دون تحديد نقط . فالضرب فلا منجوى حي ، والكرة قفدز متقل ، والفتحات جنود تحب أن تنهض وتتجول .

فإذا أمكننا أن نهرب من الفكرة القائلة بأن نمت نظاما اقتصاديا واحداً كاملاً طبيعياً حقاً يجب أن يلتزمه نوع الإنسان مهما يكن أمر الحالة القائمة ، فإن تقدمنا فى حل المشاكل الاقتصادية النوعية ينبغى أن يكون أسرع . وقد كان هذا ، بمعنى ما ، ما حاول كينز أن يفعله . فإذا انتهينا إلى أن ندرك أن الاقتصاد ليس إلا مظهراً واحداً من العلم الإنسانى مرتبطاً ارتباطاً وثيقاً بكل الفكرة

(١) قد يستثنى من ذلك كتاب أوسكار مورجنشترن : « نظرية الألعاب والسلوك الإقتصادى » الذى تطبق به رياضيات الرجحان على ول العمل بوصف أنه يسلك سلوكاً أقرب إلى لاعب البوكر منه إلى الإقتصادى الأثر .

الحضارية وعلم النفس الإجتماعي ، فسنهمل المطالب العريضة كالأسواق الكاملة ،
والموازنات الكاملة ، والثورات الكاملة ، والدول الكاملة ، ونتوفر على طرق
لتفريج هذه الأزمة ، وتخفيف ذلك التضخم ، والقضاء على سوء التغذية هنا ،
والتوفيق بين أحوال المصنع والعمال هناك ، ورفع مستوى المعيشة كلما ارتفع المجرى
الصناعي الفنى .

وجانب كبير من هذا الكتاب يعالج حالات يمكن ، بمعنى من المعانى ، أن
تسمى اقتصادية — كالتجارب التى أجريت مع العمال فى هوترن ، والإضراب الذى
وقع فى يانكى سى ، ومعتقدات ميدلتون ، وشهادة الاستفتاءات ، والنمو المتضاعف
فى الاختراعات . فنعن لا نستطيع أن نمزق هذا النسيج الحى . فالجتميع البشرى
قطعة واحدة ، وعلى العلم الأصيل أن يعامله على هذا الاعتبار .

١٩ - بعض أدوات اقتصادية جديدة

يقوم الكثير من صناعتنا الكبرى كالمطارات والكيميائيات والقوة الكهربائية على عمل المشتغلين بالعلم . لكن ما يقوم على عمل اقتصاديين مهنيين من مؤسساتنا الاقتصادية قليل . فمعظم البنوك ، وبيوت السمسة ، والخزائن ، والطرق التي يستخدم فيها المال ، والتسليف ، والأسواق الفاتحة ، والمتاجر التي تباع أصنافا واحدة وتتبع إدارة واحدة ، واتحادات العمال ونقابات الحرف ، وقاعدة الذهب - هذه جميعا إما أن تكون نمت كيفما اتفق ، وإما أن يكون وضع أسسها محامون .

إن آباء الاقتصاد المؤسسين - أولئك الرجال العظام أمثال آدم سميث وريكاردو وكارل ماركس - قد جاءوا ، واستطلعوا الميدان ، ثم انقلبوا إلى دراساتهم لينشئوا ويرقوا تلك المنشآت النظرية الضخمة التي استعرضناها في الفصلين السابقين . وقد بقي لوزلي ميتشل أن يدعو إلى التوفر على ملاحظة ما يجري بالفعل كشرط ضروري لوضع النظريات . وقد كان معظم الاقتصاديين بمعنى ما ، وإلى وقت وقوع الأزمة الكبرى ، يتفنون بالأعمال ويشيدون بها ، وكثيراً ما قوى هذا معنوية رجل الأعمال ، لكنه لم يخبره بما ينبغي أن يفعل ، فقصده في طلب المشورة إلى محامى نقابة من الدرجة الأولى أو إلى محاسب أو رجل ممن يشتغلون بالعلاقات العامة .

لقد حملت الأزمة ثم الحرب كثيرين من الاقتصاديين على العمل لحل مشاكل عملية . ومن هذه الخبرة نبتت بعض طرق جديدة مشهورة ، وتشكلت غير مؤسسة من المؤسسات الجديدة . مثال ذلك لجنة القرايطيس المالية والعرف .

وفوق ذلك فإن الاقتصاديين لم يعملوا فرادى بل جماعات مع محامين ومهندسين وإحصائيين وعلماء اجتماع .
ومنذ رسالة مالتوس الشهيرة عن السكان أخرج الاقتصاديون والمشتغلون بالعلوم السياسية هنا وهناك — أخرجوا بطبيعة الحال تحليلات نظرية مشهورة للمؤسسات النوعية . وبعض هذه التحليلات محل الخزن كما هو خليق به إذ ينطوى على أكثر من مجرد المصلحة التاريخية بكثير . وإنى لأحب أن أجمل هنا دراستين نشرتا في سنة ١٩٣٠ ، ويبدو أنهما من هذه الطبقة . وهما تحليل كولن كلارك للتنقلات في المهن ، وكتاب بيرل ومينز التعريفي عن النقابة الحديثة .

أحوال التقدم الاقتصادي

لما تعب كولن كلارك من « النظم » الاقتصادية أخرج كتابا مكينا عن الحقائق والأرقام أسماء : « أحوال التقدم الاقتصادي » واستخلص فيه بعض الاستنتاجات النافعة الهامة . ويقتبس كلارك ليبكون في صفحة العنوان وفي تهكم بعينه قوله : « لا يمكن أن تكفي القضايا التي تقررها المناظرة لاكتشاف أعمال جديدة . ذلك أن حذق الطبيعة يفوق حذق الجدل مراراً . »

ولنقتاول الوقائع في كتاب كلارك فإنه يبتكر على الأقل فكرة جديدة واحدة ، ويستنبط تدبيراً قياسياً جديداً واحداً . والفكرة هي ترتيب المهن والصناعات على ثلاث درجات ، بينا المقياس هو ما يسميه الوحدة الدولية وما يعرفه بأنه متوسط مقدار البضائع والخدمات التي أمكن أن تشتري في الولايات المتحدة بدولار في مدى سنوات عشر بين ١٩٢٥ و ١٩٣٤ .

ويقرر الأستاذ كلارك ، متسلحاً بهذه الأدوات ، نقطتين رئيسيتين مستعينا بتحليل كمي مستفاد . الأول أن العالم كجموع يبعد كثيراً عن عصر الوفرة ،

فالولايات المتحدة وكندة وأستراليا ونيوزيلندة والأرجنتين وبريطانيا العظمى وسويسرة — هذه وحدها كان لها حين كتب كلارك كتابه ، مستوى المعيشة يعادل ألف وحدة لكل عامل في السنة أو أكثر من هذا . وهذه البلاد تشمل عشرة في المائة فقط من عدد سكان العالم .

خمسائة وحدة دولية أو أقل قد كانت نصيب ٨١ في المائة من نوع الإنسان . وأكثر من نصف العالم وفي جهلته الهند والصين يعيش على أقل من ٢٠٠ وحدة دولية . ونستطيع خيراً من غيرنا أن نقدر صحة تحليل كلارك بهذه المخلوقات البشرية وهي تقف على شفا التغذية السيئة أو بين أنياب الجوع اليوم في سنة ١٩٤٨ . ولا تسمح لنا المناوون بنسيان ذلك . فإن اقتصاد الوفرة لا ينفع إلا في تلك المناطق التي يطبق فيها العلم التطبيقي والإنتاج الكمي تطبيقاً حازماً على كلتا الصناعة والزراعة .

والنقطة الثانية أم أيضاً فيما أرى . فهو يقول :

« إننا ونحن ندرس التقدم الاقتصادي في علاقته بالبناء الاقتصادي لمراكز مختلفة ، نجد تعميماً مقررراً تقريراً ثابتاً جداً بأن المتوسط العالي لمستوى الدخل الحقيقي لكل رأس تلازمه دائماً نسبة مرتفعة للسكان الذين يعملون في صناعات من الطبقة الثالثة . وتعرف الصناعات الابتدائية بالزراعة ، والخطابة ، وصيد السمك ، والثانوية بالإنتاج الصناعي ، والحدين ، والبناء ، وصناعات الطبقة الثالثة بأنها تشمل على التجارة والنقل والخدمات وكل ما عدا ذلك من أوجه النشاط الاقتصادي .

وقد كان نصف السكان العاملين في الولايات المتحدة وكندة وبريطانيا وأستراليا ونيوزيلندة تقريباً يشتغلون بأعمال الطبقة الثالثة التي سبق تعريفها ،

وهي تسمى غالبا « حرف الخدمة » وكان يشتغل بها من ٣٣ إلى ٤٤ في المائة من السكان في غرب أوروبا والأرجنتين .

وتدل أرقام كلارك مع نمو إنتاج الآلة على انحطاط نسبي في الصناعة الابتدائية (الزراعة) وعلى زيادة في الثانوية (الإنتاج الصناعي) . وتصل الصناعات الثانوية بعد قليل إلى حد أقصى وتأخذ بدورها في التساوى . ويلوح أن هذا وقع في بريطانيا وفرنسا بعد تحول القرن ، وفي الولايات المتحدة حوالي سنة ١٩٢٠ وفي ألمانيا سنة ١٩٢٥ . بعد ذلك يمكن أن ينتظر — إلا في ظروف الإنتاج الحربي الخاصة — أن تتوسع صناعات الطبقة الثالثة وحدها نسبيا ؛ ويتفق الحس المشترك والتحليل العلمي في هذا الاستنتاج . فكلما أدت الآلة طاقة أكثر قدر للمخلوقات البشرية أن تؤدي أقل . ويزداد عدد الأعمال في ميادين الفكر — في المهن والتعليم والترفيه والعمل الحكومي والخدمات على العموم .

وهذا استنتاج على جانب عظيم من الأهمية للمستقبل الاقتصادي للعالم لم يقدر حتى الآن تقديراً كافياً . فهو يبلغ أن يكون وصفه لإنتاج بالجملة مصحوب بعامل رجحان كبير ، ويداني قانوناً علمياً . وإنى لعلى ذكر منه بحيث أنصح دائماً للشباب ، حينما أسأل ، بأن حرف الخدمة تتيح أوسع الفرص لسيرهم المقبلة .

الشركات الحديثة

قدم أدولف ا. بيرل الصغير وجاردنر س. مينز في « الشركة الحديثة والملكية الفردية » استنتاجاً آخر عظيم الأهمية . فقد فحصوا النقابات الأمريكية الفعلية في عهد الرئيس كوليدج فحصاً دقيقاً : ما ملكت ، ومن مملكتها ، وما فعلت ، وكيف سمرت منتجاتها ، ومن تولى الإشراف عليها . وقد اختيرت أكبر مائتي

شركة غير مصرفية في البلاد ، شركات أدت في مجموعها نصف النشاط التجاري تقريباً . فجمع الدكتور مينز بوصفه اقتصادياً ما هنالك من إحصاءات مشتركة ، وجمع الدكتور بيرل بوصفه محامياً ما يتصل بالمركز القانوني أو أكد انتفاء هذا المركز ، فألفا بذلك فرقة صغيرة لكنها قوية في العلم الاجتماعي .

ومن أثر هذه الدراسة أنها حطمت قوانين مختلفة لسكل من ماركس وريكاردو كان يُزعم أنها اقتصادية . فلم يكن في الشركات الكبرى التي جاء وصفها وهي : فولاذ الولايات المتحدة ، وإنتر ناشيونال هارفستر والبقية ، شيء له مثيل في السوق الجزئية — سوق صغار تجار الحديد ، وأصحاب الحوانيت ممن تعنيهم نظرية حرية العمل . وقد وجد الملاك الشرعيون والرأسماليون المتغطسون في تلك الأثناء مجردين بالفعل من قوتهم على يد نخبة جديدة من مديري الشركات للتشبيين بالبقاء والسيطرة على أملاك واسعة ليست ملكاً لهم — شيء لم يتكهن به ماركس قط . وهكذا تركت هذه « الوحوش المائية » الهائلة تجول وتصول في نوع من الفراغ المملوك . وقد وصف المؤلفان هذه الحالة بقولها : « تملك ثروة من دون هيمنة تذكر ، وهيمنة على الثروة من دون تملك يذكر : هذا ما يبدو أنه النتيجة المنطقية لتطور الشركة . » والوكالة ليست الوسيلة التي يهيمن بها صاحب أسهم في شركة على ملكه ، ولكنها الوسيلة التي تنزع بها الهيمنة منه . غير أنه مادام يتلقى « حصته العرفية » لا يجد عادة داعياً للشكوى .

وقد وجد أن الهيمنة في ٢٠٠ شركة تتركز كما يلي :

٪ ٤٤

في إدارة متشعبة بالبقاء

في مشروعات قانونية تتضمن المضاربة ، والأسهم

٪ ٢١

التي لا صوت لأصحابها ، واتحادات الشركات الخ

٪ ٢٣

في مصالح الأقلية

٪ ٨٨

جملة الهيمنة من دون أكثرية في التملك

وهكذا حدث أن أصبح الملك شيئاً مختلفاً والملك وظيفة مختلفة جداً عما نصت عليه معظم الكتب المدرسية . فقد وُجد في حالات كثيرة أن الشركات الكبرى ترتفع فوق سوق المنافسة الحرة . فإما أنها شركات احتكار تام مثل صناعة الألومنيوم في سنة ١٩٣٠ ، وإما أنها تزاوُل مزاحمة احتكارية كشركات التبغ وشركات السيارات الكبرى — وهي الحالة التي وصفها تشمبرلين في دراسة أخرى شهيرة .

وقد أبدى جاردنر مينز بعد ذلك في تحليل للأسعار أثناء الكساد — أبدى في صورة قاطعة أن الأسعار في الأسواق التي كان فيها تنافس حقيقي ، كانت تميل إلى الهبوط ، كلما قل الطلب . لكنه في الأسواق التي تسيطر عليها الشركات الكبرى كان كلما قل الطلب خفض الإنتاج وانقص المال واحتفظ بالأسعار ثابتة . ولذا ليس في أسواق أمريكا التي تبيع الأشياء الحاضرة — كالقمح والحديد الخام والسيارات — ليس فيها مطابقة من قبيل واحد لواحد للنظرية الاقتصادية المنشأة إلى الآن .

الإقتصاديون والأزمة الكبرى

لقد أثار جون ماينارد كينز ، كما رأينا ، نشاطاً جماً في الدوائر الاقتصادية ، فليس من صحيفة محرر من دون أن تذكره . وقد ساعد أتباعه في الوقت المناسب ، بالتعاون مع المحامين والمهندسين والمشتغلين بالعلوم السياسية ، على وضع مشروعات هوتت الأزمة الكبرى على الولايات المتحدة .

قد يسجل التاريخ لسلطة وادى تينيسي إنها أهم ابتكار اجتماعي في هذا العصر ، فإنها ليست من عمل المشتغلين بالعلوم الاجتماعية فحسب بل هي كذلك نتاج العلوم الأمريكية في كافة الميادين مع ذكاء وبعيد نظر ساسة كالسناطور

جورج نوريس . إنها تقدم مركباً عضوياً قد يعين على حل كثير من المشاكل الحادة التي أثارها عصر الآلة . فسلطة وادى تينيسى تجمع بين عمل سلطة عليا على خير وادى نهر عظيم ، وبين الطاقة الرخيصة ، والصيانة ، والنماذج الزراعية المحسنة ، والتشجيع القوي لأعمال الأفراد ، وتحسين وسائل النقل ، وتسهيلات جديدة للترفيه مع مساهمة أهل الوادى فعلياً في كثير من أوجه المشروع .

الامن الاجتماعى

ومجلس الأمن الاجتماعى مؤسسة أخرى كان للاقتصاديين وغيرهم من المشتغلين بالعلم الاجتماعى يد فيها . فهو كنوع من شركات التأمين قائم بطبيعة الحال على نظرية العينة . لكنه مع وجود أكثر من ٨٠ مليوناً من الأمريكيين مقيدين فى دقاتره لا بد من أن يعالج مشاكل بشرية ونفسية ، ومشاكل مواصلات ، ومشاكل اقتصادية واسعة النطاق .

وقسم بلتيমور فى هذا المجلس بمثابة تداخل مصنع ومكتب ، مكان تنتج فيه الآلات ذات السرعة العالية سجلات مكتوبة بالجملة . فقد عمل موظفو الأمن الاجتماعى يداً بيد مع مهندسين من شركة آلات الأعمال الدولية على تنشئة أعظم السجلات الآلية التى لم يألئها العالم . وهؤلاء يؤدون كل شئ إلا أن يتكلموا . وقد كان فى جملة الآراء التى احتج بها على قانون الأمن الاجتماعى أن نطاقه وحده يجعل من المحال تنفيذ برنامجه . وقد شهد الخبراء الإنجليز بأنه لا قبل لأية منظمة بإدارة حسابات ٢٦ مليون متفنع بالسرعة المطلوبة . لكن الستة والعشرين المليون من أسماء الأمريكيين ارتفعت إلى ٦٧ مليوناً ، بينا الوقت الذى أنفق فى تسوية مطالبة من المطالبات قد خفض من أربعين إلى ثلاثين وعشرين يوماً . وقد أنجزت أسماء أكثر فى زمن أقل على أيدي كتبة أقل نسبياً . وواضح أننا فى

مجلس الأمن الاجتماعى طبقنا العلم على شئون البشر فى صورة أخاذه . وفى الحق إنه لم يكننا من دون تطبيق قوى للطريقة العلمية أن نأمل الاحتفاظ بنظام للأمن الاجتماعى على هذا النطاق إطلاقا .

فلاسفة الإجراءات الجديدة^(١)

يشار إلى « الإجراءات الجديدة » على وجه العموم بوصفها كيانا ؛ لكن تفكير لحظة يهديننا إلى أنه لم يبق شيء كهذا فى زمان أو مكان . فهى « علامة » تلصق بمجموعة من قوانين الكونجرس والإدارة مدى سبع سنوات تقريبا . والذين صدرت عنهم هذه القوانين وهذبوها — وتناول الشركة الفيدرالية لتأمين الودائع ، ولجنة الأمن ، والمبادلة ، وإدارة التكيف الزراعى ، وسلطة وادى تينيسى وبقية ما هنالك — لم تكن لهم فلسفة مقرررة بتاتا ، فقد كانوا جاهدين فى وقف الأزمة بأية وسيلة يمتلكونها . ولا شك فى أن جهودهم قد ساعدت على وقفها ، بيد أنهم لم يشفوا قط من البطالة المزمنة . ذلك أن البطالة لم تُصَفَّ قبل الرخاء الذى تم فى سنة ١٩٤١ .

وقد كانت هناك فكرتان رئيسيتان كافحت فى سبيلهما أصحاب الإجراءات الجديدة ليضمنوا لها الغلبة . وقد اعتدت الجلوس إليهم فى بعض جلساتهم والاستماع إلى صحبتهم ، فكان فريق منهم يرى قبول الأعمال الضخمة والعمال السكار ، والحكومة الكبيرة ، يتدرج من هذه القاعدة إلى برامج كبيرة تفوق كل برامج . وكان الفريق الآخر ، وقد تأثر بالقاضى برانديز كثيرا ، مخلصا لفكرة تشذيب الأعمال الضخمة ، وإنفاذ القانون المكافح للاحتكار ، راجعا إلى

(١) إجراءات اتخذها الرئيس الأمريكى الراحل روزفلت لمعالجة الحالة الاقتصادية ، وتنمية الأمن الاجتماعى . (المترجم)

الأصول والوحدات الصغيرة . وقد كان ثرمان أرنولد ، بمحملته الشعواء على شركات الاحتكار ، من زعماء هذه المدرسة .

وبذا لم يكن بين أصحاب الإجراءات الجديدة وحدة في الفكرة ، ولا فئة قوية من أتباع ريكاردو أو ماركس المجاهدين ، بل كان فيهم ، كما شهدنا ، بعض أتباع كينز ، وخاصة في تحليل الادخار والاستثمار . وقد كانت هنالك محاولات مقصودة لإدارة الأشغال العامة لإبقاء حركة الدولارات في اتجاه الفكر الكينيزي .

وقد أسمى الخصوم السياسيون أصحاب الإجراءات الجديدة صنائع موسكو ، ونعتهم صنائع موسكو بأنهم أحرار جبناء وصنائع لولستريت . وأشتبه في أن التاريخ سيسجل أن هذه الحقبة من الزمن امتازت بشبان أذكيا بعضهم يحمل درجات جامعية في الاقتصاد ، وبعضهم درجات من مدارس الحقوق ، وبعضهم مهندسون أو محاسبون أو رجال أعمال يعملون أربع عشرة ساعة في اليوم ، يجتهدون في توفير القوت والعمل لصالح شعب مصاب ، ويحاولون إدارة المعجلات الاقتصادية كرة أخرى .

(١) دروس من الحرب

ألف كينز في خلال الحرب العالمية الثانية مجلدا مكنزا أسماه « كيف تكفر عن الحرب » وهو أهم ما ألف في تلك الفترة في الاقتصاد . ويشتمل الكتاب على ارتيادات لكبح التضخم عملت بها كل الحكومات المتحاربة إلى حد ما ، فكانت النتيجة أن سيطر على التضخم كما لم يُسيطر عليه في أية حرب أخرى وعاشا التاريخ . (وقد أفلت التضخم فيما بعد من عقاله لما تراخت يد السيطرة .)

(١) نتائج في هذا الموضوع دراسات لبول ت . هومان و ج . ك . جالبريث في « أميركان إيكونوميك ريفيو »

لقد التحق بخدمة الحكومة في الولايات المتحدة نسبة كبيرة من الاقتصاديين المهنيين ، والإحصائيين . فكانت خلية الخبراء التي تشكلت أثناء فترة الإجراءات الجديدة على استعداد لأن تحول نشاطها لمنافع الحرب . فبعد بيرل هاربور جعلت هذه الجماعة تنمو وتنفرد كالتمويرة ، ويتشعب نشاط أعضائها في خمسة أعمال كبرى :

- ١ — مراقبة الأسعار ، والتعيين بالبطاقات .
- ٢ — تخزين المواد .
- ٣ — طرق لتمويل الحرب .
- ٤ — تعبئة القوى البشرية .
- ٥ — مخبرات اقتصادية — كتعرف قوة العدو الاقتصادية ، والشراء غير المشروع لإبعاد المواد الاستراتيجية عن يد العدو الخ .

« حالة اختلال التوازن »

يحمل ج. ك. جالبريث هذه الفترة ويقدم لنا قصة حية أخاذة عن الاقتصاديين يعملون ، وخاصة في مكتب التسعير ، فيقول : « في إبان الحرب العالمية الثانية نشأت الولايات المتحدة تارة ارتجالاً ، وتارة وفقاً لخطة ، نظاماً لتعبئة الموارد الاقتصادية التي ثبت من أدائها على قواعد مقبولة عامة أنها مرضية كل الإرضاء . »

فقد استخدمنا وغيرنا من المحاربين « حالة اختلال التوازن » الذي يهني الدكتور جالبريث به أن اقتصاديات السوق الطبيعية أوقفت بصورة مستمرة . فأقصيت البواعث القديمة ، وأحل محلها قوى جديدة لتقرير السلوك الاقتصادي ، في جعلتها الرقابة العامة على الموارد الاقتصادية والرقابة على الأسعار وتشمل التعيين بالبطاقات . وقد ثبت عدم جدوى بواعث السوق العادية في خلال الحرب إلى حد كبير .

فصانعو السيارات على سبيل المثال أبوا طوعاً أن يتحولوا إلى صناعة الدبابات وقاذفات القنابل حتى عند ما ضمنت لهم أرباح طائلة . كذلك رفض صانعو الفولاذ توسيع دائرة نشاطهم ، فاضطرت الحكومة آخر الأمر أن تسن القانون على يد مجلس الإنتاج الحربى ، وأن تقول لصانعى السيارات والفولاذ ماذا يجب فعله إذا لم يكن بد من كسب الحرب .

وإذا كانت إدارات الأعمال هى التى كانت تحدد الأسعار من أمد طويل فى كثير من الأسواق فقد وجد جالبريث « أن تحديد السعر فى هذه الحالة لا ينطوى على مشكلة من حيث المبدأ ، وأن تجارب الحرب كادت تظهر أن مثل هذه الأسواق ليست الاستثناء بل القاعدة تقريباً . فوضع لائحة للأسعار تلائم بنيان مثل هذه الأسواق . وإنفاذها قد كان أعظم ما أداه مكتب التسمير وأدله على الخدق » ، وهكذا أنصف بيرل ومينز إنصافاً طيباً . فلما جاءت الحرب تولت الحكومة الإشراف على الأسعار عن الشركات الكبرى والمصالح التجارية التى ظلت سنين تتولى هذا الإشراف ، وتم الانتقال على أهون سبيل .

وفى الأسواق التى كانت المنافسة الحرة ما تزال قائمة فيها وجب أن يلحق التعيين بالبطاقات مراقبة الأسعار . وعلى الرغم من النجاح الأولى الباهر كان هذا هو الميدان الذى فشلت فيه « حالة اختلال التوازن » بيد أن الفشل لم يكن من عمل الاقتصاديين ، فقد فهمت أولى برامج التعيين بالبطاقات ونفذت ، وكان فهمها وتنفيذها لا غبار عليهما . « وفى الحق لقد كان التعيين بالبطاقات فى اللحوم وللمأكولات المحفوظة والوقود من الأعمال الإدارية البارزة التى أدت فى زمن الحرب » ، فتوزيع اللحم بالبطاقة على الأخص أشاع النظام فى الأسواق بعد إذ أشاعت فيها الفوضى رقابة الأسعار التى لم يصحبها تعيين بالبطاقات .

على أنه كان من نتائج الجمع الملحوظ بين السياسة الرديئة والغباوة الخبيثة أن انعكست في الحال البداية الطيبة . ويعود بشرف هذا التدمير قياصرة الحاجات الضرورية . وقد بدأ الإنهيار بالمذهب الجديد القائل بأن زيادة التعيينات مما يحبه الشعب الأمريكي حتى ولو لم تيسر أقوات تقابلها . والإقتصاديون الذين رسموا النظام جعلوا أساسه احترام بطاقات التعيين ، فلما خرق قياصرة الضروريات هذا المبدأ ، اخنت القاعدة الشعبية للتعين ، فلم تعد المستهلكة تطمئن على نصيبها العادل في تموين محدود . وانتفت أولاً صحة مبدأ التعيين ثم أصبح عديم الجدوى . ويثق جالبريث بأن تسريح المراقبات الاقتصادية كان ينبغي أن يكون أكثر تدرجاً . فقد ألغاه السياسيون في نوع من الدرع تحت إلحاح بعض رجال الأعمال . « ومن العسير أن نظن أن أى امرئ أدرك حالة البلاد النفسية ، كان يمكن أن يعتقد أنه كان ثمة خطر من أن تصبح هذه المراقبات دائمة ... وإننا لنجد من الغريب أن نجى الدعوة إلى حل النظام من المحافظين . ولا بد أن يسخر القدر من قلة المبالاة التي يلصقها بالرأسمالية الأمريكية أشد المدافعين عنها . » لقد مزقت المراقبات ، وطمأننت جمعية المنتجين الصناعيين القومية البلاد بأن الأمور سوف تسير على ما يرام ، وبدأ التضخم بداية سريعة — بدأ يسير في طريقه العظيم . ومع كل المصاعب التي صادفها مكتب التسعير في التعيين فإنه أحرز نجاحاً باهراً في القبض على ناصية الأسعار . وقد وضعها في الغالب اقتصاديون ، وأعلنوها ، وقاموا على تنفيذها ، ومع ذلك فبينما هي في أوجها حرّم الكونجرس بفترة على الاقتصاديين المهنيين أن يتولوا وظائف إدارية . وللفروض أن المؤتمر لم يعتمد لم قط « قائمة حساب » ولا كان يعرف ما يصنع ، فكانت هذه طعنة وحشية للعلم الاجتماعي ، ذلك أن المشتغلين بهذا العلم لم يكونوا فحسب ينفذون معنوية البلاد بالقبض على ناصية الأسعار ، بل كانوا كذلك يوفرون البلايين من الدولارات

للدافعي الضرائب . ومع ذلك نفاهم الكونجرس إلى سيبيريا . على أنه من حسن الحظ أن تشستر بولز لم يدفع فحسب قائمة الحساب بل كان من الذكاء بحيث واصل عمل الاقتصاديين . وقد بقي بعضهم ليعاونوا على النصح له .

جمله الإنتاج القومى

يعلم الكل فى أمريكا ما تعنيه أحرف O. P. A. (مكتب التسعير) لكن الذين يعرفون معنى أحرف G. N. P. ليسوا بهذه الكثرة . فهذه الأحرف تعنى : جمله الإنتاج القومى . وهذا تصنيف إحصائى متقن لتقدير مجمل قيمة البضائع والخدمات التى تنتجها أمة فى سنة — تقديره بالدولار . وهو معدل من معدلات العمل ، ورقم نافع فى السلم والحرب على السواء ، يدل على مستويات الإنتاج والعمل والرخاء الاقتصادى العام . وقد تركز حول جمله الإنتاج القومى مركب كامل من الدراسات . فايزيدور لوبلين يعتقد أن الإنتاج الحربى ما كان ليبلغ ما بلغه لولا المعلومات الإحصائية . وهو ينسب فضل الشروع فيه إلى كتاب ويزلى متشل عن الدخل القومى قبل ذلك بسنين .

والتماذج الاقتصادية المرشدة لجمعية التدبير القومى التى يديرها كريستيان سون ، والدراسات الرائعة للجنة التطور الاقتصادى برئاسة بول هوفمان ، وأبحاث ج . فريدريك ديوهمرست فى كتاب « حاجات أمريكا ومواردها » التى وصلت بالأرقام إلى سنة ١٩٦٠ — كل هذا يقوم جزئياً على تحليل جمله الإنتاج القومى . فهو المشروع الإحصائى الذى يبشر بأن يكون عظيم القيمة فى السنوات المقبلة . وسيمحسن على الدوام — ربما إلى درجة ترضى نفس باسيت جونز .

فبفضل دراسات جمله الإنتاج القومى يعلم كل امرئ معنى بالشكل المالى

للعالم الذي يعيش فيه — يعلم الآن أن هناك جهات ثلاثا ، وثلاثا فقط ، يمكنها أن تنفق المال : (١) المستهلك النهائي (٢) رجل الأعمال الذي يوسع دائرة استثمار أمواله (٣) الحكومة . وجملة الإنتاج القومي هو جملة جهودهم المشتركة . فإذا أخذت الجملة تنكش فأول خطوة منطقية يستتبعها ذلك هو تعرف الجهة التي تنقص ما تقدمه ولماذا . والخطوة الثانية هي موازنة النقص بتشجيع جهة أو اثنتين أو كل هاته الجهات . وهذا هو صميم ما يسمى بالبرنامج « المعوّض » للمحافظة على الرخاء الدائم الذي يزداد ظهوره . وقد قام قانون سنة ١٩٤٥ المشهور الخاص بالاستخدام الكامل على أساسه .

بعض دروس مالية من الحرب

لعل أكبر درس اقتصادي للحرب هو الذي نوه به مكتب العمل الدولي في اتفاقه الذي عقده سنة ١٩٤٦ في مونتربال « إن الأمة تستطيع أن تعطى ما تنتجه . » فالمسألة الكبرى الآن ، كما يقول مكتب العمل الدولي ، ليس في إيجاد المال لأية زيادة مقترحة لرأس المال ، ولكن في تنظيم التفاصيل القانونية والإدارية . ومكتب العمل الدولي مصيب بلا ريب في هذا الرأي على وجه عام ، بيد أنه ما يزال هناك تلكؤ حضارى يجب التغلب عليه في الولايات المتحدة . والمشكلة الأولى هنا ليست مالية ولا إدارية ؛ إنها حضارية . فكيف نفهم بعض الأمريكيين ذوى السلطان أن ما يمكن طبيعيا يمكن أيضا ماليا .

ويتابع بردزلى رمزل هذا الموضوع فيقول إن المكتشفات الجديدة التي ترجع إلى الحرب لم تكن قاصرة على الطبيعة ، وعلم الأحياء ، والجراحة ، فإن تقدما عظيما تم كذلك في ميادين المال والاقتصاد . إن الهزة النامة لم تدرك بعد . « لكن لدينا ما يكفي لأن نعرف أن بعض الأشياء التي حسبها كثير من المختصين صحيحة هي

إما خاطئة وإما صحيحة على نحو يختلف عما كان يظن . « مثال ذلك أنه في خلال سنة ١٩٣٠ كان معظم الناس يعتقدون أن عجز الميزانية لا بد أن يكون له أثر تضخمى . فالآن نعرف أنه ليس من الضروري أن يكون هذا .

يقول رَمَل : « إن الحقيقة الواضحة هي أن الحرب مؤلّت فعلا بمعدل متناقص من الفائدة ، فما معنى هذا ؟ معناه أن علاقة جديدة خلقت بين سوق المال الفردى والدولة . ولكي تدفع أمة مصروفاتها تستطيع إما أن تفرض الضرائب وإما أن تقترض . والاقتراض يؤجل الضريبة . وكان هذا في الماضى يعنى معدلات أعلى للفائدة تقتضيهما سوق المال الفردى كلما ازداد الدين القومى . وبذا كانت السوق الفردية — ونسميها في الولايات المتحدة وول ستريت — تملى شروطها في قروض الحكومة ، وتملى في العادة ما تريد أن تكون عليه الضريبة .

ففي الحرب العالمية الثانية شب هذا النظام عن الطوق ، فأصبح التمويل أضخم من أن يباشره المقرضون من الأفراد ، واختفت قاعدة الذهب التي كانت فيما مضى بعض ما يسند السوق الفردية . وهكذا لم يعد المقرضين الأفراد والمصرفيين الكلمة الأخيرة في السياسة المالية لحكومة الولايات المتحدة ، وأصبح مما لا بد منه ، على قول رَمَل ، أن تصدر رقابة عن الأمة كلها لا عن المقرضين . فواشنطن ، لا وول ستريت ، هي الآن المركز المالى للعالم لا للبلاد وحدها . « يعقب ذلك أن تتحرر حكومتنا الاتحادية تماماً من السوق المالية . فكان أن أصبح الاعتبار الأكبر في فرض الضرائب هو النتائج الاجتماعية والاقتصادية . »

من المهم أن نثبت أنه بينما كان رَمَل يصف هذا التبدل التاريخى في مركزى وول ستريت وخزانة الولايات المتحدة إحداهما بالنسبة للأخرى ، وهو ما أوجدته الحرب ، كانت الصحف والإذاعة الشيوعية في موسكو تحيى كل ما كانت ترفع به العقائر من صيحات سنة ١٩١٨ ومؤداها أن وول ستريت هبت للسيطرة على

السكره الأرضية . ويلوح أن الشيوعيين يعانون من التلكؤ الحضارى أكثر مما يعانى كثير من المحافظين الأمريكيين .

قد لا يكون هناك شىء يسمى نظاماً اقتصادياً ، ومن ثم لا قوانين هناك تنبأ بما يؤديه هذا النظام فوق رؤوس الجميع . لكنه إذا أراد أحدهم أن يدير بنكاً مركزياً ، أو يصدر قرضاً ، أو يمول حرباً ، أو يقف أزمة ، فإن تمت الآن أدوات كثيرة نافعة فى أيدى الاقتصاديين يساعدون بها على هذه العملية .

ولقد أخرجت كلنا الأزمة والحرب العظمى الاقتصاديين — لا سيما من تتراوح أعمارهم بين الخامسة والثلاثين والخمسين — من فصولهم المدرسية إلى السوق . ولم تكن النظريات التى تلقوها فى الفصول كبيرة النفع لهم فى حالة اختلال التوازن ، لكن ما اعتادوه من تحليل ، وتريث فى الحكم ، ومقدرة على معالجة الإحصاءات ، كان كبير القيمة . فقد تخلصوا مما أسماه الدكتور هومان فشلهم الجامعى بالتجربة فى وضع السياسة العملية وفى الإدارة . ومهما يحدث من الآن فصاعداً سواء أكان برنامجاً هائلاً للتسليح ، أم تضخماً ، أم أزمة نهائية ، فإن لدينا فرقة مدربة من الاقتصاديين العمليين تعاوننا على معالجته . وطرقهم الآن قد كملت إلى أبعد من اختصاص رجل الشارع .

مشروعات سبعة

أحب فى الختام أن أقترح سبعة مشروعات للبحث لإحكام معرفتنا الاقتصادية . المشروع الأول — دراسة واسعة النطاق من علماء نفس مختصين لكافة افتراضات الاقتصاديين فيما يتصل بعلم النفس من « اليد الخفية » لآدم سميث إلى « قابلية الاستهلاك » لسكينز . وقد بدأ مايو بداية طيبة بتنقيط « نظرية الغواض »

لكنه يحتاج إلى ما هو أكثر من ذلك كثيراً، إذ كان لابد من أن يقوم الاقتصاد على أساس ثابت من حقائق السلوك البشرى .

المشروع الثانى — استعراض كامل نزيه لأرقام الأومنيبوس القياسية ، حيث النقط الطبيعية المشتملة مختلفة النوع . هل نستطيع أن نجمع خيلا على تفاح ويكون لذلك حاصل ذو معنى ؟

المشروع الثالث — محاولة صادقة لإقامة مصلحة حقيقية للتنبؤ يستطيع أن يكون معها الساسة ورجال الأعمال فسكرة يعول عليها عما ينتظر أن يقع فى القريب العاجل . فهل يتخذ هذا شكل إحصاء محكم للعاطلين يدل على اتجاهات ؟ أو يستلزم عملا أكثر فى اتجاهات جملة الإنتاج القومى ؟ أو ربما كان شيئا كالذى نشره المورور فى فورتشن عن « منظور المستهلك » وهو ما يتيح وقائع طبيعية ونفسية عن المستهلكين الأمريكين مستخدما طريقة العينة . إن مستر روبر يقىس ما يشعر به المستهلكون وهم يفكرون فى إنفاق المال فى ستة الأشهر التالية ، وهو ما يعد شيئا بهم التنبؤ أن يعرفه .

المشروع الرابع — زعم كثير من الاقتصاديين من بضع سنوات مضت أن البنوك لم تستطع تدبير المال . وقد دلت الحرب على أن البنوك استطاعت ودبرت بالفعل عشرات المليارات . ويلوح أن التحرى النزيه حقا عن تداول الدولار بما فى ذلك عامل حاسم هو عامل التوفير والاستثمار — إن تحرى ذلك من جانب الاقتصاديين والمهندسين والمشتغلين بعلم المعانى يبدو على ما يرام .

المشروع الخامس — دراسة شاملة للبواغث يقوم بها علماء النفس والإنسان والاجتماع . ما الذى يجعل الناس يعملون ، وما الذى يجعلهم يعملون أحسن مما يعملون ؟ (وامله ينبغى أن ندع الاقتصاديين بعبيدين عن هذا ؛ فقد لقنوا من

الآراء مقدما ما هو أكثر من اللازم .) وربما ضم هذا المشروع إلى المشروع الأول .

المشروع السادس — هل قانون شيرمان ضد شركات الاحتكار يستحق التنفيذ ، أو أن المنافسة الاحتكارية والشركات العليا المائتين التي لاحظها بيرل ومينز أبطلت مفعول القانون ؟ وإذا كان الأمر كذلك فكيف نشجع حرية التجارة في تلك المناطق الاقتصادية التي تساعد فيها حرية التجارة من يعينهم الأمر مساعدة حقيقية ؟

المشروع السابع — تحر كامل لإمكانات استخدام تدابير مالية لموازنة الصعود والهبوط في الأسعار من دون لجوء إلى تحديد الأسعار أو اتباع نظام التعيين بالبطاقات . وهذه هي الفكرة « المعوضة » ثانية . ويعتقد كثير من الباحثين المختصين أمثال إلفن هانسن أن هذا ممكن فعله . ويشك في ذلك آخرون . والجو مفعم بالجدل ونحن بحاجة إلى عرض موثوق به للمرجحات لا يتأثر بأية مصلحة مقررة في النظرية . وقد ظن أن ^(١) T. N. E. C. إنما يعمل هذا بالذات ، لكن نظريته كانت سياسية حتما ، واستنتاجاته على ذلك مشتببه فيها في بعض الدوائر .

وإني وقد وضحت هذه المسائل ، إن لم يكن أجيب عنها إجابة كاملة ، ومع الخبرة التي استقها الاقتصاديون من مصادرها الأصلية عن الأزمة والحرب ، لا أتمالك نفسي من الشعور بأننا قد نكون قريبين جداً من نظرية اقتصادية هامة جديدة . وقد كان جالبريث على وشك الاهتمام إليها برسائله عن اختلال التوازن . نظرية ليست فخمة ولا كاملة تتناول الاقتصاد كله بل محدودة ونافعة حقها مختصون .

(١) المجلس الإقتصادي الفؤى .

٢٠ - دروس في السلم والحرب

إننا نلاحظ ونحن نمر إصبعنا على امتداد رفوف المخزن ، كثيراً من الأعمال المكيئة التي أداها المشتغلون بالعلم الاجتماعي ، إما أنها لم تذكر في الصفحات السابقة ، وإما أنها لم توصف وصفاً كافياً . ففي هذا الفصل والذي يليه سنبحث بعض هذه الأعمال التي نشأت في زمن السلم والحرب . ولا مناص من أن نهمل الكثير منها وإلا لاحتاج الأمر في تضمينها إلى دائرة معارف .

قانون المتوسطات

إن العلوم السياسية كالإقتصاد يكتنف نظرياتها كثير من المتاعب . وقد استنبط خبراءها بعض الطرق البديعة الفعالة في السنوات الأخيرة كما هي الحال في العلوم الاقتصادية ، والخطوة التالية هي ربط هذه الطرق بالمعارف الأخرى — كعلم الاجتماع وعلم الإنسان وعلم النفس — ليكون لنا قاعدة أعرض للنظرية السياسية والتعميم .

ويتوقف الكثير من طرق المشتغلين بالعلوم السياسية على التنبؤ الإحصائي . وقد لا يكون فرد معين قابلاً للتنبؤ ، لكن مجتمعاً مستقراً مؤلفاً من أفراد كثيرين يخضع لقانون المتوسطات في دقة ملحوظة . والإدارة العامة والحكومة تفيد كلتاهما من هذه الحقائق المحسوبة . وقد وقف تعداد الولايات المتحدة سنين كثيرة على تعرف بعضها بقياسه ، واستنبطت جهات أحدث عهداً ، متوسطات إحصائية في جدارة ودقة . مثال ذلك أن إدارة الطرق العامة تستطيع أن تنبئنا مع اليسر من الخطأ ، بعدد السيارات التي ستقطع طريقاً رئيسياً معيناً في الشهر التالي .

وشركة ميتروبوليتان للتأمين على الحياة يمكن أن تدلنا على فرص بلوغ الخامسة والستين .

ولم أ رأياً عن هذه الظاهرة أجلى من القصة الخيالية التي نشرتها نيو يورك عما يمكن أن يقع لو أخفقت . وتقع القصة على جسر تريبورو في نيو يورك في مساء خريفي في سنة ١٩٤٠ الأخيرة ، إذ يحدث بغتة أكشف تركيز لمرور عُرِف إلى اليوم خارج الحدود ! فلسبب غير مفهوم يقصد ألوف من ركاب السيارات في وقت واحد إلى الجسر المذكور كما لو كانوا قطعاً غفيراً من الليمنجو . فهام أولاء يفدون متتابعين فيدهمون البوليس تماماً وفيه كل ما يمكن من الاحتياطي . وكان البوليس قبل ذلك يعرف إلى آخر رقم آحادي بالتقريب عدد السيارات التي تعبر جسر تريبورو في أية ساعة من الأربع والعشرين . فالآن تنهار كل القواعد !

وقد قدم الجاويش ألفونسو أوتول الذي يشرف على طريق برونكس المؤدى إلى الجسر تقريراً نموذجياً قال فيه : « لقد لبثت أسألم : هل هناك في مكان ما مباراة ليلية في لعب الكرة لا علم لنا بها ؟ هل سباق ما تذهبون إليه . لكن المضحك أنهم كانوا نصف الوقت يسألونني : لم هذا الزحام ياماك ؟ »

إن هذا التداعي لقانون المتوسطات أتى على نيو يورك في هذه القصة . وهو خليق أن يأتي على أية جماعة قائمة . بل إن مجرد تصويره ليشيع الذعر . ففكر فيما يمكن أن يحدث لشركة التليفونات إذا قرر كل امرئ أن يبدأ محادثة في وقت واحد ؛ أو لشركة المياه إذا كان على كل امرئ أن يستحم في نفس اللحظة التي يستحم فيها غيره ؛ أو للمستشفيات إذا أصاب الجميع مرض في الساعة الواحدة ! إنه حين تكلم أو بنهايمر عن « اطرادات » العلم الاجتماعي كان هذا من بين ما عناه .

وقانون رياضي آخر يؤثر في المجتمعات البشرية قد أعرب عنه بشكل جرمي يتخذه مجرى «توزيع التكرار». وهذا المجري ينطبق على كل شيء حتى . قس طول الرجال في أية هيئة كبيرة كالجيش وقفهم حسب طولهم الأطول في طرف والأقصر في الطرف الآخر . والأرجح كثيراً أن يكون كل جندي من هؤلاء قريباً من وسط الصف ، وعلى عكس ذلك أن يكون الجندي قريباً من أي من الطرفين . فإذا عابنا عدد الجنود الموجودين في مختلف نقط الصف وجدنا تركيزاً عظيماً في الوسط ، وألفينا المجري المألوف يتخذ شكل جرس الحرية . وهذا مجرى طريف تبديه كافة المميزات الإحصائية تقريباً إذا هي قيست وعوينت في أعداد كبيرة — الأمر الذي يساعد الخبراء على تنبؤات عن المدارس والمستشفيات والأسواق حيث ينبغي توقع ما يحتاج إليه في المستقبل .

المجتمع العظيم

إن إنتاج الجملة والآلة هما أعظم من أي شيء آخر مسئولية عن نمو الحكم الرسمي في السنوات الأخيرة نمواً سريعاً مؤلماً في الغالب . فقد زادا في تقسيم العمل إلى النقطة التي قضى عندها على الاكتفاء الذاتي الذي كان للأسرة والعشيرة الصغيرة في قديم الزمان . وقد باتت هناك مشاكل حادة ناجمة عن البطالة بالجملة ، وعن العوز في الشيخوخة ، وتشغيل الأطفال ، والإضرابات ، وتعطيل النقل ، والسكن ، والمباني ، والتعليم العام ، ونحاث التربة ، والجرائم ، وتصريف المجاري ؛ وهي مشاكل لا يستطيع الأفراد معالجتها . والحكومة تتدخل في مستويات محلية قومية ما دام أنه لا معدى عن حل هذه المشاكل إذا كان لا بد للمجتمع من أن يستمر .

لقد وضع فريدريك چاكسون تيرنر فرضاً مشهوراً في سنة ١٨٩٣ أسماه

« أهمية الحدود في التاريخ الأمريكي » فقال إن كثيراً من عادات الأمريكيين الحضارية لا يمكن تفسيره إلا بالحدود ، ففي الولايات المتحدة بتقليدها المتعلق بالفردية والحدود المتحركة في حرية ، كانت أشكال الحكم القائمة تميل حتى سنة ١٩٠٠ إلى التفكك والميوعة ، فلم تكن تكفي لمباشرة الوظائف الجديدة التي كانت تتطلب منها في القرن العشرين وخاصة بعد الأزمة الكبرى التي حلت بسني ١٩٣٠ . وقد كان المشتغلون بالعلوم السياسية يجتهدون في تدبير تحسينات لمسايرة تقدم الآلة . لكنه ما يزال أمامهم شقة طويلة قبل أن تصبح الحكومة قادرة على معالجة المطالب المفروضة عليها . والصور القديمة كالمراجعات والموازنات قد انحدرت اليقنا من عهد قديم كانت نفس السكك الحديدية والمصانع مجهولة فيه . ولا عجب أن تخضع هذه الصور لاستطالة هائلة .

وقد ألف مجلس الأبحاث في العلم الاجتماعي لجائاً تدرس الحالة ، وأنشأت الجامعات فصولاً دراسية في المصالح العامة ، وأسست مدارس لتخريج الإخصائيين كليتاور في هارفارد ، بل أقساماً كاملة تشتغل بالأساليب الإدارية كالأقسام الموجودة في جامعة كاليفورنيا . وتشتمل الطرق الحديثة في إدارة شئون المدن الكبيرة على مشروع مديري البلديات ، والحساب الموحد ، وتخطيط المدن ، والمسكن العامة ، وإزالة المباني ، والحدائق والملاعب ، ومراكز عظمى للترفيه مثل ساحل جونز بقرب نيويورك .

لكنه بقدر ما تتسع الخطط بمساعدة منظمات كبنك مقاصة الإدارة العامة ، بقدر ما تتراكم مشاكلها ووربما أسرع . ولم يكن مستقبل الرقابة على المرور في يوم ما أظلم مما كان في سنة ١٩٤٨ ، فقد تفاقم زحام المرور الآن في خلال سنة أو سنتين . وقد تكون نيويورك جميعها كجسر تريبورو المذكور في القصة .

وعلينا في هذا المقام أن نعود إلى تذكر إدارة وادي تينيسي كتنطور هام جديد

في العلوم السياسية . ويحولها مركزها الإقليمي من حيث وقوعه بين الحكومة الفيدرالية والحكومة المحلية مزايا بعينها . فهي تبدأ بعيدة — بمقارنتها بغيرها — عن الإجراءات الرسمية المقيمة والتركات السياسية . وحدودها تطابق الحقائق الجغرافية أكثر كثيراً مما تطابقها الوحدات العرفية التي هي أقدم منها مثل الولايات . وإن الشبان ليفقدون من جميع نواحي العالم ليدرسوا هذه الناحية الجديدة ويعجبوا بالخرزانات السامقة ، ولوحات العدد للنظمة اللامعة التي تدير القوة ، والملاحة ، ومياه الفيضان ، ومناطق الترفيه ، كما يدير المرء أرغفا عظيماً .

إن كلا العلوم الطبيعية والاجتماعية تكمل في إدارة وادي تينيسى بعضها بعضاً — الطبيعة ، والكيمياء ، ومنشآت الطاقة الذرية ، وعلم الأحياء ، والهندسة ، والإدارة العامة ، وعلاقات العمل ، والاقتصاد ، وعلم الاجتماع ، وجمعيات التعاون ، وصيانة التربة ، والدورة الهيدرولوجية ، وعلم الإنسان الاجتماعي ، والطب ، والصحة العامة ... وقد تكون إدارة وادي تينيسى بسبيل إيجاد صيغة أساسية للاتفاق مع الآلة ؛ صيغة يتعاون على مقتضاها المواطنون البسطاء ، ورجال الأعمال ، والعمال ، ورجال الحكومة ، وأصحاب المهن لمصلحتهم المتبادلة ، وتصل باللامركزية إلى الحد الذي يتفق وشبكة القوة الكهربائية والمقتضيات الفنية .

التلکؤ الحضارى مرة أخرى

إن في وسعنا أن نسجل ما تم من تقدم في ميدان الإدارة العامة ، لكن العلوم السياسية في الغالب علم اجتماعي رقم ٢ ، ما تعلق الأمر بالنظرية التي تقوم عليها . فهل يستطيع اليوم أحد أن يضع عبارات « كالفاشية » و « النازية » و « الشيوعية » و « الرأسمالية » و « الاقتصاد المختلط » و « الديمقراطية السياسية » في صيغة نظرية يتفق عليها المراقبون المختصون ؟ إن هذه العبارات وغيرها تنهال من حزب

على حزب ، ومن قارة على قارة ، تعنى أشياء مختلفة جداً لأناس مختلفين .
فالكوملن على سبيل المثال يزعم الآن في سنة ١٩٤٨ حقاً أصلياً له وحده دون
غيره على عبارة « الديمقراطية » !

ومن العقبات التي تعترض تطبيق العلوم السياسية التلكو الحضارى .
فالحكومة الكبرى ضرورية الآن لتوقف الفتيات بعضها على بعض ، لكن
الحكومة « بغيضة » في نظم معتقدات الكثيرين من المواطنين العنيدون من
الطبقة العليا لدافى الضرائب (أما الطبقة الدنيا فلا تستمسك بمعتقداتها إلى هذا
الحد .) وقد أجرى حديثاً استفتاء دل على أن ٤١ في المائة من الأمريكيين يؤثرون
العمل في الحكومة يقابلهم ٤٠ في المائة يفضلون العمل الحر . وللموسرين من
المواطنين سلطان عظيم على الأمة ، فهم قادرون على أن يعطلوا أو يشلوا دراسات
علمية إيجابية للإدارة السياسية ، إذ كانت عقيدتهم ، وكثير منهم مخلصون في هذه
العقيدة ، أن الحكومة بطبيعتها عاجزة وغير أهل للتصرف .

لقد ساعدت الأزمة الكبرى واقتصاديات الحرب على خفض التلكو
الحضارى في المؤسسات الاقتصادية . وقد يكون العلم السياسى على شفا تطورات
عظيمة نتيجة لذلك . ولا شك أن معظم النماذج القديمة والتنسيقات والفروض بحاجة
ملحة إلى التنقيح .

بعض دروس الحرب

وصفنا تحسينات بعينها تمت في زمن الحرب في العلم الاجتماعى — وصفناها
طريقة ونظرية . وسنواصل هنا القائمة مع توكيد خاص لتطبيقات لزمنا السلم .

النزول في ليته

قال الجنرال ماك آرثر لما غادر كوريبيدور : « سأعود . » وقد عنى ما قال .

ليكن بضعة من الناس لحسب ساعده ، ومن بينهم فرقة من المشتغلين بالعلم ، مهدت الطريق لغزوليته .

وبدأت الفرقة ، مضطرة ، بورقة « مشخطة » إذ كان ينقصها حتى خريطة حسنة للجزيرة . بيد أن الأعضاء أخذوا شيئاً فشيئاً يستنبطون طريقة باتت مقياساً للتحرى عن الجزر الواقعة تحت السيطرة اليابانية ، فجمعوا أول ما جمعوا كل ما تسر من كتب عن الفيليبين من مكتبة الكونجرس ففاضلا ، وكلفوا عند اللزوم من يترجمها . واتصلوا بقرابة ٤٠٠ من الفيليبينيين المقيمين على الشاطئ الغربى فى انتظار العودة إلى وطنهم — ومعظمهم رجال أعمال يتكلمون الإنجليزية ، ومع بعضهم خرائط وصور شمسية ومذكرات وجيزة . وأعلنوا عن صور شمسية لمناظر الفيليبين ، وحصلوا على ملايين منها من جميع نواحي الولايات المتحدة ، واحتاج الأمر إلى خبراء مفسرين لهذه الصور كي تأخذ المعلومات مكانها فى سجل كامل . وهكذا سارت الأمور ، واستخدمت وقائع جديدة من أغرب المصادر فى الغالب لتسد الفراغ فى مناطق مجهولة . وقبل أن يتم النزول فى ليته كانت هناك صورة مدهشة تكاد أن تكون حية .

لقد كان أول سؤال خطر ببالى وأنا أضنى إلى هذه الأعمال : أين دخل العلم فيها ؟ ألا يؤدى نفس الشيء أى رجل أعمال ذكى أو صحفى بل مؤلف مغمور يتلقى نفس التكليف ؟ وكان الجواب « نعم ولا . » فقد كان الكثير مما أدوه من عمل الحس المشترك المحض ، لكنه لم يكن كل ما أدوه . فقد احتاج الأمر إلى خبراء وإخصائيين لتطبيق الصورة على الطبيعة وتحليل الوقائع الاقتصادية وتفسير الصور الشمسية . واحتاج فوق كل شيء إلى علماء بالإنسان لفهم النماذج الحضارية لسكان الجزر .

وساهم المشتغلون بالعلوم الطبيعية فى الفرقة بمعلومات معتمدة عن تيارات المحيط ،

والأفاعى ، والظواهرات الجوية ، وأمراض المناطق الحارة ، والتكوينات الجيولوجية . فبعد أن أعملت الفكرة في هذا العمل انتهيت إلى أنه لو كان بعض الصحفيين الماهرين وحدهم — وهل نقول المؤلفين — تولوا هذا الأمر فلعل الجنرال ماك آرثر كان ما يزال يناور أمام الساحل .

وانتفعت الفرقة بتقارير استجوب فيها أمرى حرب ، وراجعت مفكرات مضبوطة لضباط وجنود يابانيين ، ورسائل مضبوطة ، ووثائق رسمية . كذلك تلقت تقارير من مراقبين محايدين في اليابان نفسها . وقد قرأت الصحف والمجلات اليابانية بعناية ، وروقت الإذاعات .

وينبئنا ألكسندر ليتون أن أعضاء الفرقة احتاجوا قبل كل شيء إلى إطار من الرأى يرجع إليه ليطبقوا عليه ما جمعوا من معلومات . وقد أنشأوا هذا الإطار من « عموم » الفكرة الحضارية ، تلك « العموم » التى سیرت اليابانيين كما سيرت غيرهم من الأمم ، ومن مبادئ طب الأمراض العقلية . واحتاجت الفرقة بعد ذلك إلى فيض من التقارير المتواترة من كل ناحية كالمكتب الجوى . فلما تلقت الفرقة كل هذا « ركبوا صورتهم كما يركب عالم بالحيوان والشجر المتحجر حيواناً منقرضاً من سن واحدة ! »

وكان موقف العسكريين أن اليابانيين ليسوا آدميين ومن ثم كانت معنويتهم مما لا يتهدم . فالطريقة الوحيدة لمعاملتهم كانت فى رأيهم قتلهم ، إذ لا فائدة من أسرهم . فأسرام إما أن يكذبوا ، وإما أن يموتوا قبل أن يقولوا الحقيقة . بيد أن العلماء أصروا على أن اليابانيين آدميون ؛ فبينما جعلهم تعلقهم بالإمبراطور عنيدین ، أدركهم كذلك التعب كأي أناس آخرين ، وفترت منهم الهمم ، ودهمتهم الشائعات والخاوف . وسوف يتداعون فى ناحية ما كأي أناس آخرين بالضبط . وقد عرض عالم من العلماء الاجتماعيين أن يراهن على أنه فى استطاعته أن

يستولى على نصف جزيرة بالميكروفون والنشرات وبخسائر أمريكية أقل مما يمكن أن يتكبده الجيش في النصف الآخر من الجزيرة وهو يستخدم قاذفات اللهب والقنابل اليدوية ؛ فلم يلفت إليه .

وتتضح من هذا البحث نقطة هامة من تطبيقات أبعد كثيراً من الجبل بين الجزر في المحيط الهادى . فكلمنا سمعت عبارة « القوة هى الشيء الوحيد الذى يفهمه اليابانيون (أو الروس أو النازيون أو زعماء المال) وجب أن نكون على حذر . فليس ثمة جماعة بشرية ترتكس على هذه الصورة الواحدة . فالذى تدل عليه الجملة فى الحقيقة هو أن المتكلم بلغ نهاية إدراكه ، فهو فى حالة من الخيبة الحادة ، إنه يلجأ إلى تعنت أجوف . والمرحلة التالية من خيبته هى أن يأخذ بالمذهب القائل : « ارمهم بالرصاص ! »

هذه الدراسات للمناطق ، وطرق المراقبة البعيدة المدى ، جاهزة معدة لتحرى أى مكان فوق الأرض من دون ذهاب إليه . والساتر الحديدية ، والحدود المغلقة لا تقف فى طريق هذا النوع من المنظار . وليتون متأكد من أن هذه الأشياء يمكن استخدامها فى زمن السلم لتخفيف العداوة بين شعوب مختلفة الحضارات بتقديم صور حقيقية بدلا من الصور العاطفية المشوهة . وسيكون لدينا ما نقوله حول هذا فيما بعد .

إدارة جزر المحيط الهادى

لقد كان جورج ب . مورديك عالم الإنسان الذى وضع كشف الحضارات المتعارضة فى ييل يشتغل فى المحيط الهادى فى فرق تنتمى إلى العلم الاجتماعى ، فأعد بهذا الكشف كأساس ، وبمساعدة بعض الأمريكيين اليابانيين أيضا ، ستة أدلة للبحرية ترشدها فى تنقلها بين الجزر عبر مارشال وماريانا والسكرولين ، وحضر

هو ورجاله تقريراً مؤلفاً من ٦٠٠ صفحة عن أوكتاوه في ثلاثة أشهر. وقد حصل عليه الأميرال نيمتز قبل « خط الموت » بعشرة أيام ، ونزل بعض رجال موردك على سواحل أوكتاوه مع أول موجة للبحارة ، وكان بالجزيرة نصف مليون من الأهالي . فكان من أثر النصيحة التي أسديت عن الكيفية التي تُحترم بها حضارة هؤلاء الأهليين ويعمل بها معهم ، أن توفر الكثير من الغلطات الباهظة التكاليف والكثير من الأرواح . وقد عمل موردك بعد ذلك كمدير مدني لأوكتاوه .

لقد باتت الولايات المتحدة الآن قيّمة على جانب كبير من المحيط الهادي ، تتولى البحرية القيادة المباشرة للجزر . ومعنى هذا فيما نأمل ، أن الحضارات الوطنية ستحترم . وقد عمل موردك أخيراً بالتعاون مع البحرية وإدارة اعتماد فيسكنج والكياليات المختلفة — عمل كنسق لأعظم مشروع في تاريخ علم الإنسان يبني من وراء ذلك مساعدة الولايات المتحدة على أن تفعل خيراً كقيّمة . وقد أرسلت اثنتان وعشرون مؤسسة خبراء إلى جزر ميكرونيز لتدرس الشعوب وحضاراتها في خلال سنة ؟ وتولت كل منظمة جزيرة مختلفة ، ووكل بأكبر مهمة في جزيرة تروك إلى فرقة موردك من بيل .

وتطبيق علم الإنسان بهذه الطريقة ليس جديداً على الإطلاق . فإن جون كولير كان قبل الحرب بزمان طويل — وقد كان تابعاً للإدارة الهندية — يستخدم كمستشارين ، علماء مشهورين في علم الإنسان من أمثال كليد كلوكهورن وسكدر ماكيل . وقد حصل أوليفر لافارج بوصفه عالماً من علماء الإنسان في الإدارة الهندية على المادة التي ألف منها « الغلام الضاحك » تلك الرواية المزعجة التي تتناول الحياة في ناهاو .

استطلاعات لَقَبَلَة^(١) المواقع الاستراتيجية

كيف اختيرت لَقَبَلَة في ألمانيا الأهداف المفضلة على غيرها ؟ لقد وجد في أوائل الحرب ، كما كتب چون و . جاردنر في بيل ريفيو ، أن الاستراتيجيين العسكريين النظاميين لم يستطيعوا أداء مهمتهم بصورة فعالة إلا بمعونة علماء اجتماعيين كانوا يعرفون المنطقة ، ويعرفون كيف يفر بلون المواد — اقتصادية كانت أو سياسية أو فنية . وفي سنة ١٩٤٢ كان نقص القوت في ألمانيا يعد من الخطورة بحيث يوحى بانها عاجل . وكان هذا تفكيراً خطراً يمليه النمى ، ويقوم على تشبيه خاطئ^{*} بسنة ١٩١٨ . وقد رد العلماء على ذلك بتنبؤ قاطع هو أن الحالة الغذائية في بلاد الرينخ ليست حسنة فحسب ، بل إن التعيينات ستزاد فيها . وحقاً لقد زادت ألمانيا التعيينات الغذائية في أكتوبر ١٩٤٢ .

وقد توجهت سنة ١٩٤٥ إلى ألمانيا فرقة من العلماء الاجتماعيين وضباط الجيش قوامها ألف — توجهت إلى ما وراء الميدان الأمامى مباشرة لتقرر ما حدث بالفعل للناس وللصناعة نتيجة للمليونين وسبعمئة ألف طن من القنابل ألقتها أسلحة الحلفاء الجوية . وقد قتل أربعة من رجال هذه الفرقة وجرح عدد منها أثناء هذا الاستطلاع ، ونشرت الحكومة تقريرهم .

وقد أعطانا معلقو الإذاعة في أمريكا صورة من ألمانيا وقد حل بها الخراب كما يحل بمدينة في آجام مايا وبشعب مضنى منحل . فأظهر التقرير مبلغ حيد وقائع الإذاعة والصحافة بل البلاغات الرسمية عن الواقع . وقد جمعت دلالات من مصادرها الأصلية بمعاينة المدن المقنبلة والمصانع ؛ ومن سجلات ألمانية مدعمة بالإحصاءات لم تكن محفوظة في أضيائها فحسب بل كانت مخفأة في نعوش ،

(١) القَبَلَة ترجمة لكلمة Bombing أى إلقاء القنابل من الجو .

وحظائر للدواجن ، ومخازن ، وكهوف ؛ ومن استجواب أناس من كل الطبقات أقيمت عليهم القنابل أو لم تُلَق .

لقد كان في المناطق المقنبلة نحو ٢٥ مليون ألماني قتل منهم ٣٠٠٠٠٠٠ من المدنيين وجرح قرابة ٨٠٠,٠٠٠ . ودمر من كافة وحدات السكن في الريخ خمسها أو عطب عطباً شديداً . وعلى الرغم من هذه المحرقة فإن غاراتنا الجوية عجّزت عن تدمير معنوية الألمان ولم تعطل الإنتاج تعطيلاً جدياً . وقد وجد المستطلعون ، لدهشتهم العظيمة ، أن معدل إنتاج الذخائر ارتفع إلى ثلاثة أمثاله بعد بيرل هاربر ، وإن الزيت هو الوحيد الذي ظل المعجز فيه خطيراً إلى النهاية .

لقد خفضت الغارات الجوية الروح المعنوية والإنتاج لكنها لم تقض على أي منهما بخلاف ما أوردته معظم الأنباء . ويورد التقرير إلى هذا الحقائق الواقعة الغريبة المهمة الآتية :

كانت السلطات الألمانية أكثر اهتماماً بفقدان المصانع الحربية منها بفقدان أقسام كاملة من المدن إلى حد كبير .

أكربت القنبلة عمال المصانع الحربية وأفزعتهم ، لكنهم استمروا يعملون . إن ما استخدمه نظام الاستهداف ، كائناً ما كان ، لم يفض من غارة واحدة إلى تعطيل صناعة لا غنى عنها تعطيلاً دائماً . « فقد كانت قوى ألمانيا الشافية والدفاعية هائلة ... » وكانت الحالة المعنوية عند من لم يفكر في الحرب إلا قليلاً أرفع منها عند من كانوا مستعدين لها عقلياً . والتوقع لا يخفى هذا النوع من الصدمة ولكن يكبره .

كان الذعر يملك أعضاء حزب النازي كما يملك الآخرين ، لكنهم كانوا بعد الغارة أسرع من غيرهم إلى استرداد معنويتهم .

كان تدمير دور المدارس سيء الأثر في الحالة المعنوية حتى حين لا تقع

خسائر في الأرواح . فقد كان الآباء يخشون أن يرسل أبنائهم إلى مخيمات نازية خاصة فيمذهبوا فيها .

لم تكن دعاية النازي ضد قنبلة الحلفاء ذات أثر ، فقد جعل الألمان يفقدون الثقة شيئاً فشيئاً بالبلاغات الرسمية .

ظهر أن الزيادة في أساليب البوليس الإرهابية أفضت إلى زيادة المعارضة ، منظمة كانت أو غير منظمة ، وازدياد التندر بالسلطات ، والإشاعات ، وسماع الإذاعات المحظورة .

علت الآلام الألمان — كما علّت الإنجليز سواء بسواء — شيئاً كان يمكن أى عالم من علماء الإنسان أن ينذرهم به سلفاً . وذلك أن ترحيل الناس إلى نموذج حضارى مختلف قد يكون أضر بهم من القنابل . لا تبعث بسكان المدن إلى المزارع ، إبعث بهم إلى مكان آمن في المدينة .

هذه الاستطلاعات مع كل محتوياتها المره قد أنتجت معرفة جديدة عن السلوك البشرى . فهى نوع فائق من ميدلتون يراقب فيها العلماء المدربون سلوك أمة كاملة — لا مدينة واحدة — تحت وقر الشدة . إنها تدل على أن للدعاية حدوداً معينة ، وأن أساليب البوليس تولد المقاومة . ووقائع هذه الاستطلاعات وطرقها يمكن أن تكون نافعة جداً في استطلاعات إقليمية في زمن السلم .

٢١ - تعلم أشياء

نواصل في هذا الفصل عرض ما أدى أخيراً في ميدان العلاقات البشرية مما يبدو هاماً ذا مغزى . ففتحرى نظرية التعلم في بيل ، وأسلوباً جديداً في تناول مشاكل الجريمة والعقاب ، وتحليل الدكتور كنزى للسلوك الجنسي بين ذكور الأمريكيين .

نظرية التعلم

إن الارتباط بالحضارة مبدأ يحكم « شخصية » المرء : فنحن مانحن من جراء العادات والعرف واللغة التي تعلمناها منذ مولدنا . فكيف تعلمنا عاداتنا ؟ إن علماء الإنسان يطرحون هذا التحدي على علماء النفس . وقد قبله كثير من الباحثين ومن بينهم س . ل . هـ و جون دولارد ون . إ . ميلر من معهد العلاقات البشرية في بيل . وقد لبثوا بضع سنوات ينشدون جواباً عن طريق التجربة فلم يجدوه كاملاً ، بيد أن عندهم بعضه .

وقد كان أول ما عرضه على لما ذهبت لزيارتهم في نيويورك ، قرداً صغيراً أسود العين . كان قابعا في مؤخرة قفص للتجارب مساحته حوالى ثلاث أقدام مربعة ، بينما يقبل الرجل للمسك بالكراسة الصفحة إلى التجربة رقم ٨٧٣ . ومس الرجل مفتاحاً فدى جرس دقا حادا ، فوثب القرد بحركة كاسحة إلى مقدمة القفص ، ودس يدا بين القضبان وجذب عتلة صندوق صغير فيه ضوء . وما كاد أن يفعل هذا ، حتى كف الجرس عن الدق ، وانطفأ النور .

وتطلع إلينا القرد بعينين حزنتين وقد ارتاح لا نقطاع الصوت ، لكنه كان ما يزال مشغول البال . ومد ثانياً إصبعاً طويلة بين القضبان كما لو كان يقول :

« أمل أن يكون هذا الشيء اللعين قد ذهب إلى غير رجعة » . ثم تحول ووثب إلى مؤخرة القفص ، وقبع هناك مرة أخرى ينتظر التجربة رقم ٨٧٤ . وكانت أرض القفص مصنوعة من سيور معدنية قادرة على أن تحدث صدمة كهربائية خفيفة . فبعد تجارب متكررة للصدمة تعلم القرد أن يجذب العتلة لوقف التيار . ذلك أن الصدمة كانت أولا ملازمة للضوء الذي في الصندوق ثم للجرس ، وفق مبادئ بافلوف . فالآن يجذب القرد العتلة لوقف الجرس من دون أن تصيبه صدمة كهربائية ، وإن أصابته صدمة شعورية .

وصعدنا إلى الطبقة العليا لنشاهد صورة متحركة مدعمة بالوثائق لجُرْدَيْن أبيضين ترى كيف يتعاملان الأشياء . وهو شريط لا يقل عن أبدع مجهود يبذله والت ديزنى . وكان أحد الجرذين جائعا جدا ، والآخر شعبان . وقد وضعا في قفصين متطابقين جنباً إلى جنب تتركز الكاميرا على أحدهما أولاً ثم على الآخر . وكانت هنالك آلة تم عن الحذق كانت تضع حبة من طعام في طبق كلما خفض قضيب معدني على شكل الركاب ، وهذه الفكرة تطابق فكرة الآلة ذات الشق الذي توضع فيه قطعة النقود .

كان الجرذ الجوعان لا ينقطع عن ارتياد قفصه بحركات سريعة تواقية بحثاً عن القوت . فإذا ما دار دورته الخامسة تقرّياً صدم القضيب المعدني انفاقاً . وهنا تهبط إليه حبة الطعام فيلتهمها من دون أن يفطن إلى الصلة بين السبب والآخر . ويدور في القفص ويعاود الدوران فيصيب الحين بعد الحين مكافأة أخرى بمحض الاتفاق . يضغط القضيب أول الأمر متخبطاً ، ورأسه أولاً في داخل الركاب ، ثم يتدرج في تأدية ذلك سرعةً ووثوقاً حتى يفعل ذلك آخر الأمر في هدوء وقلّة اكتراث . في تلك الأثناء يواصل الجرذ الشعبان في القفص التالي هضم ما يأكل بجترأ ، قابلاً في ركن ، غير مهتم أى اهتمام بآلته المائلة . بيد أن قفصه لسوء حظه مجهز

بقاع هزاز كقاع قصص القرد الحزين . فإيكاد التيار الكهربائي يطلق في هذا القاع حتى يشب الجرذ على كل شبعه — إلى أعلى القفص ، ويدبر من حركاته مرقصاً يزرى بكل ما ابتدع ديزنى ، يصدم في خلاله القضيب عنفاً فينقطع التيار . ويطلق التيار مراراً ، فينطلق الجرذ في رقصه الجنوني ، ويتكرر صدمه للقضيب بمحض الصدفة . ويتعلم الجرذ أن يجمع بين خفض العتلة وتلقى المكافأة ويفطن إلى ما بينهما من صلة — والمكافأة فيما يتصل به ليست قوتاً ، ولكن راحة من مشاعر متعبة في إخص أقدامه . وفضلاً عن ذلك ، وهذا مهم ، فإنه يتعلم بأسرع مما تعلم أخوه ، إذ دافع الألم أقوى من دافع الجوع ، لهذين الجرذين على الأقل في هاتين الشدتين .

فأية دروس نستمد هنا ؟ لقد ألف دولارد وميلر كتاباً يسمى « التعلم الاجتماعي والتقليد » لتوضيح الجوهرى في نظريتهما . فعملية تعليم شيء للبهونات العليا بما فيها الإنسان تقع عادة على أربع درجات :

- ١ — دافع كالجوع أو الألم يجعل الفرد على استعداد للعمل .
- ٢ — إشارة — كالقضيب المعدنى .
- ٣ — تجاوب — كجذب القضيب .
- ٤ — جزاء — كالطعام أو الراحة من الصدمة الكهربية .

هل علمت مرة أبدأ أن تقى على ذنبها وتستجدى ؟ إن الحوادث الأربع واضحة جداً في هذا الفصل من التعلم . فالدافع هو الجوع ، والإشارة هى قطعة من اللحم بين الإبهام والسبابة . والتجاوب الأول هو الوصول الذى تزجيه اللفظة . بيد أن الجزاء يأتى فقط حين تقى المرة على عجزها ويتبدل مغلبلها . وعند ما عدت إلى ثيوهيشن علمت قطيظتنا الجديدة أن تفعل هذا فى عشرين دقيقة — غير أنى

أسلم بأنها أخطر من معظم القطيقات ، فهي تقى الآن في أدب لأمى شيء تريد —
غذاء ؛ جرعة ماء ؛ خروج من البيت ؛ أن يلاعها أحد .

« فبعد أن يكمل التعلم يرتبط التجارب بالإشارة بحيث يثير مظهر الإشارة
التجارب والأحوال الذي يتعلم فيها البشر هي في ابتدائها اجتماعية
وحضارية . . . » فإذا لم يأت الجزء تلاشي التجارب تدريجاً . والجزء ، كما
رأينا ، يمكن أن يكون إيجابياً أو سلبياً — سروراً أو راحة من ألم . فإذا فسرنا
التدليل وبعد النظر عند البشر على أساس هذه الخطوات الأربع أمكن توسيع
النظرية بحيث تتضمن معظم أشكال السلوك البشري .

وترجع النظرية إلى بافلوف وثورنديك وواطسون وهل . وقد كان لإدواردس .
طولمان من جامعة كاليفورنيا يد فيها أيضاً . وقد حققت النظرية في مستويات
بسيطة ، لا بما مثل القرد والجردان فحسب ولكن أيضاً بتجارب أجريت مع
الأطفال ومع طلاب أكبر سناً وجنود . وفي هذه المستويات تسير النظرية سيراً
ناجحاً . وهي مادة صالحة لحزن المعرفة .

إن التنبؤ بالسلوك في مثل هذه الأحوال المراقبة ممكن حتى عن الكمية . مثال
ذلك عدد التجارب اللازمة لتعليم درس بسيط كجموعة من مقاطع عديمة المعنى .
ويدرك أصحاب النظرية أنه لا بد من مزيد من الأبحاث في المستويات العليا
في الحالات البشرية المعقدة . وميلر ودولارد كمالين طيبين راغبان في بذل الجهود
وشق الطريق إلى المعرفة ، طريق القياس والإحصاء وتكرار التجربة إلى
ما لا نهاية — نفس الطريق الذي سلكه العلماء الطبيعيون عشرات السنين قبل
أن تفتح السماء فجأة .

وبعض ما اخترع من النظرية يمكن تطبيقه تطبيقاً نافعا بطرق لا تقع تحت
حصص . مثال ذلك تبسيط التعليم في المدرسة وتحسينه ، والمساعدة على تفسير عادات

فرد بل حضارة وتوضيحها ، وكسب الأصدقاء ، والتأثير في الناس لدواع تتعلق بالتجارة أو الإعلان أو السياسة أو الاجتماع . والوقائع السياسية محركة بنوع خاص . فإذا أمكن أن يتعلم أى امرئ أى نوع من السلوك فإن ذلك يستتبع منطقيا أن يستطيع فى تأن إحداث تغييرات فى السلوك الفردى أو الاجتماعى .

وهذا الاستنتاج المنطقى يطوف مع ذلك بمصاعب علمية مختلفة كما يطوف بالمعقبة الكبرى الناشئة عن نقص القوة اللازمة لتطبيق المكتشفات . وبعض المصاعب العلمية يمكن تذليله بمواصلة البحث ، بينما يدعو البعض الآخر إلى نقد متواصل ، وربما إلى تغيير فى الاتجاه . يقول ماركس . ماى فى مقدمته للكتاب : « إن هذا الفرض ككل فرض علمى يفطر إليه كبدائية أكثر منها نهاية لمجهود فى الميدان . ونظرية التقليد فكرة تنشأ ، وتختبر ، وربما تغير تغييرا أساسيا بمواصلة العمل » .

ولقد شكك النقاد فعلا من أن المقابلات بين تعلم الحيوان وتعلم الإنسان قد دفع بها إلى أبعد مما ينبغى ، وأن الحاجة ماسة إلى معرفة أكثر تفصيلا بكثير عن تأثير الدوافع الابتدائية والثانوية على السواء ، وأن هذه النظرية كغيرها من النظريات التى يُقنع بها السلوكيون تميل فى الرأى العتيق الذى يقابل بين الطبيعة والتربية ، إلى الغلو فى توكيد التربية .

مساعدة الأمهات

وتولى الطبيعة ثقة أكبر جماعة فى بيل كذلك ، تعمل فى « عيادة أرنولد جيزل لتطور الطفل » فإن أعضاء العيادة يلاحظون الأطفال والصبية من يوم ميلادهم فى جماعات للحضانة ، وينشرون ما يكتشفون فى كتب كبيرة مزودة بالصور الشمسية يتهافت على شرائها أمهات الطبقتين الوسطى والوسطى العليا .

والراجع أن هذه الكتب وفرت على النساء ملايين من الساعات حافلة بالعناء .
وفي الحق أن أما شابة موسرة ليست مستعدة اليوم للعناية بجوئى الصغير إلا بعد
أن تستشير نسختها من كتاب جيزل ، فمن هذا الكتاب قد تتعلم على سبيل المثال
أن عادة جوني في ركل أخته الصغيرة عادة طبيعية جداً لمن هم في سنه من الأطفال ،
وأنه سيقطع عنها في سلام عما قريب . ولم يلاحظ الأطفال يوماً بهذه العناية
وبصوروا أو تسجل عاداتهم وترتب بهذا التفصيل . يقول الدكتور جيزل
في كتابه :

« إن حديث الولادة . . . يملك عند ولادته كافة خلايا الأعصاب المقدرة
أن يملكها . ولهذا الخلايا قابلية كبيرة للتعلم ؛ بيد أن نظامها إلى حد كبير قد
حدده الأجيال التي لا حصر لها ، أو ألزمته مجرى معنيا . . . فجهازه العصبي هو
حامل مجموعة هائلة من الملامات النشوية الارتقائية . . .
« وللوليد مميزات خلقية . . . جنسية وأسرية . . . ويصل الطفل إلى هذا
الميراث المزدوج عن طريقة عملية تُموِّر فطرية نسميها النضوج ، ويصل إلى الوراثة
الاجتماعية للحضارة عن طريق عملية التحضر . وهاتان العمليتان تتفاعلان ، بيد
أن التحضر لا يمكن أبداً أن يعاود على النضوج . »
فهو بهذا لا يعاق لحسب على البيئة والنوع أهمية أكبر مما يعلق ميلر ودولارد ،
بل إنه أيضاً أكثر توفراً على الملاحظة منه على النظرية والقياس . وإن المرء
ليشتبه في أن كلتا الطريقتين لازمة لفهم الكيفية التي تتعلم بها قطعة فجة من
الإنسانية أن تصبح عضواً مدرباً في المجتمع .

الوراثة زائد البيئة

من الراجع ألا يسمح اليوم عالم بتعيز إلى الوراثة أو إلى البيئة بعد إذ بدت

أهمية كليهما بهذا الوضوح . ومع ذلك فإن الجدل الدائم يستمر في صورة مختلفة ، فيميل علماء النفس إلى ترجيح عامل أو آخر . ولعل بيانا جليا كآى بيان عن كيفية تفاعل القوتين مما يتضمنه كتاب جديد منبه ألفه نورمان كامبرون من جامعة ويسكونسن وهو « سيكولوجية اضطرابات السلوك ؛ تفسير أحيائى اجتماعى » . والدكتور كامبرون هو أحد الإخصائيين القلائل في علم النفس وطب الأمراض العقلية كليهما . فبينما يتناول كتابه في الأصل حالات من الأمراض العقلية فإنه يقوم على نظرية عريضة في التطور الفردى . فهو يعتقد أن الشخصية تتطور بتداخل وثيق بين علم النفس والتعليم . فالوليد يظهر احتياجاته بمجرد ولادته ؛ وقد نظم المجتمع ليعاونه على قضائها . وحقا إن كل حضارة تقوم إلى مدى لا يدرك ، على حاجات أحيائية إلى القوت والملجأ والتزاوج والأبوية . وتسد حاجات الطفل في صورة اجتماعية فلا يسعه الأكل وحده أو حفظ نفسه دائما دافئا نظيفا . وهكذا فإن الرضا الذى يحسه ، وكذلك الخيبة إذا طالت شدته ، متصل كلاهما في كل مرحلة بشخص أكبر سنا منه يعتمد عليه . وبذا تنمو عاداته الجسمانية والعاطفية معاً ، وتنتج شخصية المرء من « النظام الفعال الذى يدمج نظم السلوك بعضها في بعض ، وهى النظم التى ينشئها كل منا بعمليات التعلم إذ ينمو من طفل أحيائى حديث الولادة إلى بالغ أحيائى اجتماعى يعيش في بيئة مؤلفة من أفراد آخرين وحاصلات حضارية . . . هذا دائماً هو التفاعل بين علم الأحياء والمجتمع . »

بذلك يضع كامبرون نتائج تجارب العلم في صورة ملائمة جارية من التطور البشرى . وقد يقول السلوكيون في بيل إن فرضه يلائم نظريتهم كإيضاح أكثر تفصيلا للكيفية التى تحمل بها الدوافع الثانوية محل الدوافع الابتدائية .

الجريمة والعقاب

وصفنا في الفصل الرابع دراسات هيلي — برنر التي أثبتت أن إجرام الأحداث كان يرجع في الأصل إلى سوء الوضع العاطفي في الطفولة المبكرة . وقد أدحض هذا الاستنتاج فرضين عزيزين : الأول ، أن الإجرام كان يرجع إلى « الخلق السيئ » المفروض أنه مطبوع في الطفل ، والثاني أنه كان يرجع كله إلى الفقر . وقد أخذ العلماء الاجتماعيون يُطبِّقون على ميدان الجريمة كله . ذلك أن الفكرة الحضارية والمعرفة الجديدة عن التكيف في الطفولة تلقيان شكوكا كثيرة على فكر تقليدية عن ردع العقاب .

ولهذه الفكر تاريخ طويل . ففي القرن السابع عشر كان الناس متأكدين من أنه كلما قسا العقاب عظم المنع . فلم تكن لديهم فكرة عن إمكان إصلاح المسيئين أو منع الجريمة بتغيير البيئة الرديئة . فكان من نصيب المجرمين مصير مخيف ينزل بهم في الغالب جهرة ليكون رادعاً للآخرين . فكان المحكوم عليهم يشقون أو يمحرون أو يمزقون إربا وتكسر ضلوعهم على العجل . كانت آذانهم تلم ، وأعينهم تفتأ بمسرح محمى ، وكانوا يكونون بالنار ، ويصابون بالكساح طيلة العمر . وفي إنجلترا إلى سنة ١٨٢٠ كان المرء يساق إلى المشنقة لأنه سرق آنية من الزنك .

وقد تقدمت الأمور بعض الشيء منذ تلك الأيام المريعة ، فإن هتلر نفسه لم يعذب أحداً على رؤوس الأشهاد . ومعظمنا يعرف الآن أن عناية الأسرة ، والوسط الاجتماعي ، يعملان شيئا للتخفيف من الإجرام والجريمة . فنحن نؤيد « الإصلاحات » ومحاكم الأحداث ، وطريقة « الكلمة » . وبعض الأمم قد ذهب إلى حد إلغاء عقوبة الإعدام .

إنه عندما كان نشال ميء الحظ يشنق علنا على « تيرن هل » كان نشالون أسعد حظا منه مشغولين بين الجمهور المشدوه . فالعقاب بينا يردع بعض المجرمين ، يعجز في حالات هي أكثر من ذى قبل عن نيل البعض الآخر . ولا يزال قانون العقوبات في تلك الأثناء يكره أن يأخذ بتحليل أدق وفحص ماضى المراء — أو غدده . « فهو يسجن أو يفرج بغض النظر عما يكونه الإنسان ، غير ناظر إلا إلى طبيعة ما اقترف من الناحية القانونية . » هذا ما يقوله جون باركر ويت الأستاذ بمدرسة حقوق ميتشيجان . وهذا إيلى مرثى من ديترويت يعرض فخوراً تلك الميدالية الذهبية التى تلقاها لأنه أول مجرم فى أمريكا حكم عليه مائة مرة . ويتلو فرانك إيفانز مباشرة بست وسبعين سابقة ، ثم كيت رسل بخمسين . وتحوى سجلات « اتحاد الصناعات البريطانية » ٧٦٦٢٦ شخصا عوقبوا ٢٣١٠١٥ مرة — أى نحو ثلاث سوابق لكل واحد .

ويعتقد الأستاذ ويت أن عجز العقاب عن ردع المجرمين يقوم على نفس الأساس الذى تستند إليه شجاعة الجنود فى القتال . فلا الجندى ولا اللص يتوقع أن يقف رقبه عند حد . والمنع الفعال للجريمة يتطلب شيئا آخر غير العقاب ، فلا يتطلب زيادة منه ، ولا يتطلب أحكاما أشد وأحسن ، بل يتطلب بديلا كلياً . والعقاب والمنع لا يتلازمان . ويقوم البديل الذى يرتئيه ويت على أربعة مبادئ :

١ — ألا يسجن بعض المجرمين إطلاقا كالأطفال مثلا .

٢ — ألا يسمح أبداً بالحرية لمجرمين آخرين يخدم المختصون من الأطباء أكثر بلاء بالمرض من أن يتركوا فى المجتمع على حريتهم .

٣ — أن يحلل جميع المجرمين علماء اجتماعيون وأطباء بغية الاهتمام إلى علل سلوكهم وشفائهم مما يشكون إن أمكن . مثال ذلك مقترفو الجرائم الخلقية — كالذى فحص أخيراً فوجد مصابا بالتهاب مزمن فى مجرى البول .

٤ — إن المجرمين الذين يطلق سراحهم لا يراقبون فحسب بل يساعدون مساعدة فعالة . مثال ذلك الغلام الذي سرق الحلوى وأطلق سراحه فعاد إلى سرقة الحلوى . فقد وجد السكر ناقصاً في شرايينه ، فلما عولجت هذه الحالة كف عن السرقة .

ويختتم ويت بوصفه محامياً وعالمًا اجتماعياً بقوله : « إن الجريمة يجب بعد الآن ألا تعرف بأنها عمل يعاقب عليه ، بل بأنها شيء يبدي خطر المجرم من الناحية الاجتماعية . » كخطر الإنسان المصاب بالنفوس . أما مبدأ العين بالعين والسن بالسن فإنه ينهزم أمام معرفتنا المتزايدة بالطبيعة البشرية .

الدكتور كينزى ورأيه

في الذكور الأمريكيين

لسكل الحضارات محرمانها المحسنة عن الجنس . وبعضها أقل قضاءً من البعض الآخر لكنه ليس في هذه المحرمات ما يقوم على أساس من المعرفة العلمية . ومحرمات المدنية الغربية وخاصة منذ عصر النهضة نجت عن إحسن وانفجارات عاطفية . وما من موضوع بحث أكثر مما بحث موضوع الجنس في أدب أو في السر ، ولا اكتنفه الغموض أكثر مما اكتنف هذا الموضوع — أرض صيد مجزية للأدعياء والدجالين ، والمهازل المنحطين ، وكسيحي العقل . فهو كما يبسطه الدكتور ألان جريج من مؤسسة روكفلر إذ يقول : « إن الخلط القائم بين الجهل والفسطة والإنكار والتعاضى والكبت والخفر والعقاب والاستغلال والسر والعلن ... لا يفضى لا إلى الاستقامة الفكرية ولا إلى الحشمة البشرية . »

وألفريد س . كينزى الأستاذ بجامعة إنديانا عالم بالحيوان مختص بالزناير .

وهب القدرة على بث الثقة في النفوس ودرج طلبته على مفاصله بمشاكلهم التي تدور في الغالب حول الجنس كما يمكن أن ينتظر من الشباب . وقد هال الدكتور كينزى ألا يجد ما يقوله لهم فيما خلا المواعظ المألوفة المتبلة بالحس المشترك سوى النذر اليسير . وقد كان الحزن العلمى الذى اكتشفه خالياً تقريباً ، فليس فيه بحث انتهى إلى نتيجة ، ولا نظرية محققة ، بل بضعة فروض لفرويد والحلايين النفسانيين .

فالشبان الذين تشغلهم سير الحياة يمكن أن تختبر صلاحيتهم ، لكنهم ماذا عسى أن يصنع لهم فيما يشغلهم من المسائل الجنسية ؟ لا شيء من الناحية العلمية . وهكذا هجر كينزى زناييره ، وهجر العلم الطبيعى إلى العلم الاجتماعى ، وقرر أن يجمع بعض الوقائع التي يعول عليها حقيقة عن السلوك الجنسى للبشر ، وأن يستخدم في تناول هذه الحقائق نفس الطريقة الإيجابية الحذرة التي استخدمها في علم الحيوان . وقد استهدف مائة ألف قصة للذكور والإناث في كل الأسنان . وكان ذلك من تسع سنوات مضت .

فلما جمع كينزى ٥٣٠٠ حالة للذكور الأمر بكيين ورتبها قرر أن ينشر مجلده الأول على أن يتبعه ستة أو سبعة أخرى . وقد ثبت أن ما نشر كان فتحاً في النشر ذا نسب مذهلة . فمع أن الكتاب بلغ ٨٠٠ صفحة مزودة بالجداول والخرائط فإن أكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نسخة بيعت في ثلاثة أشهر من تاريخ نشره . وقد استفتى جالوب الشعب فكان فيما يبدو موافقاً . وجاءت العروض التي نقد فيها الكتاب هستيرية بعض الشيء ، لكن معظمها كان محبذاً . وأصعب بطبيعة الحال أن تهاجم كتاباً محملاً بالحقائق الواقعة من أن تهاجم كتاباً مثقلاً بنظريات لم تحقق .

وتصور هذه الدراسة فكرة الرجل حامل الكراسة في العلم الاجتماعى إلى

درجة السكال . وهذا كل ما يملك كينزى ومساعدوه — ٤٠٠ سؤال ، وطريقة
فى الشفرة منزهة عن الخطأ ، وكراسة ، ثم آلات للجدولة تستخدم فيما بعد .
ويعرض على الأثر سؤالان عمليان : هل أخذ عينة كافية من « مجموع »
الذكور الأمريكيين ؟ فإذا كان فعل ، هل استخرجت طريقة الاستجواب حقيقة
تلك الوقائع المربكة التى كانت مدفونة إلى عمق بعيد — هل استخرجتها حقاً من
الرجل أو الغلام الذى كان يستجوب ؟ إن العلماء الذين استشرتهم — ومنهم
عدد حادتهم — يقولون إن كينزى لم يبلغ فى كلا الأمرين مرتبة السكال .
فالعينة التى أخذها متأثرة قليلا ، وتقارير أحاديثه تستند شيئاً ما إلى الجانب
الحفاظ . لكن كينزى مقتدر ، جاد ، حذر من الناحية العلمية ، عكف عشر
سنوات تقريباً على طرقه ليبلغ بها مرتبة السكال . ومن ثم يصح على قول هؤلاء
الخبراء أن نقبل النتائج على أنها تبلغ من الرجحان درجة كبيرة . وتطابق النتائج
معلومات سابقة لمشتغلين بطب الأمراض العقلية وآخرين عن المنافس الجنسية ،
لكنها تدل على أن عادات تثير الاشمزاز هى أعظم انتشاراً مما كان معظمنا يتصوره ،
وأن الدافع يبدأ أبكر ، ويستمر إلى أبعد مما كنا نظن . كذلك يبدو أن تمت بعض
الفوارق الغربية فى العادات الجنسية بين الطبقات العليا والدنيا ، إذ الأخيرة
عرفياً أكثر « استقامة » .

ومن النقط البارزة عامل العذاب ، الزمن والهمة اللذين يبذلها الكثير من
ذكور البشر لتهدئة الدافع الجنسى . فهل نجد هنا عقوبة أخرى لمجتمع ذى طاقة
عالية ؟ إنه يكفى فى الحضارات البدائية أن يكون الدافع قويا للتغلب على الجهود
الجسمانى العنيف الذى يبذل للبقاء فى عصابة صغيرة من الرّحل . فلعل البحث
الطبي أن ينشد طرقاً غير ضارة للسمو بالدافع الحيوى فى الإنسان الحديث .
على أن هذا نظر وتأمل ، وكينزى لا يقع فى شيء كهذا لا يمت إلى العلم بسبب .

فهو يقدم إحصاءات كتيّة عن : كم من الذكور الأمريكيين ينهمكون في أي تنفيس جنسى في أية سن ؟ ويقسم ذلك إلى درجات وطبقات . لكنه لا يقول لنا لماذا يفعلون ذلك أو كيف يمكنهم أن يعدّوه . وقد ترد النظرية في مجلدات مقبلة أو لعله يحتفظ بالنظرية لمن يقفون على كتفيه ، فللدكتور كينزى كتفان عريضان . وقد خلد فعلا بتوثيق فرع كامل جديد من الإنسان . وهو لم يقل الكلمة الأخيرة عن الجنس ، ولكنه أوجد إلى الآن أهم وأبعد استطلاع تم إلى هذه اللحظة .

لقد بلغنا النهاية في استيعاب ميدان العلم الاجتماعي ، وسنحاول من الآن
دلالات واستنتاجات مختصة ، ويمكن أيضاً أن تكون في هذا القسم الأخير
نظريتين رئيسيتين أو أكثر مما كنا نلجأ

إلى مدى التناقل الكمي الذي تواجهه الحياة اليوم في كل مستوى هي
الاتصال ، وواضح أن الدولات المتحدة والروسيا
راجمة في جانب غير متباعد من الاتصال ، فالألمان لا يستطيع إحداها أن
تخلت إلى الأخرى .

دلالات واستنتاجات

وكتب سلسلة من الدلالات مما شاهد ، ختمها بهذه الكلمات :

« نحن ، هاهنا ، نواجهنا اليوم حقيقة واقعة سامية هي أنه
كثير من البشر إذا كان لابد للمدنية من أن تعيش ، يجب أن
تتعهد علم العلاقات البشرية . قدرة جميع الناس
ولا شك أن هناك جميع الأنواع ، على العيش معا في سلام ،
في عالم واحد . »

فرانكباين د . روزفلت

للأمم المتحدة أن الرئيس في رأي كافي أن يبدأ مشروع اليونسكو
أنشئوا للرفاه الدولية على الطاقة الذرية وأنهم وقروا بأنه وضع بإسلاص ،
لقد كان للشروع - خيرا إلى حد أن الكومنين تأكد أن هناك في مكان
مضيف لم وشركا . وهذا مثال عجز من فشل الاتصال كما نثال يمكن أن
قع عليه في أي مكان .
وليس هذا بالمثل الوحيد ، فبسبب من أسباب الاضطراب في فلسطين والمند

نَشْرُ الْقَبَائِلِ

تَلْجُ لَتَنْتِ اَع تَلْا

فَأَرْقُ قَبِيلَ قَبِيلٍ قَبِيلٌ وَبِهَا السَّوَادُ
نَ أَسْبَحُ ، رَشِيدُ نَ أَرْقُ قَبِيلًا بِدَ لَا نَ لَا
رَبَّنَا وَجْهَ قَبِيلَةٍ . قَبِيلَتَا تَلْا تَلْا بِدَ
وَكَلَسَ رَقُ لَعْدَ رَشِيدًا رَقُ ، وَابْأَ تَلْا وَجْهَ
بَدَا اَع رَقُ .

شَقَرُ ، رَقُ رَقُ

٢٢ - إصلاح خطوط الاتصال

لقد بلغنا النهاية في استيعان ميدان العلم الاجتماعى ، وسنتناول من الآن دلالات واستنتاجات مختلفة . ويمكن أيضاً أن نكون فى هذا القسم الأخير نظريين وفلسفيين أكثر مما كنا قليلاً .

فإحدى المشاكل الكبرى التى تواجه الناس اليوم فى كل مستوى هى الاتصال . وواضح أن « الحرب الباردة » الناشئة بين الولايات المتحدة والروسيا راجعة فى جانب غير صغير إلى فشل الاتصال ؛ فالأمتان لا تستطيع إحداها أن تتحدث إلى الأخرى . وقد ذهب چون شتنبك فى صيف ١٩٤٧ إلى موسكو ، وكتب سلسلة من المقالات عما شاهده ، ختمها بهذه الكلمات :

« حسناً ، هاهى ذى الحالة . وجدنا ... أن الشعب الروسى ناس ، وأنهم كغيرهم من الشعوب لطفاء جداً . فالذين قابلناهم يفضون الحرب ، ويريدون ما يريدونه الناس جميعاً : حياة حسنة ، ومزيداً من وسائل الراحة ، وأمنًا وسلاماً ... ولا شك أن هنالك أناساً أرودياء ، لكن معظم الناس حتى الآن طيبون جداً . » لقد أكد لى الطبيعى رتشارد س . طولمان عضو لجنة الطاقة الذرية التابعة للأمم المتحدة أن الروسيين فى رأيه كانوا خلقاء أن يقبلوا مشروع ليلينثال - أتشيسون للرقابة الدولية على الطاقة الذرية لوأنهم وثقوا بأنه وُضع بإخلاص . لقد كان المشروع سخياً إلى حد أن الكرملين تأكد أن هنالك فى مكان منه مصيدة لهم وشركاً . وهذا مثال مخزن من فشل الاتصال كآى مثال يمكن أن تقع عليه فى أى مكان .

وليس هذا بالمثل الوحيد : فسبب من أسباب الاضطراب فى فلسطين والهند

والشرق الأقصى هو أن الناس لا يفهمون بعضهم بعضاً . والإضرابات والمتاعب التي تلقاها إدارات العمل هي غالباً نتيجة العجز عن الاتصال . فهكذا الكثير من الصغوف المشاغبة في بلاد ما ، والخصومات في داخل المنظمات ، والأزمات في اجتماعات اللجان ، والمشاحنات الشخصية ، بل مرض انقسام الشخصية في عقل واحد معذب . ففي كل مستوى نجد خطوط الاتصال مسدودة ومقطوعة غالباً قطعاً تاماً . ويؤكد إلتون مايو في كتابه : « المشاكل الاجتماعية في مدنية صناعية » الأهمية الجسيمة لهذه المشكلة فيقول :

« أعتقد أنه ينبغي أن تبدأ الدراسة الاجتماعية بملاحظة ما يمكن أن يوصف بأنه اتصال ، ملاحظة دقيقة . وأعني بالاتصال قدرة الفرد على أن يصل مشاعره وفكره بغيره ، وقدرة الجماعة على أن تتصل إحداها بالأخرى اتصالاً فعالاً حياً . وهذه المسألة هي بلا أدنى ريب معقول — النقص البارز الذي تواجهه المدنية اليوم ... فتابعنا الدولية ترجع بلا شك إلى حقيقة واقعة هي أن الاتصال الفعال بين الجماعات القومية المختلفة لم يتحقق ... فكثير ما كان ، على النقيض من ذلك ، يبذل مجهود « لإيجاد صيغة » ، إيجاد بيان منطقي يراد منه إخفاء حقيقة واقعة هي أن كلا من الجانبين لا يعرف شيئاً عن حالة الآخر الفعلية ... »

والاتصال كما ينسب له مايو كالدورة الدموية — هو انطلاق الفكر في مسالك ممتدة داخل جماعات من كل الأحجام ، وبين جماعات تصل إلى الوحدات القومية والدولية العظيمة . ويتوقف الاتصال في أدنى دورة على مقدرة الأفراد على التعبير ، ثم على الفعالية العضوية لجماعات صغيرة يفصح فيها الأفراد عن احتياجاتهم ورغائبهم ، وتتم فيها التعبيرات تصاعدياً إلى الدورة التالية الكبرى وهكذا دواليك . فمثل هذه الإتصالات الحرة ، تسهلها المساعدات الآلية ووسائط الجلمة — كالراديو والصحافة والصور المتحركة الخ — يمكن أن تتجاوب حسياً مع طلب

أونداء من الفئة القليلة التي لا تريد الحرب — نقول يمكن لأنها لم تفعل ذلك إلى الآن ، إذ أن وسائل الجلمة مشغولة بغير هذا في الغالب . والفئة القليلة لا تنصح .

عالم بالإنسان يتناول الاتصال

إن التعليم ، والعلم ، والتقدم البشري ، من كل درجة ، يتوقف كله على التعبير عن فكرة بوضوح ، وفهم جماعة المرء إياها . والمجتمع يتماصك بالاتصال . فالأمر كما يبسطه إدوارد ساير هو :

« بينما نتحدث كثيراً عن المجتمع كما لو كان بناء ساكناً ... فإنه شبكة معقدة إلى حد كبير من التفاهات الجزئية أو السكاملة بين أعضاء وحدات نظامية من كل درجة في الحجم والتركيب ، تتراوح بين زوج من العشاق ، وعصابة من الأمم ، أو تلك القطعة البشرية المتزايدة على الدوام التي يمكن أن تصل إليها بالصحافة ... »
« شبكة من التفاهات الجزئية أو السكاملة » . هذا تعريف طيب للاتصال كما ينتظر أن نجده ، وتعريف قوى كذلك للمجتمع نفسه . فهو يوحى بأن العلاقات بين الناس هي الشيء المهم ، لا في الأشكال الساكنة ، ولكن في نماذج فعالة متغيرة . ويمضى سافير فيشير إلى ثلاث طرق رئيسية للاتصال بين البشر هي :
(١) اللغة ؛ (٢) رموز في الحالات الفنية الخاصة — كشفرة مورس في البحر ، ونداءات البوق ، وإشارة الدخان ، وغير ذلك من الاستنباطات الخرساء البسيطة ؛
(٣) اختراعات ملائمة للاتصال كالتلغراف والتليفون والراديو والطيارة وغير ذلك من تدابير صناعات المواصلات والنقل .

فهذه الطرق الثلاث تنتشر حضارة بعينها . فإلى اختراع الآلة يرجع الفضل في أن الحضارة المسماة بالمدنية الغربية قد اكتسحت جانباً كبيراً من الكرة الأرضية . بيد أن سرعتها بالذات خلقت مصاعب خطيرة في كل مرحلة من الفرد

إلى الحكومات الائتلافية . فالإتصال الفردى المعوق قد يكون سببا رئيسيا لانتهيار عقلى . وهو فى الجماعة يكون سببا لخلافات تتفاوت فى درجة عنفها .

تسعة بحوث لدراسة الإتصال

لنلق نظرة وجيزة على تسعة أنماط من دراسات العلماء الاجتماعيين للإتصال . فبعضها أكثر تطورا من البعض الآخر بكثير ، وإن كان هناك ما يتعلم من كل منها . وما انتهت إليه هذه الدراسات لم يجمعه المهندسون الاجتماعيون ككل ينتفع به . فلو فعلوا هذا لقدموا فى رأى كتلة من المعرفة ذات تأثير وإن لم يتابعوا البحث . والدراسات التسع هى :

- ١ — الفرد . تعذر الإتصال كمشكلة من مشا كل الطب الروحانى .
- ٢ — حركية الجماعة . الإتصال فى الجماعات التى يواجه بعضها بعضا .
- ٣ — الإتصال فى العلاقات بين الإدارة والعمال .
- ٤ — الإعلان كإتصال .
- ٥ — تحليل الدعاية .
- ٦ — تحليل الشائعات .
- ٧ — الاستفتاءات كعمينة على الإتصال .
- ٨ — وسائط الجملة كمقويات .
- ٩ — علم المعانى .

تناول الإتصال من ناحية الطب الروحانى

إن عشرين فى المائة من الأسر فى المستشفيات العقلية بأمریکا يشغلها مرضى بمرض انقسام الشخصية . والعرض البارز فى هذا المرض هو الميل إلى الخلط بين

الألفاظ والمذلولات . ويقول ويندل جونسون في كتابه : « الناس في حيرة » إن هنالك تشابهاً مزججاً بين هذه الأعراض وسلوك بعض الناس خارج المستشفى ، ويستشهد بمريض يبلغ السابعة والعشرين من عمره تنشأت عنده أعراض العُصاب^(١) وهو بالمدرسة من أثر محتمل لعدوى . وهذا الشاب حسب ما ورد في سجلات المستشفى قد كان طالباً وسطاً من الأوساط الحسنة . وما يلي هو جانب من قصة حياته كتبت بوحى الأطباء :

« خذ كلمة « الحياة » على سبيل المثال ، وخذ كلمة « القانون » وكلتاها تبدأ [في الإنجليزية] بحرف L وتتألف من حروف عددها وحجمها عاديان ، لكنها مصحوبة بالتأثير الهام الذي يكون لكثير من التصنيفات الأخرى التي تشل الذهن كما يمكن أن يفعل الأثير الطبي أيضاً . وإني ، وأنا واقف أتأمل ، لا يسعني أن أتصور سلامة في مثل هذا الدافع . »

والظاهر أن المسكين لا يميز بتاتاً بين الأشياء المادية والأفكار المعنوية . واتصاله بغيره صعب جداً ، وأداة تفكيره قد كفت تقريباً عن أداء وظيفتها .

ديناميكا الجماعة

تتماسك كل جماعة صغيرة بخطوط اتصال بين الأفراد من أعضائها . وهنالك خطوط أخرى تمتد خارجها إلى جماعات أخرى . وقد كان كورت ليفن يؤدي عملاً باهراً حول بناء الجماعات إلى أن وافاه الأجل ، فوجد — وهو ماله مغزاه — أنه كلما كانت خطوط الإتصال أحسن كانت الجماعات أكثر تعلقاً بالديمقراطية . وقد استأنف مركز أبحاث ديناميكا [حركية] الجماعة العمل حيث تركه ليفن . فهنا على سبيل المثال مشروع مساكن حكومي لما بعد الحرب مخصص لمائة

(١) انقسام الشخصية .

أسرة يدرسه المركز . دور بيضاء جذابة تقوم وسط جماعة من أسر ضئيلة الدخل مستقرة هناك من قديم . والناس الجدد المنتقلون إلى هذه الدور لا ينتظر أن يحبوا جيرانهم الذين هم أفقر منهم . فهؤلاء يشعرون بأنهم منبوذون كما هم في الحقيقة والواقع . وقد سجلت خطوط الإتصال حالة من عدم الإتصال بتاتاً أو من العداء الصريح . وهذا أمر يعد أساساً كافياً للاحتكاك والتوتر والحزازات .

وقد جهد علماء مركز الأبحاث وأعملوا الفكرة في إصلاح الخطوط المقطوعة بالشروع في أعمال تشترك فيها الجماعات كلها . فأنشئت أولاً مدرسة حضانة لولاء الجماعتين ، ثم نظمت مرافق للشباب في دار البلدية . وأسست صحيفة جوار ، وألفت فرقة للعب الكرة ، وأعدت وسائل للترفيه بعد الظهر لمختلف الأسنان — تشترك الجماعتان في هذا كله .

فإلى أى مدى نجحت هذه الخطوة ؟ إن التقرير النهائى لم ينشر بعد . بيد أن النتائج الأولى مشجعة ، والمركز يأمل أن يصل إلى اكتشافات هامة عن حركة الجماعة « ولأن الإتصال مظهر أساسى للعملية الاجتماعية فإن المعرفة التى تستمد من هذا المشروع ينبغى أن تجدى فى كافة أنماط الجماعات تطبيقاً نافعاً ، من البيئة الصناعية أو الجيران إلى وحدات كبيرة كالعشيرة والأمة . . . »

خطوط اتصال العمال والإدارة

سيذكر القارئ من أحدث الدراسات التى تناولنا فيها علاقات العمال والإدارة — سيذكر ذلك التنويه الكبير الذى نوهنا فيه بالإتصال طرداً وعكساً من العمال إلى الإدارة عن طريق أداة الشكوى ، واللجان المشتركة ، وطرق الأحاديث ، وصناديق الإيحاء ؛ ومن الإدارة إلى العمال عن طريق نفس اللجان المشتركة ، والجماعات المختلطة ، والنشرات التى يزداد وضوحها والاهتمام بها ،

والتقارير والبيانات المالية التي تتناول أعمال الشركة . ومن أهم الطرق جميعاً تمكن العمال من العلم سلفاً بالتغيرات التي سوف تتناولهم .
إن الخرائط المتقنة التي يضعها للتنظيم المهندسون الموكول إليهم فحص المقدرة العمالية كان المعتاد أن تبدو جميلة على الحائط ، ولكنها لم يكن فيها كبير التفات إلى النفسية والسلوك البشريين . أما اليوم فالتنظيم يزداد مع الأيام توخياً لفرض مقصود هو وصل الإدارة بالعمل على يد الزعماء الطبيعيين أو المندوبين أو المبلغين في الجماعات غير الرسمية .

طريقة الإعلان

تدرس وكالات الإعلان والنشر طرق الاتصال على الدوام . وقد أنفقت ملايين على الأبحاث . بيد أن الكثير منها كان يرمى إلى الاحتيال على عابرة السبيل من المستهلكين بل وربكها أكثر مما هي . ومع ذلك فقد نجمت عن هذا النشاط الباهظ التكاليف بضع طرق وتعميمات سليمة ، ما في ذلك شك ، وإلا لما أنفق رجل أعمال بنسا على الإعلان وهو يملك قواه العقلية .

إن الطرق التي تحمل اللوم على التهاافت على شراء قبعة من إنتاج « لى » من المعقول أنها قد تحملها على المبادرة إلى تأييد مؤسسة العلم القومي ، أو اليونيسكو . ومن المؤكد أنه قد ثبتت فعالية هذه الطرق في بيع سندات الحرب ، والضرب على أيدي الأسواق السوداء ، وتشجيع الإنتاج ، وإحياء أعمال الجواسيس أثناء الحرب . وهناك طرق مماثلة ثبت نفعها في حملات للاكتتابات العامة ، والصحة العامة ، وإجراءات السلامة ، وتحسين الغذاء ، وحملات كثيرة أخرى للمصلحة العامة ، لا علاقة لها بالتجارة .

ولست أعلم أن جماعة من العلماء الاجتماعيين غنيت بتطهير الفروض والنظريات

والمبادئ التي تقوم عليها الإعلانات . ولعل ليونارد دوب قد قام بأحسن بداية في تحليله العلمي للدعاية . وقام جيمس رورتي في « صوت سيده » بتحليل نفاذ أريب ، لكنه كان — وليسمح لنا بأن نقول — « عملاً داخلياً » . وقد كان رورتي نفسه نسخة مكتوبة . وإن دراسة مجزية ذات أسلوب عام تدور حول ما اكتشف المعلنون عن الإنسان لتنتظر فرقة من العلماء .

تحليل الدعاية

لقد شجع قيام موسوليني وهتلر كثيراً من الدراسة الموضوعية في سنى ١٩٣٠ للأساليب التي استخدمها هذان الدجالان اللامعان : أية خيوط جذبا ، وفي أية أوتار نفخا لتحريك جمهور الشعب من الأعماق ؟ وقد بدا حقاً في لحظة ما كما لو كان هتلر اكتشف سر السكيفية التي تبدل بها الحضارة في سواد ليله — وهو شيء لا يسلم بإمكانه عالم الإنسان وهو مالك لحواسه . بيد أنه انضح في النهاية وضوحاً لا غموض فيه أن ما صنع هتلر كائناً ما كان ، لم يكن حسناً كله .

وسيفسر لنا يوماً جماعة من العلماء قيام هتلر وسقوطه بهذه الصورة الخارقة للعادة . ويلوح أنه استخدم كلا اللقانة والعلم . فكان على الدوام يستشير الفلاسفة ، لكنه كان مع ذلك ينتفع بدرجة كبيرة من العلم الطبيعي الألماني وكذلك من العلم الاجتماعي إلى درجة لم تعرف من قبل . وقد اشتغل علماء النفس في بلاده بالصلاحيات الخاصة بالمهن في اختيار الطيارين ورجال الدبابات ، وبنظام الفرقة في خلايا الحزب ووحدات الجيش الصغيرة — ومن يعلم ماذا أيضاً ؟ ولوددت أن تكون لدي هذه المادة لأفيد منها في هذه اللحظة بالذات .

إن لى عدة سنين أراقب حملات الدعاية . وليست حملة هتلر بالوحيدة التي انفجرت في وجه صاحبها . ومثل هذه الحملات تبدو أشد ما تكون تأثيراً لبضعة

أشهر أو بضع سنوات ثم يأخذ الناس يستشفون ما وراها . أنظر إلى الأب كفلين ! أنظر إلى أولئك العنيدون القدماء التافهين من أنصار المذهب الشيوعي الذين لم يتغيروا فتيلاً منذ ١٩٠٩ . لماذا تبدأ هذه الحملات هذه البداية الطيبة ثم لا يلبث بريقها أن ينطفئ ! هنا فرصة أخرى لبحث جوهرى .

تحليل الشائعات

لقد عاون جوردون أولبورت من هارفارد أخيراً فى دراسة الشائعات — كيف تنشأ ، وكيف تدور وتروج . وقد أسمى كتابه « سيكولوجية الإشاعة » والإشاعة ، أكثر أيضاً من الاعلان والدعاية ، دراسة فى علل الاتصال . والإشاعات — كما هو طبعها — إما أن تكون حقائق مشوهة تشويها شديداً ، وإما أن تكون خلواً من كل أساس يستند إلى الحقيقة . فهى تتحرك غالباً بسرعة سحرية — بضع كلمات يهمس بها « فلا تلبث أن تعم المدينة » نتصور معها مجرى متضاعفاً .

ويستشهد أولبورت بحكاية أجراس أنقرس فى الحرب العالمية الأولى : الوجه الأول — خبر ترويه كولنيش تسانتونيخ : « عندما ذاع سقوط أنقرس دقت أجراس الكنائس » (احتفالاً فى ألمانيا بالنصر .)

الوجه الثانى — تلتقط الماتان الباريسية الخبر : « روت كولنيش تسانتونيخ أن رجال الكنيسة فى مدينة أنقرس أرغموا على دق أجراس الكنائس عندما أخذت القلعة . »

الوجه الثالث — وتدخل التيمس اللندنية فى المسألة : « اتصل بالماتان من كولونيا أن رجال الكنيسة البلجيكيين الذين رفضوا أن يدقوا أجراس الكنائس عندما استولى الألمان على أنقرس طردوا من أسرا كثرهم . »

الوجه الرابع — وتلتقط كوربيرا ديللاسيرا القصة في إيطاليا : « وفاقا لما ما اتصل بجريدة التيمس من كولونيا عن طريق باريس ، قد حكم بالأشغال الشاقة على القسس المساكين الذين أبوا أن يدقوا أجراس الكنائس عند ما سقطت أنفوس . »

الوجه الخامس — وتعود القصة إلى الماتان الباريسية على هذا النحو : « ثبت مما علمته كوربيرا ديللاسيرا عن طريق لندن أن غزاة أنفوس المتوحشين عاقبوا القسس الباجيكيين المساكين على رفضهم التسم بالبطولة — أن يدقوا أجراس الكنائس عند ما سقطت أنفوس ، بتعليقهم في الأجراس كمداقات حية لها ورؤوسهم إلى أسفل . »

على هذه الوجوه تروى قصة بدأت بحقيقة بسيطة هي أن المنتصر بعد استيلائه على مدينة أمر بأن تدق أجراس الكنائس في بلاده هو ، ثم كبرت حتى بلغت قصة المداقات الحية ، تلك القصة الخيالية ، فصدقتها ملايين لا تحصى ، ولم يداخلها فيها أدنى شك ، كما هو الشأن بغيرها من قصص الفضائع الشهيرة التي زعموا أنها اقترنت في الحرب العالمية الأولى .

والإشاعة كخبر سلبي دواء معين — مشروعات كبيرة لخبر إيجابي . وكل ناشر يعلم هذا ، ويجب أن يقول الحقيقة ما وسعه ذلك .

وأجراس حكاية أنفوس لا تصور فحسب الطريق التي تنتشر فيها الشائعة ، بل تصور كذلك نظرية أثيرة أركز عليها موقفا عاطفيا قد لا يكون علميا . وهو أن تعمد إفساد خط الاتصال هو تقريبا أشنع جريمة يمكن أن يرتكبها المرء . فذلك كتسميم الآبار في الصحراء . فنحن الفانين نميل إلى تصديق أى شيء نسمعه وخاصة إذا كان متعدد الجوانب ، حتى لیتعین على أولئك الذين منا بضاعتهم الكلام ، أن يفعلوا كل شيء في مقدورهم ليجعلوا هذا الكلام واضحاً وحقيقياً .

الإستفتاءات

إن هدفنا الأكبر من التحرى الجدى للرأى العام هو إحاطة الزعماء علماء بما يريده الناس ، والتقريب بين الجماعات فى العشيرة . وما ارتآه للمورور من إنشاء وكالة استفتاء حكومية رسمية لجعل الكونجرس والإدارة على علم دائم بمواقف الجماهير فى المسائل العامة ، إنما هو دعوة إلى إيجاد أداة اتصال جديدة .

فلاستفتاءات يمكن أن تساعد على تطهير الخطوط فى المصنع ، والجماعة الصغيرة ، والأمة ، بل فى الشؤون الدولية . وإننا لنشرع بالفعل فى إجراء استفتاءات متقابلة فى مسائل ، كمشروع مارشال ، فى أمم مختلفة فى وقت واحد .

وسائط الجلمة

لاحظ أرشيبلد ماكليش أخيراً ما بلى :

« إن تطوار أدوات الاتصال بالجلمة يجعل من الممكن لأول مرة فى التاريخ البشرى الوصول إلى أرقام كبيرة بصورة مباشرة سلمية حياة إنسانية ، مع تعبير عن حياة الناس فى الأمم الأخرى وعن أخلاقهم وعاداتهم وفنونهم ... وقد أتاح لنا نظامنا الفنى بأحكم مما أتخنا ، وسيلة لم يتكهن بها ، ولم تكن قابلة للتكهن ، لتفاهم يعم فى اللحظة التى بات فيها التفاهم العالمى هو الوسيلة الوحيدة لسلم دائم . »

فالرايو والسينما والتليفون والتلغراف والنشرات الملقاة من الطائرات وما إلى ذلك تتيح الآن لجماهير عظيمة من الناس فرصة التأمل فيما بلى حضارتهم فى حضارات أخرى ، فيفرخ بعض روعهم ، وينحف عداؤهم . وكان إلى الآن من يستطيعون ذلك حفنة من علماء الإنسان والرواد والفلاسفة .

وقد توحى فكرة المستر ماكليش بشريط سينمائى مدعم بالوثائق ترعاه الأمم

المتحدة ، فينقل النظارة من بلد إلى بلد ، مبدئياً وجوه الناس البسطاء في حالات تقع في الغالب أثناء الحرب ، منطويّاً على معنى عالمي واستهواء لا يقاوم . وإنك لتشاطر المخاوف إسرائيلية صينية عجوزاً تراقب السماء توقماً لطائرة من فاذقات القنابل وعلى وجهها الذكي يرسم الرعب والجلد . وتصنى فتاة صغيرة في بولنده إلى مشروعات الأمم المتحدة فتبتسم إبتسامة هي مزيج من الشك والشوق . فاندفاع العطف البشري الذي تسوقه مثل هذه الصور يتخطى المسافات والحواجز كضرب من ضروب « التفاهم العالمي » .

ووسائل المجلة ميسورة أيضاً لتحسين الإتصال ، بقدر لم يسبق ، في جبهة الوطن ، وذلك كلما استنبطنا الطرق والوسائل لتقديم شيء أوضح إلى الآلات . والجو كما هي الأحوال الآن يتفجر بموجات الراديو ، بينا بطاريات المطابع الدائرة تحت دأبة الحركة ، وإن لم تخرج سوى القليل مما له معنى . فهذا هو التناقض القديم الذي ينتج فيه السخف بأروع دقة تصدر عن الآلة . ولك في هذا أن تقارن الأدوات العظيمة التي تحويها غرفة المراقبة في محطة إذاعة كبيرة بنوع البرامج التي تقدمها المحطة .

يصل بنا هذا إلى ما قد يثبت أنه أنفع أداة في فاض أدوات الاتصال بكامله — إلى علم المعاني الذي يظهر على السطح . وقد تكون لنا هنا آلة تصبغ على الفور من القوة بحيث تزيل السخف أو على الأقل أسخف ما فيه ، وتخلي طريق خطوط الاتصال ، وتسمح لوسائل المجلة بأن تؤدي وظيفتها كما يأمل مستر ماكليش . ربما أكون غالباً متحمساً ، لكنني أرى على الأقل أن علم المعاني يستحق فصلاً بذاته .

٢٣ - علم المعاني كأداة

يستهدف علم المعاني كطريقة لبحث مشكلة الاتصال الكبرى ثلاثة أغراض :

١ - إغانة الفرد على التفكير الأسلم .

٢ - تحسين الاتصال بين الأفراد وبين الجماعات .

٣ - معالجة الحالات العقلية الشاذة (ويعنى « علم المعاني العام » لأفرد

كورزيسكى على الأخص بهذا الغرض ومن ثم اتصاله بالطب الروحاني .)

وهذه الأغراض واضحة في مستوى بعينه وضوحاً كافياً ، لكنها في مستوى آخر تميل إلى الاختلاط . وعلم المعاني غير معنى بالتعاريف القاموسية ، ودخلة قليل بفقهاء اللغة أو الأجرومية أو أصول الكلمات . وحسبنا أن تكون أمامنا كلمة أو عبارة بعينها ، فكيف يكون استعمالها ؟ لعله ينبغى مع ذلك أن نبدأ بتعريفين أعدهما س . ل . هياكاو لدائرة المعارف البريطانية الجديدة :

علم المعاني هو (١) دراسة الأحوال التي يمكن أن يقال فيها إن لعلامات أو رموز تشتمل على كلمات ، معنى ، ودراسة المعاني المحتملة ؛ (٢) دراسة الأجوبة البشرية عن العلامات والرموز ، ودراسة العلاقات بين الكلمات والأشياء ، وبين اللغة والسلوك .

سلم في المعاني

ولنفرض أننا ، بمعونة المقالات الموجودة في دائرة المعارف البريطانية ، أعدنا سلماً لعلم المعاني على امتداد خط السلم « الذرى » وسلم « السكان » اللذين أعدناهما من قبل .

أرسلطو ، بدأ بدرجة الكرة في قوانينه المشهورة عن الفكر أو المنطق

الشكلي . وحقا لقد لبثت تتدحرج من دون مساعدة أخرى قرابة ٢٠٠٠ سنة . وقد كان هذا داعياً للأسف ، ذلك أن أرسطو لم يقل لنا في الحقيقة قط فرق ما بين كلمات في رؤوسنا وأشياء في العالم الخارجي . فالمنطق الشكلي يهدف في جمل الأشياء تسلك سلوك الكلمات مما أدى كثيراً إلى انعكس النتائج . مثال ذلك أن المنطق الشكلي يقول إن الشيء الحى يجب أن يكون إما « حيواناً » وإما « خُضراً » . بيد أن علماء الأحياء قد عينوا عدداً من المتعضيات مثل اليوجلينا ، وهى متعض ذو خلية واحدة حائز على خواص الاثنين ولا يمكن أن يسمى بأحدهما .

ليدى ثيولا ولبي ، أنتجت أول فحص منظم لعملية الاتصال ، فهى تجتهد في كتابها « ما المعنى » المنشور في عام ١٩٠٣ في التنقيب تحت بناء اللغة كما قدم إلينا . رسل وهو يتهد ، يتحركان في سنة ١٩١٠ لمؤازرة السيدة بكتاب « مبادئ » الرياضة « فيقولان « إن مواطن الإبهام في اللغة تخفى إبهامات غير شرعية » . ومعنى ذلك إساءة استعمال تجريدات من النوع العالى .

لودفيج فيتجنشتين ، ومخل الإيمانيي المنطقيين في فينا ، يستخلصان في أعقاب رسل وهو يتهد أن « كل المشاكل التقليدية للفلسفة عديمة المعنى من الناحية العملية . ومعظم المسائل والارتياضات التى يعرضها الفلاسفة ناتجة من حقيقة واحدة هى أننا لا نفهم منطق لغتنا . »

أوجدن وريتشاردز ، ينشران في سنة ١٩٢١ كتابهما الكلاسي « معنى المعنى » ثم يبتكر أوجدن « الإنجليزية الأساسية » بينما يستخدم ريتشاردز مبادئ معانية في تحليل الأدب .

ب . و . بردچمان ، الذى طالما ذكرناه ، يساهم مساهمة عميقة في علم المعانى بفكرته الخاصة « بالتعريف العملى » للعبارات ، لا في علم الطبيعة فحسب . فهو

يقول إن الطول لا يقرره شيء تقوله بفمك ولكن شيء تفعله يدك . وقد ظهر كتاب « منطق الطبيعة الحديثة » في سنة ١٩٢٧ .

لو كاز يفتش وتارسكي ، يشكران في أوائل سني ١٩٣٠ منطقاً فعالاً ثابتاً ذا قيم كثيرة يتعارض والتأكدات المضللة التي قدمها المنطق الشكلي .

ألفرد كورز يديسكي ، ينشر في سنة ١٩٣٣ كتاب « العلم وسلامة العقل » وفيه يصوغ « علم المعاني العام » صياغة فريدة جسيمة ، ويدل العنوان على تناول الطب الروحاني .

دائرة المعارف الشعوية للعالم الموحد ، صدرت في سنة ١٩٣٨ على أساس معاني قوى تحت رعاية أوتو نويرات ونيلزبور وبرتاند رسل وچون ديوي ورودلف كارنوب وتشارلز و . موريس .

جماعة قانونية ، تشتمل موريس ر . كوهين وچيروم فرانك وتورمان أرنولد وكارل ليثيلين تشرع في سنة ١٩٣٠ في إجراء تجارب بطرق بحثية معانية مختلفة في القانون .

جماعة من علماء الإنسان ، بدأت بمالينوفسكي وسابيرتستنجن أن اللغة ، وهي بعيدة من أن تكون مجرد تعبير عن الأفكار ، تقرر في الواقع طبيعة الحقيقة التي يفهمها المرء . وأمثال لندنبرج من الاجتماعيين يستخدمون أيضاً علم المعاني ، بينما يقول الدكتور نورمان كامبيرون الطبيب الروحاني : « إنه لكي نستريح سيكون علينا أن نفرق بين سلوك اللغة وتفكيرها ، لكنه غالباً ما يكون من الصعب جداً من الناحية العملية أن نقول متى يبدأ أحدهما ومتى يكف الآخر . . . » ، (إذا كفت في شك من هذا فافرض أنك تحاول تنشئة خيط من الفكر بلا تعبير .) من هنا فصاعداً — والتاريخ الآن سنة ١٩٤٠ — سينفرع سلمنا إلى نواح كثيرة ، ولعل التشبيه بفرقة من البهلوانات يقف بعضهم فوق أكتاف بعض

يصبح في هذا الصدد أكثر ملاءمة . فستجد في دائرة المعارف البريطانية الجديدة مراجع كاملة ، والكتب يزداد خروجها من المطابع . وهنا صحيفة ربع سنوية تسمى « الخ » تنشرها جمعية المعاني العامة في شيكاغو . وقد كان علم المعاني العام يُدرس تحت عناوين مختلفة في اثنتين وعشرين كلية . وهو يستخدم في مشا كل العمال وإدارات الأعمال ، وفي البيع ، وأعمال المستخدمين ، والطب ، والطب الروحاني ، والاستشارة وغير ذلك من الميادين .

علم المعاني العام

لقد كان لألفرد كورزيبسكي المولود في بولندا سنة ١٨٧٩ خبرة واسعة كمهندس ورياضي ومؤلف ومدير صناعي . وقد قام بالدور المقابل لدور برنارد باروخ في الحرب العالمية الأولى في الصناعة الروسية في عهد القيصر . فبعد عشرة أعوام من البحث المتواصل فيما كتب عن العلوم الطبيعية ، والطب الروحاني وعلم النفس وعلم وظائف الأعضاء ، ألف كتابه « العلم وسلامة العقل » . وهو كتاب صعب ، كثير التكرار ، ممل ، لكنني أحسب التاريخ سيسجل أن شيئاً ذا أهمية كبرى قد زيد على المخزن .

ويرى كورزيبسكي أن سلوكنا من لحظة لأخرى وكذلك صحتنا العقلية تقررها افتراضات مما قبل العلم تنطوي عليها اللغة التي تعلمناها كأطفال ، فالعلماء على سبيل المثال يحاهدون هيا بين للمنطق ذي القيمتين ؛ لكن بناء لغتنا يرغنا عملياً على أن نختار بين الأسود والأبيض مع قليل من التسامح لظلال الرمادي . ويقول كورزيبسكي إن المعتقدات التي يعتنقها الناس ترتكس على الجهاز العصبي ، فإذا اختلطت المعتقدات اختلطت وظائف الأعصاب .

وفي العمل العلمي يهرب الناس من هذا الارتهاق للغة باستعمال رموز

خاصة ، وخاصة تلك الرموز المتعلقة بالرياضة ، تكون أقرب إلى حقيقة ما يجري في الطبيعة ، وأكثر مطابقة أيضاً للجهاز المصنوع البشري . ولم يقد كورزيسكى الدليل على هذه النقطة الأخيرة ، لكنها فرض في طبيعته التحدى . ومن المؤكد أن علماء الذرة يبدون نمطا من التفكير المباشر حرم منه معظم الفانين . وقد تكهن كورزيسكى في سنة ١٩٣٣ بأن صغار طبيعينا سيكونون ، من جراء أمط الاتصال الجديدة التي أخذوا يستخدمونها ، أجلد وأقوم مفكرين عرفهم العالم . وقد تحققت نبوءته . فإنه ليرجى من الناس ، إذا جعلوا مبادئ علم المعاني قيد أذهانهم ، أن يأخذوا على العموم في التفكير بنفس الجلد والاستقامة اللتين يفكر بهما الطبيعيون .

إن علم المعاني العام يشبه بخريطة في ثلاث قضايا منطقية :

- ١ — الخريطة ليست أرضا ، والكلمات ليست بالشيء الذي تمثله .
 - ٢ — الخريطة لا تمثل كل الأرض ، والكلمات لا يمكن أن تعبر عن كل ما يُعرف عن شيء ما .
 - ٣ — الخريطة تعكس نفسها ، والخريطة المثالية لأرض تمثلها يمكن أن تشمل على خريطة لخريطة لخريطة . ونحن يسعنا أن ننطق بكلمات عن كلمات عن كلمات الخ .
- إن في باطن كل منا صورة من العالم تمثل عالما بأسره من الأشياء المادية والأحداث والعلاقات . وقد دخل في هذه الصورة كل شيء نعرفه أو نظن أننا نعرفه ، فهي «خريطة» حقيقتنا . وما كنا من دونها لنهتدى إلى طريقنا في الحياة بحال من الأحوال . وقد أحسن ترتيبنا حسب محبتها ، وما يناسب ما نتذكر من حدودها . ويؤكد ذلك على الدوام المشتغلون بعلم المعاني العام .
- فنحن حين نتكلم ندفع بالكلمات إلى علاقات محدودة بعينها . ومع ذلك

فإن الأشياء الفعلية التي تمثلها هذه الكلمات أو الرموز قد يكون لها علاقات مختلفة كل الاختلاف . ويحدث هذا لأن الأجرومية والمنطق الذين نستعملهما ما يزالان يحتفظان بكثير من التخمينات الخاطئة مما قبل العلم عن العلم . مثال ذلك القول بأن « الأشياء المتشابهة قد تعد واحدة » أو أن « أجزاء الأشياء يمكن أن تعد عديمة العلاقة بالمجموع » أو أن « جوهر الأشياء لا يتغير أبداً » . مثل هذه الآراء كانت خيراً مما ملك الجنس البشري ، بيد أن المشتغلين بالعلم قد وجدوها أكثر غلطاً من أن تحتمل ، ووجدوا رموزاً خيراً منها في المنطق العديد القيم وفي الرياضيات .

والذين يستعملون الرموز القديمة بطريقة صارمة مطلقة يجدون من الصعب جداً أن يحلوا المشاكل سواء في مكتباتهم الخاصة أو في اللجان . فهم يحتاجون ويمجادلون ويختلفون . والذين يتبينون في الرموز ما هي ، مع العناية بالانفات إلى العلاقات ، ليسوا من المجادلة بهذا القدر تقريباً . فقد وجدوا الطريق إلى الانفاق وبأيديهم خرائط حسنة صالحة للاستعمال .

أنماط من الانسدادات المعانية

إذا لم يمر المعنى كان خط الاتصال مسدوداً ، وبات فلان لا يفقه ما يقوله علان . وأهم من هذا أن علاناً قد يكون بسبيل دخول مستشفى للأمراض العقلية إذا بلغ من أمره أن يعتقد أن الخريطة والأرض شيء واحد . وتتضمن الانسدادات المعانية ما يلي :

خلط الكلمات بالأشياء .

خلط مستويات التجريد .

العجز عن التمييز بين الحقيقة والاستنتاج .

الإيمان بالملقات .

إغفال خواص مهمة .

الخطأ في تحقيق الشخصية .

الأحكام ذات القيمة .

الاعتقاد في قوة الكلمات - كسحر الكلمة .

لقد كثرت ما نكتب العلم الاجتماعي في صورة جدية بمتعة التجريد . فقد ابتكرت عبارات - عبارات سامية مما ينطبع في النفس ، عبارات تجعل المرء يعارض نفسه - ولأن الكلمة حاضرة يفرض الناس أن شيئاً لا بد أن يكون موجوداً ليطابقها . وسرعان ما تشحن أذهانهم بكيانات لم يرها أحد قط ، ولا يمكن أن تسجلها آلة التصوير . فقة من الإيكتوبلازمات الشفوية .

والمشتغلون بالعلوم السياسية هم أنشط من ابتكر مثل هذه العبارات . على أن الاقتصاديين لا يقلون عنهم في هذا كثيراً ، بينما يخرج علماء النفس بين الحين والحين هولات لفظية ، وكثيراً ما يشغلون العشر أو العشرين الصفحة الأولى من رسالة بتعريفات خفية . فإين في عالم الزمان والمكان يمكن أن نوجه آلة تصوير إلى ملاحظة ظاهرات كمبارات « السكونية » و « المؤسسة الحرة » و « الجبرية الاقتصادية » و « الرأسمالية » و « الاشتراكية » و « الديمقراطية » و « الانفرادية » ؟

وقد يكون أولاً لا يكون لهذه العبارات نفع فني كناوين لربط لم من الحقائق الملاحظة ، لكنها على التحقيق لا تمثل كيانات حية . ومع ذلك فإن الناس يتصرفون على الدوام كما لو كانوا يشيرون في هذه العبارات إلى شيء حتى يتنفس هناك فيما يلي أذهاننا . فالطريقة العلمية ، في محبة تجريدات كهذه تعنى مثل هذه الأشياء الكثيرة المختلفة لأناس مختلفين ، تتمطل تعطلا تاماً .

قضية ديفيد ليلينتال

من الأمثلة البارزة على التحقيق الخاطئ للشخصية — وهو الذى يفرض أن الأشياء لا بد أن تكون واحدة لأن الكلمات واحدة — محاولة السناطور ماك كيلر فى سنة ١٩٤٧ أن يثبت أن ديفيد ليلينتال شيوعى ، ومن ثم غير صالح للعمل فى لجنة الطاقة الذرية . وقد قرر السناطور حقيقة هى أن والديه وُلِدَا فى تشيكوسلوفاكيا التى كانت عندئذ جزءاً من امبراطورية النمسا والمجر . وقد تزح الأبوان إلى أمريكا قبل تحول القرن ، وأقاما فى إلينوا حيث وُلِدَ ديفيد . وقد أبان ماك كيلر أن تشيكوسلوفاكيا اليوم تحت السيطرة الروسية . ومن المعلوم أن الروس شيوعيون منذ سنة ١٩١٧ . وعلى ذلك يمكن أن يكون كل التشيكوسلوفاكيين شيوعيين ، ويكون كل امرئ عاش فى هذه المنطقة شيوعياً يحمل وصمتها ، وفى ذلك ذريته أينما كان ميلادها . وبذا يكون ديفيد ليلينتال رجلاً خطراً ينبغى حرمانه من المنصب ! كل هذا قد قيل فى صورة جدية فى لجنة هامة تابعة لهيئة تشريعية ربما كانت أعظم مثيلاتها نفوذاً فى العالم . وقد أصغى إليه بصفة خاصة ، وسجل مختزلونا تفاصيله ، وروته الصحف ، وأذاعه الراديو فى نطاق واسع . وليس يعلم أحد كم من الناس ممن قرأوا هذه القصة وافقوا على أن السناطور وصم [خصمه] بوصمة شيوعية . وليس فى الموضوع أن ماك كيلر كان يعتقد هذا أولاً يعتقدده ، لكنه ما كان ليلجأ إلى هذا الأسلوب لو لم يكن متأكداً من أن أناساً كافين سيعتقدونه ويعينونه على قضيته .

برنامج معقد

وإليك تصويراً لفشل الاتصال على نحو أهون .

« يا مدام لي ، هل ترين أن النساء بتن خيراً مما كن كربات بيوت ؟ ^(١) »

« أي نساء ؟ »

« أي نساء ؟ أي نساء »

« لكني لا أعرف أي نساء ؟ بل أعرف فحسب نساء بعينهن »

« حسناً إذن . النساء اللواتي تعرفينهن . هل هن كربات بيوت خير مما كن ؟ »

« أولاً إنني لا أعرف ماذا كن . ثانياً لا أعرف ماذا تقصد بربات بيوت

أحسن ؟ هل تعني أن قاشتهن يناسب أغطيته وسائدهن ؟ هل تعني أنهن يراجعن

أسعار الستائر قبل أن يشتريها ؟ هل تعني : هل يطهين الخضر من دون أن

يتلقن الفيتامينات ؟ »

« أعني كل هذا . »

« لكني لا أستطيع الإجابة عن هذه الأشياء جميعاً مرة واحدة . »

« حسناً إذن ، أجيبي عن واحد منها . ولنقل هل النساء اللواتي تعرفينهن

يطهين الخضر من دون أن يتلقن الفيتامينات ؟ »

« لا أستطيع القول . فإني لم أذق خضرن قط من أجل الفيتامينات .

ولا أعرف كيف أفصل ذلك . »

« حسناً يا مسزلي ، أعطنا رأيك فحسب ! »

« وما الفائدة من رأيي ؟ فالمسألة ليست مسألة رأي ، بل مسألة واقع .

والطريقة الوحيدة التي أجيب بها عن هذا السؤال هو : اذهب وذق خضرن ! »

« لكن ألا تستطيعين أن تخمني مجرد تخمين ؟ »

(١) حديث وهمي أعدته زوجة إيرفينج ج . لي مؤلف « العادات اللغوية في الشؤون

البشرية » . بعد أن أصفت لي برنامج معقد برعاه فلفي ذلك .

« حسناً إذا كنت تريدني أن أخمن مجرد تخمين فأني أستطيع هذا .
وسيكون تخميني أن معظم النساء اللواتي أعرفهن يتلفن بعض القيمة الفيتامينية
للخضر بالطهي . لكنني لا أملك الوسيلة لمعرفة ذلك على التحقيق . »

« إذن يا مسزلى أنت ترين أن النساء اليوم لسن خيراً مما كن من قبل .
حسناً ، إن لنا جميعاً الحق في آرائنا نحن الشعب . أليس كذلك ؟ »

« إسمع ، إتنى لم أقل هذا . لقد خفت تخمينة صغيرة فنفتحتها أنت إلى
تعميمة ضخمة . »

« شكراً جزيلاً يا مسزلى . »

« لماذا لا تكف عن سؤال الناس هذه الأسئلة المهمة ؟ »

« شكراً جزيلاً يا مسزلى . »

« وما أريد أن أقوله إلى ذلك هو أن أول مرة أسمع فيها محادثاً يستطيع التمييز
بين إبداء الرأي وإبداء الواقع سأشتري صندوقاً كاملاً من كتابكم « نلفي دف . »

بعض المساعدات العقلية النافعة

لقد ارتأى كورزيسكى من الناحية الإنشائية بضع ارتيادات منبهة ، وابتكر
كذلك خمسة تدابير صغيرة أربية لإعانة المرء على مراجعة خرائطه اللفظية ، وهي :

الكشافات ، حين تفكر في وحدات فردية في طبقة ما ، وعلى الأخص
في الأفراد ، ألصق بهم في ذهنك رقماً كاشفاً فسمهم على سبيل المثال آدم رقم ١
وآدم رقم ٢ وآدم رقم ٣ كي تتذكر أن كل وحدة في الطبقة تختلف عن الأخرى .
فليس ثم اثنان متشابهين كل التشابه — حتى التوأمين اللذين ترى كلا منهما
صورة من الآخر . ليس ثم بقرتان ولا غملتان ولا ذرتان في الرمل تشبه إحداها

الأخرى بالدقة . وقد ألف الطبيعيون أن يروا أن ذرتين من الهيدروجين مثلا تطابق إحداها الأخرى . لكنهم بعد اكتشاف الأيزوتوبات^(١) باتوا غير واثقين حتى من هذا . وإلى حين أنكر أو أكتب أستعمل الكشافات كشكل من أشكال التأمين ضد سحر المطلقات . وقد استخدمناها فعلا في هذا الكتاب في التمييز بين العلم الاجتماعي رقم ١ والعلم الاجتماعي رقم ٢ .

التواريخ ، هذا التدبير الصغير يخدم غرضاً مماثلاً . فهو عبارة عن وضع تاريخ في الذهن أوفى الواقع لحادثة بحدها الزمان والمكان . والفكرة هي أن تقف أمام حالة وتذكر أنها الآن غيرها من مائة سنة أو عشر سنوات مضت ؛ أو أن تلك المادة غيرها من عشر سنوات مضت . والحياة سيرة نافذة دائبة التغير . فأمریکا سنة ١٧٧٦ غير أمريكا سنة ١٨٦١ أو أمريكا سنة ١٩٨٤ . وقولك « الطريقة الأمريكية » كشيء محدود أبدى ، قول هراء . فأى طريق كانت كثرة الأمريكيين تسلك في التاريخ الذى أثبتته في ذهنك ؟

والحكومة الروسية في سنة ١٩٤٠ كانت تهاجم فنلندة ، وتفوح منها رائحة كراهية تزكم أنوف معظم الأمريكيين ؛ ولتجعل الأمور ضغنا على إباله وقعت على ميثاق عدم اعتداء مع هتلر . لكن الحكومة سنة ١٩٤٣ كانت خليفتنا العزيزة وأعظم من ساعدنا من الأصدقاء ، تشغل صفوة الجيش الياباني في منشوريا ، ومعظم الفرق القتالية في أوروبا الشرقية . والآن في ١٩٤٨ تعود الحكومة الروسية فتعرض لئارنا . فشروع التاريخ يساعدنا على تذكر هذه التقلبات ويفرض علينا الحذر الشديد من وضع الروسيين أو غيرهم في طبقات لا يحدنا زمن .

« الخ » ، إنى أرى أحيانا أن هذه الأداة المعانية الصغيرة أنفع أداة قطعاً .

(١) انظر تفسيرها في صفحة ١٨ .

فلكل حادث خصائص غير محدودة تقريباً و « الخ » تحمل المرء على تذكر هذا حتى علماء الطبيعة لا ندحه لهم عن إغفال بعض الخصائص في تحليل حادث ما ، كتركيب بلورة . والعلماء الاجتماعيون أكثر إغفالا بكثير حين يدرسون ، على سبيل المثال ، تأثيرات إنتاج الجلة على عمال المصانع . وقد يغفل رجل الشارع في حديثه العادي وبصورة عملية كل خصائص الحادث الذي يبحث فيه إذا كان معنوياً ، فيصدر حكماً خاطئاً صادراً عن عواطفه في تلك اللحظة . ولاحظ أن هذا التحذير يذهب كثيراً إلى أبعد من « معاينة الجانبين » . فالحادث المحدود بالزمان والمكان له في العادة عدد غير محدود من الأبعاد . وخفض هذه الأبعاد إلى اثنين هو ذلك الوهم القديم : « أسود وأبيض » الذي يقع فيه معظم المناقشين في تهور .

ولنأخذ صورة أخرى من استمالات « الخ » . هنا سيد من ذوى اليسار هو آدم رقم ١ يفكر في الاتحادات : « الاتحادات رديئة ينبغي إلغاؤها ، فهي تحول دون زيادة الإنتاج . » ثم يتجه إلى تأييد واقعي فيقول : « انظر إلى جون ل . لويس » ؛ لكنه إذا كان لصاحبنا في الجهاز العقلي « الخ » فإنه يتذكر أن تمت أشياء أخرى يمكن أن تقال عن الاتحادات . مثال ذلك أنها كحركة إجمالية تؤلف في سنة ١٩٤٨ حصناً ضخماً ضد انتشار الشيوعية في الولايات المتحدة . صحيح أن بعض الاتحادات تخلد إلى الراحة وتقيد الإنتاج ، لكنه صحيح أيضاً أن عمال شركة الملابس المتحدة كانوا أحياناً يقرضون مستخدميه أموال الاتحاد ليعينوم على الإنتاج .

وإليك مثالا آخر : تنشر صحف موسكو أقولاً كهذه : « أن أتباع الاستعمار في حكومة الولايات المتحدة هم أدوات أصحاب البلايين في وول ستريت » فإذا طبقنا فكرة « الخ » وجدنا على الأثر بعض الخصائص التي يغفلها هذا القول مثل :

- ١ — إن سماسرة وول ستريت لم يستردوا ما كان لهم قبل سنة ١٩٢٩ من مركز.
 - ٢ — إن وزارة العدل تقيم الآن (في سنة ١٩٤٨) الدعوى على عدد من متاجر وول ستريت المهمة وفقاً لقانون مكافحة توحيد الشركات .
 - ٣ — إن الخفض الذي سمح به مكتب الإيراد الداخلى في تقديره لضريبة الدخل جعل كثيراً من الشركات الكبرى مستقلة عن تمويل وول ستريت .
 - ٤ — إن خزانة واشنطن لا وول ستريت هي الآن المركز المالى لاقتصاديات الولايات المتحدة بعد أن بات الدين القومى ٦٢ ½ مليار جنيه .
 - ٥ — بلغت ضرائب الدخل المفروضة على أصحاب البلايين ٨٦ في المائة من الطبقات العليا .
 - ٦ — تباع الحركة العمالية الكبرى الآن من قوة النفوذ السياسى ما تبلغه حركة الأعمال الكبرى في الراجح .
- هذه الخصائص حين ترصد تجعل تصريح موسكو هراءاً محضاً .
- الامتشهادات ، وتدير آخر يذكرونا بأننا نقنول تجريداً من نوع رفيع هو استعمال علامات الاستشهاد حول العبارات . فهي نافعة على الأخص مع كلمات « كالديمقراطية » و « الرأسمالية » و « الفاشية » و « الحرية » — نافعة في الحق مع كل عبارة ينتظر أن يختلف اثنان على معناها . فالاستشهادات تنفع في إنذارنا بأن هذه العبارة أو تلك من نوع رفيع ، فيجب أن تستعمل بعناية .
- وإذ كان من المحتمل أن تتلف التجريدات الرفيعة خط الاتصال فإن الاعتراض يقوم أحياناً على استعمالها ، ويطلب بعدم استعمالها بتاتا . وهذا مما يفرى بالرد : إذا كان الناس يفرقون سراً وتكراراً فلماذا يستعملون الماء إطلاقاً ؟ إن كل اسم ، حتى اسم الأوكسجين للمادى ، هو ، بمعنى ما ، تجريد ، ذلك أنه

ليس الشيء نفسه بل رمز الشيء ، وحتى في غير المستوى اللفظي فإن H_2O الذي نراه بأعيننا ونلمسه بمجلودنا ، تجرده حواسنا من مرقص ذرى جنونى في مستوى ماتحت الميكروسكوب .

وليس في استطاعة أحد أن يفكر إطلاقاً من دون تجريدات رفيعة مرتبة محزومة من ظاهرات دنيا ، فالقراءة والكتابة والرياضة مستحيلة من دون عبارات معنوية ، فإن الإنسان ليكف من دونها عن أن يكون إنساناً . فالتجريدات في موضعها لازمة لزوم الطعام أو الشراب . « يجب أن يفطن المرء إلى استعمالها ويحاذر إساءة استعمالها » وهو ما يعاق عليه المشتغلون بعلم المعانى العام أهمية .

الشَّرْط ، وآخر تدبير ذهنى لكورزيبسكى هو استعمال الشرط لربط الكلمات بعضها ببعض حين لا تكون الأشياء التى تمثلها قابلة للانفصال ، مثال ذلك Space-time و body-mind

والنقطة الهامة في هذه التداوير الخمسة — الكشف والتاريخ و . . الخ . والاستشهاد والشرطة — ليست أن تضعها على الورق بقدر ما تجريها في تيارات أعصابك كي يكون المرء أدنى إلى التريث والنظر منه إلى الاندفاع في استنتاج تلميه العاطفة . هذه التداوير الخمسة هى بمثابة خمسة أضواء حمراء صغيرة تدعو المرء إلى الوقوف والنظر والإصغاء .

إننى وقد حاولت مرة أن أوضح هذه التداوير لصديق رد على شىء من الحدة : « ما الفائدة من الكلام إطلاقاً إذا كان عليك أن تمر بكل تلك التادية المحكمة ؟ » ثم استطرد يقول « أظن أن علم المعانى بدلاً من أن يخفف الضغط العصبي سيرميك بالحلول من كثرة تفقيشك عن تعميمات وخصائص جامحة مُغفلة . »

وهذه نقطة سليمة ، لكن لى عليها ردين : أولاً إن الذين يعملون بهم هذه الطرق التى تدعوك إلى الوقوف والنظر والإصغاء أو إلى التريث في الجواب

لا يلوح أنهم مصابون بمرض العصاب بل يلوحون على نقيض ذلك . ثانياً هب أن
الناس لا يمكن أن يفهموا العالم الخارج عن أذهاننا من دون بعض هذا التفكير
المطال ! افرض أن ذلك أسلم طريق نستطيع منه نحن القانين أن نتلقى معلومات
صحيحة في صورة معقولة وأن نبقي خرائطنا اللفظية متفقة والواقع .

مستقبل علم المعاني

ومهما يمكن أن يكون علم المعاني بوصفه معينا لعلم النفس والطب الروحاني ،
فلا يمكن أن يكون تمت شك في نفعه في الاتصال والتفكير المستقيم . فقد
يكون من حسن الرأي لكل هيئة تنفيذية كبرى سواء أ كانت لإحدى الوزارات
أو لمؤسسة من المؤسسات أن يكون على مقربة منها أحد علماء المعاني لتستوثق من
أنه قد عمل حساب كافة الخصائص الكبرى قبل أن يصدر الرئيس قراراً خطيراً .
وقد وضع الوزير مورجنتاو سياسة لألمانيا ناسيا فيما يظهر أن الرور هو بفسبورغ
أوروبا . ووعد توجو أن يحطم أسطول الباسيفيك في بيرل هاربر ناسياً مقدرة
الأمريكيين الصناعية على بناء أساطيل أضخم وأحسن في زمن وجيز نسبياً . وإن
أعظم أمة ليلوح أنها تتخذ على الدوام أسوأ القرارات . وسبب من أسباب ذلك
هو على التحقيق مجزها عن الإحاطة بالخصائص .

إن الحاجة لتمس في هذه الأثناء إلى اتصال أوسع مدى في العلم الاجتماعي .
فإن لكل معرفة — وفي الغالب لكل معرفة فرعية — لغتها الفنية . وليس من
شأن أحد أن يترجم كل اللغات إلى نوع من الإنجليزية الأساسية .

ويعود بنا هذا إلى اقتراح إلتون مايو : أن تحتشد العلوم الاجتماعية جميعا
في مشروع أبحاث موحد عظيم يتناول الاتصال في كافة مظاهره المضاعفة .
وليس أبعث على الترحيب من هذا الاقتراح . فقد يخرج عنه الأساس البنائي
لذلك العلم الواحد من علوم الإنسان الذي هو الهدف الأخير لكل المعارف .

٢٤ - إصلاح المصلحين

إن من لبث ، منذ قرأ هنري جورج في سنة ١٩١٢ ، يطالب بإصلاحات من نوع أو من آخر ليصدمه العلم الاجتماعي في أصرم مظاهره بعض الشيء . فإن مؤلف هذا الكتاب ليعود بالذاكرة إلى حماساته فيأخذ يدرك أن بعض أهدافه لم يكن مما يمكن تحقيقه ، وأن معظم وسائله لم تكن مجدية . ومن الواضح أنه سيكون عليه أن يبدأ من جديد بعد أن لم يصبح الشاب الذي كان . ومع ذلك فإنه لما يخفف عنه أن من الممكن أن يعمل هذه المرة شيئاً حقاً .

إننا نتحدث عن المصلح رقم ١ الذي يريد من صميم قلبه أن يرى الأشياء وقد عولجت من دون دافع شخصي . أما المصلح رقم ٢ فإنه من ناحية أخرى ، كما يصفه علماء النفس ، فرد خاب مسعاه لغلط في يده ، أو في عمله ، أو في حياته العاطفية ؛ فهو يأخذ بالشيوعية أو يدعو إلى إصلاح العملة ، أو يعتاد الكحول هرباً من متاعبه الشخصية . والمصلح رقم ٢ إلى ذلك يميل إلى تلمس سبب ينقصه في أشياء كثيرة — كالشيوعية مثلاً بهيراركية شياطينها : « الرأسماليين » و « وول ستريت » و « الاستعماريين » و « الحضريين » و « أتباع تروتسكي » و « الاشتراكيين » أخيراً . وأجل خدمة يمكن أن يؤديها العلم لهذا النوع من المصلحين هي أن يزيل ألم أعصابه .

فما الذي يمكن أن يفعله العلم الاجتماعي للنوع الآخر ؟ لقد قدمت عدة ارتياحات مسعفة ، ولا تنفك إرتياحات أخرى تتجمع . وقد صادفنا بعضها من قبل ، وسنحاول الآن ترتيبها على نحو ما . فهذا الفصل موجه إلى أولئك الذين يريدون جادين أن يبدلوا سفة أو عرفاً في الحضارة .

آلات الحركة الدائبة

لعل أول مهمة للمصلح رقم ١ هي أن يدرس تاريخ آلات الحركة الدائبة . فقد ظل بعض الموهوبين قروناً ترجع إلى الإغريق كما يقول البعض ، يكرسون حياتهم للبحث عن مبدأ الحركة الدائبة . فكان بعضهم يطلب ثروة والبعض ينشد خلوداً . ولعل معظمهم لم يعدوا أن يكونوا طُلعة (فقد عرف فيبلن العلم مرة بأنه حب استطلاع لا طائل تحته .)

ومهما يكن من بواعث المحترعين فإنهم قد أنفقوا سنين من العمل المكثس ينشئون عجالات لا تحتك ، ومدارات كرات ، وكيميائيات مذيبيه ، وغير ذلك من الإنشاءات الآلية المدهشة . وقد كانت العجلة التي وضع الماركيز وورسستر تصميمها في سنة ١٦٦٠ يبلغ قطرها أربع عشرة قدماً . وقد أحكم تجهيزها بأربعين ثقلاً زالقاً تبلغ زنة كل منها خمسين رطلاً . حتى ليوناردو قد أنفق بعض وقته الثمين على عجلة تدوير نفسها أبداً الدهر بالزئبق . وشاذوف أرخيديس و « التناقض الايدروستاتيكي » والجاذبية الشعرية استخدمها العلماء كلها من حين إلى آخر . وما يزال المبرورون يشتغلون إلى يومنا هذا بالكهرباء والمغناطيس والحرارة الطبيعية والهواء السائل آملين أن يدفعوا « لوثتهم » دفعة تجعلها تدور إلى الأبد .

وفي عهد بعيد كعام ١٧٧٥ رفضت أكاديمية العلوم بباريس أن تتلقى أى مشروع يتعلق بالحركة الدائبة ، ولو أن الاعتراض النظري كان يومئذ ما يزال بعيداً من أن يكون تاماً . على أنه لما وضع بعد ذلك بقليل قانون الديناميكا الحرارية الأول والثاني ألقى بآلات الحركة الدائبة من النافذة نهائياً ، فلم يعد أحد سليم العقل يضع بعد ذلك وقته عليها — إلا ليميع لبنة من ذهب لأى من الناحية العلمية .

فكم من الآلات الاجتماعية والاقتصادية التي تستخدم في الإصلاح —
وهي التي أنارتها وعضدتها عُصَب ، ومجتمعات ، ومعاهد ، وشخصيات شهيرة ،
وتبرعات عامة ، ووكالات للإعلان الباهظ التكاليف ، وجماعات الضغط العالي —
كم من هذه الآلات آلات حركة دائبة ؟ إنني حين أفض بريدى كل صباح وتقع
أمامى منه الدعوات والفداءات أقلبها بين يدي وأعجب من مبلغ حركتها الدائبة ،
فهل كان الماركيز أوف وورمستر يملك شيئاً يفوق هذا ؟

إن العلماء الاجتماعيين لم يخرجوا بعد تعميمات تبلغ من الدقة والتحديد ما بلغه
قانونا الديناميكا الحرارية الأول والثاني — لكنهم أخرجوا ما يكفي لأن يرفع
علامة استفهام كبيرة فوق « صاريتي » . وهم بالتأكيـد قد أمعنوا في التقدم إمعان
أكاديمي العلوم الباريسية حين أغلقت الباب . وقد أشاعوا القشعريرة في حمقى
الصلابية ، وضخمو حسابي في البنك ، وحملوني على أن أستبدل بسلة مهملاتي
سلة أكبر منها .

وإليك مثلاً من مخترع فرد . فقد تلقيت أثناء الكساد مئـثات من أمثال هذه
المخطط لإيقاظ العالم تعبر من واضعها عن تقان عظيم .
عزيزي مستر تشيز .

إن السفين العصبية التي سبقت وتخللت الحرب الأخيرة بويلاتها الـارعة
التي تلت ، قد أقنعت جميع المفكرين بالحاجة الماسة إلى شيء من التغيير الأساسي
في نظامنا الاجتماعي .

وقد رسمت في مخطوطي « الجواب السـكامل » خطة لاستبعاد الدورة الاقتصادية
برخائها وكسادها ، والدورة السياسية في السلم والحرب . كذلك صممت فترة انتقال
تعطينا في النهاية عالم القـد السـكامل على صورة من النشوء والارتقاء تتيح الانصاف
التام لكافة الناس .

وإذ كنت أشعر بأن مشروعي سيثير اهتمامك فإني أبعث إليك بنسخة منه ، وأرجو أن توافيني بتعليقاتك بأقرب فرصة ممكنة ، وأن تقول لي أي ناشر يمكن أن يكون أكثر اهتماماً من غيره بمشروعي .

الخلاص

لارنس ت ميد

ومستر ميد — وأخفى اسمه الحقيقي — يقف بوضوح تام في صف الملائكة ، لكنني أخشى أن تكون قوانين الفكرة الحضارية قد هزمت قبل أن يبدأ . لقد أوضح رالف لينتون في جملة واحدة ما يأخذه على الخطط البيانية ومشروعات الأومنيبوس التي يحكيها مشروع ميد . « إن أعظم مصعبية تواجه زعيماً يسعى إلى تنشئة مجتمع جديد هي أنه يجب عليه أن يبدأ بأشخاص قد دربوا فعلاً على العيش في مجتمع آخر » وباني « المدينة الفاضلة » يمكن أن يؤلف أبدع الشفرات والقواعد والقوانين ؛ بيد أن المواطن عابر السبيل يعجز عن الأخذ بها بالغاً ما بلغ تلافه عليها . فالناس يعيشون في الغالب بالعادة ، يتصرفون كما تعلموا أن يتصرفوا من دون أن يقفوا لإعمال الفكرة أولاً ، وفي المدينة الفاضلة سيكون عليهم أن يقفوا ويفكروا قبل كل تصرف تقريباً ، وسيصابون بالجنون قبل أن يحصلوا مجموعة جديدة من العادات الآلية بزمن طويل .

وتمرس المرء بمحاضراته كما رأينا ، يبدأ بمولده ، وفي الوقت الذي بلغ فيه جورج رذرفورد آدمز نصف نموه كان قد حصل كتلة سميكة من العادات اللاواعية كانت تلائم مجتمعه الميدلبرجي ، فتغيير هذه العادات عملية بطيئة صعبة تتطلب تفكيراً ولو أن ابناً لجورج أرسل ليعيش في قرية صينية لأمكن أن يتحول في بضع سنوات . لكنه إذا ذهبت جماعة كبيرة من الأمريكيين لتعيش في الصين فإنها تصطحب معها معظم حضارتها ، فلا تعلم في الصين حتى لغتها . والإصلاح الخيالي

الثالى هو كأن تحاول نقل مدينة أمريكية برمتها إلى الصين ، وتعلمها أن تصبح
صينية بين يوم وليلة . وهذه من قبيل الحركات الدائبة .

حين يكون للإصلاح فرصة

ومبدأ جوهرى ثان للمصلح رقم ١ هو أن الحركة الناجحة تتطلب فى المجتمع
توتراً وإخفاقاً كثيراً ليكون لها تأثير حقيقى . ذلك أنه حين تكون كثرة المواطنين
راضية عن عملها يكون خيراً للمصلح أن يذهب ويلعب الكريكييت . ولنصور لك
ذلك تصويراً حسناً نذكر لك فترة ما بعد النصر فى الولايات المتحدة حين قوبلت
بالتشاوب كافة المشروعات الكبرى المتعلقة بالمساكن ، والصحة ، والحد الأدنى
للأجور ، وضبط التضخم ، إذ كان يومئذ سستون مليوناً يشتغلون . فلم تكن
تمت خيبة اجتماعية كافية لأن تتيح فرصة لهذه المشروعات بالغاً ما بلغ المنتظر من
نفعها على مر الأيام .

ومن المشاكل الكبرى التى يصادفها المصلح أن يقرر متى يكون التلكؤ
بين نظام المعتقدات والحاجة الحقيقية من الكبر بالقدر الذى ينتظر معه شيء من
النجاح فى تعديل سنة من السنن . فإن فرانكلين روزفلت ، وهو أبعد من أن
يكون مثالا للمصلحين ، اتفق أن وصل حين كان التلكؤ بعيد الشقة ، والتغيير
قد آن أوانه من زمن ، وثلاث سنوات من الضائقة الاقتصادية قد جعلت الحاجة
إلى الأعمال ، والقوت ، والأمن ، ماسة بصورة غير عادية . فقد أخذت العقائد
والمعتقدات فى الحضارة الأمريكية تنزعز عزعزعا شديداً بإصرارها على أن تكون
فى عون نفسها . وهكذا أمكن العمل فى نطاق واسع ، ونشط روزفلت فى وضع
ألف باء كاملة للإصلاح ، إذ كانت الشدة والخبية كلتاها قائمة . ومع أن نظم العقائد
أخذت تفتعش بالنسبة لذوى اليسار حوالى سنة ١٩٣٥ كما لاحظنا فى ميدلتون ،

فإن حاجات الجماهير كانت من الإلحاح بحيث أعيد انتخاب روزفلت ثلاث مرات ،
وهي ظاهرة سياسية لم يسبق لها مثيل .

الاتصال مرة أخرى

لأن روزفلت كان شاعراً بهذا السند لأنشأ من خطوط الاتصال أقوى
مما أنشأ ، ولأحرز نطاقاً أوسع من الموافقة ؛ لكنه لسوء الحظ كان ينظر إلى الحالة
بمنظار الكفاح ، أخيار ضد أشرار ، حين لم تكن الحالة هكذا . وقد أسمى
« الأشرار » بعدة أسماء ، ونعتهم نعتاً شديدة « كصرافى النقود » و « المالكين
الاقتصاديين » وما شاكل ذلك . فكان طبيعياً أن تسخط هذه الأوصاف طبقة
الأثرياء ، ففسبوا إلى روزفلت كل ما كان هنالك من خيبة وإخفاق ، وما أثاره
الكساد فيهم من مخاوف . ولو قد تكلم روزفلت باسم جميع من أضر بهم
الكساد ، أو أربكهم ، ودعاهم كوحدة إلى التحرك نحو النقاهاة والتحرر من
الخدوف ، فلعله كان جنّب نفسه كثيراً من الكراهية ، وكانت المعتقدات تحولت
تحولاً آلياً تقريباً إلى مركز أقرب إلى الحقائق .

والمسألة هي أن الكساد العظيم أتاح فترة من الفترات القلائل فى التاريخ
حيث تكون كثرة كبيرة من الناس مستعدة لتغيرات واسعة النطاق . ومع ذلك
فإن هذا الاتفاق الممكن لم يتحقق لأسباب يرجع بعضها إلى سوء الاتصال ، فكان
لنا بدلا منه شغب ، وسباب ، واحتكاك اجتماعى .

حروب الطبقات

ينطوى كثير من حركات الإصلاح ، كما أوردنا من قبل ، على الزعم بأن
هنالك نزاعاً لا مفر منه ، ولا يحد بوقت ، بين الغنى والفقير ، بين الطبقات

والجماهير . بيد أن لينتون يجد أن حرب الطبقات تقع في ظروف خاصة فحسب . فتمت شكلان من أشكال النزاع يكفان دائماً في الحضارة ، و يقومان بين الفرد والمجتمع وبين الجماعات داخل المجتمع . أما الفرد فتصدده وتردعه العقوبات الرسمية وغير الرسمية ، المتراوحة بين التشهير والطرده من المجتمع وبين الإعدام تنفيذاً للقانون . ويلاحظ لينتون أن أهم ما يتذكر هو أن هذه العقوبات ينذر استخدامها . فمعظم الأفراد يلزمون النماذج المنتظر أن يلتزموها فيجرون عليها من دون وعي . واللص والقاتل يتجاوزان الحدود لكنهما مستثنيان . ذلك أنه حتى السرقة في المجتمعات التي تشتغل بالحرف اليدوية نادرة .

وبين الساكالا في مدغشقر ، على سبيل المثال ، حين يسرق شخص لأول مرة ، تنحصر ظروفه بعناية ، فإذا وجد أن اللص كان جانحاً بالفعل حين سرق منع أراضاً ، وأتيحت له فرصة للإصلاح . فإن عاد بعد ذلك إلى السرقة طُعن بالرمح لابقصد الانتقام منه ، ولكن لأنه أظهر أنه خطر على المجتمع .

والحروب بين الطبقات أو بين الجماعات ليست بذات بال في المجتمعات التي يكون لجميع أعضائها مركز ما . حتى الأنجاس في الهند يقدررون مركزهم ، ولا يغترون كثيراً إلى التمرد — فهم أيضاً يتوقعون أن يزيجوا عن كواهلهم في المستقبل بعض ما يرحون تحته . فحروب الطبقات تنشب حين تقوض مراكزها — كما قوضتها الآلة في أوربا في القرن التاسع عشر ، فسكان من جراء ذلك أن ساد التوتر الدائم عمال المصانع ، لأنه لم يكن لهم مركز معترف به ، إلى أن قامت نقابات العمال لانتشالهم . ولم يكن المركز في الولايات المتحدة صارماً قط إلا فيما يتعلق بالزواج . والطبقات متحركة كما أثبتت دراسة يانكي ستي . وقليل من الأمر يكيين هم الذين يعنون بالدور الذي يقوم به « العامل » على حين نحى مديرو الصناعات « المالك » كما أبان بيرل ومينز ، وحالوا دون قيام أية جبهة قوية بين « الرأسماليين » .

وإني لأجرو فأخن شيئاً — ثق أنه ينطوى على الشطط — أخن أن معظم النشاط الذى بذل للإصلاح الاقتصادى فى هذه البلاد فى الخمسين السنة الماضية كان موجهاً إلى الحركة الدائبة . فقد كان الناس يحاولون أن يجعلوا من « حرب طبقات » لم تكن ناشبة ، رأسمال . والاشتراكيون الأولون ، وقد تبينوا هذا فى صورة غائمة ، اعتادوا أن يشكوا من العمال « الخرس » الذين لم يمكن قط حملهم على تبين مصالح طبقتهم .

وقد لاحظنا فى الفصل العاشر بعضاً من آلات الحركة الدائبة فى الجهود المبذولة لتحسين العلاقات بين الأجناس ، واستخلصنا أنه حيث يوجد نظام الطوائف على نحو ما هو موجود فى ديب سوٲ ، لا تنفيذ الاختلافات القائمة على المنطق ، والعدالة ، والعقل . على حين ينتظر أن يكون للإجراءات القائمة على قوة الساعد رد فعل . وقد استمسك الناس فى ديب سوٲ بنظم معتقداتهم استمسك أهل الشمال ، وأخلصوا لها إخلاصهم . وفى رأيهم أن المنطق والعقل والعدالة فى جانب الطائفة . وهم خلقاء أن يحاربوا كل من تحدته نفسه بالقضاء على نظام الطائفة فى اقتضاب أو عنف . والمصلحون الذين يهملون هذه الاكتشافات التى اهتدى إليها العلم الاجتماعى إنما يبذرون نشاطهم والأموال التى تبرع لهم بها أناس قصدوا الخير .

ارتياحات لو . ف . أوجبرن

للككتور أوجبرن الذى اشتهر بدراسة التغيير الاجتماعى بضع ارتياحات سليمة على هذا القرار يخص بها المصلحين . يقول إذا أردت أن تغير شيئاً فأول ما تفعله هو أن تقرر أى قوى اجتماعية ستعين على التغيير وأياً ستعارضه . وبالإيجاز أعد ميزانية بالقوى الاجتماعية .

والخطوة التالية هي أن تدرس بعناية ثلاثة عوامل مهمة خليقة أن تؤثر في أقل تغيير وهي : (١) المحيط الطبيعي (٢) العامل الأحيائي أو الوراثة (٣) الحضارة القائمة .

فأما المحيط الطبيعي فلا يتغير إلا في فترات طويلة ؛ بيد أن الإنسان يستطيع السيطرة عليه إلى درجة ما باستعمال بيوت تدفأ بالفحم ، وأكواخ الإسكيمو ، والألبسة الصوفية ، والمظلات ، وتكييف الهواء ، والنور الكشاف ، والثلاجات ومشروع وادي تينيسي ، والري ، والفلاحة .

وظاهر أن الوراثة البشرية لم تتغير كثيراً منذ إنسان كرومانيون . وبرامج تحسين النسل التي يقصد بها تعديل « الإنسان العاقل » معظمها جمجمة ، وإن كنا نشاهد ما يمكن أن تحدثه على النبات والدواجن والحيوان تأثيرات تربية أعملت فيها الفكرة . ومن حسن الحظ أننا لا نستطيع بما وصلنا إليه من معرفة أن نبعث بعناصر صبغياتنا ، وقد حصنت جيداً وفي صورة فريدة ، ضد المصلحين . حتى إصلاحات التعقيم لم تتقدم كثيراً ؛ وقد قدم هنتر بعض الأمثلة النابية في هذا الصدد . وما تزال عناصر الصبغيات الموجودة في مختلف سلالات الأسرة ، كما يقول أوجبرن ، مجهولة بقدر كبير . وخير ما نستطيع أن نصنعه الآن هو إصلاح غذائنا ، وخاصة تحسين غذاء الرضع ، وبذا نحسن السلالة البشرية ، في حياتها ، من الناحية الأحيائية ؛ وإنه ليسعنا بالفعل أن نلاحظ تأثير عصير البرتقال والخضر واللبن الوفير في الجيل الحاضر لبنات المدارس وبنينا . فنحن حين نقيسهم نجدهم أطول قامة ، وأثقل وزناً ، وأكبر أقداماً من والديهم .

ويوافق أوجبرن فيما يتعلق بالعامل الثالث على أن من الصعب أن تتغير الحضارة ، لكنه يرى أن التقدم ممكن إذا عني المصلح بأن يلائم بين منهاجه والنماذج الحضارية ، وينسح لتلك الحضارى في حسابه . وهو احتياط لم يتخذ

فرانكلين روزفلت . وهناك إصلاح على الطريقة الجديدة ، كان دائماً يثير اهتمامي بدرجة كبيرة ، وهو مشروع «دمغة القوت» . فقد بلغ من مهارة مبتكره ميلو بركنز في رسم خطة حملته أنه لما أخرج المشروع نهائياً على أساس شامل للأمة ، لقي قبولا في كل مكان ، بل لقد قوبل بالهتاف من دون أن يجد أحد مصلحة له في معارضته . وكان بركنز قد جعل في حسابه نظم الاعتقادات مقدما ، فأحرز بذلك نصرا من المرجح ألا يكون له مثيل في تاريخ حركات الإصلاح الأمريكية .

إصلاح صيادى الرؤوس

صيد الرؤوس مميز حضارى قوى لختلف القبائل البدائية ، لكنه قد يؤدي إلى انقراض سريع كما هي الحال في ميلانيزيا . ولذا يجتهد رجال الإدارة الاستعمارية في إلغائه . وقد وفق بعض هؤلاء . فقد ألغى المصلحون الإنجليز هذه العادة في ساراواك فعلا ، لكنهم كانوا من الحكمة بحيث أبقوا نظم المعتقدات والأشكال التقليدية . فالوظفون يحتفظون بالهجوم على سبيل التذكار ، ويخرجونها للاستعمال في احتفالات معينة كما لو كانت كتباً مستعارة من مكتبة أو كراسى تطبق . وقد أُنقِعَ العرسان من قبائل البابوان في هذه الأثناء بأن يقدموا إلى عرائسهم رأس خنزير بدلا من رأس آدمى دليلا على رجولتهم . وقد أبين لهم أن قتل الخنزير أصعب من قتل الآدمى لاسيما إذا كان هذا الآدمى امرأة أو طفلا ، ومن ثم كان أدل كثيراً على الرجولة . وقد ثبت إقناع هذا المنطق .

هذه الإصلاحات كمشروع دمغة القوت أمثلة للإصلاحات الفعالة حقا . فنظم الاعتقادات تظل قائمة ، بينما تسبَعُ العادة الضارة ، ويصان الوجه .

معمل التغيير الاجتماعى

هذه الفطنة وهذا الحساب يحتاجان إلى زمن ، بينما يتطلب المزاج المصلح

في العادة عملاً سريعاً . يقول لندبرج في كتابه « أيستطيع العلم إنقاذنا؟ » إن « المثالية الاجتماعية الجاحمة ، إذا لم توازنها المعايير العلمية فيما يتصل بالإمكانات والتكاليف ، تكون عبثاً اجتماعياً وضرباً من القش للهيئة السياسية في الواقع . » لكان خيراً لو أن الحرب « الصليبية » لم تشن قط ؛ فقد كان قانون الحظر القوي لسنة ١٩٢٠ من هذا النمط في الراجع . ذلك أنه قد أيده متعصبون أو كان من مؤيديه على الأقل متعصبون أعوزتهم أية فكرة عن الرأي الحضاري والقوى التي تعمل عملها . وإدمان الحجر مصاب اجتماعي غير أنه يجب مكافئته بخطط مختلفة كل الاختلاف .

لقد كان العلماء الاجتماعيون في مركز سيء وهم ينافسون مصالحين مهنيين يعدون بالعلاج السريع الكامل الخالي من الألم . ويلوح أننا بحاجة إلى عرض كثير من آلات الحركة الدائبة التي لا تدور ، لإقناع الناس بأنها حقاً تدور . بيد أن المشتغلين بالعلم يستطيعون الآن أن يثبتوا بما يمكن أن يدور نحسب . أما أنا فأود عن نفسي أن أرى معملاً دائماً تقيمه هيئة مسئولة من العلماء الاجتماعيين يتولى تمحيص الإصلاحات . بل إن هذا العمل ليتمكن أن يجعل بحيث يكفي نفسه . فإذا تملك أحدنا مشروع لإنقاذ العالم أو أي جزء منه أخذ خطته إلى العمل وتلقى منه لقاء ٢٥ جنيهًا مثلاً تقريراً عما يمكن أن يشتمل عليه المشروع من عناصر الغلط في الحركة الدائبة . فهذا خليف أن يوفر ما يعادل قيمته ٢٥٠٠ جنيه من النشاط والهمة من مصلح متوسط منزله عن القرض .

إن هذا في الحقيقة اقتراح عملي معقول . ففي استطاعة مخترعي مجلات المطاط التي لا تنقب ، وغسالات الأطباق المصنوعة من البلاستيك ، أن يختاروا ما يروقهم من بين عدد من معامل الاختبار ، ولا تقول شيئاً عن محامي براءات

الاختراع وعن أبحاث المستهلكين . وقد تكون الاختراعات الاجتماعية أعسر بعض الشيء على التحليل ، غير أن التقدير العلمى خلىق أيضاً أن يبدو على ما يرام .

الخطط القومية

إن المصلحين الذين يدعون إلى وضع الخطط على أساس قوى ليجدون فى الأيكونومست اللندنية فى خلال سنة ١٩٤٧ نصيحة غالية . تقول الأيكونومست : لنفرض أن بريطانيا دعت فى يوم الإمبراطورية خير علمائها الاجتماعيين إلى الاجتماع لوضع خطط للتسريح والتعمير . فأولا يستخدم أصحاب الخطط الاستفتاء ليتعرفوا المواقف العامة السائدة : ما الناس أحوج إليه من غيره — ماذا يؤيدون ؟ ثانياً يقدرون ميزانية بريطانيا الخارجية فى مدفوعات ، وصادراتها ، ووارداتها ، وقروض الولايات المتحدة ، والإعارة والتأجير ، بعين هادئة حاسبة . ثالثاً يقدرون بنفس العين إمكانيات إنتاج بريطانيا . رابعاً يحاولون تقدير مواقف الحكومة الروسية وزعماء الهند وتعرف المواطن التى يمكن أن ينجم فيها نزاع دولى ، ويهدد خطر دولى .

على هذه القاعدة يمكن راسى الخطط أن يضعوا منهاجاً قوياً مرناً ، وأن يستخدموا كافة صنوف الاتصال الحديثة لنشره وجعله مقبولا يستهوى الشعب البريطانى وشعب الولايات المتحدة .

وتتساءل الأيكونومست : لكنه ما الذى حدث بالفعل ؟ إن حكومة العمال لم تستفت أحداً فيما يريد . ولم تكن لديها فكرة واضحة عن احتياجات الناس إطلاقاً . إنها أسرفت أثناء حملتها فى بذل الوعود ، ثم حاولت أن تقي ببعض وعودها كالسكن الدائم ، وهو مشروع لا محل له مطلقاً فيما طرأ من ظروف بعد الحرب مباشرة . وقد نسيت وعوداً أخرى ، وكتمت الأخبار السيئة معتقدة أن

الشعب لا يقوى عليها . ومع ذلك فإن علماء النفس الاجتماعيين يعلمون أنه في كثير من الطوارئ يكون الشعب أقدر على الاحتمال إذا نُبِّيَ صراحة بأسوأ ما هنالك . وقد كان ونستون تشرشل من الحكمة بحيث لم يعد بغير الدم والعرق والدموع .

تقول الأيكونومست : وأخيراً وأعظم ما هنالك خطورة أن حكومة العمال ضيعت الكثير من الوقت الثمين في محاولتها تأمين الصناعات على غرار ماركس . وقد كانت صناعة الفحم تتداعى تحت الإدارة الفردية ، فكان لا بد من تأميمها ، لكن اقتراحات أخرى للتأمين كانت موضع شك حتى في الأوقات العادية .

« إن رسم الخطط ووضع المشاريع يتم في الدولة الديمقراطية على يد الأحزاب السياسية . ومع ذلك فإن سياسة اقتصادية توضع قد لا تكون صالحة في كل الأوقات . وواضع المشروع الاقتصادي الماهر يجب أن يعرف متى ينقض غزله عند اللزوم . غير أن الأحزاب السياسية ليست بمجهزة بطاقم نقض . وقد أظهر المحافظون في سنة ١٩٣١ كيف يستطيعون في صلابة أن يتحدوا الحقائق ويتبعوا سياسة القبض وسط الانكماش النقدي . وقد بارام حزب العمال في هذا العمل منذ سنة ١٩٤٥ بتفانيه في مذهب نقابات الحرف القائل بأنه من الصالح دائماً أن يتضخم » مظلوف الأجور » . وواضح أنه إذا كان من غير المأمون الإفراج عن المحافظين في أزمة كساد ، فإنه ينبغي أن يحبس حزب العمال وقت التضخم ... ومع ذلك ، وعلى الرغم من الشكوك القائمة ، فإن نوع الإنسان لن يتخلى الآن عن تصميمه على أن يكون السيد المسيطر على ظروفه الاقتصادية . »

فإذا كانت الأيكونومست محقة في أن الأمم ستحاول تدبير مقدراتها الاقتصادية من الآن فصاعداً ، فسيصبح العالم الاجتماعى شخصاً على أعظم جانب

من الأهمية . ففي وسعه حين يعمل في فرقة من الإخصائيين يجمع الخصائص ، ويرقب التجريدات ، وينقب دواماً عن الحقائق — في وسعه وهو يفعل ذلك أن يشير على الحكومات هل تبشر مشروعاتها بالنجاح أو هي مجرد آلات جمة من ذوات الحركة الدائبة .

بل إن هنالك مع ذلك ما هو أزم وأدعى عند هذه النقطة من التاريخ . هنالك مسألة أعلى مستوى هي : كيف يمكن أن تخف حدة التوترات الدولية وأن نحصل على عالم مسلم ؟ وسنفحص في الفصل التالي ما يذخره العلم الاجتماعي لنا هنا من مساعده .

٢٥ - طرق موصلة إلى العالم الواحد

ليس للحرب من حل بأية من الطرق التي هي أكثر بدائية من غيرها ، والتي تستخدم في حل المشاكل وتبتدى من السحر إلى الحس المشترك . وقد تسأل لماذا لا يكون هذا الحل في تحول ديني يعم العالم ؟ فأقول لأن هذا محال مع تنوع الحضارات في الوقت الحاضر . أو نقول إن احتمال ذلك يعادل واحداً من عدة بلايين . ذلك أنه كلما ازدادت سرعة انتشار دين جديد ازداد خطر إثارة المعارضة له ، وخلق انقسام خطير بذلك أو سلسلة انقسامات . فلن يعتقد المسلمون أو الهندوس أو اليهود ديناً جديداً في سواد ليلة .

وفي تلك الأثناء يمكن أن يكون من المسببات القوية للحرب رسالة سلام يفرضها صاحبها على نفسه من دون تكليف . ولستحضر البواعث النبيلة التي حدثت إلى الحروب الصليبية ، والحربين اللتين شنتا في الجيل الفائت « لمنع الحرب » . وإن حركة شاملة تم العالم سعياً وراء السلام لما يتصور نجاحه إذا كانت الرغبة فيها تم العالم . وإنه مع ذلك خلق أن يقودها زعماء عقلاء مدربون على الفكرة الحضارية ، وطرق الاتصال الجديدة ، والعلم السياسي الحديث ، واقتصاد عالمي أكثر منه قومي .

لكنه إذا كان لابد من أن تنشب حرب فمن المحتمل أن الطريقة العلمية لا سواها هي التي يمكن أن تعجل بنشوبها . وقد عي الديبلوماسيون والفلاسفة والقساوسة والشعراء والحكماء عن الجواب . وقد تكون قلوبهم في مواضعها الصحيحة لكنهم كانوا دائماً عاجزين عن تبيان المشكلة في صورة عملية ، ناهيك عن اقتراح حل نافع . هذا إلى أنه يئلم يثبت أن الحرب أمر حضاري « عام »

فأنها سنة قديمة جدا ، ومتأصلة تأصلا عميقا ، ولا يمكن أن تقتلع بأقل من وسائل
تتسم بالبطولة .

الهيلاج بين الطبيعيين

من أعظم ماله شأن ومغزى من آثار هيروشيا اندفاع علماء الذرة بغتة إلى
السياسة . فليس بالسهل أن تقع في تاريخ العلم على مثل لذلك . فلماذا ينظفون
على هذا النحو التلقائي جماعة شيكاغو ، وجماعة لوس الاموس ، ولجنة الطوارئ
لعلماء الذرة وعلى رأسها أينشتين . ولماذا يأخذون في إصدار البيانات والنشرات
والمقالات ، ويهبطون واشنطون مستجدين ، كالكثيرين من تجار المواشي ، لأئمة
في مصلحتهم ؟ والتشبيه مع ذلك ليس دقيقا كل الدقة . فتجار الماشية يستجدون
دأما لتجار الماشية . أما الطبيعيون فكانوا يتوسلون لا نقاذ العالم جاهدين في تخليص
النوع الإنساني من نتائج عملهم . فهم كما قال أو بنهايمر « عرفوا الخطيئة » . فقد
يكون باعثهم شعور بالذنب . هذا إلى أن عملهم كان في نظرهم شيئا جميلا
يحرك النفوس .

وكان هنالك مظهر هام آخر هو أن العلماء الذريين حين خرجوا على نحو ما
فعلوا ، وعلى طريقتهم بالضبط ، دلوا على أن أحدا غيرهم لم يكن مستعدا بأية معرفة
من المعارف ، للمعاونة على وقف الحرب . والظاهر أنه لم يخطر لهم إلّا فيما بعد ، أن
يستعملوا عما على العلماء الاجتماعيين أن يقدموه لهم ، أو أن يتحققوا من أن هؤلاء
سيعقدون الخناصر معهم .

حسنا ، فماذا على العلوم الاجتماعية أن تقدم ؟ هل ستنبئنا بأن علما واحدا
ما هو إلّا آلة من ذوات الحركة الدائبة ؟ خير لهذه العلوم ألا تحدثنا بذلك .
فسيطلب الطبيعيون البرهان ، وليس ثمت برهان . لا أحد يعرف هل الأوان قد

أن لتنظيم هذا السكوكب من الناحية السياسية . ولم يول أحد المسألة جزءاً من الدراسة الإيجابية التي أولاها كينيدي العادات الجنسية عند ذكور الأمريكيين أو أولاها فلانجان اختبار قادة الطائرات . إن فكرة الدولة العالمية محترمة جداً ، لسكنها تنوولت في مستوى الشعر أو الفلسفة أو العلم الاجتماعى رقم ٢ فالقول الآن بأنها ممكنة أو غير ممكنة غير مضمون من الناحية العلمية .

فكل محاولة لتطبيق العلم تنطوى على ثلاث مسائل : (١) ماذا فى الحزن الآن من معرفة معتمدة ؟ (٢) كيف ينتفع بها ؟ وأين المهندسون ؟ (٣) ماهى أوجه النقص فى المعرفة الميسورة ؟ وأى مشروعات للبحث ينبغى وضعها لسد هذه الثغرات ؟ فلنجرد كلا من هذه النقاط جرداً خاطفاً .

المعرفة الميسورة

إن نحاول حشد كل ما يعتمد عليه من معرفة ميسورة لمهاجمة المشكلة . فقد طلما أرشدنا مع ذلك ، فى الفصول السابقة ، إلى ما يقدم يد المساعدة ، وخاصة فى الفكرة الحضارية . ومكتشفات علم الإنسان مما يستند إليه فى صوغ أى مشروع للسلام . فهى بمثابة الناصح الدائم للسياسة الدولية . وإذا كان نوع الإنسان مكوناً من عشرات الحضارات فأية محاولة لفرض نموذج قائم أمريكياً كان أوروبا أو ألمانيا ، ستفضى إلى العنف — نفس العنف الذى يفضى إليه اليوم فرض مباحث حقوق متساوية فى الجنوب السحيق — ولا يمكن أن يكون هناك أمل فى نجاحها . فالفكر الحضارية تحذرنا من المغامرة بالمستقبل فى محاولة جامحة كهذه ، وتجعل من الجلى على الأخص أننا لا نستطيع أن نحقق شعباً بالديمقراطية كما لا يستطيع الروسيون أن يحققوا شعباً بالشيوعية .

بعض نتائج الفكرة الحضارية

إن مشاريع السلام يجب أن تكون مناسبة للحضارات كما تكون مناسبة للدول . فالعالم الذى يضغط بقسوة فى حضارة واحدة لا يمكن إبقاؤه متمسكا إلا بالقوة العاشمة ، ولأمد وجيز .

ونتيجة أخرى هى أن تدريب وليد جديد على استيعاب حضارة والديه أو أية حضارة أخرى يقبل فيها ، لا يحتاج إلا إلى اثنتى عشرة إلى خمس عشرة سنة . وأقل من جيل يكفى لتدريب كافة أطفال العالم ليكونوا مواطنين عالميين . فمحتاج التدريب لن يكون أصعب من أن يرسم . بيد أن العقبات العملية خطيرة جدا . ومع ذلك أندرب على سبيل المثال المعلمين الذين رسمت نماذجهم الحضارية فعلا ؟ بل ما هو أشد خطورة كيف نحدث التغيير من الناحية السياسية ؟ إن الحقيقة الواقعة فى إمكان تبدل الأجيال مشجعة مع ذلك .

ونتيجة ثالثة للفكرة الحضارية هى الفهم الجديد للمشاكل المتعلقة بالجماعة الداخلة مقابل الجماعة الخارجة . وهذا موضوع يتفق فيه علماء الإنسان والاجتماع والنفس ، وهو متاخم لجذور القومية والوطنية ، ذلك أنه علاقة متبادلة بين عضو والجماعة التى ينتمى إليها . ففى أحد طرفى المقياس قبائل كـبعض الإسكيمو الشقر الذين يرون أنه مما لا ينافى الاستقامة أن يسرقوا الغرباء ولا يسرقوا أبداً بعضهم بعضاً . وفى الطرف الآخر الديبلوماسيون الذين يصرون على أن دولتهم العظمى تريد السلام وأن الدولة المنافسة هى التى تعمل للحرب .

وينعت علماء الإنسان موقف الإسكيمو الشقر بأنه شكل من أشكال النزعة الجزرية الاعترالية — « إطراء أنفسهم وأساليبهم دائما ... نوع من الغرور الشخصى اتسع ليشمل الجماعة أو القبيلة كلها » . فاذا نسمى ما يقابل هذا

الموقف بين شعب دولة عظمى ؟ إن مشكلة الرقابة على الحرب تتوقف على فهم أجلى للجاعات الداخلة مقابل الجاعات الخارجة . فهل بعض النزعة الجزائرية التي أشرنا إليها ضرورية لتوطيد مجتمع من الداخل ؟ إن معظم النقّات يرون ذلك ، بيد أن هذه النتيجة بحاجة إلى مزيد من البحث .

وهناك نتائج أخرى هي التسلّك الحضارى ، وحيوية السنن ، ونظم الاعتقادات . ولن يتقدم مشترعو السلام بمجرد أن يقرروا وجوب إلغاء سنة قائمة ، وخاصة إذا كانت ما تزال نافعة للبعض .

وخير طريقة فيما يظهر للتخلص من مميز حضارى بال هو استبدال آخر به . ويتبع ذلك ألا يتحقق السلام بالكف عن أشياء — كصنع الذخائر — بقدر ما يتحقق بالهمة فى عمل أشياء أخرى . مثل ؟ سنعود إلى هذا فيما بعد ، فنعرض بعض الآراء .

على رفوف المخزن أيضا

إن العلم الاجتماعى علاوة على الفكرة الحضارية وما يقرب عليها من نتائج يقدم طائفة من المساعدات الأخرى لمعونة مشروعات السلام . وإليك قائمة ببعضها:

١ — مبادئ الإدارة كما أجملها ليتون فى حكم الإنسان ، فهذه تتيح تكتيكات مادية لا مرشداً فى السياسة الدولية فحسب .

٢ — ما أدى من عمل فى سبيل الانصال ، وهو ما أوردنا صورة تقريرية منه من قبل . فالحكومة العالمية بمعنى ما هى أولا مشكلة فى الانصال البشرى ، مشكلة فى إخراجها إلى حيز الوجود ، ومشكلة فى إبقائها متماسكة .

٣ — ما أداه علماء النفس والاجتماع بالفعل من عمل يتناول الميل إلى

العدوان ، وحالات التوتر والإخفاق ، وحاجات الأمن العاطفي . فهذا تمهيد لأي مشروع للسلام .

٤ - اكتشافات الاقتصاديين وغيرهم فيما يتعلق بالمطالبة العامة في العالم أجمع بالأمن الاقتصادي ، فهنا أداة قوية جداً للسير بالحكومة العالمية إذا أمكن إعدادها .

٥ - دراسات المؤرخين والمشتغلين بالعلوم السياسية للنزعات القومية والعسكرية في الماضي . وإنه ليشجع أن تعرف من تشارلز ا. بيرد أن النزعة القومية السياسية الحديثة بما يلزمها من فكرة السيادة المطلقة ، لا ترجع إلى أبعد من حوالي ٣٠٠ سنة ، إذ تظهر أول ما تظهر مع معاهدة وستفاليا . والأرض التي تتناولها النزعة القومية والشعور القومي تتغير إلى ذلك على الدوام . ففكر فيما يفهمه الروسى من كلمة « روسيا » في سنة ١٩٤٨ إذا قارنها بروسيا في سنة ١٩٤١ ، أو ما يفهمه الأمريكي من جماعته الداخلية في سنة ١٩٤٨ إذا قارنها بمثلها في سنة ١٩٤١ ، فإن الصورة أو الخريطة الطبيعية لتختلف عندئذ اختلافاً كبيراً في كلتا الحالتين .

٦ - استفتاءات الرأى العام . فهذه يمكن أن تكون أنفع ما تكون في اكتشاف مبلغ استعداد الأمم المختلفة للاتجاه نحو الشعبية ، وتعرف حاجاتها أيضاً وما يمكن أن توافق في المعقول عليه .

٧ - الطرق المختلفة التي استخدمت بالفعل لضبط احتكاك الأجناس في أمريكا ، وهى ما قد تطبق مع بعض التعديل على الاحتكاكات الدولية .

٨ - المعرفة التي سجلت بالفعل من دراسات المناطق .

هذه القائمة ، وتشتمل على الفكرة الحضارية ، كافية لأن توضح أن مشروعا علمياً للسلام يجب ألا يبدأ بالارتجال . على أن المعرفة ليسورة بالفعل ستحتاج إلى الكثير من الغرابة والتفسير والتكبير والتنظيم . فإنها ليست بالعمل الذى يقوم به

رجل واحد ، بل هي عمل فرقة أبحاث كبيرة . وهي ليست عملاً ينهض به بلد واحد ، ولكن علماء من بلاد كثيرة .

بعض التطبيقات

من سيستخدم المواد بعد غربلتها ، وبأية مؤسسات ستستخدم ؟ وأين الرجال الذين يمكن أن يرتفعوا فوق حضاراتهم الخاصة ويكدوا حقاً في كروم الخالق لخدمة الناس أجمعين ؟ إن من هؤلاء بضعة في ليك سكسس ، لكنه يبدو أن معظم المندوبين لم يفكروا في هذا الامتياز . فهم يزعمون أنهم هناك لتمثيل مصالح بلادهم وللعناية بالآل يقع ظلم على روريتانيا . ومن المحتمل ألا تبلغ الأمم المتحدة شيئاً يذكر ما لم يأخذ المندوبون في تبين هذه المرتبة الأصلية ، ويفكروا بأسلوب « النوع الإنساني أولاً وبلادي ثانياً » .

إننا لنجد بعض المواطنين العالميين بين اللجان والجماعات الفرعية في الأمم المتحدة . وتجمع اللجان إخصائيين من بلدان مختلفة يؤدون عملاً متشابهاً لكنهم لم يتصلوا من قبل اتصالاً مباشراً ، إخصائيين يعالجون احتياجات بشرية عامة . ولليونيسكو أيضاً طائفة من المشروعات الجديدة الهامة منها : شبكة للإذاعة تعم العالم .

نشر الأعمال الأدبية والعلمية والفنية الهامة بالميكرو فيلم لتوزيعها على الشعوب . مراكز تعاونية في الشرق الأوسط والشرق الأقصى وأمريكا اللاتينية لترقية العلم والفن التكنيكي .

تبادل الطلبة بين الأمم في نطاق واسع . مشاريع للراديو والعلم لإعانة الناس على فهم حضارات مختلف عن حضاراتهم (وفق ما أوردنا من وثائق في تصورنا للاتصال) .

كل هذا بديع ؛ بيد أن روسيا لم تنضم بعد إلى اليونسكو ، وبذا تترك على الخريطة فراغاً كبيراً . وقد يكون أدنى إلى الفائدة أن تمنح مؤسسة كارنيجي جامعة هارفارد منحة لتشكيل فرقة من العلماء الاجتماعيين تقوم بدراسة روسيا كنطقة . مثل هذه الفرقة خليق أن يرأسها كلايد كلوكهون ، فهو أحد علماء الإنسان الذين درسوا المعنوية اليابانية أثناء الحرب ، ومن ثم هو أهل إلى درجة رفيعة لأداء هذا النوع من الهندسة .

دراسات المناطق

إن منحة من مؤسسة كارنيجي لتبرز لنا من جديد كامل التطور الهام الحديث في العلم الاجتماعي والمعروف بدراسات المناطق . فهي دراسات تنمى الاتصال لأنها تمكن الناس في منطقة من المناطق من فهم الناس في منطقة أخرى . ولا تعنى هذه الدراسات اتصالاً ذاتياً ، لكنها قد تعنى ذلك فيما بعد . وإنه لينبغي أن نرحب بدراسة منطقية [نسبة إلى منطقته] علمية حقّة تقوم بها جامعة موسكو للولايات المتحدة مثلاً ، وتنتهى إلى نتائج إيجابية هادئة تبسط على بساط البحث أمام المكتب السياسى .

وقد سرحت لسوء الحظ فرق المناطق التي درست ألمانيا واليابان وليته والمحيط الهادى . ونحن بحاجة إلى أمثال هذه الفرق لدراسة الحالة بين الهندوس والمسلمين في الهند ، وبين اليهود والعرب في فلسطين . نحن بحاجة إليها لدراسة اشتداد النزعة القومية في الأرجنتين في ظل حكومة بيرون .

وقد اختارت مختلف الجامعات الأمريكية بالفعل مناطق لهذا النوع من الدراسات ، وأدبت بعض الأعمال الطيبة في هذا الصدد . ويلاحظ جون و. جاردنر في « ييل ريفيو » أن روسيا تفحص في كولومبيا وهارفارد وييل وستانفورد

وجامعة كاليفورنيا؛ وأن اليابان تقع في اختصاص ميتشيجان . وتتعهد ييل وهارفارد وكاليفورنيا الشرق الأقصى ، والصين خاصة ، وتخصص تكساس وكارولينا الشمالية وميتشيجان وكاليفورنيا في أمريكا اللاتينية . وتنهض ييل ببرنامج يتناول جنوب شرق آسيا وتشغل فيسك والشمال الغربي بإفريقيا ، ورنستون وبنسلفانيا بالشرق الأدنى ؛ ومينسوتا باسكنديناوه — وماذا يمكن أن يكون أسعد من هذا ؟ — وتشغل إنديانا بشرق أوروبا . لكن أحداً لا يعمل شيئاً يذكر لمناطق كاليفان أو إيطاليا أو أسبانيا أو فرنسا أو ألمانيا أو وسط أوروبا أو بريطانيا .

يقول جاردنر إنه ينبغي أن ننشئ مفاهيم كاملة للبحث الطويل الأمد تتناول كلا من مختلف مناطق العالم ، وأن نوسع هيئات خبرائنا — تلك الهيئات الضئيلة الحجم بصورة تدعو إلى الرثاء . صحيح أن لنا نواة يمكن أن يصدر عنها هجوم كبير على أسباب الحرب والتطاحن الجزرى للجاعات الداخلة وفي جملتها جماعاتنا . لكنه يجب الاهتمام إلى طريقة ما لوضع دراسات المناطق تحت رعاية الأمم المتحدة أو غيرها من الهيئات الدولية . وقد يكون من الصواب أن تقوم رنستون وميتشيجان بالعمل لكن على أكسفورد والسربون وطوكيو أن تعاون عليه أيضاً ؛ بينما ينبغي أن يكون التفسير ذا صبغة دولية وفي نطاق واسع .

في الحقوق البشرية

إنه يمكن الاهتمام إلى سياسة هادئة لمثل هذه الدراسات في إعلان حقوق الإنسان — ذلك الإعلان الذى سبق أن عرضته الجمعية الإنسانية الأمريكية على الأمم المتحدة . وهو يتألف من ثلاثة مبادئ وجيزة :

١ — إن الفرد يكتسب شخصيته من حضارته ، ومن ثم يستلزم احترام الفروق الفردية احترام الفروق الحضارية .

٢ — إن احترام الفروق القائمة بين الحضارات قد قررته حقيقة علمية واقعة هي أنه لم تكتشف طريقة لتقدير الحضارات من حيث الكيف .

٣ — إن المعايير والقيم ذات صلة بالحضارة المستمدة منها ، فكل محاولة لنشر المعتقدات والقوانين الخلقية من حضارة لا بد أن يضعف احتمال تطبيق أى إعلان لحقوق الإنسان على نوع الإنسان كمجموع ...

حتى الألوان التي نراها والأصوات التي نسمعها وطبيعة العالم الطبيعي نفسها يكتفيها لنا تدريبنا وخاصة اللغة التي نتكلمها . فكم يجب أن تقرر فيكرنا عن « الحرية » حضارياً أكثر ما هي مقررة ؟ ومع ذلك فإن الجمعية الإنسانية الأمريكية تذكرنا بأن ميثاق الأطلنطي حين أعلنه روزفلت وتشرشل أول ما أعلنه هتف له العالم بأسره ، فدل ذلك على أن أناساً من مختلف الحضارات فهموا الحريات الأربع ورحبوا بها . ثم تلا ذلك أن اتوى تطبيق الميثاق وقيد ، وأن فقد استهواه العالم ، وكف الناس عن التفكير فيه .

فقيم يفكر الإنسان الآن ؟ من الممكن الاهتمام إلى ذلك لأول مرة في التاريخ . فهناك بالفعل ما يبلغ أن يكون توكيلاً عاماً في أمريكا لإقرار السلام الدائم ومعارضة الدفاع المسلح بالاتفاق السياسي . وقد دل استفتاء « لقورشن » في ديسمبر ١٩٤٧ على أن ٥٥ في المائة من الأمريكيين يحضون على تأييد الأمم المتحدة ، وأن ٢٠ في المائة يريدون من أمريكا أن تمضي إلى أبعد من ذلك فتشرع في مشروع لحكومة عالمية ، وأن ٤ في المائة عاجزون عن تقرير شيء بين الفكرتين . وليس في هذا الإحصاء سوى ١٠ في المائة من الأمريكيين من أنصار العزلة المتشددين . وهناك أحد عشر في المائة لا رأى لهم .

ويبدو هذا كحالة أخرى يسبق فيها الشعب حكومته إلى مدى بعيد . فأربعة من خمسة تقريباً يريدون شيئاً فوق القومية ، فإذا كان ٨٠ في المائة من الأمريكيين

في هذا الرأي — في وقت أمريكا فيه أقوى دولة على وجه البسيطة — فإنه ليلوح من المعقول أن نفرض أن استفتاء دقيقاً لشعوب أخرى خليق أن يبدى نسباً ربما كانت أعلى من هذه النسبة ، لكننا لن نستوثق من هذا حتى يجرى هذا الاستفتاء^(١) .

الدعوة إلى مزيد من المعرفة

كتب إلى أحد علماء النفس يقول إنه لكي ندرك القنبلة يجب على العلماء الاجتماعيين أن يبدأوا في نفس المستوى الفكري الذي بدأ فيه الطبيعيون . فتجنب خطر العجلة — ذلك الخطر العظيم — ونشدان جذور المسألة بتطلبان شجاعة علمية من نوع رفيع . فالذين يقومون بأبحاث جوهريّة ينبغي أن يواصلوها ولو عجزوا عن تبين شيء جلي يطبقونها عليه .

زد على ذلك أن بعض المشاريع الواضحة الأخرى الطويلة الأمد يستحق الدرس . فالحاجة ماسة إلى رجال أكفاء يحللون كافة وجوه موضوع كموضوع العاطفة الوطنية ، أو مواد غذاء العالم ؛ إلى رجال يستخرجون وقائع عن النظائر في الحضارات والاحتياجات العامة ؛ ورجال يعملون للانصال ؛ ورجال يرسمون أهدافاً معينة تتعاون الأمم على بلوغها ؛ ورجال يضعون الطرق لتدريب الصغار على السلام .

لقد داهمتنا الأزمة الندرية مداهمة خاطفة حتى ليكون من المفاجيء لنا أن يكون الباحثون قد حللوا الحالة التحليل الدقيق الذي يجعلهم يسألون الأسئلة الصحيحة . مثال ذلك أن هنالك تناقضاً يواجها بين البحث القانوني والبحث الحضاري في مشكلة العالم الواحد . فالوطنية والعلم والشرف القومي و « بلادى

(١) وقد أجرى واحد في ربيع سنة ١٩٤٨ يتناول عدة أمم .

أخطأت أو أصابت » — هذه أصبحت بالتدريب الحضارى الذى تلقيناه ونحن أطفال مسائل عاطفة فردية عميقة لجميعنا تقريباً ، كثيراً ما تكون فوق المنطق والعقل . ومع ذلك فإن السنن السياسية التى تلتصق بها هذه العواطف يمكن أن تغير الآن ولكن بطريقة قانونية . أنظر على سبيل المثال دستور الأمم المتحدة مع نص القيمة . فقد كانت الحرب تتوقف فى الماضى على نوعى العمل — العمل السياسى تقوم به الدولة بقواعده ولوائحها الكثيرة ، والتجاوب العاطفى من جانب المواطن إلى حد التضحية بالنفس . والحالة المعنوية نتاج حضارى تعززه كراهية الجماعة الداخلية للغرباء فى كل الظروف . فى هذا الوضع المضطرب يجب على العلماء الاجتماعيين أن يلجأوا إلى التمييز الكبير فى وضع مشاريع الأبحاث .

والحاجة ماسة إلى مزيد عظيم من الضوء يسقط على المسألة الكبرى ، مسألة الجماعة الداخلية مقابل الجماعة الخارجية . ففرقة من علماء النفس النظريين والعمليين مع خبراء الفكرة الحضارية يمكن أن تساعد على استبعاد هذه المسألة . والمشكلة أبعد غوراً من الأداة السياسية للدول . « هل يتحتم علينا إعلان الحرب على « مارس » للحفاظ على حكومة عالمية ناجحة ؟ » هذا ما يمثل الفكرة العامة ، وإن كان من الصعب أن يكون الشكل العلمى المناسب للسؤال . ثم ما هى الحدود المحتملة لمجتمع بشرى واحد ؟ هل يمكن أن تمتد الجماعة الداخلية من العصبة التى تتلاقى وجوه أعضائها عن طريق وسائل الاتصال الحديثة — وهى الراديو والتليفزيون والنقل الجوى والسينما والتليفون — لتشمل العالم أجمع ؟ ليس من يستطيع أن يجيبنا بعد .

وخليق بتجارب كورت ليثمن عن مبلغ العدوان فى مختلف أشكال متدييات البنين — خليك بهذه التجارب المضبوطة أن تراجع بمزيد من الاختبارات ، وتمد فى نفس الوقت إلى جماعات أخرى . فالتجارب التى خففت بها العدوات

في الجماعات المختلطة يجب أن تشجع وتوسع دائرتها . فما هو البديل من صب عداوة المرء وعدوانه على الغرباء ؟ هل منازلة أنواع فعالة من الرياضة وخاصة حين يركل المرء كرة أو يحطمها ، ينطوى على بديل ؟ إن الجماعة الداخلية تلقى في أداء وظائفها صعوبة إذا لم تكن هناك صمامات أمان . وكيف يستطيع السويسريون والسويديون الاحتفاظ بهذا القدر الكبير من السلام المنزلى إذا لم يكونوا خاضوا غمار حرب مائة سنة ؟

ومهمة أخرى للبحث يقترحها غوردون أولبورت هي أن تحلل الأشباه الحضارية والنظائر البشرية في كافة نواحي العالم تحليلاً دقيقاً . فهذا خليق أن يدعم ما أسميناه « العموم » [جمع عام] . وقد يقول المشتغلون بالعلم إن ههنا خصائص مشتركة في البشر يرجح ألا يستطيع تغييرها أبداً فيجب أن يقوم على أسامها عالم واحد بصفة نهائية . وهذه هي التحديدات التي ينبغي أن تقبل ، بينا تحديدات أخرى كالتحديدات التاريخية والقانونية والسياسية التي نحس قيودها القصيرة الأجل هذا الإحساس الحاد لا تحتاج إلى عرقلة خططنا على مر الأيام . والبحث فيما يسميه إدوارد هالت كار « مسألة القوة التي لم تحمل » يجرى مجرى حسناً جداً . فالدول السبع العظمى التي كانت قائمة سنة ١٩٣٩ وهي ألمانيا وفرنسا وروسيا وإيطاليا واليابان وبريطانيا العظمى والولايات المتحدة ، قد حولت في يوم وليلة إلى مراكزين للقوة قوامهما أمم متعددة . ولم يحدث نابليون قط شيئاً ثورياً كهذا حين أطاح بمراكز القوة في أوروبا هنا وهناك وههنا مدى عشرين سنة . وفي الإمكان الانتفاع بعلماء السياسة والمؤرخين والأطباء الروحانيين ، وكذلك علماء الاجتماع والإنسان وأنماط مختلفة من علماء النفس . في الإمكان الانتفاع بهم جميعاً في تحليل علاقات القوى في مستويات مختلفة . وقد يدرس خبراء آخرون كيف تعد أوجه معينة من النشاط أو الأهداف

يمكن أن يتعاون عليها الأمم جميعاً . وقد توضع تحت رعاية الأمم المتحدة لتبهي لنا فرصة للعمل المشترك خيراً مما حدث إلى الآن . فافرض على سبيل المثال أن أنتاركتيكا أعلنت أرضاً تابعة للأمم المتحدة تملك هذه الأمم مواردها ، وافرض أن قوة دولية مسلحة جردت لاحتلالها ، فهل تكون هذه بداية ثابتة لعمل موحد في جزء من العالم لم يقسم كل التقسيم بعد بين دول ذات سيادة ؟

لقد اقترح والتر هينز بيدج في سنة ١٩١٣ أن تبدأ أمم العالم مشروعاً مشتركاً للإدخال الوسائل الصحية إلى المناطق الحارة كصمام أمان يحول دون انفجار التوتر الدولي . فلم ينفذ الاقتراح قط ولم يمنع الانفجار . وقد كانت فكرة مستر بيدج خلية أن تحيل هم البشر عملاً طبيكاً واقتصادياً بدلاً من صيرورتها نشاطاً عسكرياً . واقترح مشابه هو إعادة غرس مناطق الأرض العارية بالشجر لتعود غابات .

وتواجهنا الآن في سنة ١٩٤٨ أهداف اقتصادية عاجلة . فأمام الاقتصاديين والمستقلين بالعلوم السياسية والجغرافيا مهمة كبيرة في حساب إمكانيات التكوين بالمواد الغذائية مع معدل المواليد في العالم ك مجموع ؛ وفي تعقب سوء توزيع المواد الخام بين الشعوب ؛ وفي عمل ميزانية للمناطق المحرومة بالمقابلة إلى المناطق المكفية ؛ وفي اقتراح طرق لتبادل البضائع تحت حكومة عالمية ، فتصبح احتكارات الحكومات القومية غير مشروعة بصورة جلية ، بينما يمكن أن تكون حرية التجارة العالمية على مثال سنة ١٨٧٠ مما لا يمكن العمل به . فكيف نحصل إذن على البضائع متبادلة بالعدل والقسطاس .

وقطعة عاجلة أخرى من البحث هي تنشئة منافذ سلمية للطاقة الذرية تستعمل على استعمالات طيبة ، وتعدينية ، وأحيائية للأيزوتوبات^(١) . فهنا مهمة

(١) هي كما سبق أن أوضحنا أنواع من عنصر واحد لها عدد ذرى واحد ، ومن ثم تحتل مركزاً واحداً في الجدول الدوري . وهي متشابهة في التفاعل الكيميائي لكنها تختلف في الكتلة الذرية .

قوية أثارت اهتمام العالم . وهيئة دولية ، كالتى اقترحها ليلينثال فى مشروعه ، للإشراف على اليورانيوم والثوريوم والقنابل الذرية وكافة أوجه الطاقة الذرية تبدو لى أول خطوة عظيمة نحو الحكومة العالمية .

ومشروع آخر هو تحرى الكيفية التى يمكن أن تساعد بها الموارد الفنية والمالية للبلاد الصناعية على رفع مستوى المعيشة فى أمم « متخلفة » من دون اتباع النموذج القديم للاستعمار والاستغلال . فتحت هذا العنوان تظهر الطاقة الذرية ككرة أخرى . والمناطق المنطقية التى تؤسس فيها أول مصانع كبيرة لتوليد القوة الذرية هى مراكز الطاقة الدنيا فى الصين والهند والبرازيل وأفريقيا . فما هى خير طريقة للعالم للقيام بهذا العمل الإنشائى الهائل ؟

بكل هذا البحث الموجه يمكن الخبراء أن يشتغلوا فى وقت واحد بمزيد من المسائل العامة . فلماذا تقرب إجراءات بعينها تتخذها الحكومات مخصصة للعمل للسلام — لماذا تقر بها هذه الإجراءات من الحرب بالفعل أكثر مما كانت ؟ ولماذا تنقلب بعض الإجراءات العسكرية المتخذة للدفاع إلى الهجوم من تلقاء نفسها ؟ ولماذا ندرّب الأطفال على الحرب فى الواقع ولا نجرؤ على تدريبهم على السلام ؟ إن تناقضاً كهذا قريب من جذور المتعبه كما هو واضح ؛ فيجب أن يعالجه العلماء وخاصة علماء النفس الاجتماعيون .

فرقة كبيرة

إن الحكومة التى يسمها أن تحمل نفسها على التسليم بأنها ليست عالمة كل العلم بكل شئ أو قادرة كل القدرة على كل شئ ستكون عوفاً عظيماً على هذه النقطة فى التاريخ . فمن الصعب أن نتصور واشنطون أو موسكو أو لندن تعلن : « نحن نجهل الجواب ، لكننا سنحاول الاهتداء إليه . هنا تحت رعاية الأمم المتحدة

جماعة من خيرة العلماء والمهندسين الاجتماعيين في العالم يُمولون بسخاء كما تمول الأبحاث الذرية . بيد أنهم هذه المرة قد نظموا للاهتمام إلى طريق إلى العالم الواحد والحريات الأربع ووضع حد نهائى للحروب . »

فأية هزة تصيب شعوب بلادهم والناس أجمعين ! إن أول نبأ لميثاق الأطلنطى لن يكون شيئاً إلى جانب هذا . فسيكون للإخصائيين في كل بلد وفى كل ميدان ما يمدون به هذا المشروع وما يضيفونه إليه من معرفة ويؤدون له من عمل معلى أو إكلينيكي . وقد يدل هذا فى ذاته على أنه معادل سيكولوجى لإعلان الحرب على مارس ، وقد لا يدل .

إننا لم نعد أن ارتأينا بضعة مشاريع ولحنا أقل التلميح إلى المدى والنطاق المطلوبين للاهتمام إلى طريق علمى يؤدى إلى السلام . فليس من وكدنا فى هذا الكتاب أن نحاول إجمال الأبحاث الضخمة أو توقع نتيجة هذا الإصلاح الذى هو أعظم إصلاح . ولعل العمل المنظم ، وصوغ المسألة ، وتوجيه الأسئلة الحققة ، تثبت أنها أعظم شىء فى الأمر كله ؛ فقد كان هذا هكذا فى مشروع مانهاتن .

من المرجح أنه فى الخمس والعشرين سنة الأخيرة قد حصلت عن السلوك البشرى والعلاقات البشرية معلومات هى أحق بأن يعول عليها مما سبق إلى الآن فى التاريخ . وقد اطلعنا فى هذه الدراسة على جزء فقط من هذه المعرفة . وينبغى فى الخمس والعشرين سنة القادمة ، ومع التشجيع من المواطنين والحكومات ، أن يكون التقدم أسرع كثيراً جرياً على مجرى أوجبرن المتضاعف . فمن يدرينا ألا يزودنا ربع قرن آخر بصيغة جليلة مفيدة للعالم الواحد يؤيدها بحث لا يأتية الباطل وتسندها سلطة العلم الكاملة ؟

لكن هل يكون لدينا الوقت الكافى لإيجادها ؟

٢٦ - عرض المكتشف

ما الذى تعلمناه من ارتيادنا التقريبي الحاضر لميدان العلوم الاجتماعية فى هذه السنة الثالثة لعصر الذرة ؟ لا بد بطبيعة الحال أن يجيب القارئ عن هذا السؤال بنفسه . أما عنى فقد أولتلى الرحلة شجاعة . فالمعرفة ميسورة أو يمكن أن تيسر على نطاق لا يحسه معظمنا بحال من الأحوال ، لتساعد على حل كثير من المشاكل الحيرة فى العلاقات البشرية .

ولست أعلم كم يستغرق حلها من وقت . بل إنى لا أعلم هل يسمح للمستغنيين بالعلم الذين يتوقون إلى الاشتغال بها أن يفعلوا ذلك . لا أعلم هل يفوت الوقت قبل الاهتمام إلى جواب عن مسائل كمسألة الحكومة العالمية . يقول بعض الناس إن الوقت أبعد مما تظن ، وهذا قول لا معنى له ، فليس من يعلم ما الوقت الآن ! لقد تعلمنا فى بحثنا أنه لا خلاف بين طريقة بحث العالم الطبيعى والعالم الاجتماعى لمسألة بعينها . فالطريقة العلمية واحدة تشتمل على الخصائص العشر المبسطة فى الفصل الثانى . بيد أن الموضوع نفسه هو المختلف . هذا إلى أن العلماء الطبيعيين يملكون سلام متينة ترجع إلى غاليليو ، بينما العلماء الاجتماعيون قد هجروا للرابع واللقانة والنطق الصرف أخيراً فقط إلى طريق أوعر مسلكا هو طريق الملاحظة والاستنتاج والتحقيق .

تباين

ولتصوير الفرق كرة أخرى إليك مسألتين عمليتين تربكان رجلا عملياً .
يحد جورج رذر فورد آدمس صديقنا الميديلرجى قبو بيته مغموراً بالماء فى صباح يوم من أيام مارس فيستدعى السباك ، فيرتئى آلة ماصة ، فتجهز واحدة من

قطعة ماسورة ومضخة حديقة ، فينطلق الماء عمودياً إلى علو عشر أقدام ، ماراً من نافذة عالية ، منعرجاً فوق تل وراءها .

ويسأل جورج ومن خلفه سنتان في مدرسة عالية : « لماذا يصعد الماء التل ؟ »

فيجيبه السباك : « لأن هذه آلة ماصة . . . هذا ما تعمله الآلة الماصة . . . ضغط الهواء أو شيء ما . إنها لا تتجاوز اثنتين وثلاثين قدماً ؛ فأنا أعرف ذلك . »
وواضح أن السباك ميكانيكي وليس نظرياً .

ويترك هذا التفسير لجورج غير مستريح الذهن . ويحيثه صديقه الأستاذ بليك في المرة التالية يطلب بترولا ، فيسأله جورج عن حكاية الآلة الماصة ، فيخرج الأستاذ نوتة وقلماً ، ويوضح لجورج بأقل ما يمكن من الكلام مبدأ الآلة الماصة في رسم بسيط يشير فيه إلى وزن الهواء بأسمهم فيقتنع جورج . فالجواب واضح ومباشر . زد على ذلك أن كل طيبي ومهندس من نيويورك إلى أودسا يوافق على أن هذه هي الطريقة من دون جدل أو تحليل منطقي . وقد كان هناك قبل أن توضع مبادئ الفراغ جدل كثير ، وكلام حام ، وملاكمات ؛ ما في ذلك شك . لكن هب أن كساداً وقع في السنة أو السنتين التاليتين فبات جورج على وشك أن يخسر جراحه . فالعملاء قد قلوا و « الشغل » ردى ، والدائنون يتزاحمون من حوله ويتسككاً كأون عليه .

فهو يسأل مصرفي المدينة : « ما السبب ؟ »

فيقول المصرفي : « إنه الكساد . هبوط كما تعرف في الدورة التجارية . . . كل أربع عشرة سنة أو ربما كل ثمانى عشرة . »

فيسأله جورج وهو ما يزال في حيرته : « وما الذى أحدث الكساد ؟ »

فيقتضب المصري : « إنها النقابات : بدأت بشروطها الثالث المتعلق بالأجور ،
ويأخذ يلعن جون ل . لويس .
ومرة أخرى يتبلبل فكر جورج ، فهو يسأل كل من يصادفه عن سبب
الكساد .

فيقول رئيس المدينة : « الديمقراطيون بكل ما ينفقونه . .
ويقول آخرون :

« إنهم الروسيون ، وقد بدأوه جميعاً ... »

« إنهم أولئك الديوانيون في واشنطنون ... »

« إنهم البريطانيون بكل القروض التي ابتزوها منا ... »

« إنهم اليهود ... »

« إنها المؤسسات الكبرى تحاول تحطيم النقابات ... »

« إنهم أولئك المتكسبون الذين لا يريدون خفض الأسعار ... »

« إنه مشروع مارشال ... »

« إنه كلف الشمس ... »

وهكذا إلخ . فلكل شخص يستشير جورج سبب مختلف أو زاوية مختلفة
لسبب مشابه . كلٌّ إيجابي جداً أو غاضب جداً على شخص ما ، على تجريد رفيع
في العادة « كالشغل » أو « العمل » أو « الجمهوريين » أو « الديوانيين »
أو « البريطانيين » .

فأنت ترى أنه أسهل كثيراً على جورج أن يعرف نظرية الآلة الماصة من
أن يعرف نظرية الكساد . فالمسألة المتعلقة بالعلم الطبيعي مقررة ، متفق عليها من
كل من المراقبين المختصين ؛ أما مسألة العلم الاجتماعي فما تزال معلقة في الهواء .
على أن الاقتصاديين كما شهدنا في الفصل التاسع عشر يعلمون بالفعل الشيء

الكثير عن الدورات الاقتصادية وكيف يسيطرون على أشد ما يحير من الالتواءات فإذا انبنى أن نجعل الدكتور جالبريث وأصدقائه يعدون آلة اقتصادية ماصة ، لأمكنهم في الراجح نزع معظم الماء ، ولما خسر جورج تجارتها .

والطرق ميسورة لوقف الكساد ، طرق أعقد من الآلة لما تنطوى عليه من متنوعات أكثر ، لكن العليمين بها ما يزالون قليلين . فهناك كثير من الأثرية على صورة نظريات تافهة غير مفيدة يجب إزالتها قبل أن يسع العلماء تطبيق الطرق التي نشئت في الكساد الكبير . وهذا ما يواجهه العلماء الاجتماعيون على الدوام : فروض عتيقة لا تلائم المشكلة الحديثة مع اقتناع عام شائع بأن كل مواطن حر يبلغ الحادية والعشرين ، يعرف كافة الردود .

الطريقة العلمية كرة أخرى

لقد حاولنا في الجزء الأول من هذا الكتاب أن نعرف الميدان الذي يشغله العلم الاجتماعي اليوم بمعارفه الخمس كقاعدة ، وهي علم الإنسان الحضارى ، وعلم النفس الاجتماعى ، وعلم الاجتماع ، والاقتصاد ، والعلم السياسى . فأبدينا كيف أخذت هذه المعارف تمزج في علم واحد للإنسان .

وقد صورنا الطريقة العلمية بعد قبول صحتها النظرية في دراسة العلاقات البشرية — صورناها بوصف مفصل لصلاحيتها في الاختبار في أسلحة طيران الجيش أثناء الحرب . فألقينا خصائص الطريقة العلمية الكبرى واضحة المعالم بما فيها الاختبار المادى ؛ وقد أفادت . فجهزت الأساطيل الجوية بالرجال على أساس الطرق التي التقط بموجبها أولئك الشبان الذين كانوا في أكبر الاحتمال سيكونون طيارين مهرة ، وكسبت مئات المعارك ، وأنقذت آلاف الأرواح . ولا نهاية للشواهد . فهي تبرر استنتاجين تبريراً كبيراً : أولاً أن الطريقة

العلمية يمكن أن تطبق على دراسة العلاقات البشرية ، وثانيا أنها قد تكون الطريقة الوحيدة لتخليص الإنسان من متعبته الحالية الجائفة . وقد بسطها كورت ليثن قبيل موته على هذا النحو :

« لقد بلغت القنبلة في قوة درامية درجة تكون الأحداث الاجتماعية عندها نتيجة الحوادث الطبيعية ومسبباتها على السواء . وإنه لفتنى بالتدريج تلك الفترة التي يرى فيها العالم الطبيعي العالم الاجتماعي إنساناً يعني بالأحلام والألفاظ أكثر مما يراه مقهراً عن الحقائق التي لا تقل في حقيقتها عن الحقائق الطبيعية ، والتي يمكن أن تدرس كهذه دراسة موضوعية ... وفي الميدان الاجتماعي كالميدان الطبيعي على السواء تختلف خصائص البناء في مجموع حركي عنها في الأجزاء الفرعية . ولا بد من تحرر مجموعتي الخصائص ... غير أنه ليس في الحقيقة فرق بينهما . فإذا قبل هذا القول الأساسي فإن مسألة كيان جماعة من الجماعات تفقد نكهتها الميثاقية يقية ، ونواجه بدلاً من ذلك سلسلة من المسائل التجريبية . »

لقد اكتسب ثبات العلاقات أكثر من ثبات العناصر أهمية في خلال تاريخ الرياضة والطبيعة ، وغير بالتدريج صورة ما كان جوهرها كما بدّل طرق معالجة المسائل الجديدة . ويعتقد ليثن أن العلوم الاجتماعية تبدى تطوراً مشابهاً .

وهذا الحيد بين جداً في علم النفس حيث يبتعد العلماء عن التوفر على سلوك دون غيره ويدرسونه في علاقته بجماعته وحضارته متعاونين غالباً مع علماء الإنسان . فهذه الطريقة وحدها يمكن أن يوضع الفرد تحت الفحص العلمي . والعلماء الاجتماعيون يكتشفون الآن أشكال « نسيبتهم » الخاصة بهم ، مقتفين في ذلك آثار الطبيعيين .

ولا يداخل الرئيس كونانت من جامعة هارفارد شك في حلول عصر العلم الاجتماعي . فهو يقول : « إنني أعهد أن الطرق قد تطورت الآن إلى نقطة تزود

عندها الدراسات التي يقوم بها علماء مختصون بالمجتمع بمعلومات أساسية تساعد كل أولئك الرجال العالميين الذين يجاهدون ... في سبيل العلاقات البشرية ... ويجب أن يقوى التعاون بين الرجال الطبيين وعلماء النفس والأطباء الروحانيين ... وقليل من يدرك من الناس مبلغ ما تم من تقدم في العشر السنوات الأخيرة ، ومبلغ الميسور من الطرق الآن للمساعدة على حل المسائل العلمية ، بيد أن المستقبل هو الذي يشير ... »

استعيان الميدان

لقد اجتهدت في الجزء الثاني بمساعدة القارئ أن أزيد هذا التقدم الذي يدركه « القليلون » وضوحاً . لقد قدسنا ما يمكن أناساً آخرين من أن يروا العمل الأساسي الذي وضع فعلاً ويثأثروا به . ولم نكن نستطيع أن نشرع في تناول الميدان كله لأن هذا خليق أن يتطلب طبعة منقحة من دائرة معارف العلوم الطبيعية ؛ بيد أننا اخترنا عينات شعر المؤلف بأنه مختص بمناقشتها بعد مراجعة أهميتها مع طائفة من المستشارين الخبراء .

الفكرة الحضارية

لقد وُجد أن العمل البارز بإجماع الرأي تقريباً هو الفكرة الحضارية . ولا أملك إلا أن أعلق تعليقاً أخيراً على هذا المبدأ الأصلي مع ما في ذلك من تكرار . إن الفكرة وقد نشأها علماء النفس والاجتماع مشتركين طرأت على الرأي العام من جيل مضى تقريباً ، مع دليل مفترض بأنه كان لإنسان كرومانيون مخ لا يقل عن مخ الإنسان الحديث . يترتب على ذلك أن وليداً كرومانياً — لو نقل بأعجوبة إلى سنة ١٩٤٨ بواسطة آلة هـ . ج . ويلز الزمنية — خليق أن تتاح له نفس الفرص من دون أن تبهظه الجامعة والتخرج بدرجات الشرف .

وتهيء الفكرة الحضارية عنصراً مؤطداً لتفكير المرء في هذا العالم المحير —
عالم ما بعد الحرب . فإذا أحكم المرء قبضته عليها علم من أسس حجة علمية أنه ينتمى
إلى شيء أديم من أمته ، وشعر بأنه يؤلف جزءاً من عملية لبثت تنشأ وترتق
مليوناً من السنين . بل إن الحرب العالمية الثالثة إذا وقعت لن تدمر هذه العملية
تماماً . فستعود الجماعات في مكان ما إلى التفكون ، ويسير النوع الإنسانى سيرته .
إن معظمنا لا يشعر في غطرسته بالحضارة التى تسندنا وتمتصنا في نفس الوقت .
فقد نرى أننا « طلقاء » ؛ بيد أن العرف الاجتماعى يسيطر على ٩٠ فى المائة من
كل ما نصنع — وهذا رقم هوائى . فأن تكون طليقاً حقاً ، حراً كالنمر ، خليق
أن يجرّدك من إنسانيتك ، فلا تعنى العلاقات الاجتماعية عندئذ شيئاً سوى تزاوج
عرضى عاصف ، وحد أدنى من الاهتمام بالنزوية . ولا تكون اللغة ضرورية ،
ونصبح نحن نوعاً مختلفاً كل الاختلاف . فكم منافى للندية الغربية ممن يبحثون هذا
البحث الجدى فى « الحربة » وأولوية « الفرد » يشعرون بهذا الحق ؟ ومع ذلك
فلن نستطيع فهماً للحريات البشرية أو الحكومات أو العقود الاجتماعية ما لم ندخلها
فى تفكيرنا .

فتى ما أدركنا فكرة التسلكو الحضارى المكمل — تلك الفجوة الواسعة
أو الضيقة القائمة بين حقائق العالم الجارى ومعتقداتنا عنها — أدركنا فجأة مسلك
الرجعيين فى كل مكان . ومع ذلك فإن للتسلكو الحضارى حدوداً . ولا بد لنظم
المعتقدات من أن تتراجع أمام الحقائق إن عاجلاً وإن آجلاً . وهذا مما يساعد على
تفسير قيام زعماء كهتلر وموسوليني ولينين وبيرون ، فعند ما تزعزع نظم المعتقدات
من جراء الحرب أو الكساد أو المقتضيات الفنية الآلية يقوم زعماء محبوبون أن
يكونوا واسطة تغيير ، فينبغى ألا ندهش لظهورهم .
إن الفكرة الحضارية تذيب النظرات القديمة والحقائق الداخلية لكنها

تعطينا شيئاً أصلب منها نقف عليه ، أو هذا ما يبدولى . قالتنبؤ يتخذ شكلاً ،
وباب المستقبل يفتح وينفذ منه الضوء . ولم يتم بعد شيء كثير ، لكنه كاف لأن
يفكش منه كثيرون من أدياء الفسكر ، والمتنبئين المتشدين ، والنظرين الذين
لا يمكن تحقيق نظرياتهم .

أعمال أخرى

وقد محصت في الجزء الثانى مساهمات أخرى في العلم الاجتماعى . لكن
ما يثير الاهتمام هو مبلغ ما اتصل منها بالفكرة الحضارية . وهذا في الراجح ما ينبغى
أن يكون . ذلك أن دراسة الإنسان تتناول ك مخلوق اجتماعى ، وأن الحضارة تحكم
مجتمعة . وقد قام عمل ليتون في بوسطن على الفكرة الحضارية مع الطب الروحاني
وعلم النفس الاجتماعى . وقد صدرت عنه مجموعة هامة من التعميمات لإرشاد رجال
الإدارة في كل مكان .

وقد شهدنا في الفصل العاشر كيف هدم العلم الاجتماعى فروضاً قديمة عن
الفروق بين الأجناس . فإذا لم يكن قرر مبدأ المساواة فقد قرر قولاً سلبياً لا يقل
عنه قوة تقريباً وهو أنه لم يهتد بعد إلى دليل يبرر الاعتقاد بأن أجناس نوع الإنسان
غير متساوية بالفطرة . فمشكلة الجنس الحقيقية هى كيف تنشر هذه المعرفة .
كذلك أثبتنا الفرق بين تحامل الجنس ، وهو شيء في رأس المرء لا يمكن إزالته
بسرعة ، وبين التمييز الذى تعيه سجلات القوانين ولا يمكن أن ينقض في يوم
وليلة . ويعتمد علماء اجتماعيون من أمثال رونالد بينج وشارلز دولارد أن من
الممكن استبعاد تمييزات قانونية مختلفة قبل اقتلاع التحامل . وهذا في النهاية مما
يعين على شجب التحامل .

وقد تحررنا قوانين التبدل الاجتماعى ورأينا كيف يمكن أن تكون هذه

القوانين صارمة ، وكيف تسمح للتبدل أن ينمو نمواً متضاعفاً . وقد راقبنا أوجبرن وهو ينشئ مستقبل الطائرة من معدلات الماضي ، ملاحظين أن كلتا النظرية والرياضة في الحضارة أصليتان في مثل هذه الدراسات .

وقد جينا اثنتي عشرة مدينة من مثيلات ميدلتون حيث طبقت على الجماعات الحديثة طرق علماء الإنسان في دراسة القبايل البدائية ، وهي التي عززتها الإحصاءات الاجتماعية ، واستفتاءات الرأي العام ، وعلم النفس الاجتماعي . وقد كانت النتائج مما يستوقف النظر إلى درجة أننا ارتأينا أن تجمع في كتاب لإرشاد السلطات البلدية والباحثين الاجتماعيين . وكانت دراسات وارنر ليانكي سقى جدرة بالملاحظة بصورة خاصة في شق الطريق لنظرية اجتماعية جديدة ، ولطرق جديدة كثيرة . وسيظل الباحثون سنيين يناقشون طبقات وارنر الاجتماعية الست .

وقد راقبنا في غرفة من مصنع في هوترن بالينوا أصابع صناعا لفتيات يجمعن محولات للتليفون ، بينما كان معدل إنتاجهن يحصى بصورة آلية . فما أكثر ما أزال هذه التجربة المراقبة من أثرية تعلو فسكرة العمل والإدارة ! وقد كانت دراسة وارنر لإضراب في مصانع أحذية يانكي سقى عظيمة القدر كذلك ، مقرررة لاستنتاجات مماثلة .

وهذه الاستنتاجات مختصرة إلى حد كبير ، هي أن الناس يعملون خيراً مما يعملون عادة إذا اطمأنوا إلى مراكزهم ووثقوا من تقديره ، وأن نظام المصانع قد اتجه إلى القضاء على مركز العمال ، وبهذه المثابة على كبريائهم ورغبتهم في العمل . وتساعد النقابات على تعويض الخسارة ، لكن الذي يمكن أن يرد إلى العامل اهتمامه بالعمل هو أن يتغير أسلوب تفكير الإدارة تغييراً كبيراً ، ولا شيء غير ذلك . ومن حسن الحظ أن هذا التغيير في الطريق . ومنذ تولى إلتون مايو عمله في مدرسة تجارة هارفارد من ربع قرن مضى يلاحظ تقدم كثير .

وحللنا بعد ذلك عملية استفتاء حديثة مفقدين كل المراحل الثماني ، ومقدرين مبلغ الاعتماد العلمى عليها . وتقوم العملية على قوانين الاحتمال ونظرية الاستيعان . وقد ظهر إمكان التمويل عليها في أربعة انتخابات للرئاسة . ورأينا كيف أن الاستفتاء قرر قيام الديمقراطية السياسية في صورة لم يستطعها أى رأى أو منطق أو عاطفة من قبل .

لقد ارتيدت آجام النظرية الاقتصادية التي تتضمن هذا الابتكار المبتايزيقي الغريب ألا وهو «الاقتصادى الأثر» مؤدياً وظيفته كما يفرض أن يؤديها من دون انتفاع بغدد أو حضارة . وقد كان بضعة أساتذة من أمثال ويزلى متشل يدعون ، تبانياً مع هذا ، إلى نظريات جديدة قائمة على دراسات للسلوك البشرى النفعلى بالنسبة للمال والأسعار والإنتاج . وقد أثبتنا في احترام متزايد طرقاً عملية معينة ابتكرها اقتصاديون من الشبان أثناء الكساد والحرب . وتدل هذه الطرق على أن من المحتمل القريب قيام نظرية اقتصادية مفيدة قابلة للتحقيق . ويلوح أن عمل الفرقة مطلوب مع المعارف الأخرى أكثر من أى شئ آخر ليجعل الاقتصاد فرعاً أصيلاً من علم الإنسان .

ثم تفقدنا العلم السياسى والإدارة العامة فوجدنا هنا فكرة أخرى بعض الطرق البديعة ، وقدراً كبيراً من النظريات التي لم تحقق ترجع حتى أفلاطون . ويستعمل على الدوام قانون المتوسطات ، ومجرى توزيع التواتر في ميادين مختلفة للإدارة العامة . وهذه الإجراءات الإحصائية علمية محضة بطبيعة الحال .

وقد راقبنا فرقا للعلماء الاجتماعيين هناك في مسرح المحيط الهادى وهم يكتشفون الخصائص الكبرى لجزيرة ، أو لحالة اليابان المعنوية بالمراقبة من بعيد . وراقبنا أعضاء من جماعة استطلاع النقط الاستراتيجية للقفلة يزحرون عبر الحدود الألمانية

على مدى قفزة خلف الجنرال باتون ليقرروا ما يحصل بالفعل لشعب أمة عظيمة حين تلقى عليه مليوناً طناً من القنابل . وقد علمنا مما وصلوا إليه الشيء الكثير عن سلوك مجتمع بشري في الشدة .

ووقفنا أمام أقطاب أحدها لقرد وبعضها لبعض الفيران البيض في نيوهافن لنرى كيف عاونت على نظرية محكمة منبهة عن عملية التعليم . ويأخذ بعض العلماء الاجتماعيين فعلاً في إرائتنا كيف يدخلون الأطفال في الثقافة (والتعليم اسم آخر لهذه العملية) بمجهود أقل وكلفة بشرية أهون .

وشهدنا كيف يقوض العلم نظريات حول العقاب كرادع عن الجريمة ، ويحاول أن يستعيض عنها بنظريات أسلم . وأثبتنا كيف أن عالماً بالحيوان ، وقد انقلب عالماً اجتماعياً ، نشر أول دراسة على نطاق واسع للباحث الجنسي تنطوي على تأثيرات محتملة في الطب والقانون والتعليم ونظم المعتقدات .

دلالات

وفي الجزء الثالث نحاول أن نبين بعض الدلالات والاستنتاجات المتدفقة من هذا العرض للأدلة ، فنثبت كيف أن العلم الاجتماعي كالعالم الطبيعي يتوقف حيويًا على الاتصال الحسن . فإذا لم يعرف العالم فلان ما يقوله العالم علان فلن يتفقا أبداً على النتائج ، ولن يستطيعا أبداً تقديم أية معرفة للمخزن .

وقد تفقدنا تسعة أنواع مختلفة لدراسة الاتصال ، من الإعلان إلى علم المعاني ، وخصصنا للأخير منها فصلاً كاملاً . وإن الكثيرين من المشتغلين بالعالم ليتجهون إلى هذه المعرفة الحديثة القوية لتساعدهم على ترتيب الأفكار وصوغ الأسئلة المثلى للبحث .

وعلم المعاني كالفكرة الحضارية مدمر فعال للأوهام — التي يرى فيها المرء

أشياء تحدث في الدنيا وهي غير موجودة فعلاً . والعدو الحقيقي كما يقول إدموند تيلر في « أغنى بآسيا » هو ، في كل من الشرق والغرب ، الوم — لا وهم المجنون ولكن اضطرابات الأعصاب ، والوم عند الطبيعيين من الناس ، وهو ما يحدث كثيراً من عدم انطباق الألفاظ على الأشياء . « المطلوب هو معرفة يستطيع بها الرجل العادي أن يصبح رياضياً مدرباً على الحقائق . »

وأى نصر على الوم في ذهن المرء عمل عام ، وأعداء الوم — سواء أكانوا جنوداً غير واهمين أم أنصار سلام واقعيين — شركاء في إقامة صرح العالم الواحد ، عرفوا ذلك أو لم يعرفوه .

وأخيراً عرضنا الاصطلاحات والمصالحين لما سبق لنا أن تعلمناه فحصلنا على نتائج كاربة بعض الشيء . ويحد بعض العلماء الاجتماعيين أن كثيراً من الإصلاحات المؤيدة بصفة جدية ، له صفة الآلات ذات الحركة الدائبة . وقد رأينا في نفس الوقت أن العلم الاجتماعى يمكن أن يؤدي مساعدة كبيرة في إرجاع المصلحين الموضوعيين — تمييزاً لهم من المصلحين السقاء — إلى الطريق الرئيسى ، مبدئين لهم ما يمكن وما لا يمكن فعله .

وقد بحثنا إصلاحات سياسية واقتصادية في مستويات محلية ، مستويات قومية ؛ ووقفنا أخيراً فصلاً على ارتياد أعظم إصلاح حرك النوع الإنسانى في يوم من الأيام ، ألا وهو كيف تحقق عالماً واحداً . والكتاب كله يفضى ، بمعنى ما ، إلى هذا التحقيق .

العلم مقابل المذاهب المغلقة

لقد طالما اختُبرت هذه الأعمال أثناء دراستنا بسؤال واحد : هل هذا تطبيق للطريقة العلمية كما عُرِّفت في الفصل الثانى ؟ وقد اجتهدت على قدر المستطاع

في انتقاء أمثلة تصور الطريقة العلمية لأرى المرة تلو المرة أن العلم بموضوعيته القوية كان يعمل في ميدان العلاقات البشرية ، حتى ولو لم تتضمن موضوعيته معملاً محظوراً على الأجانب ، أولحية فاندبكية . وقد أطلقنا على هذا الضرب من المثال العلم الاجتماعي رقم ١ .

وصادفنا أحياناً علماً اجتماعياً رقم ٢ تجمع فيه الحقائق وتنشأ النظريات وترتقى ، ثم يقف الباحث — مثل ماركس أو جيمس برنهام — من دون تحقيق كاف لنظريته . ولم نشك من هذا الإجراء على شريطة أن يندرج الباحث بأنه يقدم فرضاً لم يحقق . لكن الذين بلغ من تواضعهم العلمي أن يفعلوا ذلك في الماضي قليلون للأسف . فقد قدموا في الغالب نظرياتهم إلينا بوصفها محمولات مفروغاً منها ، وقالوا في الواقع : ها كم الحقيقة !

إن الكثير مما سمي « علماً اجتماعياً » لا يعدو نظريات غير محققة أو نظريات محضة في العلاقات البشرية ، خلوا من الملاحظة الدقيقة ، مثقلة بالأحكام النظرية والأخلاقية . وقد يكون هذا شيئاً مشروعاً في البشريات ، لكنه ينبغي ألا تتضمنه الطريقة العلمية . وهذا ميدان ما أسماه أو بنهايم « المذاهب المغلقة » حيث يمنع تلاميذ أيقاظ ، جدليون ، ذوو حمية ، أن يستبيح خارج « طلعة » مخطوطاً أصلياً ليحاول تحقيق استنتاجاته .

كذلك صادفنا حالات في الاقتصاد والعلوم السياسية خاصة ، قوامها الملاحظة السليمة الجيدة ، تباشرها طرق عملية بديدة ، لكنه ينقصها الأساس النظري . ولا تزال بحاجة ، على الرغم من اللورد كينز ، إلى نظرية عامة كافية عن المال . إن العلم لا يمكن أن يتقدم من دون أن يتشرب النظريات على الدوام . ومن دون ذلك تجمد طرق البحث بالاستعمال والاعتقاد . والعلم الاجتماعي يحتاج خاصة إلى مزيد من البحث ومزيد من النور . وسنرتد في الفصل التالي والأخير بعض الطرق والوسائل لإيجادها .

٢٧ - نحو علم للإنسان

إن المدنية لا تفهم من دون بعض تطبيقات للطريقة العلمية . ولا بد أن كانت فترة طويلة من التجريب الدقيق مسئولة عن المدنية في كلا العالمين القديم والجديد . ففي الأول أسفر عن القمح والأرز وفي الثاني عن الأذرة . ولا بد أنه أجريت مئات من التجارب البسيطة في تربية النبات قبل أن يُبنى حب يخزن . وقد أنهى القمح والأرز والحبوب مليون سنة من عيشة الرحيل ، وجعلت المدن والجماعات المستقرة أخيراً في حيز الإمكان . وتقوم مدنية الطاقة العالية التي هي مدينتنا — اليوم على مجموعة كاملة من الاختراعات العلمية التي أدت هي وغيرها من الأشياء أكثر من مضاعفة عدد سكان العالم في خلال الفترة الوجيزة التي جازتها الثورة الصناعية .

وتضمن الطريقة العلمية كيان معظمنا ، بالغا ما بلغ أسفنا « للعادية » . فإذا انعدم العلم عدنا إلى الأجمة ؛ وإذا استزدنا منه أسلحته الفتاكة عدنا إلى الأجمة من طريق آخر . والنوع الإنساني متورط في كل خطوة مع العلم الطبيعي التطبيقي ، لكنه جعل أخيراً فقط يعبر المدنية نفسها الفجوة بطريقة علمية .

يعبر المتشكك تعبيراً عالياً فيقول إن الالتهفات إلى مشا كل المعيشة قد جاء متأخراً ، وأنه لا يعمل عليه كثيراً بحال من الأحوال . ويلاحظ المتشكك متلفظاً : « إننا قد انتهينا . والحيوان البشري في طريقه إلى القضاء . إنه يبدي الأدلة الأحيائية المسلم بها ، ويعرض الآن في مجموعه الدليل العقلي المألوف على اقترابه من الموت » هذه الجمل المفرحة قد جاءتني صباح اليوم من صديق لي . بيد أنه حتى ارتيادنا الراهن غير الكافي بدل على معرفة ميسورة هي أكثر ما يتصور

المتشككون ، فإنهم لم يعملوا حسبه ، ولكنهم يسلكون طريق الفرور بالقفز من رأي غير مأمون إلى قضية مسالة .

ومع ذلك فنحن ما نزال بعيدين من أن نعرف كيف نعيش مع كل إنسان . لقد أجيب عن كثير من المسائل الجوهرية ، لكن كثيراً غيرها لم يلق الجواب . ولا يمكن أن يطمئن نوع الإنسان إلى المستقبل قبل أن يجاب عنها . والمسألة هي أن نعرف كيف نهاجها وأن العلماء الاجتماعيين يزدادون على الأيام توقاً إلى بدء الهجوم .

بعض المسائل الباقية بلا جواب

قدمنا من قبل قائمة بما أسميناه المسائل الكبرى التي لم تلق الجواب ، وأثرنا خلال الكتاب طائفة أخرى . وفي الفصل الخامس والعشرين أثرنا أعظم هذه المسائل تطلباً للحل وهي : كيف يمكن نوع الإنسان وقف الحروب . وبلغ من تعجلنا أن رسمنا إجراء يمكن العلماء به بحث المسألة .

وليس أشد من العلماء الاجتماعيين تنبها إلى ما ينقص معرفتهم . وإنه يبدو أن تواضعهم يزداد بزيادة أعمالهم . فهم يدعون إلى إعادة تنظيم موضوعاتهم على خير وجه جوهري ، وإلى استكمال النقص ، وتقرير الشيء من جديد ، وإلى الفروض المثمرة والنظريات الحديثة ، وإلى فلسفة أساسية توحد حولها وتيسر مقادير عظيمة من المعرفة الكائنة .

وإليك بضعة أمثلة لتقصيهم في نقد ذواتهم :

جون دولارد : إن أقطع ثغرة ... هي الحاجة إلى علم نفس نافع مفيد . فما نزال نهمل أى تفصيل عن الكيفية التي تحصل بها الشخصية خلال الحياة في الأسرة وفي الجماعة الاجتماعية ... نحن لا نفهم كيف تنتقل ، كما تبدو ، العادات والواقف ، التي تتخذ حيال أشخاص ودودين ذوى سلطة في الأسرة والمدرسة إلى أشخاص المجتمع

ذوى الصفة الرمزية ... إننا لا نعلم كثيراً عن مسألة بالغة الأهمية هي كيف يتعلم الطفل اللغة وهو ما ينبغي في نفس الوقت أن ينهنا إلى الكيفية التي تستعمل بها اللغة بعد ذلك كفكر وتديير وتحليل منطقي داخلي .

لويس ثيرت : إن الثغرات الكبرى ... هي في ميادين العلاقات بين الأجناس ، والعلاقات الصناعية ، والعلاقات الدولية ، والرأى العام ، والمواقف الاجتماعية ... فعرفتنا تنف ... يعوزها الأساس النظري ، ولا يعززها تجريب مضبوط ، وأفروض مخبرة كل الاختبار ... وقد تهيئنا تحليل قواعد السياسة العامة والعلاقات المتداخلة بين الحقائق والقيم ... ولم نؤد كثيراً ... في دراستنا لنظم القيم في مجتمعتنا .

هـ . ا . مـ رى : لأود أن أعين لجنة من أنسب خمسة بين العلماء الاجتماعيين ... على علم مكين بالحقائق السيكولوجية وتجربة للمشروعات العملية ... لتنفق خمس سنوات تعمل ... على تأسيس مشروع فكرى يكمل معظم النظريات والفروض الميسورة الآن والنافعة ... ورسم خطة عامة للبحث ... تنسيقاً للجهود ... فهذا خليق أن يوفر ملايين من ساعات الناس يبذلونها في جهود لا تثمر ... إن ما أطلبه هنا ليس عالماً في العلم الاجتماعى من نوع نيوتن أو فارادى ، فإن ذلك مما لا يصنع . وإذا كنت ستمسك بالقنبلة الذرية فلتبدأ عند المستوى الفكرى الذى بدأ عنده البحث فى القنبلة الذرية . أما محاولة اختصار الطريق ... فلا يمكن أن تسفر عن شيء هام .

ألكسندر ليتون : إن لدينا من جهة ثروة فى النظريات ومن جهة أخرى ثروة فى الأساليب والطرق . وإلى الآن لم تجزء النظرية تجزئة كافية إلى فروض فرعية يمكن اختبارها بهذه الأساليب والطرق ... ومن ثم نحن غالباً ما نكون

فريسة النظريات الزائفة والأنبياء المزيفين الذين ابتدعوها . . . وما يزال هناك عمل فردى يتجاوز الحد تحوطه أكاليل شخصية . ويكاد لا يريد أحد أن يواجه الحقيقة القائلة بأن لنا في العلم أداة يمكن أن تمكننا من صنع الأداة التي ستصنع الأداة التي تصنع الأداة التي الخ حتى نصل إلى الأداة التي تعطى الجواب . وسواء أ كانت هذه العملية طويلة أم بطيئة فهي الأمل الوحيد .

م . ج . هر سكوفتس : إن الصعوبة الكبرى . . . تنشأ عن العزل والتجزئة ، وإن بعضها من أنفع الأبحاث التي تجري في ميدان علم النفس الاجتماعي . . . الذي يتزود من المعارف المتصلة بالطب الروحاني ومن الماديات أيضاً ، ويستخدم طرق العلوم الاجتماعية الأخرى . . . والمساهمة التي يؤديها العلم الاجتماعي يجب أن تقوم على فكر فلسفية عريضة إذا أريد لها أن تكون فعالة في حالات خاصة . . . وقد أنفق حرفياً ملايين الدولارات لحل مشاكل الأجناس التي عدت عاجلة إلى حد أنه لم يُيسر الوقت أو تيسر الموارد إلى أية درجة يمكن مقارنتها بغيرها لتحليل العوامل التي تنطوي عليها .

جاردنر مارفي : نحن بحاجة إلى أن نعرف الطرق الدقيقة التي تتفق فيها بواعث الربح (بأوسع معانيه) ببواعث الذات (الهيبة والسلطة الخ .) . . . إن معظم العلماء الاجتماعيين يكادون لا يعرفون عن مثل هذه البواعث أكثر مما يعرف رجل الشارع . . . إن سيكولوجية الزعامة السياسية ، في حضارتنا أيضاً ، ما تزال في مرحلة عربة الركوب . . . فنحن بحاجة إلى دراسة منظمة للبناء السيكولوجي للمجتمع السوفييتي بما فيه زعامته ، ولجتهمة بزعامته ، مع التصميم على أن نضع أصابعنا على تلك البواعث البشرية التي يمكن ، حتى هذا التاريخ المتأخر ، أن تجعل الناس قادرين على التفكير الرائق . . .

وفيما يلي بعض المسائل البارزة العامة التي يتفق معظم العلماء الاجتماعيين

في شأنها على أن الحاجة ماسة إلى أجوبة أكل . لاحظ عمق هذه المسائل وطبيعتها النظرية ؛ ولاحظ أيضاً كيف تتداخل ، وأن كلا منها يجب أن يلحق به كثير من الاستعلامات المسكلة .

١ — كيف يمكن أولاً إكمال المعرفة الحاضرة ثم تطبيقها ؟ هذا السؤال يستلزم أولاً تعاون الكثيرين من الإخصائيين واتفاقهم على سياسة موحدة أو هدف موحّد ؟ ثانياً قيام العلاقات بين العلماء والمهندسين الاجتماعيين وزعماء الجماعات ؟ ثالثاً كل المسألة المتعلقة بالإنسان ، هل يستطيع أن يرتفع فوق الحضارة بحيث « يتصرف وفق ما يؤمن به » أى يستخدم عقله في حل مشاكله .

٢ — ما الذى أحدثه العلم وأحدثته الآلة في تغييرات معينة في حضارتنا وفي التوازن العالمى للحضارات ؟ إن الجواب عن هذا السؤال خليق بأن يتضمن أموراً كازدياد عدد السكان بفترة ، وهو ما سعى إنتاج البشر جملة ، ازدياداً يتبعه ألوان جديدة لم يسبق لها مثيل من سلوك الجملة الذى يتضمن الكثير من أعراض عدم الأمن ، ثم ينطوى آخر الأمر على دمار بالجملة تحدثه الحرب العلمية .

٣ — كيف يمكن توسيع السيكلولوجية العلمية وتحقيقتها بحيث تتيح للسلوك الذى نلاحظه في حياتنا القومية إيضاحاً يركن إليه أكثر من غيره ؟ وقد ينطوى هذا على تسكلة مذاهب سيكلولوجية مختلفة تشتمل على الطب الروحاني واستكمال طرق جديدة في دراسة البواعث البشرية . وتتطلب المسألة فيهما أجلى للعملية التى يصبح بها الأطفال جزءاً فعالاً من الأسرة أولاً ثم من الحضارة .

٤ — ما هى العملية الحركية التى يقوم عليها بناء جماعة بشرية ؟ كيف يحصل الزعيم على سلطته ؟ وأية خلاقات تظهر حين تكبر عصبية من يواجه بعضهم بعضاً ، وما هى حدود كبرها ؟ كيف تعتمد الحالة المعنوية على الاتصال ؟ وكيف يطابق هذا كله على الجنس والقومية ؟

٥ — ما هي الحرية — بمنطوق حضارتنا وحضارات أخرى ؟ وأية عموم تقوم عليها هذه الفكرة ؟ وما علاقتها بالحاجة إلى الأمن ، وبعمليات الاتصال ؟

٦ — ما محل أحكام القيم من العلم الاجتماعي ؟ أيجب أن تعتمد هذه دائماً على ما يجد في حضارة واحدة ، أو يمكن إيجاد قاسم مشترك ؟

سيكون لدينا ما نزيده في لحظة على ما قلنا عن السؤال الأخير ، ذلك أنه كثيراً ما يواجه في صور مختلفة ، وأنه سؤال هام . وقد صيغت هذه الأسئلة في صيغة دارجة ليكون القارئ على استعداد لتلقى الفكرة . فإذا تولى الخبراء الإجابة عنها فإنه يكون لزاماً أن تصاغ صياغة علمية . وتوجيه الأسئلة على صورة مثلى كما قلنا قبلاً ، هو نصف الحركة . . . فنحن كلوتر نسمر هذه المقالات على باب الكاتدرائية . وهنا مسائل فوق المعرفة الحاضرة لأي إنسان على قيد الحياة . لكن كل امرئ بحاجة إلى أن يراها بحجابه سواء شعر بها أو لم يشعر .

خمس سبيل

لقد حصل العلماء الذين يعاونون على مشروع مانهاتن على جواب المسألة العملية المتعلقة بتطبيق الطاقة الذرية في حوالى أربع سنين . فكيف يعمل العلماء للحصول على أجوبة عن المسائل الآتية الذكر وغيرها من أمثالها ؟ إن هنالك على الأقل خمس سبيل واضحة المعالم :

١ — مشروع هائل لوضع خطة لسلام دائم . وقد سبق أن ارتئي هذا في فصل سابق . وسنجد أنه إذا أمكن الإجابة عن هذه المسألة الجوهرية نسوف يحل في نفس الوقت كثير من المشاكل الأخرى المتصلة بالعلاقات البشرية ؟ ذلك أنها تؤدي عملياً إلى كل ميدان . ومن المهم أن يوضع المشروع تحت رعاية دولية وحضارية ، تحت رعاية هيئة تمثل كافة شعوب العالم .

٢ — إن الحاجة ماسة في المعارف الحالية إلى مزيد من عمل الفرقة . وقد أظهرت الحرب كيف يمكن أن يثمر تعارف الاجتماعيين والاقتصاديين وعلماء النفس وغيرهم .

٣ — التشجيع التام لشبان موهوبين آخرين لتكون لهم سيرة في العلم الاجتماعى . فى البحث والنظرية والهندسة الاجتماعية والتعليم .

٤ — مزيد من الاعتمادات المالية للعلم الاجتماعى وخاصة للأبحاث فى المسائل التى لم تغز بجواب ، والاعتراف بأن العلم الاجتماعى رقم ١ هو علم خليق أن ينفع أكبر النفع .

٥ — مزيد من الشعور العام بالميدان ومزيد من التأييد العام . فينبغى على كل زوج وزوجة أن يبدأ يشعرا فى صميمها بأنه لعل هنا خير أمل فى البقاء فى عصر الذرة .

والهدف الذى يتوخاه العلم الاجتماعى هو أن يحترق الأساطير والأوهام ويرى حقاً كيف تجري الأمور هناك فى العالم الواقعى . ولعله كما يبين المتشككون ولا يتعبون أبداً فى الإبانة — لعل الضوء سيكون أسطع من اللازم ؛ أو لعل الإنسان العاقل لن يستطيع أبداً الاستغناء عن هذه الأساطير والأوهام والتشويهاات الملمة بالحقيقة . أو لعل هذا مع ذلك فرض مبتسر . إنه ليس ثمة ظل من دليل على أننا لن نقوى على الضوء ، لأننا لم نعرض له قط . وكل ما وقع فى الجيل الأخير هو أنه لاحظ لنا أولى التبشير الباهتة .

عمل الفرقة

لمشكلة عمل الفرقة وجهان هاما . الأول : تفجّل له داخل المهن إذ جعل بعض الاقتصاديين أو المشتغلين بالعلوم السياسية يدركون — وليسمح لنا بأن نقول ذلك — أنهم لا قبل لهم بحل مشاكلهم من دون مساعدة من المعارف الأخرى . ففي مشروع ما نهان ظل الطبيعيون النواويون معطلين إلى أن حلل الكيميائيون خواص قطعة دقيقة من البلوتانيوم . والوجه الثاني هو التنظيم الزاهن لأقسام الجامعات بحيث أصبحت تضم عدة معارف ، كقسم العلاقات الاجتماعية بجامعة هارفارد ، وللفرق المكلفة بمهام معينة ، كدراسات المناطق في المحيط الهادى . ومن أنفع ما يمكن أن يتصور فى المشاريع مشروع لجنة من العلماء البارزين تُوحّد فروض المعارف جميعاً أو تقتلع المتناقضات ، وتجعل الاستنتاجات مطابقة لزمنا . يجب أن تسلم هذه اللجنة بمكانس لإزالة الانقاض على الدوام ، متذكّرة ما قاله الدكتور او بنهايمر عن الطبيعية : « إننا نتعلم أن نطرح ما لا يناسب الحقيقة التى نحاول استجلاءها من أدوات العمل وأساليب الوصف . »

فى هذا التنظيم الكونى للبيت ستبقى مصالح ثابتة فى نظريات عديمة النفع مهما بلغ من احترامها ؟ سينفى عمليا كل ما يتعلق بالعلم الاجتماعى رقم ٣ وجانب كبير من العلم الاجتماعى رقم ٢ مع عبارات محدقة منمقة تعطل الاتصال أكثر مما تخدمه . والأمر إنما يحتاج إلى عبارات فنية كما هى الحال فى العلم الطبيعى ، بيد أن القياس ينبغى أن يكون العمل لا القوة للتأثير فى المنفرج البرى . وإن علم النفس خاصة لينتظره فى المعانى تنظيم عجيب .

« لم يكن القوادم الذين كسبوا الحرب للبريطانيين بل الأساندة . وقد كسبوها بالتعاون على تطبيق الطريقة العلمية على كل وجه من أوجه القتال . وقد عمل علماء

الحيوان والتناسليات والرياضيون وعلماء النفس والإنسان والطبيعيون والكيميائيون — عملوا معا في فرق وأن بدا هذا غريبا — ليحلوا مشا كل أثارها قاذفات القنابل والغواصات الألمانية ...^(١).

وهكذا أدبجت فرق من العلماء الاجتماعيين في فرق من العلماء لكسب معركة بريطانيا . وكان التوكيد قبل الحرب على طلبة التربية في الكليات أن يكونوا ذوي اقتدار ومهارة وتدقيق داخل أسوار عالية هي أسوار معرفتهم ؛ وكانت الفكرة : من يستطيع أن يهلك من . فإذا بالحرب تتطلب التعاون بين المعارف والقضاء على هذا التنافس في العرين الفكري . وقد وجد العلماء الاجتماعيون هذا عسيرا في بادئ الأمر بعد الذي شبوا عليه ، لكن معظمهم لم يلبث في النهاية أن آثر عمل الفرقة . ويقول جون و . جاردنر مشيرا إلى دراسات المناطق التي تقوم بها منظمة العلم الاجتماعي : « كلٌ خرج منها باحترام جديد لمقدرة الآخرين الخاصة » . وقد يسمح في وقت ما في المستقبل غير البعيد جداً لجماعة من الخريجين أن يقدموا موضوعا مشتركا . وعندئذ سوف نعرف أن « السعادة » قد حلت .

ونعود بهذا إلى فكرة أن الفرق لا تخرج لكسب الحروب فحسب ، بل ينبغي — وهو أهم من ذلك كثيرا — أن تخرج لدراسة حركية زمن السلم في حيثما يقع أمر هام من الوجهة الاجتماعية . ينبغي أن يكون المهندسون الاجتماعيون مستعدين لمغادرة مكاتبهم لدراسة إضراب كبير ، أو سماع لجنة النشاط غير الأمريكي في الكونغرس ، أو تحقيق كارثة في منجم ، أو طائفة من الجرائم الجنسية في ضاحية مدينة ، أو حضور جلسة حامية لجمعية الأمم في ليك سكسس . ينبغي أن يكونوا على استعداد للذهاب بالسرعة التي يذهب بها موظفو الصحة العامة حين يُبلغون عن ظهور طاعون دمل . بل لعل المهندسين الاجتماعيين يستطيعون أن يتوقعوا تجمهرا بين جنس من الأجناس كما ذكر عن رجال من جامعة شيكاغو .

(١) فالديمار كيمفرت في « أميركان سينتست » .

من هو عالمك الاجتماعي ؟

إنه حين يكمل يوما ما عمل العلماء الاجتماعيين ويصبح في الخزن في حالة مرضية، لن تفكر مصلحة حكومية، أو نقابة ضخمة، أو اتحاد وطني كبير، أو مشروع خيرى، أو زعيم قوى من زعماء الأمة، في اتخاذ قرارات هامة من دون استشارة العلماء الاجتماعيين، أو الرجوع إلى ما اكتشفوه . لحالات من قبيل عمل ليتون في بوسطن بدلا من أن تصبح فريده ستكون مثالا من أعمال غيرها .

ويختلف الإجراء القياسى اليوم لسوء الحظ اختلافاً كبيراً . فحين تتطور أزمة تتطلب اتخاذ قرارات — كاعتصاب فى منجم فحم أو أزمة أوربية — تنزع الصحافة والجمهور والكونجرس إلى عد هذا الاعتصاب أو هذه الأزمة شيئا مستقلا لا علاقة له بشيء آخر ولا أصول له فى الماضى ، حدث على غير انتظار بتاتا ونبت خطأ ، يتخذ فى شأنه قرار فى الحال ، ويؤخذ فيه البعض وينزل به العقاب سعيا وراء الإصلاح ، ويقوم الزعم بأن جون ل. لويس والروسيين هم الجناة . ولا حظ أن اللوم يوجه فى هذه الحالات إلى الروسيين أجمعين ، لا إلى ستالين وحده ، ولا إلى المكتب السياسى وحده ، بينما يلزم زعيم المعدنين وحده لا الستمائة ألف معدن « المضللين » .

هذا نموذج تكرر مرارا لا حصر لها منذ سقوط طروادة فى الراجح . ومع ذلك إذا عولجت الأزمة بمعاقبة أحد استفحلت فى العادة أو أجلت . والحقيقة أن شيئا لا يسوى بمثل هذه الأساليب التى كانت متبعة فى العصر الحجرى . ولعله ليس هناك جماعة من العلماء الاجتماعيين فى سنة ١٩٤٨ تملك من العلم ما يكفى لوقف أزمة أوربية ، أو تجنب الاعتصاب التالى فى منجم الفحم . لكن ثمت على التحقيق معرفة تكفى لإضافة خصائص أخرى كثيرة ، ولإجراء تحليل آخر أذكى كثيرا .

مسألة « القيم »

كان آخر سؤال في قائمة الأسئلة التي لم تظهر بجواب، والتي أوردناها من قبل، هو عن مكان أحكام القيم في العلم الاجتماعي. فلننظر ما عند الرئيس كونانت من جامعة هارفارد في هذا الموضوع، وما يقوله في نفس الخطاب الذي أشرنا إليه في الفصل السابق. إنه يلاحظ أن المفروض أن العلم محايد. لكن الطب ليس محايداً بالنسبة للمرض. فالعلوم الطبية تجهد في أن تفهم لكي تداوى. والفهم أو العملية العملية يجب أن تكون موضوعية بشكل شديد. غير أن الباعث والتطبيق أو العملية التي تجري بجانب سرير المريض تؤلف مساعدة تسدى إلى الإنسانية للمعذبة. « وهذه الفروض أساس لكل عمل في العلم الطبي... وأعتقد أن الموقف مشابه لمثله حين يتحرى العلماء سلوكاً بشرياً وعلاقات بشرية؛ غير أن التشابه لم يدرك بعد كل الإدراك. »

وطالما ميز العلماء الطبيعيون تمييزاً دقيقاً بين البحث والتطبيق، فإنه يجب على العلماء الاجتماعيين أن يفعلوا ذلك. وهو ما فعلوه في الحق في ثبات وإنصاف. وقد أحرز علماء الإنسان والأطباء الروحانيون تقدماتهم العظيمة في السنوات الأخيرة بتعمدهم الإحجام عن إصدار أحكام خلقية، بينما يجتهدون أن يلاحظوا ما يقع فعلاً بين ظهراني جماعة بدائية أو في مخيلة مريضة لمحبول.

ولا مفر من أن تؤثر القيم في اختيار المواضيع التي تحقق — كما اختار الدكتور كينزى أن يترك علم الحيوان ليدرس الجنس دراسات تعين على الجواب عن مسائل ملحة للشباب. لكنه ينبغي بعدئذ أن تنحى القيم أثناء عملية التحرى الموضوعية كما نحاها كينزى في حديث مثالي. وحين يحين الوقت لتطبيق المكتشف تعود الأحكام على القيم. ويمين ابيقراط مقصود بها الأطباء الذين يزاولون المهنة،

الذين يقدمون إلى المرضى العقاقير والأدوية ، والطرق التي رسمها علماء العمل في هدوئهم الموضوعي .

ويمكننا أن ننظر إلى مسألة الأخلاق من زاوية أخرى . فالفكرة الحضارية تذهب إلى حد إقرار ما يراه الفيلسوف وهو « أن تعرف كل شيء هو أن تفقر كل شيء . » وليس في العلم الاجتماعي أناس أurdباء ، أكثر مما كان في ذهن المسيح كما يصوره التاريخ . هناك أناس مرضى ينبغي أن يقصى بعضهم عن المجتمع حتى يصحوا . وهناك أناس ذوو مقدرة متفاوتة بيدون الجري المؤلف لتوزيع التواتر ، وفي أحد طرفيه الحكيم جداً ، وفي الطرف الآخر البليد جداً ، ومعظمنا يقع بينهما . وثانية أن الدافع المسيطر على العلماء الاجتماعيين كما قرأته فيما كتبوه منذ هيروشيما — ولعل الطبيعيين الذين قد احتشوه — هو أن ينشئوا أناساً عالمين يرتفعون فوق حضارتهم ، ويرون الأشياء في صورتها العالمية . أمثال هؤلاء الناس يمكن أن يكونوا ضد سكان المريخ ، أو ضد تحات الأرض ، أو التيفوس ، أو المباءات أو المجاعة — لكنه لن يسعهم أن يكونوا ضد الناس ، فهم يعودون بعد دورة كاملة إلى نوعهم .

وأخيراً هناك النقطة الهامة التي لم تؤكد كثيراً وهي أن العلم كما عرف يمكن متابعته بالطرق التي تهدف إلى أدق مظاهر السكال وحدها . فهذا هو النظام الوحيد الذي لا يسعك فيه أن تكذب حتى على نفسك ، لأنك إن فعلت أتلقت التجربة ؛ وغيرك لا يستطيع مراجعة نتائجك . إنك لا تستطيع أن تغالط أو تتسلل أو تفرق أو تستر أو تحرف الأرقام . إنك دائماً في الشمس خارجاً ، فليس ثمت ظل في أي مكان يضل الطبيعة البشرية . غلطة واحدة تلقى بك في ظلام خارجي لا رجعة منه .

وعلى الجملة إننى لا أرى أننا بحاجة إلى أن نهتم أكثر من اللازم بانتقاء « القيم » أو الاعتبارات الأخلاقية فى العلم الاجتماعى ؟ وستلقى بين الحين والحين فى صورة ما . فإن أحد الأساندة ، كما لاحظنا من قبل ، يدرس علم الإنسان الحضارى بوصفه « أخلاقاً » .

لقد كان هذا الكتاب محاولة باكرة أو لعلها متعجلة لجمع الوقائع ، وابتكار العلاقات ، وتسايط ضوء علمى على الدراسات التى تعالج الإنسان ، مجتهداً فى بلوغ معرفة يمكن أن يركن إليها . وقد كان مثل هذا الارتياذ قبل مشروع مانهاتن والأساليب التى نشأت خلال الحرب مما يصعب الاعتقاد بإمكانه .

ومن المهم أن يدرك العلماء الاجتماعيون دورهم الحيوى الجديد ، وأن يكرسوا أنفسهم بإخلاص كبير لمهمة جمع المزيد من المعرفة المحققة والأدوات الهندسية التى تزايد على الأيام حدة . فقد يتوقف مستقبل المدنية إن لم يكن مستقبل النوع الإنسانى على ما يستطيع إحرازه فى عشرات السنين القليلة المقبلة .

ولا يعنى مثل هذا التفانى أبحاثاً صادقة ونظريات محققة فحسب . فلنحصل على الكثير من الفروض ، ولكن لنسمها صراحة بأنها تمهيدية ؛ بل على بعض النظرات المحضة ، ولكن لنسمها بأنها نظر . فغن هذا الحماس العقلى قد تصدر فِكْرٌ خلاقٌ لدراسة موضوعية أخرى ، وقد تصدر عن الدراسة فِكْرٌ أخرى . ويلوح لى أنه ينبغى على العلماء الاجتماعيين أن يبشوا فكرة الجماعة رويداً رويداً ، ويشيعوها شيئاً فشيئاً بين العلماء الطبيعيين حيث الخبراء الحكماء المقتدرون فى مختلف الميادين مستعدون للحكم على مشروعات جديدة ورسم التجارب ، مستعدون فوق كل شئ لتكرار الملاحظة والتجربة لتحقيق نهائى .

إن جميع المسائل الكبرى التى يمتوئها التحليل الأخير فى أسنى مستوى تهبط إلى اثنتين هما :

كيف يستطيع المرء أن يتصلح مع الطبيعة ؟

كيف يستطيع أن يتصلح مع نوعه ؟

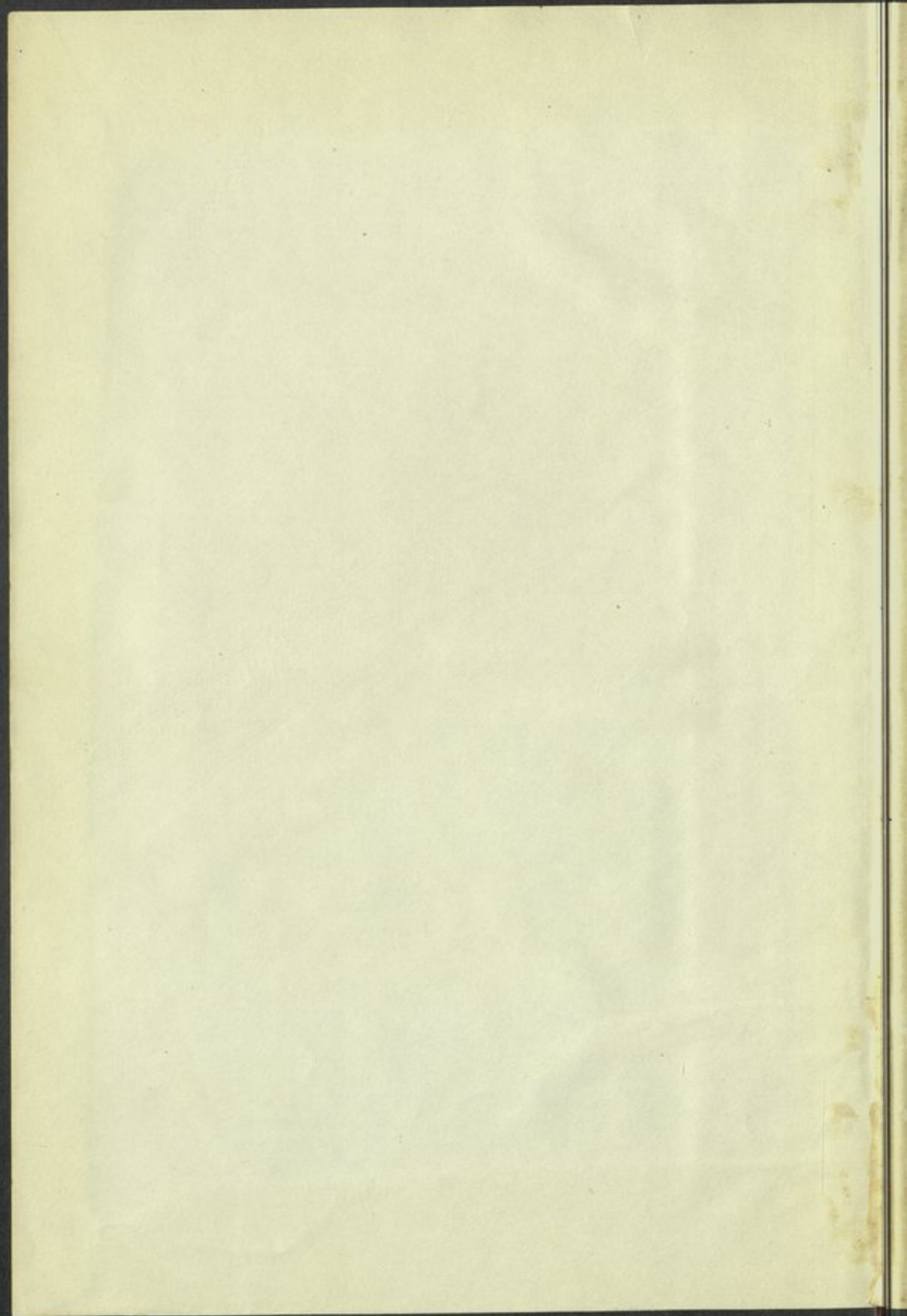
والعلم الاجتماعي معنىً أولاً بالأخيرة ، معنى بعض الشيء بالأولى . ويلوح لي أن هانين المسألتين من ذوات القيمة الأخلاقية ، على الأقل بمعنى خاص هام . هما أخلاق كوكبية فوق الأحكام والشرائع البوذية أو المسيحية أو الإسلامية . إنهما شيء يسع كل مخلوق بشري أن يوافق عليه .

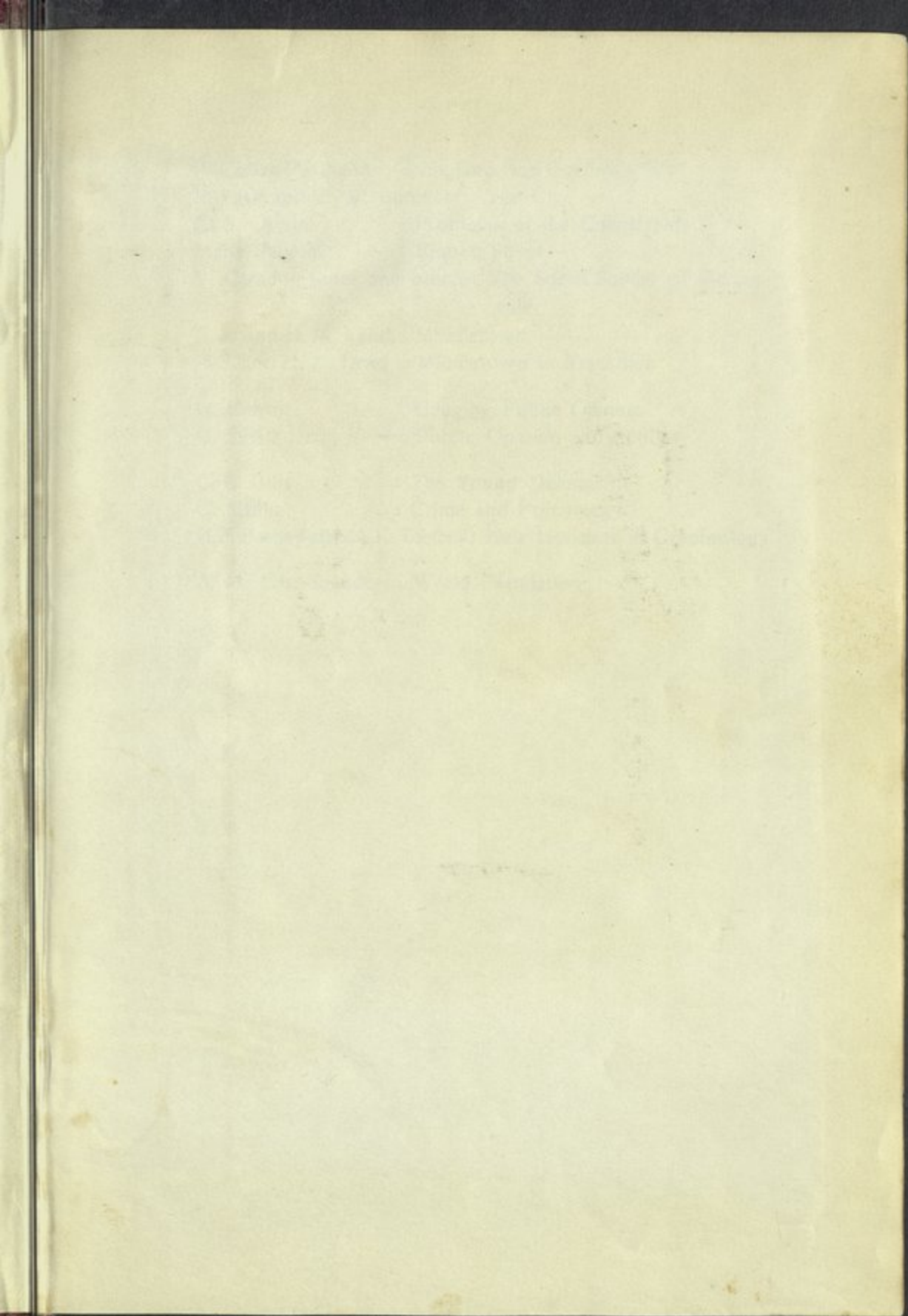
مراجع

إن القائمة التالية التي نسقها الناشر لا يقصد أن تكون شاملة ، فهي
فحسب تحتوى عدداً من الكتب نشرت في بريطانيا؛ نرجو أن يثبت نفعها
لأولئك القراء الراغبين في متابعة ما تناولته « الدراسة المثلى لنوع الإنسان » من
موضوعات . وبينما أنه من الضروري أن تكون جميع هذه الكتب مطبوعة فإن
معظمها لا بد أن يكون موجوداً في المكتبات وغيرها .

- | | |
|--------------------------|---|
| L. S. Stebbing | : A Modern Elementary Logic |
| Bertand Russell | : The Scientific Outlook |
| Ogden and Richards | : The Meaning of Meaning |
| Stuart Chase | : The Tyranny of Words |
| A. A. Goldenweiser | : Anthroplology |
| H. S. Jennings | : The Biological Basis of Human Nature |
| O. Klineberg | : Race Differences |
| J. Huxley & A. C. Haddon | : We Europeans |
| G. W. Allport | : Personality |
| S. S. Isacs | : Social Development in Young Children |
| B. Malinowski | : Crime and Custom in Savage Society |
| W. Mc Dougall | : Introduction to Social Psychology |
| M. Ginsberg | : The Psychology of Society |
| S. and B. Webb | : Methods of Socia Study |
| F. C. Bartlett | : The Study of Society |
| R. H. Tawney | : The Acquisitive Society |
| L. L. Whyte | : The Next Development in Man |
| T. Vebln | : The Theory of the Leisure Class |
| P. V. Young | : Scientific Social Survey and Research |
| A. Myrdal | : Nation and Family |
| E. Westermarck | : History of Human Marriage |
| C. S. Smythe | : Industrial Psycho ogy in Britain |
| M. A. Abrams | : The Condition of the British People |

- P. Cohen-Portheim : England, the Unknown Isle
R. Park and E. W. Burgess : The City
C. S. Orwin : Problems of the Countryside
Marie Paneth : Branch Street
V. Caradog-Jones and others : The Social Survey of Mersey-
side
R. S. and H. M. Lynd : Middletown
R. S. and H. M. Lynd : Middletown in Transition
H. Cantril : Gauging Public Opinion
C. S. Emden : Public Opinion and Politics
C. L. Burt : The Young Delinquent
C. Mullins : Crime and Psychology
H.E. Barnes and N. K. Teeters : New Horizons in Criminology
A. M. Carr-Saunders : World Population





تشييش، ستيوارت
الدراسة المثلى لنوع الانسان

AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES



01010744



AMERICAN
UNIVERSITY OF BEIRUT

